

تأليف الكاتب الروسي الشهير

الكونت الكسى تولستوى


3650

رواية

أهوال الاستبداد

تأليف الكاتب الروسي الشهير

الكونت الكسي تولستوي

رواية ضحايا الانتقام

تعريب

المرحوم الاستاذ طانيوس عبده

ستصدر هذه الرواية عما قريب

وتطلب من ملتزم نشرها

الياس انطون الياس

مطبوعات المطبعة العصرية بمصر

ص	الكتاب	
٧	القاموس العصري عربي وانكليزي	تأليف الياس انطون الياس
٥٠	« « انكليزي وعربي	« « « «
٥٠	« المدرسي « « وبالعكس «	« « « «
٢٠	قاموس الجيب عربي وانكليزي	« « « «
١٥	« « انكليزي وعربي	« « « «
٣٠	« « « « وبالعكس «	« « « «
١٠	النحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية	« « « «
١٢	الهدية السنية « « « والعربية	« « « «
٧	قاموس عربي وانكليزي (باللفظ)	تأليف سقراط سبيرو
١	القصص العصرية (٨٠ قصة مصورة)	ترجمة توفيق عبد الله
١٠	رواية تاييس مصورة (لاناتول فرانس)	ترجمة احمد الصاوي محمد
١٥	« الزنبقة الحمراء « (« «)	« « « «
٥	خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال)	ترجمة حسين الجمل
١	رسائل غرام جديدة (مزين بصور)	تأليف سليم عبد الاحد
١٠	الغربال ، بقلم مخائيل نعيمة	عضو الرابطة القلمية بأمريكا
٢٥	علم الاجتماع (الجزء الأول في حياة الهيئة الاجتماعية)	تأليف نقولا حداد
٢٥	« « (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية)	« « « «

تطلب هذه الكتب من كل المكاتب في مصر والسودان وفلسطين وسوريا والعراق ، او رأساً بالعنوان الآتي :—

الياس انطون الياس — صاحب المطبعة العصرية — الفجالة (صندوق البريد رقم ٩٥٤ بمصر

ص		
١٥	اسرار الحياة الزوجية	ترجمة الاستاذ نقولا حداد
١٥	الحب والزواج ، فلسفة وسنة	» » » »
٢٠	ملقى السبيل (في مذهب النشوء والارتقاء	الاستاذ اسماعيل مظهر
١٠	حصاد الهشيم (مصور)	للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
١٠	مختارات سلامه موسى	(تأليف الكاتب الاجتماعي الشهير)
١٠	نظرية التطور وأصل الانسان	تأليف الاستاذ سلامه موسى
١٠	اليوم والغد	» » » »
١٥	في أوقات الفراغ	تأليف الدكتور محمد بك حسين هيكل
١٠	عشرة أيام في السودان	» » » » » »
١٢	مراجعات ، في الادب والفنون	تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد
١٥	الدنيا في اميركا (به نحو ٤٠ صورة بديعة)	للاستاذ امير بقطر
٢٠	اناتول فرانس في مباذله	لصاحب العطوفة الامير
٢٥	» » » (ورق مخصوص)	شكيب ارسلان
٣	كتاب الحقوق الوطنية ، كتاب مدرسي	لفرنسيس ميخائيل
٢٠	روح الاشتراكية	تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر
١٠	الاراء والمعتقدات	» » » » » » »
١٠	فاتنة المهدي ، أو استعادة السودان	(نشرت تباعاً في الاهرام)
٨	رواية الانتقام العذب	ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر
٢٠	رواية باردليان (٣ اجزاء متوسطة الحجم)	ترجمة المرحوم طانيوس عبده
٢٠	رواية الاميرة فوستا (جزآن كبيران)	» » »
١٦	» كابيتان	» » » » »
١٤	» الساحر العظيم	» » » » »
٩	» فارس الملك	» » »
١٥	» فلمبرج	» » » » »
	» عروضة الاسود	» » »

ط		
٥	رواية روكامبول (في ١٧ جزء كل منها مستقل)	ترجمة المرحوم طانيوس عبده
١٠	التربية الاجتماعية	تأليف علي فكري
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)	تأليف خليل بيدس
١٠	الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لوبون)	ترجمة صادق رستم
٨	مقدمة الحضارات الأولى « «	« « « «
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات (مصور)	تأليف الدكتور فخري
٢٥	« « « (مجلد)	« « «
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها وطرق الوقاية منها	« « «
٨	التعليم والصحة	تأليف الدكتور محمد عبد الحميد
٥	مركز المرأة في شريعة حمورابي وموسى	تعريب الأستاذ سليم العقاد
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها	تأليف الأستاذ عبد الله حسين
٢	بول دي سويف الفاجرة	ترجمة توفيق عبد الله
٥	النفس الحائرة	تأليف الأستاذ فريد حبيش
١٥	مكايد الحب في قصور الملوك	ترجمة الأستاذ أسعد خليل داغر
١٠	رواية اهوال الاستبداد	ترجمة الأستاذ خليل بدس

مقدمة

وضع هذه الرواية الكاتب الروسي النابغ والشاعر الذائع الصيت الكونت ألكسي تولستوي ابن عم فيلسوف الروس العظيم الكونت لاون تولستوي

وهي من خيرة الروايات التاريخية الأدبية الغرامية ، العظيمة بموضوعها ، الجليلة بمغزاها ، لما تستبطنه من الحكمة والأدب ، وما تتضمنه من العبر والمواعظ في تثقيف الاخلاق وتنوير الاذهان وحث النفوس على الكمالات الانسانية

فانها تمثل للقارىء فظاعة الاستبداد والمستبدين وعاقبة الجور والعسف والظلم ، وغير ذلك من الفظائع والكبائر التي تعافها الانسانية وتنفر منها القلوب السليمة . وانها لتظهر ذلك كله بأجلى بيان وفي سلسلة من الحوادث الغريبة العجيبة التي لا يخرج القارىء من غريب منها الا الى أغرب وأعجب ، ولا ينتهي من عظة الا الى أبدع وأنفع ، ولا ينتقل من عبرة إلا الى أكبر وأروع

ومما يدل على شهرتها الطائرة في عالم الروايات أنها نقلت الى الفرنسوية والانكليزية والالمانية والايطالية والبولونية وغيرها من لغات اوربا ، وأصبح لها بين الروايات المشهورة في عالم الادب المقام الرفيع والمكانة السامية

ولقد تصرفت في تعريبها بزيادة واستنباط وتغيير وابدال وتبويب

لتكون ملائمة للذوق الشرقي ، فزدت مثلاً فصلاً عن مدينة « موسكو » وفصلاً آخر عن ملوك الروس ، وغيره في تاريخ الملك يوحنا الرابع أحد أبطال الرواية ، الى غير ذلك من الشرح والوصف الذي لا بد منه لتعريف القارىء العربي بأحوال الامة الروسية في اكثر أدوارها

ولم اغير فيها الاعلام لأنها كلها حقيقية ، والحوادث التي جرت لاصحابها واقعية لا ريب فيها . وهـذه الرواية ، لولا بعض الحوادث الغرامية فيها ، لكانت بجملتها تاريخاً مسهباً لكثير من الحوادث المهمة من أدوار دولة القياصرة ، فهي من هذه الجهة كتابُ تاريخ لعصر كامل من عصور هذه الدولة العظيمة ، وهي من الجهة الاخرى كتابُ أدب تراض به النفس على مكارم الاخلاق والعزّة والاباء ، وكتاب فكاهة تقطع به الاوقات على غير ملل

أما اسمها الحقيقي التي عرفت به في روسيا واوربا فهو « كنياز سيربرياني » أو « الامير سيربرياني » وهو الامير « نكيتا » أحد أبطالها بل بطلها الاكبر . وقد نشرتها سنة ١٩٠٩ ونفدت طبعتها منذ سنين عديده

ولما رأى حضرة الصديق الكريم الاستاذ الياس افندي انطون الياس أن يتولى تجديد طبعها ونشرها قدمتها اليه بسرور وامتنان ، ولكن بعد أن كتبتها من جديد ونسقتها تنسيقاً يختلف كل الاختلاف عن الصورة التي ظهرت بها في طبعتها الاولى ، وأنا أشكر مع الشاكرين همة الاستاذ الياس لما يبذله من الدأب وما ينفقه من المال في نشر المطبوعات المفيدة وابرازها في أحسن قالب ، وما يتوخاه في ذلك كله من خدمة العلم والادب

فعلت ذلك وبي من نفسي ما يحملني على الجبر بأن «أهوال الاستبداد»

هذه هي من الروايات القيمة التى يجب أن يحرص عليها ، ويتنافس بها ، ويعنى بنشرها ، ويقبل عليها الاقبال المظيم ، وتطالع بالتدبر والاستبصار ، وأنها من حيث الروعة والجمال والفائدة والكمال منقطعة النظير نادرة المثال

فعسى أن تقع عند جمهور القراء هذا الموقع من القبول والارتياح ، والله سبحانه ولي التوفيق ، وهو حسبي وعليه الاتكال ؟

خليل بيدس

القدس ٢٣ ايلول (سبتمبر) سنه ١٩٢٧

الفصل الاول

الامير نكيتا

على بعد نحو خمسة واربعين كيلو متراً من مدينة موسكو ، عاصمة الروس الشهيرة ، قرية يقال لها « قرية الدب » . وهي في بقعة جميلة ، تكتنفها السهول والغياض ، والمروج والرياض ، الحافلة بكل فتان ورائع من المناظر الطبيعية

ففي سنة خمس وستين وخمسمائة والف ، في الثالث والعشرين من شهر حزيران ، وهو اليوم الاول من حوادث هذه الرواية ، كان الامير « نكيتا سيربرياني » يسير في طريق هذه القرية ، تتبعه كوكبة من الفرسان ، وقد يتقدمهم راكباً جواداً كريماً مطهماً عليه سرج من الديباج الاحمر الثمين

وكان هذا الامير قد قضى الى ذلك العهد خمس سنوات في بلاد « لتفا » الواقعة على التخوم الشمالية من روسيا . وكان الملك يوحنا الرابع الروسي قد أوفده في ذلك الحين على رأس سفارة الى « جيغموند » ملك لتفا لابرام معاهدة الصلح ، على اثر الحرب التي كانت مضطرمة بين البلدين وسفكت فيها دماء الالوف من الفريقين مدة طويلة

غير أن نكيتا لم يكن من رجال السياسة ، ولم يكن طبعه ليحتمل روغان السياسيين وتفننهم في اساليب الدهاء والحيلة ، وكان يؤثر الصدق في القول والاخلاص في العمل ، لا يظهر خلاف ما يبطن ، وهو يريد أن يقابله بمثل ذلك كل انسان



الملك ميخائيل رومانوف

أول قياصرة الروس من اسرة رومانوف

(١٦١٣ — ١٦٤٥)

ورأى رجال الملك جيثموند فيه هـذه الصفات ، فعدوها سذاجة ، وأضمروا أن يتوسلوا بها لينالوا الشروط التي توافقهم . فكانوا كلما اتفقوا على شيء من الشروط ، نقضوه وحاولوا تبديله وتغييره ، وكان الامير كلما تساهل في شيء طمعوا في غيره او طلبوا المزيد . . . وما زالوا بين أبرام



الامبراطور نقولا الثاني

آخر قياصرة الروس من أسرة رومانوف

(١٨٩٤ — ١٩١٨)

ونقض وتغيير وتبديل ، حتى ضاق الامير ذرعاً بالامر، فأعلن عدم رضاه ، ونقض في لحظة ما كان الفريقان قد وضعاه في أيام واسابيع ، وقطع المفاوضة . وعادت الحرب فنشبت من جديد بين روسيا ولتفا ، — وهي لم تضع أوزارها الا بعد خمس سنوات

وقد خشي نكيتا أن يكون اخفاقه في ابرام المعاهدة سبباً لتغير الملك يوحنا عليه وعدم رضاه عنه . غير أن الامر كان بعكس ما زعم ، لان يوحنا قابل خطته بالارتياح والسرور ، وأثنى على همته وحزمه ، وقد عينه قائداً للجيش وأطلق يده في العمل بما ترشده اليه بصيرته

فنهض نكيتا بما فوض اليه أتم نهوض . وكان له قلب لا يهاب المنية وساعد لا يوهنه طوق الجلاد ، فخاض المعامع وأبلى فيها بلاء حسناً ، وقاد الجيش بحصافة عقل وحسن رأي ، فرافق النصر اعلامه وأحاط الفوز بركابه . وقد تقهقر امامه جنود الملك جيغموند في أكثر المعارك ، فلم تقم لهم قائمة . وانتهت الحرب بانتصار الروس ، فأملى نكيتا على حكومة لتفا شروط الصلح ثم عاد الى بلاده وكله آمال

وكان هذا الامير طويل القامة جميل الصورة شائق الطلعة ، له من العمر خمس وعشرون سنة ، تبدو عليه سيماء العظمة وجلالة الشأن ، وينبىء منظره بعلو الهمة وثبات العزيمة والاقدام

وكان كلفاً بالاسفار . [illegible] الى وطنه [illegible] وقع في قلبه وأدعى لسروره . فقد كان مشتاقاً الى هذا الوطن ، يحن منذ زمان الى الرجوع اليه . ولكنه كان في الوقت نفسه مخلصاً للملك يوحنا ، أميناً في حبه له . فلو أمره الملك ، وهو في طريقه هذه وقد كاد يصل الى موسكو ، أن يعود الى حيث كان ويستأنف القتال ، لثنى عنان جواده في الحال ، وعاد ادراجه بلا تذمر أو شكوى ، وعاد الى جهاده [illegible] المعهود

وكان كجميع معاصريه من الامة الروسية يحب الملك كأب له

و ينظر الى الملك كالى نائب الله في هذه الارض ، — مهما كانت صفات هذا الملك وأخلاقه ، ومهما صدر منه ، من خير او شرّ

وقد أحبّ الروسيون قاطبة يوحنا الرابع حباً يقرب من العبادة ، لان عهده في نظرهم كان أسعد عهد ، بل هو العهد الذهبي الذي اتحدت فيه البلاد وأصبحت كلها مملكة واحدة واسعة الارجاء ، بعد ان كانت أمارات كثيرة متقاطعة متدابرة ، لا حول لها ولا قوة . .

وكان النهار جميلاً والسماء نقية ، وقد ارتدت الطبيعة كلها رداء العيد ، فلم يكن فيها الا كل ما يروق البصر و يأخذ بمجامع القلب ويدفع النفس الى المذيذ والتأمل في ما أبدعه الحكيم المنان

غير ان نكيتا لم يلبث ان بدلت اماثر السرور التي كانت ظاهرة في وجهه ، وغلب عليه التأمل والوجوم ، وأخذ يسير منفرداً وقد غاص في بحر التأملات . ولم يكن شيء من تلك المشاهد الطبيعية ليستميل بصره ، ولم تك تلك المحاسن والبدائع لتشغل عقله ، فلم يله بشيء من ذلك ، وظلت الافكار تتجاذبه والهواجس تتقسمه ، وهو لا يفيق منها الا ليعود اليها ، وكان يقطب تارة و يبتسم تارة اخرى ، كأنه ينظر الى ما خبأه له المقدور في مطاوي الايام . .

ثم تنهد وفاض صدره بشيء مما كان يناجي به نفسه فقال : لم يبق الى العاصمة الا مسافة قصيرة ، سأطويها بالعجل ، وأطير الى من وقفت عليها جميع عواطفي وأحللتها من قلبي في شغافه . . لكن ترى ، هل تحقق الايام هذه الامنية ، فأرى الحبيبة بعد هذا الفراق الطويل حريصة على العهد تتوقع قدومي ؟ . . أو لم يجر في غيبتي ما قطع تلك العرى وحل تلك المواثيق

التي ارتبطنا بها؟ . . أهيلانة يا فاتنتي !. .لو علمتِ بما يخامر قلبي من الجوى وما أعانيه من الأسى وفرط الشجن ، لرأيتِ قلباً يتلظى على نار الغضا ، وصباً ضاق به الفضا ، وهو لا يدري اين المصير . . .

وما زال في مثل هذه التأملات ، الى ان بلغ برجاله قرية الدب

الفصل الثاني

قرية الدب

وكان الامير بحال وصوله الى بعض اطراف القرية قد سمع اصوات غناء ، ثم رأى جماهير غفيرة من أهل القرية يؤمون ساحة كبيرة فيها . وكان الفتيان منهم والفتيات قد انتظموا حلقتين واخذوا في الرقص والغناء ، ومن حولهم الشيوخ وجمهور من الرجال والنساء والاولاد يشاركونهم في طربهم ، وقد ارتدى الجميع الملابس الزاهية وبدت عليهم علائم البشر

وكان نكيتا ، حالما وطئت قدماه ارض القرية وسمع ذلك الغناء الشجي ، قد شعر بانه اصبح في وطنه ، وكانت هواجسه قد تبددت وعاد السرور فأفعم قلبه ، فابتسم وطابت نفسه وشعر بارتياح الى هذا المشهد

وكان خادمه الخاص ، وكان اسمه ميخيش وهو قديم العهد في خدمته وكان قد خدم أباه من قبله ، ادرك ما يجول في صدر سيده ، وكان هو قد جهده التعب ، فتقدم اليه وقال — ان اهل القرية في طرب كما ترى ، واليوم عيد من اعيادهم الوطنية ، فهل تأمر يا سيدي بالنزول هنا لنأخذ نصيباً من الراحة لنا ولخيولنا ، ثم نستأنف السير بعد أن نكون قد استمددنا نشاطنا وقوتنا ؟

قال — ولكننا غير بعيدين عن موسكو

قال — نعم ، اذا سرنا الليل كله . . غير أن الخيول قد تعبت ، وتعب فرسانها أيضاً ، فلا غنى لنا عن الراحة بعض الوقت

قال — لا بأس ، فافعل ما يتراءى لك

فأشار ميخيش، فترجل الفرسان وربطوا خيولهم الى بعض الاشجار القريبة واخذوا في الاستعداد لاعداد الطعام . وكانوا كلهم يحبون ميخيش ويحترمونه ، والامير نفسه كان يحبه ويحترم رأيه وينقاد الى نصائحه ويكل الى عهدته اكثر شؤونه . .

ورأى اهل القرية الامير وفرسانه فكفوا عن الرقص والغناء وظهرت عليهم الحيرة . وكان الامير قد دنا منهم وقال — اننا لم ندخل قريتكم لنعكر عليكم صفاءكم ، فغنوا واطربوا ولا يهمكم امرنا

فقال له شيخ منهم ، وقد أدرك أنه من كبار النبلاء — اذا كان في ذلك سرورك يا سيدي فتفضل اجلس بيننا فنقدم لك ولرجالك ما لعلكم تكونون في حاجة اليه من الطعام والشراب

وقال له آخر — واننا لا نكتمك أن فتياننا وفتياتنا ما رأوكم مقبلين حتى أوجسوا خوفاً شديداً وكادوا يلوذون بالفرار من وجهكم ، لانهم حسبوكم من « رجال الحرس » . ولم تطمئن خواطرهم ويهدأ روعهم الا لانهم لم يروا معكم العلامة المختصة بأولئك القوم

وقال غيره — ولا يعلم الا الله يا سيدي ما ذقناه وذاقه غيرنا من المرارة والبلاء من رجال الحرس هؤلاء ، حتى بتنا نتوقع شرهم كل يوم بل كل ساعة . فاننا لا نأكل ولا نشرب ولا نطرب الا وأشباح اولئك الرجال تهددنا ،

فتنغص علينا كل سرور وتعكر كل صفاء . . فلا تتعجب بعد هذا اذا رأيت فتياننا قد ذعروا حين أبصروكم وتحفزوا للفرار

وكان الامير قد جلس بين القوم وهو يسمع كلامهم ويتعجب لأنه لم يكن قبل اليوم قد عرف شيئاً عن « رجال الحرس » فقال — ولكن من هم هؤلاء الرجال الذين تحدثوني بأمرهم ؟

فقال احد الشيوخ — ولا نحن نعرف شيئاً من امرهم . . يدّعون انهم رجال الملك ، وهم لا عمل لهم الا ما ذكرنا

وقال آخر — ويدّعون أن الملك نفسه أمرهم بذلك . . فهم ان جالوا في البلاد ينهبون الاموال ويسبون النساء والاولاد ، فانما يفعلون ذلك كله بامر الملك وتدبيره

فازداد الامير ذهولاً وقال — وهل بلغ من حمقكم انتم ان تصدقوا امثال هذه الترهات ؟ فكيف تستسلمون لهم صاغرين ؟ ولِمَ لمْ تطردوهم وترفعوا امرهم الى القضاء ؟

فابتسم احد الشيوخ وقال — يلوح لنا يا سيدي انك آت من بلاد نائية ؛ والا لما خفي عليك أمر هؤلاء الحرس [illegible] الاسماع ولم يخف على الكبير والصغير ، حتى الطفل في مهده والراهب في صومعته . . فمن يجرأ ان يقف في وجه هؤلاء العتاة السفاحين ولا يؤدي لهم الطاعة والخضوع ؟ او من يجسر أن يناوئهم ويناقشهم الحساب ، وهم يستبيحون كل ما حرمه الله والقانون ، لا يخشون قضاء ولا يرهبون شريعة

وقال آخر — وقد جاءت شرذمة منهم من عهد [illegible] الى قريتنا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] . . ثم هجموا على منزل شيخ القرية

الاكبر ، ولم يكن هو اذ ذاك في المنزل ، فطلبوا من زوجته كل ما كان لديها من المال والشراب ، ثم ذبحوها كما تذبح الاغنام وهموا بالانصراف ، واذا بزوجها قد حضر ، وقد هاج هائجه حين رأى زوجته جثة هامدة ، فما كان منهم الا ان طعنه احدهم بحسامه فأرداه قتيلاً الى جانب زوجته ، ثم أحرقوا المنزل وانصرفوا بلا اقل مبالاة كأنه لم يكن شيء

فزاد ذلك في غيظ الامير وقد صعد الدم الى رأسه فضرب الارض برجله وقال — وكيف بلغ من هؤلاء الائمة ان يجتاحوا عباد الله حتى في ارباض العاصمة ؟ . . وأشد ما يذهلني انكم صدقتم اقاويلهم ولم تنهضوا لتأديبهم

قال — ولكن لا قبل لنا بذلك لانهم رجال الملك ، وقد تحققنا الامر من العلامة التي يتسمون بها ، وهي مكنسة ورأس كلب من المعدن يحملونها على سروج جيادهم اشارة الى انهم يبغون ان يكنسوا من البلاد كل مؤامرة ضد الملك وينهشوا اعداءه نهشاً

فأطرق الامير هنيهة وقد قدحت عيناه شراراً وأضمر ان ينبيء الملك بكل ما سمعه من هذه الغرائب والفضائح

وكان القوم قد عادوا الى الرقص والغناء ، وهم يمثلون عرساً تارة ومأدبة تارة اخرى . وبينما هم في هرجهم وسرورهم ، ونكيتا مطرق يتأمل ، اذ به يسمع بغتة صوتاً ضعيفاً يستغيث ، وما هي الا لحظة حتى رأى فتى يسيل الدم من اطرافه ، وكان يعدو الى جهة الراقصين ويصيح بملء صوته فأقبل عليه القوم يسألونه ، فقال بصوت تخنقه العبرات — بينما كنت أرعى الغنم مع شقيقتي واذا بهم . . . قد هجموا علينا ، ولا ندري كيف ومن اين ، وأخذوا ينحرون الاغنام ، وقد اختطفوا شقيقتي ؛ وسلمت انا بأعجوبة . .

وما كاد يفرغ من كلامه حتى قاطعته اصوات اخرى . فان نساء كثيرات هرعن من اطراف القرية وهن يولولن قائلات – يا للفادحة العظيمة !.. يا للداهية الشديدة !.. أحجبوا البنات .. فان رجال الحرس قادمون الى هنا وقد اخذوا دونكا وحنة ، وقتلوا اولغا وماريا .. و... و..

فنظر الامير فرأى عن بعد فرقة من الفرسان لا يقل عددهم عن الخمسين وقد امتشقوا السيوف وساروا جهة القرية ، وفي طليعتهم شاب حسن اللباس نيط بسرج جواده مكنسة ورأس كلب ، وهو يسير بأنفة وخيلاء ويخاطب من وقت الى آخر الفرسان الذين معه قائلاً بصوت جهوري -- انحروا المواشي! امسكوا الفتيات !.. اجلدوا الفلاحين ! وأذيقوا شيوخهم مر العذاب !.. ثم احرقوا القرية ولا تشفقوا على احد !..

وكان اهل القرية قد سمعوا ذلك فهلعت قلوبهم وأيقنوا بالويل العظيم وقد كبر عليهم الامر

رأى الامير بعينيه وسمع بأذنيه ذلك كله ، فأشار الى الناس ان يتفرقوا الى منازلهم ، ثم تاه فانطلق [illegible] رجال الحرس ويتأهبون لدفع عاديتهم

وكان الحرس قد وصلوا الى ساحة القرية ، فلم يروا الا شيخاً طاعناً في السن كان لا يزال في بعض اطرافها وقد خانته رجلاه عن الفرار والاختفاء فنادى زعيم الحرس قائلاً -- قد سمعت من بعيد اصوات غناء وطرب هنا .. فاين الفتيات اللاتي كن يغنين ويلعبن ؟

[illegible] سؤالاً ، ووقف وهو يرتجف من شدة الهلع . فانتفض

عليه الزعيم يضربه بسوط كان في يده ويقول — يظهر انك بلا لسان ايها الاحمق .. فيجب ان ينالك العقاب الذي تستحقه ! ..

ثم أومأ الى بعض رجاله ، فوضعوا في عنق الشيخ حبلاً وجروه الى شجرة قريبة يريدون أن يشنقوه عليها . وكان المسكين يصيح ويستغيث ولا من مجيب . غير أنه ما كاد يصل الى الشجرة ويبادر الحرس الى عملهم حتى فوجئوا بطلقات نارية متوالية ، تلاها هجوم عشرة من اشداء رجال القرية ، وفي أثرهم فرسان الامير نكيتا شاهرين سيوفهم ، وقد صاحوا برجال الحرس صيحة تزعزع الجبال

الفصل الثالث

رجال الحرس

لم يكن رجال الحرس يتوقعون مثل هذه الفاجأة ، ولم يكن ليخطر في باسم أن احداً يجترىء على مقاومتهم أو اعتراضهم في ما يفعلون . ولذا فلما رأوا فرسان الامير قد أطبقوا عليهم من كل جانب وهم يتوعدونهم بكل ويل ، وقع ذلك عليهم وقوع الصاعقة وأُسقط في ايديهم

وكان رجال الامير خمسة وعشرين ، ولكنهم باغتوا رجال الحرس مباغتة ، وقد انقضوا عليهم كالبواشق وسدوا في وجوههم كل سبيل . وكانت معركة دموية قتل فيها أكثر من نصف رجال الحرس واعتقل الباقون . وكان نكيتا في اثناء هذه المعركة قد التقى بزعيم الحرس فعاجله بضربة كادت تكون القاضية ، فسقط عن جواده ، وترجل الامير في الحال وقال — من تكون ايها الرجل ؟

فنظر اليه الزعيم بشراسة وقد قدحت عيناه شرراً وقال – وانت من تكون حتى تجسر على اهانة رجال الملك وتفعل ما فعلت ؟

وكان السيف لا يزال مصلتاً في يد الامير ، فكاد يجهز عليه به لو لم تعجبه شجاعته



{ فارسان }

وعدم جبنه وهو في هذه الحالة ، فامر بعض رجاله فشدوا وثاقه ، ووقف هو يتأمل مستغرباً

وانه لكذلك واذا بخادمه ميخيش قد أقبل يحمل مكنسة ورأس كلب ، فتقدم اليه وقال وهو يضحك مقهقهاً – قد وجدتهما يا مولاي معلقين على سرج جواد هذا اللص (واشار الى زعيم الحرس)

ثم اقبل على الاثر بعض فرسانه يقودون جوادين كانا موثقاً على سرجيهما رجلان يظهر من زيهما انهما من القوزاق ، وكان احدهما شيخاً بلحية كبيرة ، والآخر فتى في عنفوان الشباب ذا عينين سوداوين حادتين

فالتفت الامير الى رجاله قائلاً — ومن هذان الرجلان؟ولماذا اعتقلتموهما على هذه الصورة ؟

فقالوا — لم نعتقلهما نحن ايها الامير ، ولكننا وجدناهما كما ترى في طرف هذه البقعة وكان بعض رجال الحرس قائمين على حراستهما فتولينا انقاذهما منهم وقدناهما اليك

قال — حلوا اذاً منهما الوثاق وأطلقوا سراحهما

بيد أن الاسيرين لم يبرحا المكان ، ولبثا بعد أن شعرا بالحرية واقفين وأبصارهما شاخصة الى رجال الحرس كأنهما يودان أن يريا ما يكون من امرهم وما تكون نتيجة هذه الحادثة

وكان الامير قد تحول بنظره الى رجال الحرس وقال — والان ، افلا تطلعوني على سركم وتنبئوني بجلية امركم ؟ وكيف دعوتم انفسكم رجال الملك ولستم في الحقيقة الا لصوصاً أثمة ؟

فأجابه واحد من الحرس — ان سؤالك ليذهلنا . . أفلم تدر بعد من نكون ؟

وقال آخر — فهل هبطت من السماء حتى انك لم تعرف رجال الحرس؟ ومن من الروسيين قاطبة لم يعرف أننا رجال الملك وأننا اخصاؤه واعوانه ؟

وقال الزعيم — نعم ، وهكذا يخيل الي . . انه هبط من السماء او خرج من الجحيم . . والا لما جهلنا وغرر بنفسه هذا التغرير الذي سيفضي به الى الاعدام لا محالة

فازداد ذهول الامير حين سمع كلام هذا الفتى الجريء وقال له —

ولكن اعلم يا هذا ان للصبر حداً . . فاذا بقيت مصراً على عدم التصريح باسمك فما جزاؤك الا الشنق حالاً

فحدجه الزعيم بنظرة خيلاء وقال — انا «متي خومياك احد» رجال النبيل مليوتا سكوراتوف ، أخدم سيدي بامانة وابذل مهجتي في سبيل رضى الملك . ولقد شرفني الملك بان جعلني واحداً من زعماء حرسه الخاص وأطلق ايدينا في الضرب على ايدي العصاة المتمردين على جلالته واستئصال شأفتهم من البلاد .. هذا هو اسمي عرفتك به وانا أرجو ان تعرفني انت ايضاً باسمك لاذكرك حين الحاجة ، اذ لا بد من استدعائك غداً او بعد غد ومعاقبتك على ما جنته يداك

فاستشاط نكيتا غضباً وأمر رجاله فبادروا الى زعيم الحرس ووضعوا حبلاً في عنقه يريدون جره الى الشجرة التي اراد هو ان يشنق عليها الشيخ القروي . غير ان صغير الاسيرين قد حال دون انفاذ هذا الامر ، وتقدم الى الامير فقال — لا تفعل ذلك يا سيدي ، لانك لا تدرى ما يجرى في البلاد الان . . ويلوح لي انك قادم من [illegible]

تعلم بالذي جرى في هذه المدة من [illegible]

وعليه ، فاذا كنت راغباً في الحياة طويلاً [illegible]

[illegible] بل حباً بحياتك انت [illegible] هذا [illegible] الحرس

من النكبات والويلات . . [illegible] بنا نحن [illegible] في ذروة

[illegible] ، ونحن [illegible] الا

[illegible]

وكان نكيتنا مطرقاً يتأمل ، وقد أدهشه هـذا التحذير ولم يشك في صدق قائله واخلاصه. وقدلاح له ايضاً ان هذا الاسير قد اعتاد الامر والنهي وانه قد يكون زعيماً لفرقة من القوزاق او لعصابة من اللصوص ، فقال له — ولكن كيف تلتمس العفو عن هؤلاء الاوغاد بعد الذي قاسيته منهم من مضض الاسر والبلوى ؟

قال — أفعل ذلك امامي بالامر . والك بحال وصولك الى موسكو ووقوفك على ما هنالك من الغرائب لا تندم على اطلاق سراح هؤلاء . . وهبك قبضت عليهم الان ، كما قبضت على رفقائهم في هذه المركة ، أفي مأمن انت من غيرهم ؟ وهل تزعم ان رجال الحرس هذه الشرذمة فقط ؟ كلا ايها الامير ، فانهم كثيرو العدد وقد استشرى شرهم واشتدت شوكتهم حتى عمت بهم البلوى ولم يسلم من أذاهم أحد

كان نكيتنا قد سكن هياجه وشعر بارتياح الى كلام الرجل و تأمل بصدده [illegible] هؤلاء وشأنهم بعد ان يجردهم من سلاحهم.. وكانت لا تزال فيه بقية امل بان الملك وكبار رجال الامن والضبط في العاصمة سيتلافون هذه الفضائح ويكبحون جماح هؤلاء ، ولم يكن قد صدق كل ما سمعه عن ارتياح الملك الى هذه الجرائم والموبقات التي تقوم بها رجال الحرس باسمه ، فأرجأ الامر الى ان تنجلي له الحقيقة بتمامها

وبينما هو في هذه التأملات دنا منه ميخيس وقال — لقد اصاب هذا الرجل الاسير في التماس العفو عن هؤلاء الاشقياء ولكني أسألك ان تأذن لنا قبل اطلاق سراحهم ان نجلد كلاً منهم خمسين سوطاً ليكون ذلك درساً مفيداً لهم في المستقبل

فلم يفه الامير ببنت شفة ، بل ظل غارقاً في تأملاته يسمع وكأنه لا يفهم . وظن ميخيش انه موافق على ما طلب ، فاقتاد رجال الحرس ناحية وجلدهم بمساعدة رفقائه واحداً واحداً ، ثم عاد يمشي الهوينا ، والسكينة بادية على وجهه ويداه وراء ظهره ، كرجل فارغ البال راض عما صنع . واذ رآه نكيتا على هذه الحالة لم يتمالك من الضحك رغماً عما به من تلاطم الافكار

ثم نهض فأمر رجاله بالاحتفاظ برجال الحرس الى الصباح وان يوافوه هم في الغد الى موسكو . وقد عزم على ان يخرج من قرية الدب وليس معه من رجاله الا ميخيش . غير ان الرجلين الغريبين استوقفاه وقالا — ونحن ننضم اليك ايها الامير اذا أذنت ، ليس لاننا نخشى عليك مكروهاً ، بل لان وجهتنا واحدة

قال — لا بأس ، فهيا بنا

الفصل الرابع

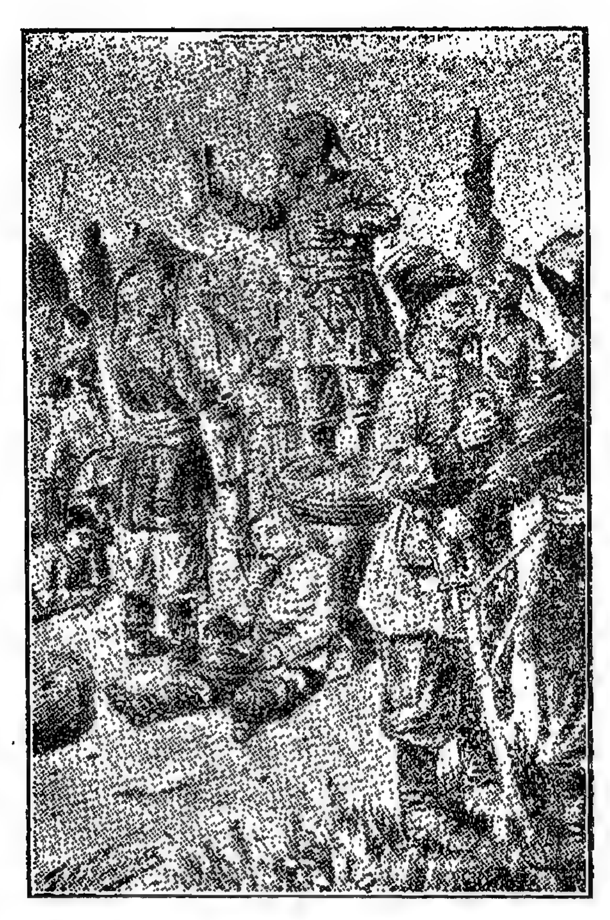
في الطريق

كان ميخيش يحاول أن يعرف شيئاً من احوال الرجلين الغريبين اللذين أعاد لهما سيده حريتهما ورافقاهما في خروجهما من قرية الدب ، وقد بذل جهده ليسبر غورهما ، فلم يفلح ، لانهما كانا شديدي الكتمان قليلي الكلام . وكانا يسيران احدهما الى جانب الاخر ، ويتكلمان حيناً بعد آخر بلغة ورموز لم يفهم ميخيش منها شيئاً

وكان الليل قد أقبل ، فدنا ميخيش من الامير وقال همساً — لقـد

فعلنا حسناً باصطحاب هذين الرجلين في مثل هذه الطريق المقفرة وهذا الليل المدلهم ، غير اني أرى أن نكون منهما على حذر، لانهما قد يكونان من اللصوص أو قطاع الطرق أو المجرمين .

فقال الامير وهو يظهر عدم المبالاة — دعهما وشأنهما، ولاتخش سوءاً ، فقد يكونان أوفى الناس لنا بعد حادثة القرية ، وقد يدافعان عنا أجمل دفاع وربما بذلا ارواحهما في خدمتنا ، اذا اتفق وقابلنا بعض شراذم الحرس في الطريق



﴿ جماعة من القوزاق ﴾

وكان الظلام قد اشتد ، فلم ير الركب على جانبي الطريق الا اشجار الغابة التي كانوا يسيرون فيها ، ولم يسمعوا غير صوت وقع حوافر خيولهم ، وكان الصدى يردده ، فيخيل اليهم احياناً أن فرساناً آخرين قادمون ، ثم لا يلبثون أن يردهم الانتباه الى الحقيقة

وكان نكيتا يسير في طليعة الركب وقد ارتاح الى السكينة فاطلق لافكاره العنان

وميخيش يسير في اثره ، وقد أخذ ايضا الى السكوت وشخصت عيناه الى كل جهة كأنه يتوقع محذوراً

والرجلان الغريبان يسيران في اثر ميخيش ، وهما يتساران تارة ، ويمسكان عن الكلام تارة اخرى . الى أن رفع احدهما صوته بالغناء ، فأنشد اغنية وطنية شجية كان لها وقع في نفس الامير ، لانها ذكرته بحوادث الماضي ، يوم هم أن يخرج من موسكو الى ساحات القتال في بلاد التتار ، وقد جتمع بحبيبته هيلانة قبيل السفر وسمع صوتها العذب حين خرجت تشيعه وتوصيه بنفسه خيراً وتقول : « سر ايها الحبيب على بركات الرحمن ولا تنس سوءاً لاني مرافقتك بدعائي وصلواتي . . وكن واثقاً بحبي ووفائي ، فلن توجد قوة بشرية تستطيع أن تسلب من قلبي حبك . . وما أمنيتي الآن الا ان تعود الي غانماً منتصراً ، لاضفر على رأسك بيدي ، اكاليل الغار والمجد . . »

وظل الرجل يغني . . وقد انتقل الى وصف سهول روسيا الواسعة وغاباتها الكثيرة وانهارها العظيمة وحياة البطولة والفروسية والحرية . وكان صوته يشتد حيناً وينخفض حيناً [illegible] في اعماق النفس

وكان الامير قد سره هذا الغناء ، ولكنه ظل مستغرق الافكار شارد [illegible] ، ممعناً في التأمل والخيال

وبينا هو كذلك اذا به قد سمع بغتة صوت جلبة ، وفي الحال برز لهما [illegible] رجال يحيط بهم . فضرب بيده الى سيفه ، فلم يمكنه اولئك الرجال من [illegible] بل أطبقوا عليه ، واخذوا بزمام جواده ، وفعلوا مثل ذلك بميخيش

[illegible] يسير خلفهما [illegible] ، ولكنهما [illegible]

جواديهما وهجما كالبرق الخاطف وقد سلا السيوف وهما يصيحان : خسئتم ايها الانذال ! . . اننا لنذيقنكم الموت الزؤام ! . .

ولكنهما ما كادا يتمان هذا الكلام حتى قهقه احد الفرسان المحدقين بالامير ثم تبعه رفقاؤه ، وقد علا منهم ضجيج السرور

وما وصل رفيقا الامير حتى قابلهما الفرسان بالتحية والهتاف ، ثم ترجل الجميع واخذوا يعانقون بعضهم بعضاً ، ونكيتا واقف ينظر اليهم مستغرباً وقد ادرك انهم عصابة واحدة . ولم يطل وقوفه وهو في حيرته تلك حتى اقبل صغير رفيقيه وقال — عفواً ايها الامير ! . . فقد أساء اليك رفقاؤنا وهم لا يدرون من امرنا شيئاً ، ولما بلغهم امر اسرنا انتشروا في البراري يتنسمون اخبارنا ويكمنون لرجال الحرس في كل مكان ، وقد ظنوك واحداً منهم

ولما فرغ اقبل رفقاؤه يحيون الامير ويشكرون له فضله في انقاذ رفيقيهم من ايدي رجال الحرس ثم قالوا — و[illegible] ايها الامير قد آلينا أن نقتص كل من [illegible] الكثيرة التي حلت بالبلاد منهم ، وقد تعاهدنا مع جميع رجال عصابتنا على الانتقام الى ما شاء الله

ثم صاحوا كلهم : « ليبح رجال الحرس عن وجه الارض ، وليبت مريدوهم ! . . » وكرروا هذا الكلام ثلاثاً بصوت واحد ، فكان له في تلك الغابة صدى بعيد عقبه سكوت شديد

وساروا بعد ذلك والامير في اشد الاستغراب من هؤلاء القوم ، وقد غاب عن ظنه انهم من القوزاق ، وانهم فرقة كبيرة قامت تناوىء فرقة رجال الحرس التي تناصب الملك ، وان نار الحرب بين الفريقين ستزيدها الايام تمرداً الى آن يفنى احدهما او يفنيا معاً

وبينما هو يناجي نفسه بهذا ومثله آنس نوراً عن بعد ، فسأل الجماعة عنه ، فقال له صغير رفيقيه السابقين — انه نور طاحون في ذلك المكان ، فاذا شئت ان تبيت فيها الى بزوغ الفجر أوصلناك وقفلنا راجعين نطوف الغابات علنا نظفر باحد من رجال الحرس .. اما المسافة التى تبقى من الطاحون الى موسكو فهي دون القليل

وكان الليل قد تناصف وغلب التعب والنعاس على ميخيش ولحظ الامير منه ذلك ، كما لحظ ان هؤلاء القوم لايجسرون ان يرافقوه الى العاصمة

فقال — لا بل نتحول الى الطاحون ، لاني أؤثر الوصول الى موسكو صباحاً على الوصول اليها ليلاً . . ولكن هل نجد في هذه الطاحون مبيتاً ؛

قال — نعم ، وانا اعرفها واعرف صاحبها وهو من أوفى اخلائي

قال — حسن .. واني أشكر لك البسالة التي أبديتها مع رفيقك في هذا الليل الدامس . واذا قدر لي كافأتك احسن مكافأة

قال — بل نحن نشكر فضلك واحسانك ايها الامير ولن ننسى ذلك ماحيينا ، وثق باخلاصنا لك ورغبتنا في ان نقوم بشيء من الخدم نفيك بها بعض ما لك علينا

قال — ولكني أسألك قبل ان نفترق ان تنبئني باسمك

قال — اذا لم يكن بد من ذلك فاعلم ايها الامير ان لي اسماء كثيرة تتقلب وتتبدل بتقلب الظروف والاحوال ، فاعرف الان باسم « برستن » ولا أعلم متى يكون غير ذلك . .

وما زالا يتجاذبان اطراف الحديث وباقى الجماعة يتبعونهما فرحين حتى بلغوا الطاحون . فصفر برستن ثلاثاً ، فسمع في الحال صفير آخر من

جهة الطاحون ، ثم خرج منها شبح في يده مصباح ، فحدق نكيتا بنظره فاذا به يرى رجلاً قصير القامة كبير الرأس دميم المنظر يسير على مهل ويقول مخاطباً برستن — لم اكن أنتظرك ايها العزيز في هذه الساعة ! .. ولكن ما هذا ؟ انك آت الي ومعك رفقاء . . وليس عندي كما تعلم مايكفيكم ويكفي خيولكم ! . .

فدنا منه برستن وقال — ليس مرادنا ان نبيت عندك كلنا ، وانما أطلب منك ان تهيء مبيتاً لامير صديق لي وخادمه

فأجاب الطحان بصوت لم يسمعه احد — الامر امرك ايها الصديق .. ولكني أنتظر هذه الليلة قدوم امير آخر من موسكو ، وقد أوعز الي ان لا أقبل احداً هذه الليلة ، فكيف العمل ؟

فقال برستن همساً — لايهمني امره او امرك . . وانما يهمني ان تقوم بضيافة الامير الذي جئتك به الان قياماً حسناً ، ولاتنبيء اميرك به اذا كنت تخشى سطوته وبأسه

قال — ليكن ما تريد

ثم تقدم الى الامير نكيتا فحياه ودعاه وهو يرحب به

وكان ميخيش قد نادى برستن قبل ان دخل وقال له — واذا احتاج سيدي الامير الى شهود يشهدون له بما جرى في قرية الدب فكيف تجدك ورفيقك وفي اي مكان ؟

فأجاب برستن ضاحكاً — سل الريح من اين تهب والى اين .. وسل امواج البحر كيف تسير . . لاننا ايها الصديق الشيخ كالرياح العاصفة ، وكالامواج المتلاطمة ، لامأوى لنا ولا قرار . . وفضلاً عن ذلك فان حضرة

الامير لايحتاج الى شهادة امثالنا . . ولكنه اذا احتاج الينا في شأن آخر فاسأل الطحان عنا ينبئك بمكاننا في الحال

ثم افترقا . فراح برستن ينهب الارض وراء رفقائه ، وتبع ميخيش مولاه

وكان الطحان قد سار بهما الى غرفة صغيرة في الطاحون ، ثم قدم اليهما كل ما كانا في حاجة اليه من طعام وشراب ، وتركهما وخرج

فقال ميخيش — ما هذا الطحان يامولاي الا جني من الجان التي تسكن المغاور والكهوف . . ولقد كان الاجدر بنا لو واصلنا سيرنا الى موسكو . .

قال — واي خطر تخشاه هنا في هذه الطاحون ؟

قال — يكفي ان يكون صاحبها طحاناً . . نعم انه قدم لنا طعاماً جيداً ولخيلنا شعيراً كثيراً . . غير انه طحان

قال — وما الذي يخيفك منه ؟

قال — ألا تعلم ياسيدي ان كل طحان يكون رفيقاً للابالسة والجان ؟ وانه لا يأتي عملاً الا بمساعدة هذه الارواح الشريرة ؟ . . ولست انا وحدي ازعم هذا الزعم ، بل الناس كلهم ينظرون الى الطحانين كالى اصدقاء الارواح النجسة وعشراء الابالسة والشياطين

قال — مالنا ولمزاعم الناس . . فدع هذه الخزعبلات جانباً واقنع بما قسمه الله لك ونم مطمئناً

فصمت ميخيش وقد غلب عليه النعاس فنام . . اما نكيتا فبات بانتظار صباح الغد انتظار الظمآن للماء ، فلم يغمض له جفن وهو يتأمل في ما وقع له من حوادث النهار وحوادث الليل ، حتى أقبل الفجر فنام قليلاً

الفصل الخامس

الدجال [1]

في اواخر ذلك الليل ، وقد ساد السكون ،كان رجل في نحو الثامنة والعشرين من العمر يسير وهو في صهوة جواده جهة الطاحون سيراً حثيثاً . ولما انتهى اليها ترجل وبادر الى الباب فقرعه بعنف وصاح : الي ايها الطحان بالعجل !

ولما لم يسمع جواباً ، وكأنه لم يعتد الانتظار ولم يكن في طاقته الصبر ، عاد فصاح بأعلى صوته . أين انت ايها الساحر؛ أخرج حالاً . والا فاني ممزقك تمزيقاً !

وما كاد يفرغ من تهديده حتى سمع الطحان يقول بصوت اجح : رويدك ايها الامير ! فهانذا بين يديك . ولكنني أسألك از تخفض صوتك لان عندي ضيوفاً . . ولا بد للامر من تمام الهدوء والكتمان

فاحتدم الرجل الذي دعاه الطحان اميراً ، وقال — ومن أذن لك ايها الدجال ان تقبل هذه الليلة احداً ؟ أولست عالماً بقدومي ؟ هيا فاطردهم في الحال ! . .

فقاطعه الطحان نادماً على تصريحه وقال — عفواً ايها الامير ! فما انا الا

---

(١) اذا رأى القراء في هذا الفصل وفي فصول اخرى من هذه الرواية شيئاً من الاوهام والخرافات فلا يضربوا بها عرض الحائط بحجة انها تقلل من شرف الرواية وتحط من شأنها . ونحن اذا حاولنا تجريد الرواية من هذه الاوهام ، لان فيها شيئاً فاسداً ، كنا كمن يشوه جمال الحوادث التاريخية المتسلسلة فيها ، لان مؤلفها انما قصد بإيرادها بيان ما كان عليه الروسيون في ذلك العصر من الجهل والغباوة . . . ولا ريب أن تلك الرؤى والاباطيل كانت محترمة عندهم وشائعة في بلادهم، ليس بين السوقة فقط بل وبين الملوك والامراء ايضاً — كما يتضح ذلك من سياق الرواية

أوفى عبيدك ، ولا أبغى في اعمالي كلها الا مرضاتك . . فلا تضطرب ، ولا يسوءك امر ، لئلا تفسد ما نحن مزمعون ان نقوم به من العمل الذي جئت لاجله . . وأما الضيوف فلن يزعجونا بشيء لأنهم غارقون في سبات النوم . . فهيا بنا !

فلم يهتم الامير بمعرفة الضيوف ، اذ كان له من افكاره شغل شاغل ، بل قال — أنظر يا هذا ! اني موطن النفس على أن اسمع منك هذه الليلة ما يسرني ويكون لدائي بلسماً شافياً . . ولكنك ان علقت تماطلني وتملاني بالفارغ ، فلا يكون جزاؤك الا الخنق او الشنق . . فاختر لنفسك ما يحلو

فقال الطحان — مهلاً يا مولاي ! . . فاني مطلعك على ما سينجلي لي حرفاً حرفاً ، وليس من شأني أن أحول دون تصاريف القدر او أرد قضاءه لان ذلك بيد علام الغيب والخفاء . . اما اذا كنت معولاً منذ الان على معاقبتي فخير لي ان أربأ بنفسي من اول الامر ، فلا أقدم على شيء ، وانت بعد هذا وما ترى

فتبسم الامير وقال — حسن ، فلا تخش سوءاً . . وأنا انما اردت المداعبة لا غير

وفي اثناء ذلك كان الطحان قد خرج الى ضيفه ، فأخذ جواده وربطه الى شجرة قريبة ثم عاد اليه وكان الضيف شاباً طويل القامة عليه ملامح الغنى وابهة الكرامة والسؤدد ، فقال له الطحان — هل استظهرت ايها الامير الكلمات التي لقنتك أياها ؟

فقال — نعم استظهرتها ، وعلقت في عنقي حسب اشارتك قلب السنونوة

قال — وماذا أجداك ذلك ؟

فأجاب الامير بحزن وتلهف - لم يجدني نفعاً . . . ولقد شاهدتها اليوم في حديقة قصرها ، ولكنها ما وقع بصرها علي حتى نفرت كالظبي المذعور وأسرعت فدخلت منزلها

قال - يخيل الي اذاً . . .

قال - قل ولا تخف شيئاً

قال - ولكني أخشى غضبك !

فرفس الامير الارض برجله وصاح - قل بلا تردد ايها الاحمق !

قال - يخيل الي . . انها تحب سواك

قال - ومن ترى ذلك الحبيب ؟ أزوجها الشيخ ؟ ان هذا من المحال

قال - وقد يكون غير زوجها . .

وما سمع الامير هذا الكلام حتى انتفض كالعصفور وقد بلله القطر وصاح - حسبك هذياناً ايها الشيخ الاحمق ! الا تعلم اني لو عرفت لها حبيباً لكنت مزقته ارباً اربا ؟ . . فهذا لا يمكن ان يكون ، ولست أتصوره في الاحلام . .

قال هذا وسكت ، وقد سكن جأشه . ثم تغير بغتة فتنهد وقال - ارحمني ايها الطحان وارث لي فقد بلغ اليأس مني وأنحل الغم بدني وأحرق الوجد فؤادي ، حتى أمسيت على شفا الوبال . . . ولقد حاولت مراراً أن اصرف افكاري عن هذا الحب ، وألهو عنه بالصيد والقنص تارة ، او بمعاقرة الخمرة ومنادمة الاخوان تارة اخرى ، فلم يجدني ذلك كله راحة ، ولم يخمد ما اضطرم فيّ من سعير الهوى . . وكان من امري بعد ذلك أن انخرطت

في سلك رجال الحرس ، فقربت من الملك واصبحت من اخصائه وندمائه المختارين ، وشرعت منذ ذلك الحين أعيث في بلاد الله كغيري من افراد هـذه العصابة ، لا يردعني عن اجراء المآثم والمحرمات رادع ، وقد مات ضميري ، ولكني أضحيت مهيباً وعظيماً جداً في عيون القوم ، يرهبني ويخشى سطوتي وبأسي كل انسان ، حتى صار مجرد ذكر اسم « اثناسي فياز يمسكي » يملأ القلوب رعباً وهولاً . . بيد ان كل هذه الصولة وذلك الجبروت لم يكونا واأسفاه شيئاً . لاني لم اتقدم بهما قيد شعرة في سبيل الحصول على « هيلانة » . . فلم يبق لي للوصول اليها الا من طريق السحر ولو كان في ذلك معصية الله والخروج على الملك . . وقد التجأت اليك لما اشتهر من دهائك ومهارتك وانا أرجو أن تنيلني انت البلسم الشافي ، فهات ما ديرت

فأطرق الطحان وقد هاله منظر الامير وخشي على نفسه من تهيجه وغضبه ، فأخذ يقلب وجوه الوسائل بغية تمليق خاطره بشيء

وكان الامير قد نفد صبره فصاح به قائلاً — ويحك ايها الشيخ الساحر فهل أتيت بي الى هنا لتعذبني ؟ أفلم تعدني بالبحث عن الاعشاب السحرية التي تبلغني أمنيتي ؟ فأيها أصبت ؟

فأجاب الطحان وهو يرتعد فرقاً — ان هذه الاعشاب كثيرة ياسيدي . . فمنها ما اذا حمله المرء في عنقه أمن شر الضواري ، او فاز برضى الملك وحظي عنده ، او أصبح مهيباً يحترمه ويخشاه كل من يراه . . ومنها . .

فقاطعه الامير قائلاً — ولكن الملك راض عني كل الرضى ، والقوم يخشون بأسي وسطوتي بدون ازهارك واعشابك . . فاذكر أنواعاً اخرى

فاستأنف الطحان كلامه بقوله — ومنها ما يسمى « رأس آدم » وهو

عظيم النفع اذا حمله المرء طاب عيشه ، اوكثر محبوه وقل مبغضوه ، او انهالت عليه هدايا الاخوان . . ومنها ما اذا مضغته نجوت من الدببة والذئاب فلن تقربك او تؤذيك . . ومنها . .

فتبرم الامير بهذا التمداد واضجره خروج الشيخ عن حدود الموضوع وايغاله في فلسفة اعشابه فقال – ولكن ما لنا ولكل هذا ؟ . . فانا انما أود ان تطلعني على ماجئتُ لاجله من هذه الاعشاب

فأجاب الطحان باهتمام – سمعاً وطاعة يامولاي ! تمهل علي فاني منبئك بكل مالدي . . فمن تلك الاعشاب ايضاً ما اذا أحرزته أحرزتَ كل ماتصبو اليه النفس من الثروة والجاه . . ومنها ما اذا علقته على صدرك تحت الدرع أصبحت أمهر اهل الزمان في الفروسية واساليب الطعان ، لايجاريك احد من الابطال والفرسان

قال – وهل وجدت منها ما يجعل الفتاة تحب متيمها وتهواه وترق لحرقته وجواه ؟

فاطرق الطحان هنيهة ثم قال – كلا ، لم اجد شيئاً من هذا

قال – وما يخفف آلام الحب او يخمد سعيره المتقد ؟

قال – وهذا ايضاً لا اعرفه . . ولكني أعرف غير ماذكرت من الاعشاب ما لو وضعته على الاقفال لتحطمت امامك في مثل طرفة عين . . وأعرف . .

فقاطعه الامير وهو يتلذع غضباً – اخرس ايها الدجال اللعين ! . . فاني في غنى عن هذه السفاسف التي تسردها علي ، وقد جعلت آمالي هباء منثوراً ، فبئس ما نطقت به

ثم هجم عليه فوضع يديه في عنقه وهزه بعنف وصاح — يجب ان تحضرها الي حالاً !..

فأرعد الطحان وهلع قلبه وأيقن بدنو الاجل..

غير ان الامير لم يلبث ان تركه بغتة ، ثم أكب على قدميه وهو يستغيث ويقول بذلة — أستحلفك بالله ان ترحمني وتدفع عني هذا العذاب؟.. اني اشعر بنار آكلة تتقد في احشائي !.. ويلك ايها القلب الشقي !. كيف تطمع في الحب وقد قضي عليك ان تحيا شقياً وتموت منسياً !. فهل في امكانك ايها الطحان ان تبرد لوعتي وتكفكف دمعتي ؟

فازداد الطحان خوفاً واضطراباً ، وقد ادركته الشفقة على الامير ، فعطف عليه وقال — هون عليك ياسيدي ولاتقنط من رحمة الله.. أفلا تستغرب حالتك امام الطحان داود المسكين ؛ فعد الى رشدك وأشفق على نفسك

فقال الامير وهو لايزال مضطرباً — وأنى لي ان أعود الى رشدي وقد شرد مني العقل !. وبت أنشد الموت كل ساعة ، فبه لاغير الشفاء من هذا الداء ، وبه تسرية هذا الشقاء

ألا موت يباع فأشتريه   فهذا العيش ما لاخير فيه

وكان الطحان واقفاً كالمأخوذ ، لايدري بماذا يسلي الامير ويفرج كربته ، فتعاظم عليه الامر وخاف سوء العاقبة فقال — هيا بنا الان يامولاي قبل ان يشرق نور الصباح ، فلعله ينكشف لنا في الماء شيء من غوامض الغيب

ثم اقتاده الى الماء حيث كانت تدور رحى الطاحون وقال — أنظر معي يا سيدي ولا تحول بصرك عن الماء ريثما أفرغ من سرد اقوالي

قال هذا وانبطح على الارض وأخذ يتمتم كلاماً مجهولاً ويبدي اشارات شتى ، والامير شاخص في الماء كمن يتوقع ان يرى شيئاً

فقال له الطحان بعد قليل — ماذا ترى ايها الامير ؟

قال — كأن لؤلؤاً يتناثر او لجيناً يسطع

قال — ستكون اذاً أغنى رجال روسيا وأعظمهم

فهز الامير رأسه ولم يرفع نظره عن الماء . فقال الطحان — والان ماذا ترى ؟

قال — كأن سيوفاً تلمع وصوالجة تغوص ثم تطلع

قال — وستكون مظفراً في الحروب مؤيداً في خدمة الملك

قال — ولكني أرى الان الماء قد اعتكر .. وها هو آخذ في الاحمرار وقد صار كالدم . فما معنى ذلك ؟

فجمد الطحان ولم ينبس بكلمة

فقال الامير — واني أرى الان خيوطاً ارجوانية او أوردة دموية .. وكأن هناك كلاليب من الحديد بلون النار تروح وتجيء

فقال الطحان — حسبك ايها الامير ، لان طول التحديق الى الماء يؤذيك

ودنا منه يريد انهاضه ، وهو يخشى ان يظلم عقله او يصاب بمس من الجنون . فدفعه الامير وهو لا يتزحزح من مكانه ثم قال — وكأني ارى الان آلة كبيرة ذات اسنان كالمنشار وتحتها الدم ينفجر

فقال الطحان — أسألك بالله ياسيدي ان تقنع بما رأيت لئلا يصيبك مكروه

قال – مهلاً . مهلاً فاني أراها . . نعم أرى هيلانه بينها ، وعليها رداء من القطيفة الحمراء . . وقد وقف الى جانبها فتى من الفرسان . . في ثوب من الارجوان . وهاهما يتمشيان. انهما يتعانقان . .نعم يتعانقان . . فالويل لي ولهما . .

قال ذلك ونهض وهو ينتفض ، وقد احمرت عيناه ، فأنَّ أنيناً محرقاً ثم قال – فهل في طاقتك ان تعرف اذا كانت تحب سواي ؛

قال – هذا ما أخشاه . . وسأنبئك بعد ايام بما يفتح علي

فأخرج الامير من جيبه قبصة من الدنانير ، فوضعها في يد الطحان وقال – رأيك الموفق الى الصواب ايها الصديق في جمع شملي بهيلانة وعليك التدبير . .فان الدنيا دون هيلانة سجن مظلم في عيني ، والحياة عذاب واصب . . فآه من الحب ما أحلاه وما أمرّه ! . . وقد علمت اني قد وقفت نفسي على هواها وآليت ان أبذل مهجتي فداها . . فويل لمن يناظرني فيها او يزاحمني عليها ، فاني لأعلونّ رأسه بصمصام يهوي به الى جهنم النار ولو فرّ الى السبع الطباق الشداد . .

وكأن ثورة غضب تأججت في صدره ، فوثب الى جواده فامتطاه وهمزه كمن يطارد عدواً ، واندفع ينهب الارض عائداً من حيث اتى

الفصل السادس

موسكو

في مدينة الروس المقدسة ، وقلب بلادهم النابض ، وعاصمتهم القومية لم تكن منذ نحو ثمانية قرون شيئاً مذكوراً ، ولم تعرف بهذا الاسم

قبل سنة ١١٤٧ — وهو انما أطلق عليها نسبة الى نهر يجري فيها يقال له « موسكو » ايضاً ، فدعيت المدينة باسمه ، ثم عرفت البلاد كلها بهذا الاسم

وكانت البلاد الروسية في ذلك العهد وقبله ببضع مئات من السنين امارات مستقلة بعضها عن بعض ، وقد سادتها الفوضى واستمرت بينها نيران الفتن والحروب الاهلية دهراً طويلاً

واول من وليَ الامر فيها امير من أصل أسوجي يقال له « روريك » من أسرة « روس » فدُعيت البلاد باسمه ، ومنه تسلسل الامراء والملوك . وكانت عاصمتهم في اول الامر مدينة « نوفغورود » ثم مدينة « كياف » . وكان أشهر هؤلاء الامراء — حتى اواخر القرن العاشر — الامير «فلاديمر» وهو الذي تنصر وأدخل النصرانية الى بلاده

وتوفي الامير فلاديمر هذا عن اثني عشر ولداً ، وكان قد قسم البلاد فيما بينهم حتى ان يعيشوا بالسلام والاتحاد ، غير انهم لم يلبثوا ان أثاروا الحرب بعضهم على بعض ، وكان من امرهم انهم قتلوا واحداً بعد آخر ، وأفضى الحكم أخيراً الى واحد منهم يقال له « ياروسلاف » وكان أشدهم بأساً وأوفرهم حكمة ، وهو اول من سن لبلاده الشرائع والاحكام . وفي ايامه بلغت البلاد مبلغاً عظيماً من المنعة والقوة والاتساع ، فامتدت من البحر الاسود جنوباً الى بحر البلطيك شمالاً . وقد جلس هذا الامير على سرير امارة كياف سنة ١٠١٩ وكانت تلقب في عهده بالامارة العظمى

وكانت العادة التي جرى عليها امراء الروس وقتئذ ان تقسم البلاد بينهم فيستولي كل امير منهم على اقليم من اقاليمها ، الا امارة كياف فكان يستولي عليها عادة اكبر الامراء سناً ويلقب بالامير العظيم . وكان ذلك علة العداوة

والشحناء وسبباً من اعظم الاسباب لتواتر الحروب الاهلية التي اضطرمت في البلاد بين ابناء ياروسلاف وحفدته وابناء حفدته من يوم وفاته (سنة ١٠٥٤) الى سنة ١٢٢٤ . وقد قام في هـذه المدة نحو اربع وستين امارة تولى عروشها نحو مئتين وثلاثة وتسعين اميراً وانتشبت بينهم نحو ثلاث وثمانين حرباً أهلية اشتركت في بعضها البلاد بأسرها من اقصاها الى اقصاها ونقل بعض الامراء في خلال ذلك سرير الامارة العظمى من مدينة «كياف» الى مدينة « فلاديمر »

وفي سنة ١٢٢٤ زحف التتر المغول الى بلاد الروس واجتاحوا اقاليمها الشرقية ثم قفلوا راجعين الى بلادهم في اواسط اسيا . وعادوا بعد ثلاث عشرة سنة فجددوا الغارة على روسيا ، فقد افتتحوا معاقلها ودمروا مدنها ، وموسكو في الجملة ، وضربوا عليها الجزية . وأنشأ ملكهم — الملقب بالخان — في القسم الجنوبي الشرقي من البلاد سلطنة تترية عظيمة ، خضع لها الروس زمناً طويلاً وكان لا يتولى من امرائهم احد الا بأمر « الخان » ورضاه

وكان احد الامراء قد جدد بناء موسكو في خلال ذلك واختطها داراً لنفسه . وكانت الامارة تتزايد فيها كلما تكثر اهلها ، ويتناوب على سريرها الامراء ، الى ان كان عهد الامير ديمتري دونسكوي (١٣٦٣ — ١٣٨٩) فعظم شأنها واتسع نطاقها واصبحت عاصمة الامارة العظمى ، ثم عاصمة البلاد كلها بمركز قوتها واتحادها

وكان الامير ديمتري المذكور قد وحد كلمة الروس وجمع اكثر الامراء تحت لوائه ، ثم حارب التتر فانتصر عليهم . ولكنهم عادوا بعد سنتين فزحفوا بجموعهم الكثيفة واحرقوا موسكو وضربوا عليها الجزية من جديد . بيد

ان انتصار الامير ديمتري كان قد ملأ نفوس الروسيين أملاً وأفعم قلوبهم رجاء فلم يفشلوا ولم تخر عزائمهم ، وكانوا قد أدركوا معنى الاتحاد ورغبوا فيه

ولما كانت سنة ١٤٦٢ جلس على سرير الامارة العظمى الامير يوحنا الثالث ، وكان من اجل الامراء وأفضل اهل الرأي والتدبير ، فانقاد اليه جمهور الامراء ودانت له البلاد فحكمها بالحزم وأصلح شؤونها ، ثم حارب التتر سنة ١٤٨٠ فقهرهم وخلع نيرهم عن البلاد ، فلم تقم لهم قائمة فيها بعد ذلك

وكانت موسكو قد تجدد بناؤها وعادت الى احسن مما كانت عليه . وكثرت فيها في عهد يوحنا الثالث اسباب القوة والمنعة وتعددت الابنية العظيمة ولاسيما الكنائس والقصور مما لم يكن له مثيل في غيرها . وكان أهم اقسامها وهو لايزال الى اليوم اشهر ما فيها ، القسم المعروف بالكرملن (او الكرملن) اي الحصن ، وهو في منتصف المدينة على رابية كبيرة قامت فوقها قصور الملوك والكنائس العظيمة والاديار الفخمة . وللكرملن عند الروس مقام عظيم ومكانة فائقة حتى جرى اسمه مجرى الامثال ، فقالوا ان الكرملن يعلو كل شيء ولا يعلوه غير السماء

وتوفي يوحنا الثالث سنة ١٥٠٥ فخلفه ابنه باسيل الثالث . وخلف هذا ابنه يوحنا الرابع (١٥٣٣ — ١٥٨٤) أحد أبطال هذه الرواية . وفي عهده عظم شأن روسيا فأصبحت مملكة ، وكان هو اول من سمي ملكاً عليها

وكان يوحنا الرابع هذا من اسعد الملوك والامراء طالعاً ، فقد حارب التتر واستولى على ممالكهم ، وأشهرها وقتئذ قازان وأستراخان وسيبيريا ، وأصبحت موسكو في ايامه اعظم مدائن البلاد الروسية وأبعدها ذكراً واكثرها

ثروة وعمراناً وأمنعها عزة وسلطاناً . غير انه غلبت عليه الخيلاء والزهو ، فأذاق الجماهير من رعاياه البلاء والشقاء ، مما سيقف عليه القارىء تفصيلا

الفصل السابع

النبيل موروزوف وزوجته

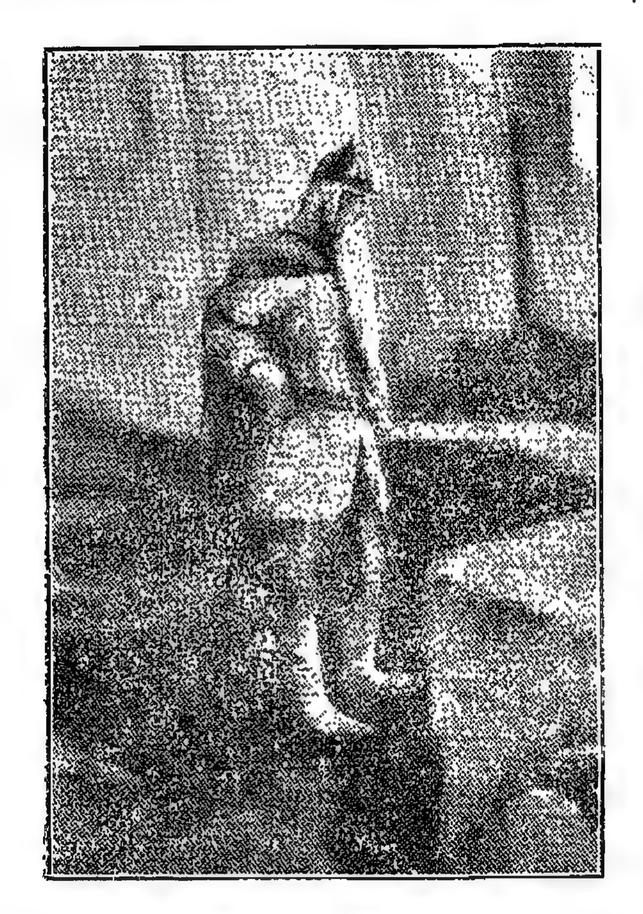
من سرح طرفه في مئات المنازل التي كانت في ذلك العهد قائمة في موسكو على جانبي نهرها ، رأى قصراً جميلا يبدو عليه من الفخامة والابهة ما لا يرى الا في قصور الملوك ، وتحيط به حديقة غناء واسعة الارجاء فيها من جميع اصناف الاشجار والرياحين والازهار

وكان هذا القصر لشريف من نبلاء موسكو وعظمائها يقال له دروجينا موروزوف ، وكان شيخاً واسع الثروة بسيط الجاه كريماً هماماً طيب الخصال كثير البذل والسخاء ، وقد خدم وطنه ببسالة نادرة في الحروب التي خاض غمارها وهو كقائد من اشهر قادة الجيوش ، وقام عدا ذلك بما لا يحصى من اعمال البر والاحسان ، حتى لم يبق في تلك البقعة من لم يحترمه ويدع له بطول البقاء والخير

وكان قد اقترن من أمد غير بعيد بفتاة حسناء من فتيات موسكو يقال لها « هيلانة » لا ينازعها في جمالها منازع ولا تفوقها في آدابها كريمة من كرائم السراة والوجهاء . وهي ابنة احد مشاهير القواد الابطال ، وقد مات ابوها شهيد الوطن والامة في بعض المعارك المشهورة التي نشبت بين الروس

والتتر واسفرت عن انتصار الروس واستيلائهم على مدينة قازان احدى عواصم السلطنة التترية ، ثم لحقته والدتها وكانت من فضليات النساء وأحصنهن عقلا واكملهن ادباً

ولم يكن لهيلانة يوم وفاة والديها اكثر من عشرين عاماً . وكان كثيرون من الامراء والنبلاء وزعماء الحرس الملكي ، وفي مقدمة الجميع الامير اثناسي فيازيمسكي قد هاموا بها ، وكل منهم يتمنى ان يحظى ولو بنظرة الى جمالها الفتان . ولكنها لم تمل الى احد منهم ، وآثرت ان تزف الى رجل شيخ يفوق اباها سناً . وقد أدهش ذلك الناس ووقع في نفوسهم اغرب موقع ، وكان موضوع احاديث وتقولات بينهم لانهاية لها



﴿ النبيل موروزوف ﴾

اجل ، ان فتاة بسن العشرين ، وقد جادت الطبيعة عليها بأجمل الصور ، لاتقترن — برضاها واختيارها — برجل طاعن في السن — الا لسر خفي

ومهما كان موروزوف عريقاً في الحسب والنسب عظيما في الثروة

والجاه ، ولكنه كان شيخاً ، في نحو الستين من العمر ، وقد كلله المشيب وكادت الايام تحني ظهره

وابن موروزوف هذا من الامير اثناسي فياز يمسكي ، وقد كان في نضارة الشباب وكمال الفتوة والجمال والقوة ، وكان فضلا عن هذا كله صديق الملك وحبيبه ونديمه !..

ان الامير اثناسي قد احب هيلانة وكلف بها شديداً وهب يتقرب اليها بالهدايا النفيسة والطرف النادرة ، ويتوسل لذلك بكل ما استطاعه من الوسائل الاخرى ، لتهبه قلبها وترضى به رفيقاً لحياتها . ولكنها صدته صداً جافياً ورفضت هداياه بالاحتقار والازدراء .. فهل فعلت هيلانة ذلك لعدم ارتياحها الى الامير اثناسي ، ام لان قلبها كان مشغولا بحب سواه ؟ ..

ولكن مهما كان سبب امتناع هيلانة فان الامير لم يطق احتماله ، وقد اخذه من المض واليأس ما كاد يذهب بعقله ، فاستجار بالملك يوحنا الرابع شاكياً باكياً ، فرق الملك لحاله ووعده خيراً ، بل وعده أن يخطب له هيلانة بنفسه ويزفها اليه بعد ايام معدودة

وتناقل رجال البلاط هذا الامر وعلمت به هيلانة فقامت قيامتها وتحيرت فيما تعمل واين تختبيء ، وقد صممت على مواصلة الرفض وعدم الانقياد ، وهي ترى اسهل ما عليها الانتحار تخلصاً مما لا يطيق صدرها احتماله

وخرجت على اثر ذلك من منزلها في بعض الايام وسارت وهي لا تدري الى اين ، وراسها مشتغل بالهموم ، الى ان قادتها قدماها الى كنيسة في بعض جهات النهر ، فسمعت انغاماً شجية كانت تنبعث منها ، فعادت الى [illegible] بارتياح عظيم الى الصلاة ، وهي ترجو ان تنال فيها عزاء

لنفسها ، فدخلت وجثت في بعض جوانب الكنيسة وغرقت في الابتهال

وكان في جملة الواقفين اذ ذاك في الكنيسة النبيل موروزوف الآنف الذكر ، وكانت له معرفة تامة بالفتاة وقومها . فما تأملها وهي داخلة على الحالة التي وصفناها ، حتى رق لها ، وقد شعر بانكسار نفسها ، وعادت الى ذهنه ذكرى حوادث كثيرة من حياة والدها البطل وكان من اوفى اصدقائه .. ثم عاد بتأمله الى هيلانة وقد اصبحت بعد وفاة والديها يتيمة وحيدة ، لا ترى والداً شفيقاً يخفف من بلواها ولا والدة حنوناً تمسح دموع حزنها ولا اليفاً تبثه شكواها ، فشعر بدافع داخلي عظيم يدفعه الى محادثتها والسؤال عن حالها

وكان المصلون قد فرغوا من الصلاة واخذوا يخرجون من الكنيسة ، فبادر الى حيث كانت هيلانة لا تزال جاثية تناجي ربها ، فحياها بحنو الوالد الشفيق وسألها عن حالها

وكانت هيلانة تعرف موروزوف وتحترمه ، وكانت تزوره مع اهلها ويزورهم هو في منزلهم ، وكانت تفضي اليه بكثير من حوادثها وشؤونها ، الا امراً واحداً كتمته عنه فلم تبح به لاحد . . .

فلما رأت الان الشيخ أنست به وشعرت كأنها الى جانب والدها وأيقنت أن السماء قد أرسلته اليها لتبثه شكواها وتفضي اليه بمخاوفها وقلقها ، فأخبرته الخبر وعيناها طافحتان بالدموع ثم قالت — وان رسل الملك سيفدون علي ليكرهوني على الاقتران بالامير اثناسي ، ولكن هيهات ذلك ، لاني مصممة على عدم التسليم ما دام في رمق من الحياة

فقال موروزوف — أما أنا فلا أري رأيك يا بنية ، وما الامير اثناسي

الا نعم القرين لك ، لأنه من اشرف الاسر العريقة في النبل ومن افضل رجال المملكة مقاماً وثروة ومن اقرب اخصاء الملك ، فلم هذا الاباء وهذا الاصرار ؟ . . واذا كنت لا تميلين اليه الان لانك تجهلينه ، فلن يمضي الا الزمن القصير حتى تألفيه وتحبيه

فقالت – كلا ، كلا . . ان هذا لن يكون ، واني لأوثر الموت الف مرة على أن اقترن بهذا الرجل . . وها اني اتوسل اليك يا سيدي بحق ما لوالدي عليك من صلة المودة والصداقة ان تعطف علي وتجيرني

فاطرق موروزوف هنيهة ، وقد بدت على وجهه علائم التفكر والاهتمام ثم رفع رأسه وحدق الى الفتاة ملياً وقال ، وهو غير عالم بما خبأته له يد الاقدار – ليس لدي الا وسيلة واحدة أحميك بها . . فتأمليني يا هيلانة ثم أجيبي . . اني رجل شيخ ، وقد احببتك حباً يفوق حب الآباء لابنائهم ، وكنت الى الان سيء البخت في الحب ، وشاء الله أن أبقى الى الان عزباً . . فهل ترضين بي زوجاً لك ؟

فمسحت هيلانة الدموع التي كانت تترقرق في عينيها واندفع من صدرها تنهد عميق وقالت – نعم . . واني راضية تم الرضى

ولم يملك موروزوف أيضاً عبرته ، فمسح دموعه ثم اخذ الفتاة فقبلها في جبينها وهو لا يعلم ان الذي اظهرته كان سرور امرىء اشرف على الغرق فأبصر اوهن الاعشاب فتشبث بها لينجو . .

ولما سكن جأش هيلانة عاد موروزوف فقال :

– فان كنت راضية كما تقولين ، فأقسمي لي هنا بحضرة الله على الامانة والاخلاص ، وانك لن تخوني عهدي ولن تدنسي شيبتي

فوعدت هيلانة واقسمت ، وهي لا تزال خائفة مضطربة ، ولعلها كانت لاتدري ما تقول . .

ثم خرج الاثنان من الكنيسة ، وكان الظلام قد أقبل ، فتأبط موروزوف ذراع هيلانة وسار الى جانبها يشيعها الى منزلها ، وهو في اشد الارتياح اليها ، وهي تشعر كأن حملا ثقيلا ازيح عنها

وفي اليوم التالي عقدت خطبة هيلانة للشيخ . ولما جاءها رسل الملك يسألونها الرضى بالامير اثناسي وعلموا بما تم عادوا بالخيبة . .

وكان بعد ايام ان ثابت الى هيلانة عافيتها ، فزفت الى موروزوف ، وأقامت في عصمته مطمئنة الخاطر ناعمة البال

وأدرك موروزوف ما سيكون لعمله هذا من الوقع السيء في نفس الملك ، وانه لايلبث ان ينتقم منه ، فأقام ينتظر ماعسى ان تجيء به الايام . . وكان الشيخ أعرف الناس بيوحنا الرابع وأطواره وارتياحه الى الانتقام من الاشراف والنبلاء على اقل الهفوات . . وكان الامر كما توقع ، لان الملك ما كاد يبلغه خبر اقتران موروزوف بهيلانة حتى اشتعل غيظاً ، وقد رأى في هذا العمل خروجاً عليه ومقاومة لارادته ، فدعاه بعد ايام قلائل الى مائدة وأجلسه بعد الامير اثناسي فيازيمسكي وبوريس غودونوف ، وكان موروزوف معدوداً في الرتبة الاولى من طبقة النبلاء ، فلم يكن لاحد يتقدمه ، وكان بوريس غودونوف حديث النعمة لم يبلغ بعد المكانة بلغها بعد ذلك بفضل ذكائه ودهائه واستعداده الفطري العجيب الذي امامه كل عسير ، فاستبد بالاحكام بعد وفاة يوحنا الرابع ، ثم رقي الى الملك وأصبح سيد البلاد الروسية بأسرها . .

ورأى موروزوف ان الملك يريد العبث به والحط من كرامته ، فلم يحتمل ، وشعر كأن سهماً اخترق فؤاده ، فوثب على قدميه وصاح بالملك : ليس لك ولا لاحد ان يزدريني ويذلني الى هذا الحد . . فلن أجلس بعد غودونوف ولا بعد فيازيمسكي . .

وكأن الملك كان ينتظر مثل هذا الجواب فأمر موروزوف ان يغرب عن وجهه ويرخي شعره فلا يقصه ولا يرى وجه الملك الا اذا نال عفوه ورضاه . . فخرج موروزوف وعاد الى قصره وهو منزعج الخاطر حزين النفس ولكنه لم يكن نادماً على مافعل ، لانه لم يعرض نفسه للامتهان ، فلم يجلس بعد من هم دونه رتبة ومقاماً

وكان لهذا النبيل حاشية كبيرة من الاعوان ومئات من العبيد والخدم . وكان الجميع يتسابقون الى خدمته وقضاء كل اشارة تبدو منه ويستسهلون في جانب رضاه كل صعب . وكان هو يعاملهم بمنتهى الرأفة واللطف ولا يبخل على احد بشيء مما كان يحتاج اليه . وكان له منازل كثيرة في موسكو أراضها ومئات من القرى والغياض ، فلم يكن ينقصه من خيرات الدنيا فيها شيء . وكانت هيلانة في نظره فوق هذه الخيرات كلها ، وقد رأى [illegible] نفساً عالية وجمالا لا يجارى وخلقاً دمثاً ووداداً ولطفاً ، فأحبها كثيراً [illegible]ق بها وهو يرى انه ملك ناصية السعادة بقربها ، وانها ملاكه الحارس

غير ان هيلانة لم تقترن بموروزوف عن شغف وهيام ، وانما فعلت ذلك و [illegible] بنفسها من الامير اثناسي ، فهي اذاً قد اختارت أهون الشرين . . [illegible] صارت اليه ، ورأت منه ما رأت من المروءة واللطف والحب لم [illegible] [illegible] تقابله بالمثل ، فاحترمته وأحبته ولكن حب البنين للآباء . .

ان هيلانة قد أقسمت لمورزوف على الامانة والاخلاص ، وعقدت ضميرها على البرّ في قسمها ، فهل ترتكب اثماً اذا كان يتراءى لها حيناً بعد آخر فارس باسل في ثوب من الارجوان وفي عنفوان الشباب ومنتهى الجمال والقوة ، فيملأ قلبها سروراً ويفعم نفسها تذكارات شائقة ؟ . . وهل تجني ذنباً اذا كان خيال ذلك الفارس لايبرح نصب عينيها ، فتتذكره في كل ساعة من حياتها في اليقظة والمنام ، وتراه وقد امتطى جواده واندفع يخترق الصفوف في بلاد « لتفا » البعيدة ويدحر الاعداء كالاغنام ؟ . . او تمثله جالساً اليها يتشا كيان مرارة الفراق ، او ماثلاً امامها يرنو اليها بعين اللوم ، وكأنه يقول لها : « كنت أظنك ياهيلانة موضع آمالي وقبلة اماني » ولكنك غدرت بالحب ونقضت العهد ؟ . . فاين المواثيق التي عقدناها قلبٌ بقلب لايداً بيد ؟ . . واين الاقسام التي اشهدنا الله عليها وملائكته ؟ . . وأين كلمات الوداع التي سمعتها منك يوم فارقتك ووقعت في قلبي المدنَّى موقع البرء من ايوب ، فشددت عزمي وأعانتني على مقارعة الاهوال واقتحام المنون في ساحات الصدام ؟ . . أ كذا يكون رباط حبك أوهن من خيط العنكبوت ؟ . . أ كذا تغيرك النوى ويقلبك الهوى ؟ . . . »

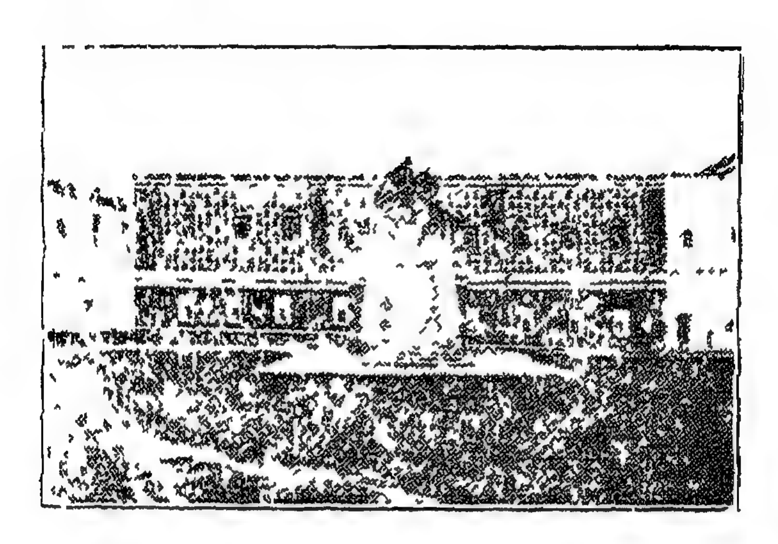
الفصل الثامن

الناسك

كان اليوم الرابع والعشرون من شهر حزيران سنة الالف والمئة وخمس والستين عيداً حافلاً في موسكو ، وقد قرعت مئات الاجراس فيها قرعاً

متواصلاً ، وغصت الكنائس بالجماهير الغفيرة ، وهم بعدان قاموا بفروض العبادة خرجوا فانتشروا في الشوارع فرادى وازواجاً ، ثم اخذوا يعودون الى منازلهم . وما تناصف النهار حتى كنست الازقة والشوارع وخيمت السكينة على المدينة كلها

كانت ساعة القيلولة . وقد اعتاد اهل العاصمة ان يأوي كل الى فراشه



﴿ منزل من منازل النبلاء في موسكو ﴾

في مثل هذه الساعة من النهار في ايام الصيف ، ولا سيما ايام الآحاد والاعياد ، فترقد المدينة كلها ، وتقف كل حركة فيها . غير ان الحالة لم تكن كذلك في الضاحية الغربية من المدينة في هذه الساعة من النهار ، فقد عبث هناك بالسكينة ، وكانت الحركة على أتمها

كان في تلك الضاحية حانة كبيرة مشهورة ، وقد احتشد فيها جمهور كبير من الناس ، اكثرهم من الفتيان . احتشدوا كما يظهر للقصف واللهو ، فشربوا كثيراً ثم رفعوا اصواتهم بالغناء . . . وكانت الخمرة قد دبت في رؤوسهم .

فعلت جلبتهم وكثر صخبهم، ثم انتشروا فرقاً في فناء الحانة وعلى جانبي الطريق المؤدية الى العاصمة ، يضجون ويغنون ويعربدون ، وقد أعماهم السكر وملأ ضوضاؤهم الفضاء . . وكانوا كلهم على اهبة السفر ، لان خيولهم كانت تنتظرهم في فناء الحانة ، وقد نيط بسرج كل منها مكنسة ورأس كلب

في هـذه الساعة من النهار ، والحالة على ماوصفنا ، ظهر في أقصى تلك الطريق فارسان ، كانا كما يبدو من هيئتهما قادمين الى موسكو من سفر بعيد ، وكان احدهما شاباً وضيء الطلعة مرتدياً ثوباً ارجوانياً ، وقد وجه خطابه الى رفيقه فقال — أناظر انت ياميخيش اولئك السكارى ؟

فاجابه رفيقه — نعم يامولاي . . واني أرى على خيولهم تلك العلامة الدنسة التي وسموا بها . .فهم اذاً من اولئك اللصوص الذين ظفرنا بهم أمس في قرية الدب . . ولعلهم رجال الملك حقيقة . . والا لما اجترأوا على الظهور في ضواحي العاصمة ، وقد خامرني الان الوسواس والخوف بسبب ذلك

— أدنُ منهم واسألهم عن انتايل موروزوف ، وأين يقيم هذه الايام

— سمعاً وطاعة !

قال ميخيش هذا وهمز جواده فطار به جهة الحانة ، ثم وقفه قريباً من رهط من اولئك القوم وسألهم بلطف عن منزل موروزوف ، فقالوا له وهم يقهقهون — وما مرادك من هذا الشيخ الخرف ؟

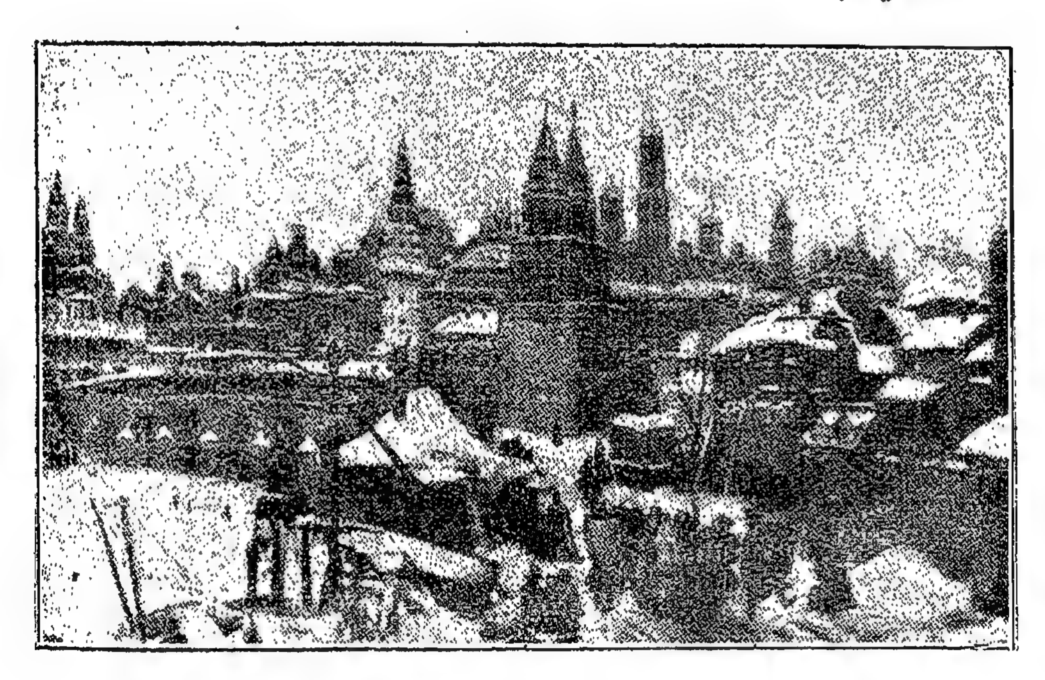
فكظم ميخيش غيظه وقال — ان مولاي الامير نكيتا سيربرياني يحمل اليه رسالة من قائد الجيش العام الامير برونسكي

قالوا — سلمنا الرسالة !

وتقدموا يريدون ان يعبثوا به وهم يترنحون ويصخبون، فصاح بهم: —

وهل بلغت منكم القحة ان تستخفوا بمخابرات كبار قواد المملكة ؟ . .
فكيف أسلمكم رسالة الامير ؟

فقالوا وهم يتقدمون اليه وينضم اليهم غيرهم من رفقائهم — قلنا لك سلمنا الرسالة لنطلع على مافيها . . لان هذا الشيخ موروزوف المجنون قد خرف هذه الايام ، وقام يتآمر ورهطاً من النبلاء امثاله على الملك ، ويثير الفتنة في البلاد



﴿ منظر من مناظر مدينة موسكو القديمة ﴾

قال — حسبكم من مثل هذا الهذيان ايها السكارى ، لانه من المستحيل ان يكون لمولاي الامير نكيتا صلة باعداء المملكة

ولكنه ما كاد يفرغ من كلامه حتى انقضوا عليه وهم يصيحون — هات الرسالة ! هات الرسالة !

وكان الامير نكيتا في هذه اللحظة قد وصل اليهم وسمع هذا الحوار

فصاح – مكانكم ايها الاوغاد !.. فان من يمسه طيرت رأسه في الحال وشكوت الباقين الى الملك

فذعر رجال الحرس لهذه المباغتة .. ولكنهم لم يبطئوا أن عادوا الى صخبهم وزمجرتهم ، وهجموا على الامير وخادمه وهم يتهددون ويتوعدون

وانهم لكذلك واذا بهم يسمعون رجلاً ينشد بصوت شجي . فالتفتوا ووقفوا كأن على رؤوسهم الطير . والتفت الامير ايضاً فرأى رجلاً كهلاً في نحو الاربعين من العمر وقد ارتدى أثواب النساك وحمل على صدره بعض صور القديسين وفي يده سبحة ، وكان وجهه يتدفق صلاحاً وخيراً

وما دنا هذا الرجل من الجماعة ورأى الامير نكيتا بينهم حتى وثب اليه وقد فاضت دموع الجذل من عينيه وقال – اهذا أنت يا نكيتا ؟.. لله ما اكبر حظي بلقياك !.. ولكن مالك ولهم ، ولِمَ انت واقف بينهم ؟..

ثم واصل نشيده بقوله : « طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الكفرة وفي طريق الخطاة لم يقف .. »

وكأن رجال الحرس قد الجموا ، فوقفوا صامتين متهيبين . وكان الناسك قد أعرض عنهم ووقف يتفرس في نكيتا ، ثم هز رأسه وقال – والى اين أنت منطلق الآن ؟

وكان نكيتا قد ذهل لدى مشاهدته هذا الرجل ولا سيما لأنه دعاه باسمه ، ولم يكن هو يعرفه من قبل فقال له – ومن اين تعرفني يا رجل الله

فبش له الناسك وقال – وكيف لا أعرفك وانت اخي ؟.. ولقد رأيتك من بعيد بين هذه الذئاب المفترسة فعرفتك وجئت لنجدتك !..

فالى اين انت منطلق ؟.. وماذا تريد ان ترى في موسكو بعد ان غبتَ

عنها هـذه السنوات الخمس ؟ . . لقد تبدل كل شيء الان . . فزال الحق والعدل والصدق والمروءة ، وحل الظلم والعسف والكذب ، وانتشرت الرذيلة والاضاليل وعم الفساد وأظلمت العقول وتحجرت القلوب . . . فالويل للقوم الاشرار العائثين في بلاد الله ! . . الويل لهم ، ثم الويل لهم . . .

وكان رجال الحرس لا يزالون صامتين واجمين يسمعون كلام الناسك ولا يبدون حركة . فلما فرغ تقدم اليه رجل منهم وقال – وهل في امكاننا ايها الاب باسيل ان نخدمك بشيء ؟ فلعلك تكون في حاجة الى المال . . فاطلب ما تشاء تقدمه اليك في الحال

فنظر اليه الناسك شزراً وقال – لا . لا اطلب شيئاً ، ولست في حاجة الى شيء . . ولكنني اريد ان تجيبوا الامير الى ما سأل ولا تؤذوه

فقال الامير – سألناهم يارجل الله ان يرشدونا الى منزل النبيل موروزوف

فحدق اليه الناسك طويلاً ثم قال – فانت اذاً تروم مقابلة موروزوف ؟ انه من الابرار الصادقين المخلصين للبلاد ، ولكنه انبرى يقاوم الشر والفساد بالعنف والقوة جهاراً ، فلم يجد عمله شيئاً . . وسوف يحل به من الوبال والدمار ما حل بسواه من اهل الفضل والوفاء والصلاح

فسأله نكيتا متعجباً – وأين منزله ؟

قال – لا أود ان ارشدك اليه . . لا اريد ان أرسلك الى مكان يكون مصدر شقائك وحزنك . . فليرشدك غيري

قال ذلك وسار في سبيله

ووقف الامير وقد تولاه ذهول شديد من امر هذا الرجل الغريب

الاطوار ولم يدر كيف يؤول كلامه . . .ثم التفت الى رجال الحرس وقال — والآن فهل ترشدونا الى منزل النبيل ؟

فقال بعضهم — سر في هذه الطريق حتى تبلغ النهر ، ثم سر يسرة مسافة قصيرة . .

فارتد نكيتا وخادمه عنهم وسارا يقصدان المكان المشار اليه ، وعاد رجال الحرس الى صخبهم وجلبتهم . . وكانوا يشتمون الامير ويتهددونه بكل ويل . . ثم ناداه واحد منهم قائلاً — اهد صديقك موروزوف السلام وقل له ان حبل المشنقة ينتظره !

وقال آخر — وحسبه حياةً فقد شبع من الايام !

وقال ثالث — وليودع زوجته الحسناء الوداع الاخير ، فانها لا تليق به !

وقال رابع — وجهز انت أيضاً حبلاً لنفسك ! . . .

غير أن نكيتا لم يعرهم اذناً صاغية ، وظل سائراً وهو مشرد الفكر شاخص البصر . . . وقد رأى في طريقه شراذم كثيرة من رجال الحرس ، كانوا يسيرون هنا وهناك ، وهم يترنحون من السكر ، ويمطرون كلام الخشونة والبذاءة ، ولا يقابلون احداً من المارة الا اوسعوه شتماً وسباباً . .كأن وظيفتهم انما كانت لامثال هذه الاعمال الشاذة . .

الفصل التاسع

هيلانة

كان النبيل دروجينا موروزوف راقداً في سريره وقت الظهيرة . وقد خرجت زوجته هيلانة تمشي في حديقة القصر ، ومعها رهط من الفتيات



﴿ هيلانة ﴾

صويحباتها ووصيفاتها ، وقد كسفت طلعتها وجوههن وهي تتخطر بينهن بقامة تفضح خطرات الاغصان على حركات النسيم ، وكان عليها من الحلى والجواهر ما يبهج الناظر ويدهش الخاطر . ثم جلست واياهن تحت شجرة زيزفون كبيرة ، واخذن في الحديث واللهو

وكانت هيلانة مشرددة الفكر مبلبلة الخاطر ، فلم تضحك لشيء ولم تله

بشيء ، وكانت عيناها شاخصتين في الفضاء ، كأنها تبحث عن شيء لم تره منذ سنوات . . واجتهدت رفيقاتها في تسليتها بكل مفكه من الحديث وبكل مضحك من النوادر ، فلم تكترث لهن ، وظلت مستغرقة في افكارها

فقالت احدى الفتيات — ما بال سيدتنا اليوم كثيرة التفكر والتأمل ؟ أفلا تقترح علينا العوبة نسلي بها خاطرها ؟

فقالت هيلانة — آه يا عزيزتي أولغا ! ان نفسي لا تميل الى شيء من ذلك

قالت — قومي بنا الى البركة نطعم الاسماك ، أو الى اقفاص الطيور نسمع اغاريدها ، او نعود فنسير بين خمائل الحديقة نشم رياحينها وازهارها

قالت — لا رغبة لي اليوم في شيء من هذا

قالت — ولكن لا بد من تفكيه خاطرك بشيء . . لان مولانا النبيل ان علم انك لم تكوني مسرورة بيننا لامنا اشد اللوم

فتنهدت هيلانة وقالت — اذا كان لابد من ذلك فأنشديني الاغنية التي سمعتها منك بالامس فاني أرتاح اليها

— عجباً يا مولاتي ! وكيف تتشوقين اليها وليس فيها الا ما يزعج الخاطر ويثير الاشجان ! . .

— لا أبغي سواها يا اولغا فأنشدينيها

ولم يسع اولغا الا الاذعان فاندفعت بما تعريبه :

ألا ما لنفسي والسرور، وأشجاني تزيد، ودهري في هوى الهم ألقاني

وما لي وتغريد الصوادح، والاسى بوادره تهل من مدمعي القاني

وما لذتي ، والوجد ملء حشاشتي، بنشق أريج الزهر او ميل اغصان

ولي كبد تصلى بنار النوى وما ... يرق لها دهري فينسخ حرماني

قضى الله لي بالبعد عمن احبه ... وأن كان لا ينفك من مهجتي داني

حبيب أفديه بروحي وان يكن ... رماني بسهم من نواه فأصماني

اكتم وجدي فيه والدمع فاضحي ... وهيهات لا يجدي اصطباري وكتماني

ألا في سبيل الحب نفس أضمتها ... ولم أر الا داعي البين يلقاني

معذبة في الحب ذاب فؤادها ... فلله ما اشق فؤادي وأشقاني

أروح بدمع العين غرقى وان يكن ... بقلبي من فرط الجوى وقد نيران

وما كادت الفتاة تفرغ من انشادها حتى غطت هيلانة وجهها بيديها وبكت . . وقد ذعرت الفتيات للامر وأقبلن على اوانها يلمنها ويوبخنها . وتقدمت فتاة اخرى يقال لها دونياشا وقالت — لتسمح لي مولاتنا بان أنشدها أغنية لطيفة ارجو ان يكون لها الوقع الجميل في نفسها . فأومأت اليها هيلانة بالقبول فانشدت ما معناه :

روض أنس جمعت فيه المنى ... خضرة والماء والشكل الحسن

جملت أفراحنا ذاتُ سنى ... ما رآها ناظر الا افتتن

صرمت من لطفها حبل العنا ... حين جالت معنا في كل فن

ملك في الارض او حورية ... تفتن الالباب من حور عدن

لو رآها عابد منقطع ... هجر الزهد واطراف القنن

كم امير راح فيها والهاً ... مستهام القلب مهزول البدن

تائهاً في مهمه الحب فلا ... يرتضي منها بديلاً او سكن

فلتدم مولاتنا رائعة ... في رياض الصفو لا تدري الشجن

من كهيلانة مولاة سمت ... من كهيلانة بدر التم من

غير ان هيلانة ازدادت حزناً واكتئاباً ، فتنهدت من قلب جريح وخرجت من بين شفتيها زفرة تدل على حرارة النار المتأججة في صدرها ، ثم فاضت عيناها بالدموع

فارتاعت الفتيات ووقعن في حيرة وارتباك وخوف شديد ، ولم يدرين مايعملن . . فقالت احداهن — وكيف تبكين يامولاتي وانت في بحبوحة الرخاء والنعيم ؟

قالت — أبكي ، ولا أعلم سبباً لهذا البكاء . غير اني كنت منذ الصباح منقبضة النفس مضطربة الفكر ، أشعر بضغط شديد على قلبي وأرى الدنيا على رحبها ضيقة في نظري

ثم أنّت انيناً محرقاً وقالت — ولِمَ هذه الحلي والجواهر ؟ . . انزعنها عني واضفرن شعري كغدائركن

— كيف تقولين هذا وانت زوجة النبيل موروزوف صاحب المجد الباذخ والشرف الرفيع ؟ . . فاذا ضفرت غدائرك كما تضفرها البنات ورآك على هذه الصورة مولانا النبيل فماذا يكون جزاؤنا منه ؟

— انه نائم الان فلا يراني قبل ان نفرغ ويعود شعري الى ما كان عليه

— واذا لم ير النبيل ذلك ، فهو على كل حال اثم نسألك ان لا تحملينا تبعته

فأطرقت هيلانة وهي تقول في نفسها : « وهل يعد تذكر الماضي اثماً ؟ . . » ثم قالت — حسن ، فليكن ما اردتن ! . ولكنني أدعو اولغا فأضفر شعرها كما كان يضفر شعري قبل زواجي

فجثت اولغا امامها ، وشرعت هيلانة في العمل ، وما هي الا هنيهة حتى كان لاولغا ضفيرتان شائقتان

فقالت هيلانة — انظرن ! أليست ضفائر البنات أبهى واجمل من عقائص النساء ؟

فقالت واحدة من الرفيقات — كل شيء حسن في وقته يامولاتنا . فانت تتمنين الضفائر ، وهذه رفيقتنا دونياشا تتمنى العقائص

فقالت دونياشا وقد صبغ وجهها بحمرة الخجل — اليكن عن مثل هذا الكلام ! . . فانا أود ان أظل عذراء عمري بطوله !

فضحكت البنات ضحكاً عالياً

وقالت هيلانة لاولغا — انحني الان امامي فأربط بضفيرتك هذه الانشوطة (الشريطة) الزرقاء لتصبحي كاحدى عرائس الماء . . فهن يضفرن شعورهن ويتزين بكامل زينتهن في هذا العيد على الخصوص

فقالت احدى البنات — وهمت ياسيدتي . . فان عرائس الماء لايفعلن ذلك الا في عيد الغطاس . . اما اليوم ، في هذا العيد ، فانهن يمرحن مسترسلات الشعور فقط ، ولكنهن يفتن الناس بدهائهن وجمالهن

فقالت اولغا تخاطب البنات — بالله دعننا من هذا الحديث ! . . فان عرائس الماء يفعلن اليوم اموراً يشيب لها الاطفال وترتعد لهولها الفرائص

فقالت هيلانة — وهل تخشين عرائس الماء يا اولغا ؟

قالت — وكيف لا أخشاهن ياسيدتي ؟ ومن لايخشاهن ، او يجترىء ان يدنو من الغابات او الانهار في هذا النهار او في عيد الغطاس ، ولو كان

في ضواحي موسكو ؟ . . لانهن اذا أبصرن فتاة خطفنها ، او شاباً خلبن لبه وأسرن قلبه . .

فقاطعتها رفيقاتها قائلات — لاتخشي سوءاً يا اولغا ، ولا تهرفي بما لا تعرفين . . فليس لعرائس الماء وجود في جهات موسكو البتة ، وانما هن يكثرن في الولايات الجنوبية من بلادنا وفي الشمال الاقصى . . وأما انهن فاتنات خلابات فهذا مما لاينكره احد. فكم من عاشق استهوينه فنسي بين حبيبته ، ووالد هجر اولاده وزوجته ، وعاقل أضاع رشده ؟ . .

ولما سمعت هيلانة ذلك أطرقت مفكرة وهي تتأمل في هذا الكلام ، ثم رفعت رأسها وقالت — وهل توجد عرائس الماء في بلاد لتفا ؟

قالت هذا وهي توجس خوفاً على حبيبها أن يكون في عداد من وقعوا في أشراك عرائس الماء . . ولذا سألت عما اذا كان لهن وجود في البلاد التي ذهب اليها الامير نكيتا من خمس سنوات كما علم القارىء . فانما

تلفتها الى نجـــد دليل على ان الغرام بأرض نجد

فاجابتها احدى الفتيات — ان بلاد لتفا لهي الموطن الاصلي لعرائس الماء ، فهن هنالك الوف لاتحصى

فتنهدت هيلانة ومسحت دموعاً انحدرت من ماقيها . ثم نظرت الى الرفيقات تريد أن تتكلم ، فسمعت فجأة صوت وقع حوافر جواد ، وظهر من وراء سياج الحديقة فارس بهي الطلعة ، ما وقع نظر هيلانة عليه حتى اخذتها الرعدة وخفق قلبها شديداً ، لانها تحققت أنه هو حبيبها الاميرنكيتا . فصاحت بالفتيات — أغربن عني . . ولا تعدن الى هنا الا اذا دعوتكن ! .

فأسرعن وتوارين عنها ، وهن لا يجسرن ان يخالفن لها امراً او يستفهمنها السبب . .

ورأى نكيتا هيلانة فجحظت عيناه وجمد في مكانه

ولما ملك روعه عاد فتفرس فيها ، فرأى شعرها مقصوصاً على رأسها ، وكان عقص الشعر مختصاً بالسيدات المتزوجات فقط ، فلم يصدق نظره وشعر كأنه في حلم . . . ثم اخذت تظهر له الحقيقة شيئاً فشيئاً فكاد يفقد عقله ، وقد أيقن بتقوض صروح امانيه واضمحلال آماله . . ووقف قليلاً يناجي نفسه بقوله : « أهذه هي هيلانة التي وقفت عليها قلبي وروحي ، وأقسمت لي أن تبقى حريصة على الولاء ؟ . . فماذا اعتراها حتى أنكرتني وجحدتني وآثرت علي غيري ؟ . . فالوداع ايتها الآمال والاماني فقد عبثت بك الايام وطوتك اكفان الدهر ! . . والوداع ايها الحب ، فقد تحولت سعادتك الى شقاء وحلاوتك الى مرارة وعناء ! . . »

ولم تكن هيلانة اقل يأساً من نكيتا ، وقد ضاق بها الفضاء وودت لو فتحت الارض فاها وابتلعتها ، من أن تقف هذا الموقف

غير انها بعد أن أقصت البنات عنها ولم يبق في الحديقة سواها تقدمت الى السياج ، الى جهة الامير ، وهي مطرقة الرأس منصدعة القلب

فابتدرها نكيتا بقوله — استحلفك بالله يا هيلانة أن تقولي لي كلمة لا غير . . . أأنت متزوجة ؟

فاطرقت ولم تجد كلاماً تقوله

فقال — تكلمي يا هيلانة ولا تعذبيني !

فقالت وهي ترتجف ،كأنها امام الجلاد — عفواً يا نكيتا ! فاسمع ما اقول

قال - لا اريد ان اسمع شيئاً، لاني عرفت كل شيء.. فأستودعك الله !..

قال ذلك وأطلق لجواده العنان

فاستوقفته هيلانة بلسان يلعثمه الحزن وصوت متهدج تقطعه الزفرات وقالت - أسألك بالشرف أن تسمع مقالي، ثم اقتلني بعد ذلك . .

ولم تستطع أن تتم كلامها، فاصطكت اسنانها وأصابتها نوبة عصبية ولم تلبث أن سقطت الى الارض مغمى عليها، وقد مدت ذراعيها الى الامام كمن يستغيث أو يطلب شيئاً

فلما رأى نكيتا ذلك انصدع قلبه، فوقف جواده بعد أن هم بالمسير، ووقف حيران كمن تتكسر النصال على أوصاله وهو لا يدري ماذا يفعل . .

وأفاقت هيلانة من غشيتها فتنهدت من كبد حرى، ثم شرعت تقص على الامير ما جرى لها مدة غيابه، فأخبرته بحديثها من أوله بكل تماصيله وذكرت ما كان من الامير اثناسي فياز يمسكي وترصده اياها، وما تلا ذلك من تصدي الملك للامر واعلان رغبته في اكراهها على الزواج. . . ثم قالت - ولما لم أر لي نصيراً سلمت نفسي للنبيل موروزوف فكان ابرّ بي من الجميع . . هذا هو حديثي ايها الحبيب !. . ولقد أحببتك ولا ازال احبك . . ويشهد الله انني لم أعرف في حياتي الحب قبل أن رأيتك ولن يدخل صدري هوى بعد هواك . . فان شئت أن تغفر لي كان ذلك منك رحمة، وإلا فهذه حياتي بين يديك فافعل بها ما تشاء

فلم يحر الاميرجواباً، وظل ضائع الرشد لا يدري ما يصنع أو مايقول وكانت هيلانة شاخصة اليه ببصرها، تنتظر كلامه وهي بين الخوف والرجاء ولبث الامير في مكانه يتأمل في حالته وحالة هيلانة ثم قال - اجل ايتها

الحبيبة . . . ان الله انما بذلك قضى ، فلم يكتب الحب في سفر نصيبنا . فانت اذاً بريئة ولا تستحقين اللوم ، لانك لم تقترفي ذنباً . . واعلمي ايتها المفداة اني لا أزال مخلصاً لك ، أجود بحياتي في سبيلك . . واني ما زلت أحبك وأهواك ولن أنساك ، وقد ملكت قلبي فهو لك دون سواك ووقف عليك ماحييت . . .

حلت هـــذه الكلمات كالبلسم الشافي على هيلانة وسرت في عروقها فأحيت ميت آمالها وأنعشت نفسها . . وما درت الا وقد وقفت على متكأ ملتصق بسياج الحديقة فاستقبلها نكيتا بوجهه ، وبدون اقل تبصر أو حذر انطرح كل منهما على الآخر وتعانقا . .

ان هيلانة قد قبلت الامير وغدرت بعهد زوجها . . فما عسى أن تكون حالتها اذا كشف الشيخ سرها ؟ . . فقد كان موروزوف شديد الغيرة ومن اكبر الناس حرصاً على الشرف وصيانة العرض . . أفلم تخش هيلانة أن يطلع على خفاياها ؟ . . ألم يخامرها الخوف من الاقدام على عمل ربما ذهب بحياتها وحياة حبيبها ؟ . . ان هيلانة قد اجابت داعي هواها ، فحنثت في يمينها ، ولم تفكر في العواقب . .

الفصل العاشر

الامير والميل

كان السيد د وحينا موروزوف يعرف الامير نكيتا من عهد طويل وقد دامت الحرب بين اخوانهما عشر سنوات متوالية ، قضى موروزوف خمساً منها قائداً للجيش الذي كان يحارب التتر في الجهات الشرقية من البلاد . وقضى نكيتا الخمس السنوات الاخرى في الجهات الشمالية ، في بلاد لتوانيا



﴿ نبلاء روسيون بزيهم الوطني ﴾

غير أن موروزوف في ابان هذه السنين كان رجلاً كبيراً بكيتا نشيطاً قوياً ماضي العزيمة شديد الشكيمة . استأثر برئاسة ياصاً في مقارعة الابطال ومكافحة الكماة ، حتى ذاع صيته في كل مكان ، واعترف بفضله ومآثره الخالدة في خدمة الوطن الخاص والعام . وقد كان مضيافاً جواداً متصفاً بكل ما يجمل افراد الناس من الفضائل والآداب . وكان قصره جامعاً لما يعجز القلم عن وصفه من اسباب الهناء والرفاهية . لا يحل ضيف او زائر الا انتعشت روحه ، وسر كأنه في منزله بين اهله وذويه . . .

– اهلاً وسهلاً بك ايها الامير ! راحتنا على ملازمتك ايها الصديق الحبيب ! . . – بهذا الكلام استقبل موروزوف ضيفه الامير بكيتا ، ودخل

به الى ردهة في القصر فسيحة ثمينة الرياش فاخرة الاثاث ، تتلألأ على جدرانها انواع الاسلحة في أغماد مرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة

ولما استقر بالامير المقام استأنف النبيل كلامه فقال — مرحباً بك ايها الامير ! . . اني وحقك لفي غاية السرور بلقياك بعد أن فارقتك هذه المدة كلها . . ولكني كنت أتنسم اخبارك واعجب بكفاحك وجهادك وظفرك المتواصل واخلاصك للملك وتفانيك في خدمة بلادك

فشكره الامير وحياه بتثل تحيته ثم قال — ان الامير برونسكي قد انفذ معي اليك رسالة يا سيدي . . نها كها

فتناولها موروزوف وقال — سأتلوها فيما بعد . أما الان فدعني أمتع عيني بمرآك وأطرب لحديثك

ثم نادى خادماً كان على الباب وقال له — أدع السيدة هيلانة الى هنا وقل لها ان ضيفاً عزيزاً جداً زارنا

ولم يمض الا القليل حتى دخلت هيلانة وقد امتقع لونها واضطربت ولكنها تقدمت فسلمت على الامير كأنها تراه اول مرة . ورأى موروزوف ارتباكها فنسبه الى حيائها من الامير ، وقال لها — لا تحسبي الامير غريباً عنا ، فهو صديقي ، كما كان والده من قبله ، وأنا احبه حب الاب لابنه ، وهو مثال الشهامة وآية الاخلاص والوفاء

وشعرت هيلانة بان عيني زوجها شاخصتان اليها تستشفان ما في جنانها ، فتجلدت وأبدت بعض الانس والبشر . غير أن ذلك لم يخف عن موروزوف ، وقد لمح في بشاشة وجهها تصنعاً فقال — واني اسألك يا عزيزتي أن تهتمي باعداد طعام العشاء قبل موعده ، لاني اخشى أن يكون الامير جائعاً

وما صدقت هيلانة أن سمعت هذا الكلام حتى خرجت وهي تكاد تتعثر باذيالها

وكاد نكيتا يظهر عليه مثل ما ظهر عليها من الارتباك ، فلما خرجت تنفس قليلاً ثم قال — ولكني اسألك يا سيدي أن تعفيني من الطعام ، اذ لا بد من الذهاب الان لمقابلة الملك

قال — ولِمَ هذه العجلة ؟ . . اني لا ادعك تخرج قبل أن تؤاكلني فلا تزدرِ شيخاً اقصاه الملك من امام عينيه . . أفلم تر شعري الطويل ؟

قال — بلى ، وقد دهشتُ لذلك ، لان حياتك كلها بيضاء كالثلج ، لم توصم قط بعار ، وقد قضيتها في خدمة الملك والوطن فكيف يعاملونك هذه المعاملة؟

قال — لاني لم اشأ ان أخفض جانبي وأطأطىء رأسي للظلم واستخف بشرفي وعزة نفسي . . . ولاني لم اكتم استيائي من انشاء فرقة رجال الحرس وما هي الا عصابة جهنمية اقلقت الافكار وروّعت القلوب ودمرت البلاد

فقاطعه نكيتا قائلاً — ولكنني لم ادرك للان شيئاً من امر هؤلاء الناس . . . ولقد رأيتهم بعيني ، ورأيت من بذاءتهم وفجورهم هذين اليومين ما ملأ نفسي ألماً . . فأسألك يا سيدي أن تزيدني اطلاعاً على حقيقة امرهم والغاية من انشاء فرقتهم

قال — لبيك ، فلا أحب الي من مكاشفتك بالامر ، حتى اذا اردتَ أن تعمل على الاصلاح ودفع الاخطار عن الوطن عرفت كيف تجري فيه وكيف تحتاط لنفسك . . ونحن اذا شكونا من فرقة رجال الحرس ، فانما نشكو في الحقيقة من الملك نفسه ، لانه علة جميع هذه البلايا والنكبات ، ولولاه لما كانت هذه الفرقة او لم تكن شيئاً مذكوراً . . فالملك يوحنا سيء

الظن سريع الغضب وقد طبع على الشر والفساد من صغره ، فالتف حوله بسبب ذلك رهط من الوشاة من رجال الحاشية ، رأوا فيه هذا الميل فأخذوا يسعون لديه بكل نبيل لايجاريهم في اهوائهم ، ويفسدون ما بينه وبين المخلصين من رجاله ، الى أن أوغروا صدره على جمهور منهم ، ففتك ببعضهم وأقصى البعض الآخر ، وأظهر ارتياحه الى الوشاة والنمامين . فما عددهم حتى صار حوله منهم جيش كبير ، وقد أجرى عليهم الارزاق ومنحهم الرتب وأغدق عليهم النعم بلا حساب ، وهو في اثناء ذلك يتفنن في انواع العقوبة والارهاق حتى ملأ السجون بالمئات والالوف من الابرياء ، وقتل الالوف منهم لمجرد الظن او لوشايات كاذبة كان يختلقها اخصاؤه وذووه . . أفلم تسمع يا حضرة الامير بهذه الحوادث ؟

قال — بلى ، سمعت بعض الشيء منها وأنا في بلاد لتفا ، ولكنني كنت أعتقد ان الحق في جانب الملك ، وأن له مطلق الحرية في الانتقام من الخونة

قال -- وليس لاحد أن ينكر ما له من الحق في ذلك . . ولكنه لم يكن يعاقب الخونة حقيقة بل المخلصين والابرياء كاداشف وسلفستر وششكين وساتين وابنائهم وذويهم وامثالهم من مشاهير رجال المملكة الذين يسطر لهم التاريخ الاعمال المجيدة والمآثر الخالدة ، وكلهم ابرياء تسمها لهم أنت وغيرك ، ويجتمع ابناء روسيا بشيدون بذكرهم ، وليس في البلاد من ينكر فضلهم وايا ديهم البيضاء

فأطرق نكيتا مفكراً ثم قال — . . . . . . فالذنب اذاً هو ذنب رجال الحاشية وعليهم تقع تبعة جميع هذه النكبات ، وهم علة هذا الدمار

قال — انهم لكذلك . . ولكن يوحنا مستسلم لهم كل الاستسلام ، فهو يصغي اليهم ويصدق وشاياتهم ودسائسهم ويشتط في العقوبة دون ان يتروى في شيء . . وهاك واحداً من الوف الادلة على ذلك . فقد كان جالساً ذات يوم الى مائدة الطعام ومعه رجال بطانته وبعض النبلاء المدعوين وبينهم الامير أوبو لينسكي . فتقدم ثيودور باسمانوف رئيس السقاة وهمس في أذن الملك كلمة بحق الامير ، فما كان من يوحنا الا ان طعن الامير بخنجر حاد في صدره أفاض روحه

فذعر نكيتا لهذا الكلام وقال — لو قال لي احد غيرك يا سيدي مثل هذا لدعوته واشياً والقيت عليه القبض بنفسي . .

فتبسم موروزوف وقال — لا ترتب ايها الصديق في شيء مما أقول ، وليس لي غاية الا اظهار الحقيقة لك لا نسراك . وهيهات ان يتأتى لي وصف الحالة كلها . . وستقف انت بنفسك على امور واحوال لا تصدق فيها سمعك وبصرك

قال — عفواً ايها البويار . . فان الذي قلته لم يكن الا لشدة استغرابي وعدم تصوري امكان حدوث مثل هذه الفظائع والمنكرات التي يبعد تصديقها لاول وهلة . . فلعل الملك يصاب حيناً بعد آخر بمس من الجنون فيفقد معه صوابهُ

قال — ليس ذلك ببعيد . . وقد يكون جنونه احياناً مطبقاً . . واسمع أحدث لك شيئاً آخر من اطواره وغرائبه كتوطئة لما ستقف عليه من احوال فرقة رجال الحرس . . فقد دعا يوحنا ذات يوم رجاله الاخصاء واخذ يرقص واياهم في أثواب المساخر ، وكان في جملة الحضور النبيل ميخائيل ربنين ،

فما رأى هذا القصف حتى هطلت دموعه حزناً ، ورأى الملك منه ذلك فأمر فقدم الى النبيل زيٌّ من تلك الازياء ودعي ليشارك القوم في خلاعتهم ..

فصاح نكيتا – وهل ارتدى النبيل هذا الزي ؟

قال – كلا لم يرتده بل داسه بقدميه وقال للملك : « لقد ساء فألك ايها الملك ، فاني لن الطخ شرفي ومقامي بهذه السخرية ! . . »

قال – وهذا اقل ما ينتظر من النبيل مهما كانت العاقبة

قال – نعم . . وقد كانت العاقبة أن الملك بطش به بعد ذلك ببضعة أيام وهو في الكنيسة . . . والخلاصة ايها الامير انه لم يكن يمر يوم الا وتهرق فيه الدماء الزكية ، حتى خيل الينا اننا في عصر دموي ، لا عمل للملك فيه الا التجني على الابرياء واهراق الدماء ، ولا عمل للرعية الا أن ينتظر كل فرد منها منيته . . وكان يفتك بالناس في منازلهم ومعابدهم وفي السجون والشوارع وفي كل مكان ، حتى زهقت الارواح وأظلمت المنازل . وكان معظم البلاء ينزل بالنبلاء ، وقد بث عليهم الملك العيون والارصاد وأخذ يحسب عليهم أنفاسهم ويعزو اليهم ما شاء من الاكاذيب والتهم ، وكان اعوانه قد ابتكروا اساليب كثيرة للايقاع بهم ، ومن ذلك انهم كانوا اذا ارادوا الانتقام من نبيل قبضوا في الحال على خدمه وعبيده وساقوهم الى السجن ، حيث كانوا يكرهونهم بجميع انواع العذاب على الشهادة الكاذبة التي كانوا يملونها عليهم ، وكانت كل شهادة من هذا النوع كافية لقتل ذلك النبيل وتبديد شمل اسرته ومصادرة ما ملكت يداه . ومن كان من اولئك الخدم اميناً لسيده ، ولم تكن ذمته تبيح له البهتان وشهادة الزور ، كان يعذب

أشد تعذيب الى أن يموت اشنع ميتة . . . ولا أكتمك أن يوحنا كان في بعض الاحيان يعود الى رشده ، فيندم ويبكي ويدعو نفسه ظالماً وسفاحاً ويوزع الصدقات على الاديار والكنائس والفقراء . ولكنه كان لا يلبث أن يعود الى طبعه وعادته ، فيزيد على اعماله من الشدة والتفنن في المنكر ما لايحيط به وصف . . . وبينما كانت هذه الحوادث تجري شاع في العاصمة أن الملك قد اعلن تنازله عن العرش وعزم على مغادرة موسكو الى حيث لا يعلم احد . وكان لهذا الخبر اشد وقع في النفوس ، فركبتُ وبعض النبلاء والامراء جيادنا واسرعنا الى قصر الكرملين لنتحقق الامر ، فرأينا الجماهير منتشرة في الطريق والشوارع وقد ملكها اليأس واستولى عليها الذعر . وما كدنا نبلغ ساحة القصر حتى رأينا المركبة الملكية خارجة تقل الملك والملكة وولي العهد ، يتقدمها كوكبة من الفرسان ، ويتبعها مركبات أخر تحمل اثاث القصر ورياشه وامواله وفي اثرها زعماء الجنود وأخصاء البلاط . فأُسقط في ايدينا ووقفنا هنيهة نتأمل في الحالة ثم اندفعنا الى مركبة الملك نريد أن نستعطفه لينثني عن عزمه ، فحيل بيننا وبينه ، وأعلن لنا الفرسان الذين كانوا يواكبون المركبة أن الملك يأبى مصالحتنا ولا يريد أن يرى منا احداً . فارتددنا القهقرى ، وسار الموكب في طريقه يخترق شوارع المدينة حتى توارى عن الابصار ، وعدنا كل الى منزله ونحن سكارى من الغم والهم . . وكان في اعقاب ذلك أن ورد بلاغ من الملك يقول فيه أنه قد تجرد عن الملك ولا يريد أن يعود الى العاصمة ، لانه لم يعد يحتمل غطرسة النبلاء وتجبرهم . . وما كاد يشيع هذا البلاغ حتى قام الناس له وقعدوا ، وقد شكوا وبكوا ، وكان الحزن عاماً ، وكانت العاصمة كأنها في مأتم . . ولا يخفى عليك

ايها الامير ان يوحنا ولئن كان عاتياً وشريراً، غير أن الله هو الذي « مسحه » ملكاً وأوجب علينا طاعته والاذعان لاحكامه . . ويظهر أنه تعالى انما اراد بذلك كله أن يعاقبنا على آثامنا، فسلط علينا هـذا الطاغية، يستبد بنا ويقتل اباءنا وعزة نفوسنا وينتهك حرمنا لنعود عن الضلال ونسلك سبل الصلاح . . . وكان النبلاء يجتمعون كل يوم للنظر في هـذه الحالة الى أن استقر الرأي اخيراً على ان نشخص كلنا الى حيث كان الملك ونبتهل اليه أن يعود الى العاصمة لتدبير شؤون المملكة . . وقد عرفنـا انه مقيم في قرية « الكسندروفا » — وهي على مسافة نحو مئة كيلومتر من موسكو — فمضينا على بركات الله ونحن نملل النفس بانفراج هذه الكربة . . وقد اذن لنا الملك بمقابلته، ولكنه استقبلنا بالخشونة والتجهم واخذ يوجه الى كل منا شفرات وذنوباً لم يكن لنا علم بشيء منها، فاتهمنا بالمروق من طاعته والتآمر على حياته والعزم على تسليم البلاد للتتر، وغير ذلك مما لم يدر إلا في خلده.. وختم كلامه اخيراً بقوله: « ولكني مع هذا سأعود الى العاصمة وأعود الى تدبير امور الرعية، ولكنني لن افعل ذلك الا بشروط سوف تقفون عليها! »

وكان نكيتا يسمع الحديث أتم الاصغاء [illegible] ما هي هذه الشروط؟ لا شك انها ايضاً من امثال هذه الغرائب التي سردتها علي، حتى خيل الي اننا عدنا بحضارتنا الى عصر الظلمات والترحش، يوم كان الناس يأكل [illegible]

[illegible] . . فقد كانت شروطه عنوان [illegible] واهمها تأليف فرقة رجال الحرس، واقتضاء [illegible] المرتبة والفضلة . . وبرز الملك في وجه

فعاد الى موسكو ، وكان سرور الناس بقدومه مما يعجز اللسان عن بيانه ، وقد خرجت المدينة باسرها لاستقباله . . وكان بعد ايام انه استدعى جمهور النبلاء وصرح لهم بما في نفسه فقال : « لقد عدت الان الى الحكم وفي عزمي ان أضرب على ايدي الخونة ومثيري الفتن بعصاً من حديد ، فلا أرحم احداً ولا أحقن دم احد . . وسأصطفي لي حرساً خاصاً يذودون عن حقوقي ويرصدون الخونة والمفسدين لاستئصال شأفتهم ومحو آثارهم ؛ وسيكون لي ولهم مدن خاصة وغياض وأرزاق لايشاركنا فيها احد » . . ولم يبطىء بعد هذا القول ان أنشأ فرقة الحرس ، جامعاً فيها كل من راق في عينيه وحظي عنده من الرجال والفتيان الاغرار ، وكلهم من اهل الدعارة والفساد والشر ، وكلهم الا النفر القليل من حثالة القوم . . وكان كل من انتظم في سلك هذه الفرقة يقسم امام الملك على قطع كل علاقة له بالنبلاء ، ويعاهده على البحث عن كل خائن منهم . . ثم ترك الملك رجال حرسه هؤلاء الحبل على الغارب ، فاستفحل امرهم وتفاقم شرهم وكانوا على البلاد بلية لم تبل بأشد وطأة منها لا من التتر ولا من غيرهم من الاعداء والمحاربين . . وها انهم يطوفون الان شراذم كثيرة في جميع انحاء المملكة ، وشارتهم المكنسة ورأس الكلب ، يكنسون الشرف بدل الخيانة وينهشون المخلصين والابرياء من الرعية ، لا الخونة وأعداء الامة كما يدعون . . فهم فوق ذلك كله ولا يخشون احداً ولا يعرفون شريعة ولا يجري عليهم حكم احد

فقال نكيتا وقد ظهر عليه الانزعاج الشديد — وكيف اذعنتم انتم لهذه الشروط وصغرت نفوسكم الى مثل هذا الحد ؟

قال — وهل لنا غير ذلك ؟ . . أفنقاوم الملك وهو من الله ؟

قال – صدقت . . انه من الله . . ولكن كان يجب ان تظهروا له على الاقل استياءكم من فرقة رجال الحرس هذه ، ولا تكفوا عن التنديد بها وتشهير مساوئها وفظائعها ، فلعله يلغيها او يصلح فاسدها ويخفف وطأتها عن العباد

قال – انه أعرف مني ومنك ومن كل انسان بذلك ، ولكنه راض عن رجاله ، يرتاح الى تفننهم في الشر ويحثهم على كل موبقة وفظيعة . . وانا ايها الامير لا أصمت مادام في عروقي دم يجري ، وطالما قرعت سمع الملك بالشكوى ، وطالما صرحت له بافكاري ، وقاومت رجاله بكل ما أوتيت من قوة وحجة . . بيد ان ذلك لم يكن الا صرخة في واد ، وكان من نتيجته أني أصبحت في نظر الملك مجرماً وخائناً ، فكرهني اشد كراهة وأقصاني عن بلاطه ، ولا يلبث ان ينشب فيَّ مخالب نقمته . . وقد خلا البلاط من النبلاء وأصبح مسرحاً لاولي التهتك والدعارة ، وصار كل عابر سبيل أقرب اليه منا . فهناك الان أليكسي باسمانوف وابنه ثيودور ، وهما يتجاريان في حلبة الشقاء والدناءة كفرسي رهان . . وهناك مليوتا سكوراتوف ، وهو أشهر جلاد وأفظع جزار عرفه الناس حتى اليوم ، بل هو الوحش الضاري الذي لا تراه كيفما قابلته وفي كل ساعة من ساعات الليل والنهار الا ملطخاً بدماء الابرياء . . وهناك باسيل غريازنوي وبوريس غودونوف ، والاول لا يهمه من دواعي الشرف شيء وقد مات ضميره وتحجر قلبه ، والثاني يبيع اباه وامه واولاده في سبيل العظمة والسؤدد ، ولو كان هذا السبيل جماجم المئات والالوف من البشر . . وليس في البلاط من ذوي المقامات الرفيعة الا الامير افناسي فيازيمسكي ، ولكنه فقد رشده فأهان شرفه وأهاننا جميعاً معه . .

والخلاصة ان البلاط ايها الصديق قد أمسى في أحط دركات الهوان، والملك معرض عن الاصلاح غير مبال بشيء من شؤون البلاد ، وهو ابداً منقطع مع ندمائه وأخصائه الى المآدب والقصف منغمس في الملاهي والمعاصي ، ولا عمل له يتلهى به الا الانتقام والتشفي والتجني على كل ذي فضيلة وحسب...

وأمسك موروزوف عن الكلام وهو يتنهد من كبد حرى وقد شغلته افكار اخرى فأمعن في الخيال . . ولبث الامير نكيتا في مكانه وقد بلغ منه الحزن واليأس مبلغاً عظيماً وهو لا يتفقه سر انقلاب الملك وماذا طرأ عليه حتى كان علة جميع هذه الشدائد والرزايا التي نابت البلاد وقوضت اركانها . .

***

وكان الخدم في اثناء ذلك قد بسطوا مائدة الطعام ، فنهض الاثنان اليها وكان عليها شيء كثير من المآكل الفاخرة والمشروبات المعتقة الطيبة ، فأترع موروزوف قدحين من الشراب ، قدم للامير قدحاً وتناول هو القدح الآخر ، ثم قاما فشربا نخب الملك وهما يدعوان له بطول البقاء وسلوك سواء السبيل . وعادا فجلسا وخاضا عباب الحديث ، وقد سأل النبيل ضيفه ان يسرد عليه اخبار الحرب التي قام بها في بلاد لتفا ، ففعل واستطرد في حديثه اخيراً الى ذكر المعركة التي نشبت بينه و بين رجال الحرس في قرية الدب بجميع تفاصيلها ، ثم ذكر له مقابلته لبعض شراذمهم وهو داخل الى العاصمة ، وما كان من امره مع الناسك باسيل

وكان موروزوف مقبلاً عليه يسمع حديثه بملء الاعجاب ثم قال : —

انك ايها الامير لممن يبخل الدهر بامثالهم وممن يوطد الملك بهم و يعزز ، غير ان الذي فعلته في القرية قد أفسد عليك كل امر وجعل لك سيئة

لا تغتفر في نظر الملك وأعوانه . . انك ايها الحبيب قد اوقعت برجال الحرس ، وأقل مقاومة لهم تحسب الان مقاومة لشخص الملك نفسه ، ولا تكون عاقبتها غالباً الا الموت . . ان هؤلاء الناس قد هجموا على قرية الدب لانها لي ، فلا تعجب لعيثهم فيها ، لان كل من ناله سخط الملك من النبلاء تصبح عقاراته وضيا عه نهباً مقسماً ، يتوافد اليها رجال الحرس في كل حين ينهبون ويسبون و يرتكبون ما شاءوا من الفظائع والكبائر . . واما الناسك باسيل فهو رجل صالح وبار يحترمه كل انسان ، حتى الملك نفسه يحذر جانبه ويخشى انذاره ووعيده ، وهو لا يقبل على الحق رشوة ، فيسخط و يتهدد و يستنزل غضب الله على كل من فعل سيئاً وركب شططاً ولو كان الملك نفسه ، ولو كان عندنا رهط من امثاله لكنست البلاد من رجال الحرس وطهرت من بذاءتهم وفجورهم . . ولكن مالي وللعودة اليهم في مثل هذا المقام ! . . هات فأخبرني اذا كنت لا تزال عازماً ان تقابل الملك

قال — بلا بد ان شاء الله . . وسأنطلق لمقابلته صباحاً

- ولكن لا تتاح لك ذلك ، لانه لا يقيم الان في موسكو

- وكيف ذلك ؟ فهل عاد مغضب

-- نعم . . وعاد الى قرية الكسندروفا ، وفي صحبته رجال حرسه

— اذاً لا بد لي من الاسراع ! فيجب ان انطلق هذه الساعة الى منزلي اتعهد فيه بعض الشؤون وأقابل رجالي ثم اسير بلا ابطاء لمقابلة الملك

— ولكنني انصح لك بعدم مقابلته ، لانني أخشى عليك

- وماذا تخشى ؟

— أخشى ، انه يحل بك الامر الفظيع !

— الموت والحياة في يد الله ، وأنا لا أرى الا التسليم لمشيئته تعالى

— انت تعلم ايها الامير اني أحبك ، وقد أحببت اباك من قبلك وكنت واياه يداً واحدة في جميع الاحوال ، فلا تعجب من الحاحي عليك بعدم المسير الى الملك لاني متيقن عاقبة الامر . . ان حياتك ايها الامير كانت مجيدة وهي ستكون اعظم مما كانت ، والحروب ان خبت نارها اليوم فستستعر غداً ، ولا غنى للوطن عن ساعدك القوي و بسالتك النادرة ، فلا تعرّض نفسك للوبال

— قلت وأقول ان الموت والحياة في يد الله ايها النبيل، وليس للانسان ايا كان ان يردّ مقدوراً

— ومع هذا فاني أرى ان تنقاد لمشورتي وتمكث عندي فأقيك كل ملمة وتكون في قصري بمنزلة الابن الحبيب

— اعذرني يا سيدي لمخالفتي اياك في هذا الامر ، لاني أرى عاراً وسبة في فرار المرء من وجه ملكه

— بالصواب نطقت . . وأنا انما أردت ان تبقى عندي بعض الوقت فقط ريثما يخمد غضب الملك ونستمد لك منه العفو والرضى

— الموت أحب الي من الحياة ولو يوماً او ساعة في مثل هذه الحالة . . وعليه فانا أشكر عواطفك الكريمة يا سيدي وأستودعك الله على رجاء ان تجمعنا الايام على خير

فنظر اليه موروزوف نظرة الحب والعطف ، وفي دماغه أتون من الافكار المضطربة خوفاً من مواراة شمس هذا الحسن وذبول زهرة هذا

الغصن ، وقد أثنى في نفسه على ابائه وتصميمه على مقابلة الملك ، وهو لو كان في مكانه لما فعل غير ذلك

ثم نهض فعانقه بلهفة الوالد الحنون ودعا له بالتوفيق وحسن العاقبة ، وخرج فشيعه الى فناء القصر وفؤاده يتفتت ومهجته تتقطع

وكان الخدم قد أعدوا الجواد فامتطى الامير صهوته وخرج وقلبه خافق وافكاره مشردة . ولكنه لم يسر الا قليلاً حتى لاح له شبح عند سياج الحديقة لم يلبث ان تبين فيه شخص حبيبته هيلانة ، وكانت واقفة ترتعش وقد شخصت ببصرها الى ابواب القصر ونوافذه خشية الرقيب

وما شعر الامير الا وقد أصبح امامها كأن يداً قادرة دفعته الى ذلك المكان ، فوقف وهو لا يدري كيف يفاتحها الحديث

وكانت هيلانة بحال دنوه منها قد نسيت كل حذر ، فبادرت اليه والدموع تترقرق في ما قيها وقالت — لقد سمعت كل ما دار بينك وبين النبيل من الحديث وعلمت انك مسافر الان لتقابل الملك ، فتركت مخدعي في مثل هذه الساعة من الليل وعرضت نفسي لغضب زوجي وأسرعت لأقف بين يديك وأبتهل اليك ان لا تبرح موسكو ولا تقابل الملك لان في ذلك الموت المحتم

فزفر نكينا وقال — لقد كتب ياهيلانة لهذا القلب ان ينهدم رجاؤه وتفنى آماله . ولم يبق لي الا ان ازج بنفسي في كل خطر لأتجرع كأس المنون وأنجو مما انا فيه من اليأس والبلوى . فالموت هو أخف وطأة علي من حياة انقلبت مسرتها في عيني فلا أجد فيهاما يحببها اليَّ

قالت — وكيف تسعى الى ذلك وانت لا تزال في عنفوان الصبا وشرخ الشباب ؟ . . انهم واويلاه يذيقونك العذاب ألوانا

قال — وهل لي ان أرجو شيئاً بعد ضياع كل ما تعتز به النفس ويبتهج له الفؤاد ؟ . . أواه يا هيلانة يا حبيبتي . . لقد فقدتك الى الابد ، وأصبحت بعد الذي جرى وحيداً فريداً أتجرع غصص الحياة المرة ، وأموت في اليوم الواحد الف مرة

فشهقت هيلانة وقالت وقلبها يذوب التياعاً — اذ كنت لا تشفق على نفسك فأشفق على من تفديك بنفسها . . اني احبك يانكيتا وانت حياتي ، فالطف بحياتك اكراماً لي

فانفطر قلب الامير عليها تلهفاً وازداد بها تعلقاً وقال — تجلدي ايتها المفدّاة . . فلا بد من السفر . . نعم لا بد من السفر صوناً لكرامتي وذوداً عن حقوقي ، والا فأعد نذلاً وجباناً وأنت لا ترضين لي بمثل ذلك . . فان مت فتلك مشيئة الله والا فاني وما فيّ من الجوارح والعواطف والحياة وقف عليك الى الابد

فصاحت — آه يانكيتا . . رفقاً بي ! . .

ولم تلبث ان خارت قواها وتخاذلت ركبتاها وكادت تسقط الى الارض. ولبثت هنيهة والعبرات تطفح من عينيها والتنهدات تخنق أنفاسها

وكانت النجوم بادية في القبة الزرقاء والجو صافياً نقياً ليس فيه سوى قليل من الغيوم الرقيقة والقمر يسير الهوينا في طريقه وقد حجبت تلك الغيوم ضوءه بعض الشيء . ثم هب نسيم عليل فرنح معاطف الاشجار ونثر على الحبيبين احسن الازهار ، ولكنهما لم يشعرا بشيء من جمال الطبيعة ، وقد ثارت نفساهما وهاج قلبيهما البلبال

ثم برز القمر من بين الغيوم بكل سنائه ، وحانت من نكيتا التفاتة الى الى ما وراء هيلانة فأبصر شبحاً منتصباً ، يتحرك تارة ويجمد كالصنم اخرى

فمن ترى هذا الشبح؟ .. أهو خادم من خدم النبيل مر من هناك على غير تعمد ؟ .. ام هو النبيل موروزوف بعينه ، وقد خرج يطالب زوجته او يروّح نفسه بنسمات الليل ؟ ..

وما أبصر نكيتا الشبح حتى ذعر .. و بادر فهمس في اذن هيلانة كلمة الوداع ، ثم أطلق لجواده العنان

ووقفت هي شاخصة اليه الى ان توارى عن بصرها ، فسترت بيديها عينيها الدامعتين وقالت – ويلاه ! .. انا السبب في هلاكه ! ..

الفصل الحادي عشر

قرية الكسندروفا

كانت الطريق من موسكو الى قرية الكسندروفا تمثل صورة رائعة ، امتزجت فيها هيئات الناس من سائر الطبقات والنزعات امتزاجاً عجيباً ، وقامت الحركة على ساق وقدم بدون انقطاع

فكان يرى فيها السعاة على جيادهم السريعة وهم ينهبون الارض بين القرية والعاصمة ذهاباً واياباً يحملون اوامر الملك وينقلون اليه الاخبار

والزوار يقصدون زرافات شتى من الجهات القريبة والبعيدة الى دير عظيم كان في منتصف تلك الطريق يقال له « دير الثالوث الاقدس » وهو

من أشهر أديار روسيا وأكبرها واغناها ، وله في قلوب الشعب على اختلاف الطبقات احترام ديني خاص

والنبلاء والامراء ومن كان في طبقتهم من اهل الغنى والكرامة ، يؤمون القرية لشؤونهم أو يزورون الدير ، ثم يعودون الى العاصمة

والتجار والباعة على اختلاف درجاتهم وهم في مركباتهم او قوافلهم يتزاحمون ببضائعهم وسلعهم ، بين قادم الى العاصمة أو منها الى القرية ، و بينهم تجار الحيوانات الداجنة والادباب و باعة الطيور ولاسيما البزاة والحمام

والمغنون والمشعوذون واهل الطرب ، وكلهم بأثوابهم الزاهية ، يسيرون فرقاً بعضها الى العاصمة والبعض الآخر الى القرية ، و يطربون الناس بغنائهم ورقصهم وشعوذتهم

والمتسولون يطوفون بالجموع يلتمسون الصدقة ، أو يسيرون جهوراً الى الدير أو القرية

وجماعات من الشيوخ العميان حرفتهم سرد الحكايات والاقاصيص ورواية الاخبار والخرافات ، وقد اشتهرت هذه الطبقة من الناس على عهد الملك يوحنا الرابع على الخصوص لانه كان مولعاً بالحكايات لا ينام ليلة قبل أن يسمع شيئاً منها من بعض هؤلاء العميان ، وكان يكافىء المجيدين منهم المكافآت السنية

وشراذم كثيرة من رجال الحرس يسيرون في كل مكان وقد رنحتهم الخمرة ، أو يسطون على الناس ، أو يضجون و ينشدون الاغاني البذيئة بأصوات تصم الآذان

وعصابات من اللصوص كانوا يكمنون في الغابات ما بين موسكو والقرية ، وهم كلما اغتنموا فرصة بطشوا برجال الحرس او أوقعوا ببعض التجار أو غيرهم من ذوي الاموال أو ظهروا في الطريق متنكرين . . ولكنهم كانوا في كل حال اقل ضرراً وتوحشاً من رجال الحرس ، وكان بين الفريقين حرب عوان يتناحران فيها ويتطاحنان ، وكل فريق منهما يتربص الدوائر بالفريق الآخر ، والويل لكل من كان من الفريقين يقع فريسة في ايدي عدوه

* **

وكان الامير نكيتا يعرف دير الثالوث الاقدس وقد زاره في حياته مراراً ، فلما وصل اليه الان وهو في طريقه الى قرية الكسندروفا شعر بارتياح عظيم الى الصلاة و زيارة أقداس الدير ، فدخل ومعه خادمه ميخيش . وقد قابل رئيس الدير الامير وهنأه بعودته من ميدان الحرب ، ولما وقف على اخباره وحوادثه الاخيرة باركه كمن يبارك رجلاً خارجاً الى الجهاد او ساعياً الى الموت

ثم سار الامير من ذلك لدير وهو عرضة لتلاعب التصورات . وكان تارة يقنط فيتصور المستقبل قاتماً متلبداً بالنوائب ، وطوراً ينشط فيتوقع انفراج الكوبة وصفاء الدهر . . ولكنه كان لا يلبث ان يعود الى هواجسه وتأملاته ، فيرى أن آماله كلها كانت برقاً خلباً وسراباً غرّاراً ، وانه الآن أتعس خليقة بشرية ، وما من رجل احتمل ما احتمله هو من الحرمان والمرارة . . . وما زال في مثل هذه التأملات حتى أقبل على مخفر في الطريق على مسافة [illegible] كيلومترات من قرية الكسندروفا ، وفيه خفراء من

رجال الحرس وظيفتهم التعرض لكل قادم الى القرية ، يسألونه عن اسمه ومقامه وغرضه من القدوم ويجردونه من السلاح اذا كان لديه شيء منه . وقد تقدم اليهم الامير فسألوه عما أرادوا ثم صحبه نفر منهم يشيعونه

وكان الامير قد أشرف على القرية ورأى من بعيد قباب القصر الملكي فيها تسطع في أشعة الشمس بزينتها وزخارفها المصوغة من الذهب الخالص

هذا القصر بناه يوحنا الرابع واتخذه مباءة لنفسه بعد قصور موسكو ، وكان يقضي فيه اكثر أوقاته في الصلاة والعبادة ، وهو يرجو بذلك الراحة لنفسه والتكفير عن مآثمه . وبلغ به الشغف بالعبادة انه جعل القصر أخيراً ديراً تولى هو بنفسه رئاسته ، واختار من فرقة الحرس ثلاثمائة رجل، كانوا في طليعة الفرقة كلها شراً ودهاء ، فجعلهم رهباناً يقومون بجميع مهام الطريقة الرهبانية ، وانتدب من زعمائهم الامير اثناسي فيازيمسكي للاهتمام بالمؤونة ، وماليوتا سكوراتوف لادارة الشؤون العامة في « الدير » وعين غيرهما في وظائف أخر ، ومنح الجميع قلانس وبذلا رهبانية كانوا يتزيون بها فوق الاثواب الثمينة الموشاة بالذهب . ثم سن لهم قانوناً رهبانياً للمعيشة والصوم والصلاة واوقات العبادة ، وكان هو المثال الاعلى في تنفيذه . فكان يهب من نومه في منتصف الليل ، فينطلق الساعة الرابعة صباحاً الى قبة الاجراس ومعه ابناؤه وماليوتا سكوراتوف ، فيقرعون الاجراس ايذاناً بصلاة السحر التي كانت تستمر ساعتين او ثلاثاً ، وكان يتحتم على جميع الرهبان (رجال الحرس الثلاثمائة) حضورها ، ومن لا يحضرها منهم كان يعاقب بالجلد او بالسجن اياماً معلومة . وكان الملك في هذه الصلاة يقرأ ويرتل ويظهر من الخشوع والورع ما لم يكن يجاريه فيه احد من المتعبدين ورجال الدين . .

وبعد صلاة السحر هذه بساعتين كان القوم يجتمعون لصلاة الضحى ثم يجلسون الى موائد الطعام يتناولون أشهى المأكولات ويشربون اطيب الخمور، والملك يقرأ لهم في أثناء ذلك المواعظ والخطب الدينية لمشاهير الخطباء وعلماء اللاهوت . . وبعد فراغهم كانوا يحملون فضلات الطعام فيوزعونها على جمهور الفقراء الذين كانوا يحتشدون كل مرة في ساحة القصر لهذه الغاية . . وكان من عادة الملك ان يتناول طعامه بعد الجميع ، ثم يقوم فيرقد في سريره او ينطلق الى السجن لتفقد احوال السجناء او انزال العقوبات وأنواع العذاب والتنكيل ببعضهم . . وفي الساعة الثامنة مساء كان رجال الحرس يجتمعون ثانية للصلاة وبعدها لمأدبة العشاء ، ثم يأوي الملك الى مخدعه فيضطجع على سريره وأمامه بعض رواة الاخبار يفكهونه بالحكايات والنوادر الى ان ينام . .

وألف الملك ورجاله هذه الحالة ، فلم يجروا فيها تغييراً او تبديلاً الا اذا كان الملك في رحلة في بعض انحاء المملكة ، او خرج لزيارة دير الثالوث الاقدس أو غيره من الاديار المشهورة ، اوخرج لتعهد الحصون على الحدود ، او للصيد والقنص . . وكان في اثناء كل ذلك يحمل مشاكل البلاد ويصدر أوامره الى كل جهة ، ولم يكن لأحد من العمال او الولاة ان يغير او يبدل شيئاً في الاحكام والاحوال بدون أمره واطلاعه

غير ان تلك السيرة الرهبانية التي سنها الملك وأوجبها على رجاله لم تكن لتردعهم عن شرورهم ، بل كانت باعثاً آخر على انغماسهم في الملاهي والمفاسد وتطوحهم في الخلاعة والفجور . نعم انهم كانوا يصرون الايام في صلاة وعبادة ، ولكنهم كانوا في خلال ذلك يفعلون من المآثم والمحرمات ما تنفر منه

السباع الضارية . فلم يكن همهم وهم في حالتهم تلك الا الوقيعة بكل نبيل صادق والوشاية بكل كبير فى الامة وايغار صدر الملك على كل مخلص من الرعية ، وكانوا أحياناً كثيرة ينفثون سموم سعايتهم في اذن الملك وهو جاث يصلي ، وكان هو يصدر اوامره بالاعدام وهو في هذه الحالة من المناجاة الروحية

***

وواصل الامير نكيتا سيره وهو لا يرفع بصره عن القصر ، يتأمل في فخامة بنائه وعظمته وجماله . وقد رأى انه منفصل عن سائر ابنية القرية بخندق كبير ، ومن حوله الحدائق والرياض على مسافة بعيدة ، وفيها بالقرب من القصر دار الطباعة ومنازل العمال فيها واكثرهم من انكلترا وجرمانيا ، وكانت الطباعة في اول نشأتها في روسيا ، ثم منازل اخرى لعمال القصر كالطهاة والخبازين والكتبة والبنائين والسعاة والغراسين وسوّاس الخيل والبيازرة وغيرهم من خدمة ورجال الحاشية

ثم تحول الامير ببصره الى القرية فرأى كنائسها وهي اجمل ما فيها من الأبنية بالعظمة والفخامة ولا سيما « كنيسة السيدة » وهي أجملها على الاطلاق بما كان يسطع عليها من النقوش التي تخلب الابصار ، وكانت الصلبان الذهبية تغشي سطحها كله ، فقد كان على كل قرميدة منه صليب خاص فتبدو الكنيسة على هذه الصورة كأنها مكسوة كلها بشبكة من الذهب الوهاج

هذه المناظر سرّت من هموم الامير نكيتا شيئاً و بددت ما كان يضغط عليه من الهواجس والافكار المزعجة . بيد انه لم يلبث ان تراءى له مشهد آخر أعاد اليه المخاوف والوساوس . . فقد استوقف نظره فجأة بضع

مشانق كانت منصوبة على الطريق و بجانبها آلات الاعدام وأدوات التنكيل وكلها مصبوغة بالسواد

— . . عجباً من الانسان ما أفظعه وأقساه ! . . الانسان يظمأ الى شرب دماء أخيه الانسان . . وكل فرد ينصب لغيره حبائل الشر وآلات البوار . . والجميع منصرفون الى التنكيل بعضهم ببعض بما تقشعر له الابدان . . وقد اتجهت قواهم العقلية كلها الى اختراع هذه الآلات والتفنن في أنواعها وأشكالها . . وفاق الانسان الضواري بشراسته وغلاظة كبده . . . غير ان هنا موتاً شنيعاً بل هو عنوان الازدراء والعار . . وأي عار اشد وازدراء أعظم من الموت على امثال هذه المشانق ! . . وأين هذا من الموت المجيد في ساحات الوغى وميادين الطعان ! . .

هذه الخواطر جالت في مخيلة الامير نكيتا حينما أبصر المشانق وقد ظهرت في وجهه امائر الهلع والاشمئزاز ، ولحظ منه ذلك الحراس الذين كانوا يتولون قيادته فقالوا بلهجة التهكم وهم يشيرون الى المشانق — هذه أراجيحنا ايها الامير ! . . وقد ظهر لنا انها اعجبتك كثيراً حتى انك لا تكاد ترفع بصرك عنها !

وسمع ميخيش هذا الكلام فارتعدت مفاصله وتولاه الخوف الشديد . ولم ينبس الامير ببنت شفة ولكنه شعر أن حبل آماله قد قطع وانه يمشي الى القبر بقدم مسرعة

وبلغ الامير أخيراً ساحة القصر الملكي ، وكانت على رحبها غاصة بجماهير الفقراء ، وقد اختلطت أصواتهم وارتفعت جلبتهم وماجت الساحة بهم مرجاً . . وكان احد رجال الحرس يوزع عليهم الصدقات والطعام باسم الملك

يوحنا ، وهم تارة ينشدون بعض آيات من المزامير ، او يهتفون للملك تارة أخرى ، والملك يطل عليهم حيناً بعد آخر من بعض نوافذ القصر

وكان الامير قد ترجل عن جواده ووقف يتأمل في هذه الخلائق ، والذهول بالغ منه كل مبلغ . وقد رأى شراذم من رجال الحرس ، وهم بأثوابهم الخاصة يسيرون بين الجماهير ، وقد جلس بعضهم على منصات هناك وأخذوا يلعبون ويطربون .. واستوقف بصره منهم فتى بسن العشرين وضيء الطلعة جميل الوجه وبشعر اشقر ينال فرعه كتفيه ، وكان يرفل بالوشي والديباج ويظهر كثيراً من حركات التخنث والخلاعة وقد تزين بالجواهر ، وكان بهيئته كلها اشبه بفتاة منه بفتي .. وكان رفقاؤه كلما دنا من زمرة منهم تفرقوا في الحال او تخلوا له عن بعض مجالسهم ، واذا خاطبه بعضهم أظهروا له كل تزلف ورقة .. فالظاهر انهم كانوا يفعلون ذلك اما حرصاً عليه او حذراً منه

وكان هذا الفتى قد أبصر الامير نكيتا وخادمه ، فاستدعى الحرس الذين رافقوهما وسألهم شيئاً عنهما ، ثم أوعز الى بعض رفقائه امراً طربوا له وأغربوا في الضحك ولم يبطئوا ان تفرقوا مسرعين ، وصعد هو الى منصة عالية وعاد يتفرس في الامير ثم يضحك بازدراء او ينظر اليه بخيلاء . وكان نكيتا يرى منه ذلك وقد امتلأ حنقاً

وانه لكذلك اذ رأى بغتة الفقراء قد ذعروا وهاجوا واخذوا يتراكضون ويدفعون بعضهم بعضاً وهم يصيحون ويستغيثون .. فذهل ولكنه لم يلبث ان رأى دباً هائلاً قد ظهر في الجهة المقابلة من الساحة وهجم على الناس .. وما هي الا لحظة حتى كنست الساحة من الجماهير ولم يبق فيها الا الامير

نكيتا وحده ، وكأنه أنف من الفرار من وجه الدب فوقف وهو يتحفز لمنازلته ، ومد يده الى جانبه يريد ان يمتشق حسامه فمادت فارغة ، وقد نسي انه جرد من اسلحته قبل دخوله القرية . . . فوجم وحار في امره

وكان الفتى الذي سبق وصفه ينظر اليه من أعلى المنصة ويضحك مقهقهاً ، ثم ناداه متهكماً — ابحث عن سلاحك جيداً ايها الامير ! . .

وكان ذلك اكثر مما يستطيع نكيتا احتماله . . ولكن رأى نفسه الان عاجزاً عن تأديب هذا الفتى ، ولم يبق عنده شك في انه هو الذي امر باطلاق الدب ، ورأى انه عاجز ايضاً عن الدفاع عن نفسه ، فاستشاط غيظاً والتهب صدره حزناً

وكان الدب قد وصل اليه ، ولم يمهله حتى صدمه برجله فجدله الى الارض وكاد يبطش به

وكان الامير قد غاب عن الصواب . . فلم يع الا وقائل يقول له بصوت رخيم — نهض ايها الامير ، فما عليك من بأس

فرفع بصره واذا به يرى فتى من رجال الحرس بسن السابعة عشرة وكان وسيم الطلعة تدل امارة وجهه على البسالة وعلو النفس والاقدام ، وقد أبصر في يده سيفاً مسلولاً يقطر منه لدم ، والدب ملقى على الارض يتشحط بدمه ، فأيقن انه هو الذي نجده

واما الفتى فانه رأى ان الامير قد عاد الى رشده حيا وحول يريد الانصراف ، فاستوقفه الامير وهو يمد يده ليصافحه وقال — ايها الفتى قل ما سمك . لأذكر صنيعك وأشكر لك هذه المروءة !

فقال – ولكن مالك ولاسمي ايها الامير؟ .. اني لا أحبه ولا أشاء ان يذكرني احد به .. فأستودعك الله

قال هذا واندفع يعدو الى الجهة الاخرى ، والامير ينظر اليه متعجباً . واذا بميخيش قد أقبل وهو يلهث عياء ويقول – شكراً لله على نجاتك يا سيدي .. اني وحقك قد كدت اموت ارتياعاً وخوفاً عليك من الدب .. وقد تذرعت بكل حركة وبكل وسيلة لينصرف عنك الدب الحي ، فلم يجد ذلك كله نفعاً .. ولولا هذا الفتى البطل لفتك الدب بك لا محالة .. فانه انقض عليه كالشاهين وفي اقل من لمح البصر أرداه يختبط بدمه .. ولكن ما شأن ذلك الفتى المتهتك الخليع حتى امر باطلاق الدب عليك ونحن لم نره في حياتنا ؟ .. واين نحن يا مولاي ؟ .. أفي قصر الملك ام في حظيرة الوحوش ؟ ..

وقد اصاب ميخيش في انتقاده .. ولكنه لم يكن قد عرف شيئاً من احوال الملك وأطواره ... ان يوحنا الرابع كان مولعاً بكل نوع من المصارعات والمبارزات ، وكان لديه عدد وافر من الدببة وغيرها من السباع في اقفاص من الحديد .. وكثيراً ما كان هو او رجال حاشيته يطلقون هذه الوحوش على جماهير الشعب طلباً للتسلية واللهو ليس الا .. غير ان الملك كان لا يبخل بالعطايا والهبات على من كان يناله اذى دب منها .. واذا فتكت هذه الضواري باحد كانت هذه الهبات تعطى لاهله ، ويقيد اسم ذلك المنكود الحظ في سجل خاص لذكره في الصلوات والترحم عليه في الاديار مع المئات الاخرى من الذين ذهبوا ضحايا لهو الملك وسلوانه ...

ولبث نكيتا في مكانه مشرد الافكار . واذا برجلين من خدمة المائدة

الملكية قد تقدّما اليه وقالا — ان جلالة الملك قد أبصرك من نافذة القصر وودّ ان يعرف من تكون !

فعرّفهما نكيتا بنفسه . فانصرفا ثم عادا وقالا — ان جلالته قد سر بقدومك وهو يدعوك لتناول الطعام على مائدته

ولم تكن هذه النعمة لتبهج الامير . . فلعل الملك لم يطلع بعد على مهاجمته لرجال الحرس في قرية الدب . . او لعله عرف ذلك وكتمه ليوقع به في اثناء الطعام او في وقت آخر كما حدث مثل ذلك لغيره من الامراء والنبلاء . .

وكان هذا النهار من الايام الخصوصية في قرية الكسندروفا . فان الملك كان يستعد للخروج لزيارة بعض الاديار البعيدة ، وقد أعلن انه يريد قبل سفره ان يدعى الى مائدته رجال الحرس الرهبان ، واربعمئة رجل من رفقائهم ، وبعض النبلاء الذين كانوا لا يزالون متمتعين برضاه ، فأصبح عدد المدعوين سبعمئة ونيفاً

الفصل الثاني عشر

« الوليمة »

كانت ردهة الطعام في قصر الملك من الردهات العظيمة المشهورة برحابتها وسعتها ، وقد انتصب فيها عدة اعمدة من الرخام ، مكسوة بضروب الانسجة الثمينة الحافلة بكل نوع من النقوش الرائعة والصور الجميلة ، وبسطت بين الاعمدة موائد مستطيلة في ثلاثة صفوف ، في كل صف عشر موائد ،



(قصور الكرملين في موسكو)

وكل مائدة لعشرين رجلاً . و بسطت في مؤخر الردهة موائد أخرى كانت معدة للملك وولي عهده وندمائه وأقرب اخصائه . وقد أعد للضيوف مقاعد مفروشة بالديباج الثمين ، وللملك عرش رصع بالجواهر وكان قائماً على اسدين من العاج يعلو مؤخره نسر ذو رأسين وقد بسط جناحيه وكله من الذهب الخالص

وكان في وسط الردهة مائدة عظيمة جداً صففت عليها الآنية الذهبية والفضية وكلها مما يخلب الابصار ويفتن العقول ، ومن ذلك أقداح على هيئات الدببة والاسود او الديوك والطواويس والكراكي والنسور أو غيرها من الحيوانات والطيور مما لا يقع تحت حصر ، وقد نضدت على المائدة بشكل هرم واصل الى السقف . .

ولما حان وقت الوليمة فتحت ابواب الردهة ودخل رجال الحرس اولاً فجلسوا في اماكنهم ، ولم يكن ساعتئذ على الموائد الا صحاف اللحم البارد وأطباق الفواكه والاثمار . ثم دخل خدمة المائدة وكلهم في سراويلات من القطيفة البنفسجية ، وتلاهم جماعة المدعوين من الامراء والنبلاء . ولما أخذ كل مجلسه نفخت الابواق وقرعت أجراس القصر ، ودخل الردهة في ابهة وجلال الملك يوحنا الرابع يتبعه ابنه يوحنا (ولي العهد) ورجال الحاشية

وكان الملك طويل القامة عريض المنكبين ، وقد اتشح برداء من القطيفة طويل الى الارض تتلألأ عليه الحجارة الكريمة النادرة المثال ، ويتدلى على صدره صليب من الجوهر تحيط به بعض الايقونات الصغيرة عليها صور المسيح ووالدته وبعض الرسل والانبياء ، وكلها مرصعة بالياقوت واللؤلؤ

وما كاد الامير نكيتا يتفرس في وجه الملك حتى دهش لتحوله وتبدل نضارته . نعم ان وجهه كان لا يزال جميلاً ولكنه أصبح متغضناً كئيباً وقد خف شعر لحيته وعارضيه . وكان له اذ ذاك خمس وثلاثون سنة من العمر ولكنه كان كأنه في الخامسة والاربعين او الخمسين . وكان على جانب عظيم من الذكاء والدهاء وتوقد الذهن وقوة الحجة ، اذا تكلم أفحم ولو كان كلامه لتأييد مذهبه في العسف واظهار معايبه في مظهر الفضائل وجوره في مظهر العدل والرحمة . .

وكان جمهور الحاضرين قد وقفوا جميعاً للملك واستقبلوه بالاجلال والتعظيم . واما هو فاجتاز صفوف الموائد ، حتى اذا انتهى الى العرش أدار

نظره في الحشد فحيا بخفض الرأس وتلا بصوته الجهوري صلاة طويلة ثم بارك المائدة وجلس ، فجلس الجميع

وفي الحال تقدم جمهور الخدم فسجدوا له وخرجوا أزواجاً ، ثم عادوا يحملون بين ايديهم على جامات من ذهب مثني اوزة مشوية . . وشرع في الأكل . . .

وكان الامير نكيتا جالساً بالقرب من مائدة الملك ، وعلى مائدته النبلاء المدعوون الذين كان يعرف بعضهم قبل مسيره الى بلاد لتفا . . فأجال بصره في الملك وفي ندمائه وهو يفحصهم واحداً واحداً ويعجب لهذا الانقلاب الغريب الذي جرى في البلاط ، وقد اكبر الفرق بين الملك يوحنا منذ خمس سنوات وبينه الان وهو بين هذه العصابة . . ولم يلبث أن مال الى اقرب النبلاء جلسائه على المائدة وكان من اصدقائه وقال — اذا صدق ظني فان ذلك الفتى النحيف الجالس عن يمين الملك هو ابنه وولي عهده

فقال النبيل — نعم ، هو يوحنا ابن الملك

ثم نظر الى كل جهة كمن يحاذر ان يسمعه احد ، وعاد فالتفت الى نكيتا وقال همسا — غير انه لسوء الحظ أشبه بابيه من جده . . فقد امتلأ قلبه ظلماً وشراً وهو لا يزال يافعاً ، فماذا ننتظر منه متى شب على هـذه الاطوار وصارت اليه مقاليد الامور ؟

فقال الامير — ومن ذاك الجالس الى طرف المائـدة ؟ . . أظنني رأيته قبل الان ، ولكني لا أذكر أين ومتى

قال — انك تعرفه بلا شك . . فقد كان منذ خمس سنوات حاجباً في البلاط . . ثم اخذ يرقى في سلم المعالي و يشرق نجمه متلألئاً في افق البلاط

حتى كاد يفوق الجميع . . وهو الان من اهل الشورى ، والملك يعوّل عليه في معضلات الامور . . هـذا هو بوريس غودونوف ، وهو من اصحاب الذكاء والفطنة وحسن التدبر ، لا يباشر عملاً الا بعد التبصر الكثير والتروي الكثير . . ويدهشك منه على الخصوص أنه لم ينتظم في سلك فرقة رجال الحرس ولم يشاركهم في سفك الدماء ، ولكنه يسد اذنيه فلا يسمع مايقال حوله ويغمض عينيه فلا يبصر ما يجري امامه . . يرى دماء الابرياء تنفجر حوله وكأنه لا يرى شيئاً ، ولا يجاهر بمقاومة لئلا يفقد ثقة الملك به وارتياحه اليه ، ولعله لا يريـد ان ينبس ببنت شفة في التنبيه والتذكير لانه يئس من الاصلاح

ثم نظر النبيل ثانية الى جهة الملك وندمائه وعاد فقال لنكيتا — واما ذلك الضخم الجثـة الكبير الرأس العريض المنكبين الوحشيّ الملامح الذي تراه جالساً الى جانب بوريس غودونوف يأكل بنهم شديد ولا يلتفت الى احد ، فهو مالبوتا سكوراتوف الصديق الحميم للملك والحبيب والنديم والجلاد معاً . . . وانظر ايها الامير الى ذلك الفتى الجميل الوجه الغنج الذي يسكب للملك الخمر ويمازحه بالادلال وهو اشبه بالفتاة منه بالفتى ، فهذا ثيودور باسمانوف . .

وماكاد نكيتا ينظر الى وجه الفتى المشار اليه حتى تحقق انه هو الذي امر باطلاق الدب عليه في ساحة القصر ، فهزّ رأسه وهو يقول لجليسه همساً — وماعسى ان يكون المصير اذا كان بلاط الملك قد أصبح مسرحاً لامثال هذه الغلام الخنث . . وكيف لنا أن نصبر على أمثال هـذه الدعارة والفسق والفجور ؟ . .

قال هذا وروى لجليسه حكاية الدب .. فابتسم النبيل وقال – لا تعجب لهذا الامر ايها الصديق..لان الملك قد اختصّ هذا الغلام بحبه المفرط حتي لا يستطيع ان يعيش بدونه . . وهو في اكثر الاحيان يدعوه باسم ثيودورة لاثيودور . . وقد أباح له ان يفعل ما يشآء . . وهو لو قتلك بهذه المداعبة الخشنة لقضي الامر ولم يسأله احد عما فعل . . . وانظر ايها الامير الى ذلك الرجل الذي يبتسم لكل حركة من حركات ثيودور ر ويطرب لكل كلمة من كلماته . . فهذا ابوه ألكسي باسمانوف . . والى جانبه باسيل غريارنوي . . ثم الاب ليفكي رئيس دير العجائب ، وقد باع دينه بدنياه ، فانخرط في هذه الزمرة الشريرة وانغمس معها في الملاذّ بلا خوف من الله

وكان نكيتا يسمع كلام النبيل وهو يختلس النظر آنا بعد آخر الى اخصاء الملك ، فأبصر بينهم رجلاً في نحو الثلاثين من عمره ، وكان طويل القامة تظهر على وجهه علائم الغم والاضطراب ، وقد لها بنفسه فلم يكترث لما كان يدور حوله من الحديث . . ولم يره نكيتا قد أكل شيئاً ، ولكنه كان يشرب كثيراً ، وهو تارة يسند رأسه بيديه وطوراً ينتصب في مجلسه وعيناه تقدحان شرراً . فسأل النبيل عنه فقال – لا أظنك تجهله ايها الامير لانه من جماعتنا ، ولكنه بانتظامه في سلك رجال الحرس قد أهان نفسه وأضاع رشده . . فهذا هو الامير اثناسي فيازمسكي ، وهو من يوم دخل الغرام قلبه لا يعي شيئاً ، فقد دلهه الحب وذهب ببصيرته ونهاه . .

وأراد النبيل ان يسهب في الكلام ، واذا باحد خدم المائدة قد جاء فوقف امام الامير نكيتا وبيده صحفة من الطعام وقال – ايها الامير ! ان الملك العظيم ق- اختصك بهذه الصحفة من مائدته

فنهض الامير ، ووفقاً للعادة المتبعة في مثل هذه الحال ، انحنى للملك علامة الشكر . وحينئذ وقف الجالسون على مائدة واحدة مع الامير فانحنوا له ، وفي ذلك اشارة الى انهم يهنئونه بنعمة الملك الخاصة ، فشكر هو كلا منهم بانحناء خاص . وفي اثناء ذلك كان الخادم قد عاد الى الملك وقال بصوت سمعه الجمهور — ايها الملك المظيم ! ان الامير نكيتا قد اخذ الصحفة وهو يشكر لجلالتك تعطفك واحسانك ! . .

وكان القوم قد فرغوا من اكل الاوز فخرج الخدم ثم عادوا يحملون ثلاثمئة طاوس مشوي . . وتلا ذلك اصناف المعجنات والقطائف المحشوة لحماً وجبناً . . وكانت الخمور تقدم في اثناء ذلك انواعاً شتى ، حتى لم يكن احد من المدعوين يطلب شيئاً ولا يجده امامه

وكان في جملة الجلوس الى مائدة الامير نكيتا نبيل طاعن في السن . وكان الامير قد سمع من جلسائه ان الملك ناقم عليه

ففي اثناء الوليمة ، والقوم لاهون بمسرتهم وأنسهم ، جاء ثيودور باسمانوف رئيس السقاة وبيده كأس من الخمر ، فأدناها الى هذا النبيل وقال — ايها النبيل ! ان الملك العظيم قد بعث اليك بهذه الكأس !

فنهض الشيخ وانحنى للملك ثم شرب الكأس . وعاد ثيودور الى الملك وقال — ان النبيل يا مولاي قد اخذ الكأس وهو يشكر لجلالتك عطفك ورضاك

وفي الحال نهض جلساء النبيل يحيونه ويهنئونه . ولما هم هو بمبادلتهم التحية لم يقو على الكلام ، وقد عسر تنفسه واختلج جسمه وامتقع لونه . . ثم هوى بجسمه الى الارض فاقد الحركة . .

وكان الملك كن ينتظر مثل هذه الخاتمة فقال — يظهر ان النبيل قد شرب كثيراً . . فاحملوه من هنا !

فأمسك الجميع عن الكلام . . وأجفل النبلاء وقد تولاهم الذهول وأخذتهم الحيرة . . ووجم نكيتا وقد هاله هذا الامر الفظيع ، ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال في نفسه : « ألا ينتظرني مثل هذا ؟ . . »

وكان بعض الخدم قد حملوا جثة النبيل الشيخ الى الخارج . . وعاد القوم الى ما كانوا عليه كانه لم يجر شيء او كان الذى جرى امر عادي لا يعبأ به . . ولم يضطرب له الا النبلاء الذين ليسوا من فرقة رجال الحرس

ثم نفخ في الابواق وقرعت الاجراس . فخرج الخدم ولم يلبثوا ان عادوا يرفلون في سراويلات جديدة من اللون القرمزي ، وقد حملوا السكراكي المشوية والأدياك المحشوّة والفراريج المقلوّة والاسماك والطيور والارانب والقنابر وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه . . وكانت الخمرة قد دبت في الرؤوس ، فاختلطت الاصوات وعلت الجلبة وأصبح اكثر القوم سكارى

وكان نكيتا يقلب نظره في الوجوه وهو يستغرب هذه الحالة المحزنة التي صار اليها البلاط . . وقد حانت منه التفاتة الى بعض أطراف الردهة فأبصر الفتى الذي انقذه من الدب ، وقد اعتزل القومَ فلم يشاركهم في هرجهم وسرورهم ، ولعله لم يشاركهم ايضاً في طعامهم وشرابهم . . وقد تبين الامير في نفسه انكساراً وفي هيئته كمداً ، فازدادت رغبته في التعرف به واستطلاع كنه احواله ، وشعر بميل اليه وعاطفة حب شديدة نحوه . . وسأل عنه جلساءه النبلاء ، فلم يعرف احد منهم عنه شيئاً ، فهم ان ان يسأل عن اسمه

بعض الخدم ، فاستوقفته عن الكلام حركة بجانبه ، فالتفت واذا برئيس السقاة يقول له – ايها الامير نكيتا ! ان الملك العظيم قد ارسل اليك بهذه الكاس من شرابه !

فذعر نكيتا واضطرب .. وكان ثيودور باسما نوف قد قدم اليه الكأس وهو يتبسم تبسم الازدراء .. فشعر الامير كأن ضبابة كثيفة نزلت على عينيه ، فأيقن بالهلاك .. ولكنه لم يبطىء ان تناول الكأس ثم حنى رأسه للملك واحتساها جرعة واحدة ، ووقف ينتظر ان يصيبه ما أصاب النبيل الشيخ منذهنيهة ، وقد شخصت اليه الابصار وبات الجميع يترقبون غروب شمس حياته

غير ان الامير لم يشعر الا بدبيب الخمرة في عروقه ولم يحس الا بحرارتها المنعشة في بدنه ، وقد تورّدت وجنتاه واشتدت عصابه ، ناطمأن روعه وقال في نفسه : « لعل الملك قد عفا عني .. ، أو لعله لا يزال جاهلاً الامر .. »

****

ومر على الجلوس أربع ساعات متوالية وهم يأكلون ويشربون ، ومع هذا فلم تنته الوليمة ، وبقي منها قدر ما مضى .. وقد رفع الخدم عن الموائد صحاف اللحوم والاسماك وخرجوا من الردهة ازواجاً . ثم عادوا بعد قليل وقد بدلوا بسراويلاتهم اثواباً جديدة من المخمل الابيض الموشى بالذهب ، وحملوا الاثمار والفواكه والحلويات اشكالاً تحير العقول وتشبع النظر . فمن اهرام وقصور كبيرة ومن فرسان وخيول مختلفة الاحجام والالوان ، وقد عملت كلها من السكر .. ومن أشجار لا تقل حجماً عن الاشجار صنعت من السكر كذلك ، وتدلى من اغصانها التفاح والاجاص والفواكه الاخرى والحلويات على اختلاف أنواعها .. ومن أسود وأرانب ودببة ونسور وحمام ،

تفنن الطهاة في صنعها حتى يخالها الناظر طبيعية بحجمها ولونها . . وقد حمل كل ذلك الى الردهة ووضع على الموائد

غير ان المدعوين كانوا كلهم قد امتلأوا واكتظت نفوسهم فلم يمد اكثرهم يداً الى شيء من هذه الحلويات ، وقد استند بعضهم الى الموائد امتلاء وعياء وأغمض البعض الآخر اجفانهم فناموا وسمع غطيطهم . .

ولم يأكل الملك ولم يشرب الا قليلاً ، ولكنه كان يتكلم كثيراً مع ندمائه ويمازحهم

ومثل ذلك فعل بوريس غودونوف ، وقد ظل الى آخر الوليمة متيقظاً لم تتغير هيئته قط ، وكان يشاغل الملك ورجال البلاط بكل حديث طلي ونادرة نفيسة ، وهو كلما نظر الى وجوه السكارى التفت الى الملك وتبسم

أما يوحنا ، ابن الملك وولي عهده ، فقد شرب كثيراً وأكل قليلاً ، وكان صامتاً في أول الامر يسمع ولا يتكلم ، ثم أخذ يقاطع الجلوس ويمزح ويتهكم ، وكان اكثر تهكمه وتحرشه موجهاً الى ماليوتا سكوراتوف بنوع خاص

ولم يكن ماليوتا ليكترث لكلامه ، فقد كان امامه من الوان الطعام والشراب ما ألهاه عن كل شيء آخر ، وكان لا يأكل الطعام أكلاً بل يلتهمه التهاماً ، وقد جاهد في ذلك حتى تصبب العرق من وجهه وظهر عليه تعب الجهاد

كان ماليوتا من الرجال الذين لا يدنو منهم أحد ويأمن جانبهم أو يعود سالماً . ولم يكن أحد من رجال الحاشية ليجترىء عليه بشيء من المزاح أو التهكم ، لأنه كان شرس الاخلاق فظاً سيء الظن سريع الانتقام ، يتصدى للشر ويختلق له ما شاء من الاسباب ، وقد تجرد عن كل عاطفة بشرية

وأصبح ديدنه الفتك والاغتيال وركوب الفظائع والمنكرات، وكان أبداً ظمآن الى ارتشاف الدماء يسر بقبض الارواح كأبالسة الجحيم. وقد اشتهر بخشه ولؤمه حتى أصبح مضرب المثل، يرتعد كل انسان لمجرد ذكر اسمه وترهب الامهات اطفالهن بهذا الاسم الهائل المخيف. وكان أتبع للملك من ظله، يرقب كل حركة حوله ويرصد كل رجل، فلا تفوته فائتة. وكان يتنسم الاخبار من كل ريح، وقد بث رجاله للكشف عن كل غامض والتوصل الى كل خفي من الاسرار. وكان مطماعاً جشعاً انانياً يستسهل للحصول على مبتغاه وأوطاره كل ضروب المحرمات لا يزعه ضمير ولا يردعه رادع. وكان لا يمر به يوم ولا يوقع بالعشرات من الابرياء، وهو يبغي من ذلك كله خدمة الملك في الظاهر ومصلحة نفسه في الباطن. ولم يكن له صديق البتة فكان يبطش بكل انسان بلا تمييز، ولا تأخذه بأحد رأفة

وكان له ابن وحيد يدعى «مكسيم» وهو فتى جميل الصورة دمث الاخلاق حلو الشمائل، لم يقتد بأبيه في شيء من خلاله وكان ينكر عليه أعماله وفظائعه وينظر الى كل ذلك بمنتهى الحزن والازدراء. وقد دخل في سلك رجال الحرس مسوقاً الى ذلك بارادة والده والحاحه لأنه كان يطيعه ويحترمه كوالد. غير انه بعد ان رأى ما رأى من جرائم هؤلاء الناس وموبقاتهم وبذاءتهم انصرف بفكره الى الانفصال عنهم. ولكن أنى له ذلك ووالده واقف له بالمرصاد؟.. فلم يبق له والحالة هذه الا ان يفر من يد والده ويعيش بعيداً عن أولئك الائمة الاشرار، تحت سماء غير سمائهم وفي محيط نقي صاف غير محيطهم..

وكان ماليوتا يحب ابنه هذا، ولكن لا كحب الاباء لأبنائهم، وانما

كان يحبه ويرغب في رقيه واعلاء شأنه لادراك وطر في نفسه كان يصبو اليه . وذلك ان هذا الرجل لم يكن عريق الحسب ، فكان همه ان يجعل لنفسه مكانة بين النبلاء ويكسب أسرته اسماً مشهوراً وثروة طائلة . فكان لهذه الغاية يضطهد كل ذي ثروة ومقام طمعاً في ميراثه ، ويجتهد ان يبتاع بذلك بعض مراتب الشرف لنفسه ولابنه . وأصبح ذلك بعد مدة قصيرة أحب عمل لديه لا يفتكر في غيره ، وأصبح جميع النبلاء وذوي الثروة في نظره اعداء له ولأسرته . . فعظمت لهـذا السبب سعايته فيهم وهو يعتقد ان لا راحة له ولا حياة لأسرته الا بفنائهم جميعاً . . . وجاء في بعض التفاصيل التاريخية ان ماليوتا هذا كان بعد قتل المحكوم عليهم يذهب فيقطع بيده أجسامهم ويطرح تلك القطع للكلاب . . .

هذا هو الرجل الذي تحرش به ولي العهد يريد مداعبته ومما زحته . . ولعله كان جاهلاً طبيعة ماليوتا ، وانه لا يصبر على الضيم ، وانه بارع في فنون الانتقام والتشفي ، ينهش عدوه بأسنانه الحادة في أول فرصة سانحة ، ولو كان هذا العدو ولي العهد نفسه . . .

ومما زاد في حنق ماليوتا على الخصوص انه قابل الملك قبيل حضوره الى ردهة الطعام ، وقد جثا امامه وذكره بنفسه وجعل يعدد له مآثره وخدمه وأدلة اخلاصه . . وانه مع كل هذا لم يظفر بشيء من أمانيه ، ولم يحرز قبعة النبلاء التي وعد نفسه بها منذ زمان طويل . . وكان من جواب الملك انه زجره لأنه كان في نظره لا يزال غير أهل لهذا الشرف . وزاد على ذلك انه احتقره وضحك منه . .

وعلم بهذا كله ولي العهد . . فلما رأى وهو على المائدة ان ماليوتا

معرض عنه غير مكترث لكلامه ذكر امام رجال الحاشية ما كان من أمر القبعة . . ثم هنأه الخيبة وهو يهزأ به ويضحك بملء فيه

وكان ماليوتا يسمع هذا الكلام ويتلذع غضباً ، وقد لمع في عينيه برق الانتقام ، ولكنه تجلد وكظم غيظه وهو يضمر لولي العهد شراً و بيلاً

ولحظ الملك الشر في وجهه فبادر الى تغيير الحديث ، وتحول بنظره الى الامير اثناسي فيازيمسكي فرآه مقطباً لاهياً بأفكاره ، فقال له - أراك صامتاً يا اثناسي كأنك حاضر الجسد غائب العقل ! . . فهل بلغ سنك الغرام حتى أضعت عقلك وفقدت صوابك ؟ . أو ثقلت عليك خدمة الملك في جملة حرسه حتى مللت الاقامة بيننا ؟

فانتبه الامير كمن هب من حلم وأراد الكلام فقاطعه ولي العهد قائلاً للملك - ولكن الامير اثناسي ليس من فرسان الآن . . . . . . يتنهد ويتأوه كاحدى الحسان . . فلو أمرته أن يحلق لحيته ويرتدي ثوباً نسائياً ويكون من القيان ، لكان ذلك أدعى الى سروره ورضاه ، ولكانت آلات الطرب أليق به من الحسام . . .

فنظر الامير الى ولي العهد شزراً وقد ارتسمت على وجهه امائر الغضب الشديد ثم قال - لو لم تكن يا ولي العهد لا تزال في سن الحلم ولم تكن ابن الملك لدعوتك على هذا الكلام الى الخروج من هذا المكان ، لترى من من الاثنين يليق به حمل الحسام ، ومن لا يليق به الا آلات الطرب والغناء . . .

وكان الملك قد انس في حديث الاثنين ، فلم تعجبه هذه الحدة فخدج الامير بنظرة غيظ وقال :

— لا تنس يا أثناسي انك في حضرة الملك !..

فقال — عفواً ياسيدي !.. فان كنت مذنباً بشيء فلينزل بي عقابك ، لان حياتي هي بين يديك ، وانت حر ان تحييني او تميتني .. واما ولي العهد فان اصبح ، بامتهاني !

فقال الملك بلطف — لم يحن اوان عقابك ، لانك لاتزال في زهرة العمر ولك في خدمتي الشأن المحدود .. ولكن اسمع فأروي لك شيئاً من الحكاية التي رواها لي ليلة امس فيلكا الاعمى ، وانت اذا تدبرتها وأدركت مغزاها كان لك من ذلك نعم الهادي والدليل .. قال : « كان في بعض المدن فتى جميل الصورة يدعى ألكسي . فأبصر ذات يوم اميرة بديعة المحاسن ، فأحبها ثم اشتد هيامه بها ، ولكنها لم تمل اليه لانها كانت ذات بعل .. وكان ألكسي يذوب جوى في هواها ، وقد توسل بكل وسيلة لامتلاك قلبها ، فلم يجد كل ذلك شيئاً .. فلما اني ... رجلاً من [illegible] اعوانه ورشاه ... [illegible] ... خطفها وهرب بها الى مكان بعيد .. فأحبت الاميرة ... ألكسي في ... اليه وا... ان قالت له : « انك قد قمت بواجب المحبة خير قيام ... ، فانا لك ما حييت ، وأنت منذ الان حياتي ونوري ... وسروري .. »

ولما فرغ الملك من الحكاية حتى ابتسم ... وحل الفرح في عينيه .. ورأى الملك منه ذلك فقال — واني سأنطلق غداً وبعد غد لزيارة بعض الديار البعيدة ، فلا ترافقني انت ، بل اذهب الى موسكو وزر الامير دوبيجينا موروزوف وقل له انك رسولي ... عفوي ورضاي .. وخذ معك من رجال الحرس جمهوراً كبيراً !..

فازداد الامير اثناسي طرباً و برقت عيناه استبشاراً

وكان الامير نكيتا في هـذه اللحظة قد مد بصره اليه ، فرأى انقلابه الفجائي هذا .. وهو لو درى السبب الذي أطربه واستفزه لوثب من ساعته فاختطف من جدار الردهة سيفاً حاداً وأطار رأسه عن بدنه . . .

غير ان اصوات الابواق والاجراس والجلبة قد أصمت أذنيه ، فلم يسمع شيئاً مما دار بين الملك والامير اثناسي ، ولم يطلع على ما جال في خاطر كل منهما اذ ذاك

الفصل الثالث عشر

بين الموت والحياة

اخيراً وقف الملك ، فقرعت الاجراس ونفخ في الابواق واهتزت الردهة كلها . واخذ الحضور يتقدمون اليه مثنى وثلاث ورباع ، وهو يوزع عليهم بيده الاثمار الجافة

وبينما كان القوم في حركتهم هـذه ، اقبل الى الردهة احد رجال الحرس ، ولم تكن في جملة المدعوين ، فتغلغل في الجمهور حتى دنا من ماليوتا سكرراتوف وهمس في اذنه كلاماً انتفض له ماليوتا وانقلبت سحنته . . ولم يخف ذلك على الملك ، فسأله عما به ، فصاح — خيانة يامولاي ! . . بل مكيدة عظيمة لم يسمع بمثلها ! . . يدبرها بعض الخونه لاغتيال عظمتك . .

وكان هذا الكلام شديد وقع في نفوس القوم ، فجمدوا في اماكنهم كأن على رؤوسهم الطير ، وشعر الملك كأن سهماً اخترق قلبه . .

وتابع ماليوتا الحديث فقال – لقد أرسلت مر يومين بعض رجال الحرس ليأتوني أخبار العاصمة ، فاعترضهم في بعض تطوافهم احد النبلاء وهجم عليهم بالخيل والرجل وأثخن فيهم ، وكاد يقتل خادمي متى خومياك. وها هو واقف بالباب ينتظر اشارة مولاي الملك ، وهو يكاد يسقط عياء وألماً



﴿ الامير نكيتا ﴾

فأجال الملك نظره في رجال الحرس ، فرأى علائم الغيظ وحب الانتقام بادية على الجميع ، فنظر الى جهة النبلاء وهو يهز رأسه متهدداً . . ثم امر ، فدخل متى خومياك وهو يئن ويتوجع وقد عصب رأسه . ولما وصل الى حيث كان الملك أكب على قدميه يقبلهما ويبكي . . .

فبهت الجميع لهذا المشهد ، وقد أكبروا الامر

فقال الملك لمتى – ومن فعل لك هذا ؟ قل ولا تخف شيئاً

فقال — رحماك ياسيدي ! فانا لاأعرف اسم النبيل الذي نكل بنا وفعل بي ما ترى ، لانه أبى ان يذكر اسمه

قال — وكيف حدث ذلك ؟

قال — كنا في تطوافنا في ارباض العاصمة ، وقد دخلنا قريه الدب ، فلم نشعر الا وأحد النبلاء او الامراء قد هجم علينا ومعه جمهور من خدمه واعوانه ، فسدوا علينا الطرق وأعملوا فينا الضرب بالسيوف والنبابيت . . وكان من امرنا وامرهم اخيراً انهم قتلوا بعضنا وأسروا من بقي حياً ، وأراد زعيمهم ان يشنقنا ولكنه لم يفعل . . وقد كان معنا رجلان من اللصوص كنا اتفقناهما لتأديبهما ، فامر باطلاقهما

قال متى هذا وامتلأت العصابة على رأسه ، فظهرت عليه آثار الدم . . وكان السامعون يزدادون نفوراً ولا يكترثون [illegible] وارتاب الملك ايضاً من هذا الكلام فقال لمتي ولكن هذا الامر لايمكن ان يكون له نصيب من الصحة فلماذا تهذي !

قال — حاشا أن أكون كاذباً ايها الملك ، وانا لم أصف لجلالتك الا اليسير فقط من آلامنا وآلام القوم . . واذا كنت في شك مما اقول ، فاني ورفيقي مستعدون ان نقسم لك على ذلك اغلظ الايمان

قال — قلت ان النبيل المجهول اراد ان يشنقكم . . فلماذا عدل ؟

قال — لا ادري لذلك سبباً . . ولكنه امر رجاله بجلدنا حتى تفجر الدم من ابداننا ، ثم اطلق سراحنا

فأحدث هذا الكلام في صدورهم ذهول شديد . . وكان الملك قد ظهرت في وجهه آثار الغضب ، فقال لمتي — وكم رجلاً كنتم ؟

- نحو الخمسين

- وكم كان عددهم ؟

- نحو العشرين او الثلاثين

فقطب الملك وصاح - وكيف ظهروا عليكم وهم أقل عدداً منكم ؟ . فهل غلت ايديكم ام ببست سواعدكم ؟ . . ومن هو هذا النبيل المحترم الذي قام يسطو على رجال حرسي في رائعة النهار ، ويقاوم سلطتي هذه المقاومة التي لم يسمع بمثلها ؟ . . ولما كان لا بد لي من معرفته ولو التحف السحب او غاص في اليم ، فأنا آمرك يامتى ان تسميه ، والا فاستعد لعقوبتي جزاء كذبك وبهتانك

فارتمش متى وقال - يعلم الله ياسيدي اني صادق ولم أقل الا الصدق وها ان جميع رفقائي يشهدون بصحة دعواي

قال هذا وأدار نظره في الردهة كمن يبحث عن رجل يستجير به .

فأبصر الامير نكيتا [illegible] واتقدت عيناه بنار الانتقام ، وقال للملك - اذ كنت يامولاي لاتزال في شك مما أقول ، وتريد ان تعرف الان الرجل الذي دهمنا ونكل بنا ذلك التنكيل ، فسأل هذا النبيل !

واشار بيده الى الامير نكيتا

فاشرأبت الاعناق واتجهت الابصار كلها الى الامير . . وكان هو واقفاً غير مبال بشيء ، وقد ألقى يديه على ظهر كرسيه وأمعن في التأمل

وكان الذين عاشروا الملك طويلاً يتوقعون انفجار بركان غضبه . . فحبسوا أنفاسهم وجمدوا في اماكنهم

ونظر الملك الى الامير ثم قال — تقدم يانكيتا وقف للمحاكمة !..
فهل تعرف هذا الفتى ؟ (واشار الى متى خومياك)

فقال — نعم ، أعرفه ياسيدي

قال — وهل هجمت عليه برجالك ؟

قال — نعم .. ولكنه هو البادئ بذلك .. فقد هجم على قرية الدب وعمد الى الارهاب والسبي والتدمير ..

فقاطعه متى قائلاً -- لا تصدقه ياسيدي الملك ! وسل ان شئت كل من كان معي من رجال الحرس

فنظر نكيتا الى متى بازدراء ثم التفت الى الملك وقال — ولما رأيت منه ومن رفقائه ما رأيت هجمت عليهم لارد غائلتهم عن القرية وأدفع شرهم عن اهلها

قال — وهل عرفت حين هجمت عليهم انهم رجال حرسي ؟

— كلا

— وهل أنبأوك بحالتهم حين أردت شنقهم ؟

— نعم

— ولماذا تركتهم اذ ذاك ؟

— لارفع امرهم الى القضاء

— ولماذا لم تدعهم وشأنهم من اول الامر وترفع الشكوى عليهم ؟

فوجم الاميرولم يحر جواباً

وكان الملك ينظر اليه كمن يريد ان يستشف خبايا قلبه ، ثم قال —

انك تركتهم وشأنهم لا لتشكوهم الى القضاء كما تقول بل لانهم عرفوك بحالهم. ومع هذا ، فانت بعد اطلاعك على ذلك امرت بجلدهم

قال — ايها الملك ؟ . .

فقاطعه الملك قائلاً — حسبك . . فقد عرفت كل شيء

ثم وجه خطابه الى اخصائه وندمائه وقال — انكم قد سمعتم اقرار الامير . . فليبد كل منكم رأيه بشأنه . . قولوا ماذا يستحق جزاء ما جنته يداه ؟ . . تكلموا فاني راغب في سماع رأي كل منكم

قال هذا وأجال نظره في جوانب الردهة ، وكان منظره مخيفاً وعيناه تنبئان بما قد صمم عليه في قلبه من الحكم المبرم. ثم عاد فرفع صوته وقال — قولوا ايها الناس : ماذا استوجب الامير نكيتا بعمله هذا ؟

فقال ولي العهد — الموت !

وتلاه ماليوتا سكوراتوف ، وباسيل غريازنوي ، والاب ليفكي ، وثيودور باسمانوف وأبوه ، فقال كل منهم — نعم انه قد استوجب الموت !

وقال كثيرون غيرهم من رجال الحرس مثل ذلك

فقال الملك — فليشرب اذاً كأس المنية ، لان من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ ! . . والان خذوه الى موضع الاعدام ، وليحل به العقاب الذي استحقه

فانحنى نكيتا للملك ثم خرج صامتاً ، وقد أحاطت به شرذمة من رجال الحرس

اما الملك فالتفت الى رجال الحرس وقال ، والجلال يرافق كلماته — كيف رأيتم حكمي ايها الاخوة ؟ أعادل هو ؟ . .

فارتفعت اصوات الذين كانوا على مائدة الملك — عادل ! نعم انه عادل !

وتلتها اصوات كثيرة من موائد اخرى — انه مثال العدل !

غير ان واحداً من الحضور ، وكان في بعض اطراف الردهة ، رفع صوته عالياً وقال — كلا ! انه غير عادل . . بل هو مثال الظلم والجور ! . .
وما سمع هذا الكلام حتى اضطرب رجال الحرس ، وقد اخذتهم الدهشة واندفعوا يتساءلون باهتمام : من قال هذا ؟ . . من قال ان الملك ظالم ، وحكمه جائر ؟ . . .

وكان الجميع قد هاجوا وماجوا وبرق الانتقام في عيونهم ، الا ماليوتا سكوراتوف — ذلك الرجل الذي كان يطرب لكل مصيبة تنزل بغيره — لم يتزحزح بهذه المرة من مكانه ، وقد علت وجهه صفرة الموت

وكان الملك قد اضطرب شديداً وصعد الدم الى وجهه ولمع بريق الغيظ في عينيه ، فنظر الى الجهة التي سمع الصوت منها وقال — من قال ان حكمي غير عادل ؟ . . اني أسأله ان ينفصل عن الجماعة ويتقدم الي ! . .

فقال له ماليوتا وهو يرعد خوفاً — ان بين عبيدك هنا ايها الملك من دارت نشوة الشراب في رؤوسهم فأفقدتهم عقولهم . . فلا تأمر يامولاي بالبحث عن هذا الصعلوك الذي لايدري الان ما يقول . . ولكنه متى طارت سورة السكر من دماغه وعاد الى رشده لايصدق مانطقت به شفتاه

فنظر الملك الى ماليتو شزراً وقال — أأنت تقول هذا ؟ . . فتى اصبحت وديعاً ورقيق القلب ؟ . .

وأراد ماليوتا ان يتكلم ، غير ان حادثاً فاجاءه فسكت وهو في اشد حالات الاضطراب النفسية

وذلك ان ابنه مكسيم قد اخترق الجمع ومثل امام الملك

هذا هو الفتى الذي أنقذ الامير نكيتا من الدب .. فهو الان يريد أيضاً ان يدافع عنه بجرأة لم يعهد لها نظير في بلاط القياصرة

ولم يكن الملك ينتظر ان يرى امامه ابن ماليوتا . فدهش شديداً وقال — فأنت اذاً الرجل الفرد الذي تنتقد حكمي !.. فما الذي لم يعجبك منه ؟

فقال مكسيم برباطة جأش — انك أيها الملك قد قضيت على الامير نكيتا قبل ان تسمع تتمة كلامه ، فلعل هناك ما يوضح لك السبب الذي حمله على جلد متى خومياك ..

فقاطعه ماليوتا بقوله — لا تسمع له يا سيدي الملك ، لأنه سكران لا يعلم ما يقول

ثم التفت الى ابنه وقال — انصرف أيها الاحمق ولا تعد الى هنا الا صاحياً ..

فقال ولي العهد — لقد وهم ماليوتا .. فان مكسيم لم يشرب مسكراً وقد راقبته في اثناء الوليمة فلم أره تناول شيئاً

فنظر ماليوتا الى ولي العهد ، وهو يكاد يجن غيظاً وحنقاً

وكان الملك قد أمسك عن الكلام وهو يتأمل تارة في ماليوتا وحيناً في ابنه ، وقد أخذ منه كلام مكسيم كل مأخذ من العجب . ثم ابتسم وقال — نعم ان مكسيم لم يشرب شيئاً .. ولكنه كما يظهر لي قد سئم صحبتنا ، فأراد ان يترك الخدمة في فرقة رجال الحرس ..

***

وكان بوريس غودونوف في اثناء هذا الحديث لا يرفع نظره من

الملك . . وكان منذ زمان طويل قد درس اماَّر وجهه ، فلم يكن ليخفى عليه شيء منها . . فاغتنم فرصة اشتغال الملك بمحادثة ماليوتا وابنه وخرج من الردهة دون ان يشعر به أحد

***

وكان ماليوتا حين سمع كلام الملك قد طارت نفسه شعاعاً ، فوقع على قدميه وقال — رحماك يا مولاي ! . . انك أ كرم من عفا وأعدل من حكم فلا تخيب رجائي ، ولا تكسر قلبي ، بل ارحمني واعف عن ابني ولا تأخذه بطيشه وتهوره . . . لقد جئتك اليوم صباحاً أسألك ان ترفع منزلتي وتمنحني لقب النبلاء . . فأين كان عقلي اذ ذاك ؟ . . اني لا أستحق هذه النعمة ، فانس أيها الملك تحتي ومر فأخلع ردائي الموشى وانحدر الى أحط دركات الهوان ، ولا يصاب مكسيم بأذى ، لأنه لا يزال فتى جاهلاً لا يدري ما يقول . . أما اذا كان لا بد من معاقبته فلتحل نقمتك علي أيضاً لأني أغفلت أمره حتى كاد الشراب يعمي بصيرته . . واني مستعد ان أنطلق في الحال الى النطع قبل ابني . .

كان ماليوتا يتكلم وفرائصه ترتعد ، وقد ارتسمت في وجهه علائم اليأس والقنوط . وكان الملك يسمع كلامه مطرقاً متأملاً . ثم رفع رأسه وقال — لا أنت ولا ابنك تستوجبان العقاب . . فان مكسيم قد نطق بالصواب

فحار ماليوتا في أمره ، وهو يظن ان الملك يمزح ، ثم قال — ماذا تقول يا مولاي ؟ بالله الا ما افرجت كربتي بالعفو الصريح !

فقال الملك بصوت سمعه كل من كان في الردهة — خفف عنك يا هذا

فان مكسيم لم يقل الا الصواب والحق .. ولقد تسرعت في حكمي على الامير نكيتا ، اذ لا يعقل انه فعل ما فعل من غير سبب موجب . فانا أعرف هـذا الرجل قبل ذهابه الى بلاد لتفا ، وكنت أحبه وأثق بأمانته واخلاصه

ثم التفت الى باسيل غريازنوي وثيودور باسمانوف ووالده وصاح ، وهو في حالة الغضب الشديد — وقد جرى كل ذلك بسببكم أيها اللئام ! .. لأنكم على الدوام توغرون صدري بمفاسدكم وتنظرون الى الدم المسفوك بالمسرة والارتياح .. ولم تكفكم قبائحكم السابقة حتى حملتموني الآن على الفتك برجل باسل شريف لا تساوون كلكم قلامة من ظفره ! .. والآن ما لكم واقفين جامدين تنظرون الي كالمتوهين ؟ .. بادروا الى انقاذ الامير قبل ان يحل به العقاب ! .. ولكن لا .. لا تذهبوا .. فقد قضي الامر ولا مرد للقضاء .. ولكني سأحاسبكم جميعاً انتقاماً لدمه المهدور ! ..

وكان بوريس غودونوف قد عاد في هـذه اللحظة الى الردهة وسمع كلمات الملك الاخيرة ، فتقدم اليه وقال — لا تقل قد قضي الامر يا مولاي ! فان الامير نكيتا لا يزال حيا يرزق ، وهو ينتظر أمرك .. وذلك اني حينما كنت أرقب امارات وجهك وانت تخاطب ماليوتا رأيت سمات العفو ظاهرة عليك ، فأسرعت الى حيث أخذ الامير ، فرايته قد علا دكة الاعدام ، وكان الجلاد قد شهر سيفه يريد أن يهوي به على عنقه ، فأشرتُ اليه أن لا يفعل ، وامرته ان ينتظر بلاغاً آخر من جلالتك

فما سمع الملك ذلك حتى سرّي عنه ما كان قد استولى عليه من الغمّ ،

فأشرق وجهه سروراً وقال - بورك فيك يابوريس لانك عرفت بذكاء قلبك وصحة حدسك ما في ضميري واطلعت على خفايا قلبي . ولا شك انك عرفتَ ايضاً اني لا أسفك الدم حباً بالتشفي والانتقام ، بل لاستئصال الفتنة والقضاء على الخيانة . . فتقدم الي ايها الصديق الشهم لاعانقك وأشكرك

فدنا بوريس وانحنى للملك بوقار ، فقبله الملك في رأسه . ثم التفت الى مكسيم وقال — واذن، انت أيضاً مني يا مكسيم ، فاكافئك على ما بدا منك من النبل والاريحية

فجثا مكسيم أمام الملك ثم لثم يده وتأخر قليلاً

فقال له الملك — اني سأجري عليك مذ الآن المرتبات الوافية وارقيك الى رتبة زعماء الحرس وأغمرك بكل نعمة

فقال مكسيم — ولكني لا استحق شيئاً من ذلك يا سيدي الملك !.. أما اذا كان لا بد من الانعام علي بشيء ، فليكن ذلك ارسالي الى بلاد لتفا أو بلاد التتر ، لاحارب أعداء الوطن والدين

فذعر الملك لهذا الكلام وقال — أو ترفض النعمة التي أحببت أن أوجهها اليك ؟ . . وهل سئمت المعيشة في البلاط حتى آثرت عليها خوض المعامع ؟

— نعم يا سيدي !

— ولم ذاك ؟

فأراد مكسيم ان يتكلم ، فقاطعه ماليوتا قائلاً للملك

— ان السرور قد هزه يا مولاي حتى لعثمه ، فلم يدر كيف يظهر

شكره . . فهو يريد ان يقول لك ان الواجب يقضي عليه بخدمتك الى النهاية ، فما عليك سوى الامر وما عليه سوى الطاعة ولو بسفك دمه

فأنكر ولي العهد ذلك بقوله — لقد وهمت يا ماليوتا مرة اخرى . . فليس هـذا ما أراد مكسيم ان يقوله ، وانما هو أراد ان يظهر احتقاره البلاط ، فأظهر رغبته في التخلي عن كل خدمة فيه ، ليكون حراً مطلقاً في غير هذه الدائرة

وقال الملك — وهذا ما أراه انا ايضاً . . فان مكسيم أرفع من أن يكون في خدمتنا ، ولعله يرفض البقاء في فرقة رجال الحرس ، لانه يتطال الى ما هو أشرف من ذلك . . فعلينا ان ننظر في أمره في فرصة اخرى

فعض ماليوتا شفته حتى أدماها وقال للملك — ان مكسيم هو أحقر عبيدك يا مولاي ، وهو أبداً رهن اشارتك ، ولن يخطر في باله ان يحرم مشاهدتك ويكون في غير رضاك

ثم التفت الى ابنه فقال — انطلق الآن الى البيت وقل لوالدتك ان لا تنتظرني ، لأن علي مهام اخر في السجن لا بد من قضائها

فحيا مكسيم وخرج

***

وكان بعد ذلك ان الملك امر باستدعاء الامير نكيتا . فجيء به وهو لا يزال موثق اليدين ، وقد دخل في اثره الجلاد وهو لا يعلم شيئاً من الامر

فأمر الملك بحل وثاق الامير ، ثم بش له وقال — لقد تسرع رجالي في الحكم عليك يا نكيتا شأنهم في اكثر الاحوال ، ولولا مروءة بوريس

وبعد نظره لكنت الآن في العالم الآخر ، ولم يبق من يستطيع ان يكشف لنا القناع عما أراد متى خومياك أن يفعله . . فهات الآن ما لديك من الخبر ، وأوضح لنا اولاً السبب الذي حملك على الهجوم عليه

فقال الامير — أما السبب فهو لانه كما ذكرت قبلاً قد هجم على القرية واخذ يفتك بالابرياء . ولم اكن أعرف انه من رجالك أو أعرف شيئاً عن رجال الحرس ، لاني كنت عائداً من بلاد لتفا . . فرأيته قد أطبق برجاله على القرية ، وأخذوا يفتكون بالناس ويسومونهم كل انواع الاهانة والعذاب

قال — ولو عرفت انهم من رجالي أفكنت تهجم عليهم وتفعل ما فعلت ؟

فأجاب نكيتا بلا تردد — نعم . . لاني لا أصـدق ان رجال الملك يأتون مثل هذه الفظائع والمنكرات

فنظر اليه الملك طويلا ثم قال — اصبت . . فاني لم انشيء فرقة رجال الحرس للشر والفساد ، وانما أنشأتها للذود عن البلاد والضرب على ايدي الأئمة . . ان كلامك ايها الامير لهو عين الصواب ، بل هو دليل حدة الذهن وقوة الادراك . . واعلم انه لم يعرفني حق المعرفة الا انت وبوريس غودونوف . اما غيركما فقد يزعم اني ارتاح الى سفك الدماء وأجد فيه كل لذة وسرور ، مع ان ذلك يؤلمني ويورثني اشد الاحزان . . والآن فاني أعفو عنك وأهبك حياتك

ثم قال للجلاد — انصرف يا هـذا ، فلسنا في حاجة اليك الان . . ولكن لا . . فانتظر ريثما نفرغ من المحاكمة

قال هذا والتفت الى متى خومياك ، فالقى عليه نظرة حادة وقال — ومن اين لك هذا الحق حتى هجمت على قرية الدب وفعلت فيها ما فعلت ؟

فنظر متى اولا الى الجلاد ثم الى الامير نكيتا وهو يرتعش فرقاً وقال للملك – عفواً يا سيدي . . فاني لم اهجم عليها الا لأنها للنبيل دروجينا موروزوف ، وقد فعلنا ما فعلنا بقصد تنسم اخبار هذا الخائن واستطلاع ما يكيده لجلالتك

فلما سمع الملك ذلك سكن غضبه وقال لمتى – وانت ايضاً قد عفوت عنك فلا تعد الى مثل ذلك

ثم عاد فالتفت الى الجلاد وقال – يظهر اننا في غنى عنك . . فاذهب بسلام

وكان النبلاء عند صدور الحكم على الامير نكيتا قد وجموا وظهر الاستياء الشديد على وجوههم . فلما عفا الملك عنه اشرقت وجوههم سروراً وتبادلوا همساً بعض كلمات الابتهاج . فلم يخف ذلك على يوحنا . وكانه ساءه ظهور النبلاء بهذا المظهر وحسبه انتصاراً لهم ، فانقلبت سحنته وقال لهم – لا تحسبوا عفوي عن الامير ضعفاً . . ولا تزعموا ان في ذلك تساهلا معكم واغضاء عن مساوئكم . . فكل زلة منكم أذكرها ، وكل نية سوء اعاقب عليها بمنتهى الشدة

وكانه ندم على عفوه عن الامير واطرائه اياه ذلك الاطراء ، فقال له – وأما انت فاعلم يقيناً بأني لم اعف عنك اليوم الا لما عهدته فيك من الصدق والاخلاص والجهاد في سبيل الوطن ، ولكن اياك ان تزل بك القدم الى ما يعقبك الندم ، لانك لن تنجو من يدي بعد الان ويكون عقابك مضاعفاً . . ولذلك يجب عليك ان تكون من هذه الساعة على تمام الحذر ، وان تقسم لي يميناً على ان تظل على الدوام رهن اشارتي ، حتى اذا انحرفت

عن جادة الاخلاص أو صدر منك ذنب لا تفكر في الفرار من وجهي ، بل تنتظر عقوبتي

فأجاب نكيتا — ايها الملك ان حياتي بين يديك فلن افر منك الا اليك ، وهذا فرض مقدس انا شديد المحافظة عليه منـذ حداثتي ، وقد شبيت على هذه المبادىء فلن اغيرها . وها اني اقسم لك بشرفي على ان اتمم ذلك بمنتهى الدقة والامانة ، ولا اخالف لك رغبة

فقال الملك — حسن . . وانا اريد ان أراك في فرصة اخرى لتطلعني بالتفصيل على اخبار الحرب التي خضت غمارها في بلاد لتفا وما تلا ذلك من الصلح المجيد الذي عقدته

قال هذا وعاد نخاطب النبلاء قائلا — لقد سمعتم ايها السادة كلام نكيتا وقسمه ، فاذكروا على الدوام اني لن انسى شيئاً . . واذكروا كذلك ان عيني تراقبكم واذني تسمع كل ما تتفوهون به مهما اجتهدتم في التخفي

ثم تحول الى رجال الحرس وقال — واما انتم ، فلا يثقلن عليكم صفحي عن الامير ، لاني احب العدل واكره الغدر ولا اميل مع الهوى

ولما فرغ من كلامه اخذ الحاضرون يحيون ويتفرقون ، وهم بين مشرد الافكار وثمل من الشراب . . ثم ساد السكون في قرية الكسندروفا وخيم الظلام على ارجائها ، فأوى الملك الى مخدعه ، ولكنه لم ينم بل جثا يصلي وقد أطال الصلاة والابتهال ، وهو يسأل الله ان يلهمه الحكمة والسداد ويظفره بكل خائن ومارق من رعيته ، ليسود السلام ويعم العدل

الفصل الرابع عشر

الوالد والولد

عاد ماليوتا الى منزله بعد ان تفقد السجن وعذب جمهوراً من السجناء ليحملهم على الاقرار ويطلع منهم على بعض الاسرار . وقد اظهر هذه الليلة تفنناً وبراعة في التعذيب والتنكيل ، فصب جام غضبه على رؤوس اولئك المساكين انتقاماً لنفسه على الاهانة التي وجهت اليه من الملك وولي عهده . ولما شفى غليله عاد الى منزله ناعم البال وقد رنحته الخيلاء

وكان جميع من في المنزل قد رقدوا ، الا مكسيم ، فأنه كان جالساً في مخدعه ينتظر اباه وهو قلق البال مشتت الفكر

فلما دخل ماليوتا خرج مكسيم فاستقبله وقال – اني بحاجة الى الكلام معك يا والدي ، فأسألك ان تسمح لي من وقتك ببعضه

فنظر اليه ماليوتا شزراً وقال – وعن اي شيء تريد ان تكلمني ؟ هيا بنا !

ثم دخلا غرفة في المنزل . فقال مكسيم – قد عزمت على الرحيل غداً . . فأستودعك الله يا ابت !

فأجفل ماليوتا لهذه المفاجأة وقال – والى اين ؟

– الى حيث تسوقني الاقدار

– وما الذي حدث لك حتى سئمت حالة الرغد والصفاء التي انت فيها ؟ . . ومن اين لك هذه الحرية في قيادة نفسك ؟ . . أو لم يكفك

ما أظهرته اليوم أمام الملك من التمرد والقحة ؟ . . الا تعلم من تكون انت ومن هو ؟ . . ومع هذا فانه قد عفا عنك ولم يعاقبك

- نعم اني أعلم ذلك كله . واعلم ايضاً انه شكرني واثنى على صدقي وصراحتي في القول . . ولكن لا بد من السفر

- اني لفي غاية العجب من هـذا الهذيان ؟ . . وكيف هبط عليك هذا الفكر الآن بعد الذي سمعته من الملك عن رغبته في ترقيتك واعلاء شأنك ؟ . . فأي شيء دهاك بعد هذا كله ؟

- لا شيء . . سوى ان نفسي قد سئمت الحياة في هذه البيئة . . فلم يبق لي فيها راحة ولا دعة ، ولم اعد اطيق صبراً عما هو جار هنا . . . فمنذ حداثتي وانا اسمع منك ومن رجال الدين ان ارادة الملك هي ارادة الله ، وان معصية الملك أو مجرد التفكر في ذلك جريمة لا تغتفر . . . وقد كانت أفكاري كل هذه المدة مخالفة لافكاركم ، وأعمالي وأقوالي غير أعمالكم وأقوالكم ، ولكني لحداثة سني كنت متردداً بين ان يكون الحق في جانبي أو في جانبكم ، الى ان كانت حوادث هذا اليوم ، ورأيت الامير نكيتا وسمعت أقواله ، فاتضحت لي الحقيقة بكاملها . وعرفت ان الملك ورجاله قد ركبوا متن الضلال في جميع اقوالهم واعمالهم ، وانهم انغمسوا كلهم في القبائح والرذائل . . . ان الامير نكيتا ، وهو الذي دافع عن الحق وكبح جماح رجال الحرس الطغاة ، قد عد جانياً اثيماً ، وحكم عليه بالموت وكاد يذهب فريسة الاستبداد والجور . . . فلم يبق لي بعد هذا الحادث ، وهو واحد من المئات والالوف من امثاله ، الا احد امرين ، اما الاقامة بينكم والانغماس مثلكم في هذه المخازي ، وهذا ما لا أستطيع القرار عليه ولا قبل لي به ،

أو الهرب منكم الى اقصى ما يمكنني بلوغه من اطراف البلاد ، وهذا ما عولت عليه ولا يثنيني عنه شيء

فلما سمع ماليوتا هذا الكلام جحظت عيناه وصاح بابنه — فالامير نكيتا اذا هو الذي أضلك وأغواك ! . . وقد كنت اجهل حتى الآن ان لك علاقة بهذا الرجل الثائر ! . . فلأثأرن منه واذيقنه مر العذاب !

فخاف مكسيم على الامير من غدر والده، ويكون هو السبب فيه ، وقد شق عليه ذلك جداً ولام نفسه لتعرضه لذكر الامير في مثل هذا الموقف ، فأطرق قليلا ثم قال — أعوذه بالله منك ! . . لانه أشرف رجل رأته عيني وسمعت به اذني . . وقد رأيته اليوم فقط ، ولكني قرأت في وجهه أمائر المروءة والشهامة ، فأحببت ان انضم اليه وأتهالك في حبه وأكون له خادماً . . بيد ان عيني لا تجسران ان ترتفعا اليه ما دمت متقلداً هذه الملابس (ملابس رجال الحرس)

فصمت ماليوتا هنيهة جالت في اثنائها افكار كثيرة في رأسه ، وقد عزم على ان يلطف حديثه ويتملق ابنه باللين والمواعيد ، فنظر اليه وهو يظهر العطف والحنو وقال — مهما تكن الاسباب فاني لا أسمح لك بمغادرتي لانك وحيدي وفلذة كبدي ، ولا سيما وانت لم تعتد الاهانة والمشاق . . . فابق هنا ايها الحبيب ، الى جانبي ، لان امامك حياة كلها سعادة وهناء . وقد احبك الملك وصمم على أن يرفعك الى المقامات العلية ويغمرك بالانعامات السنية ويجعلك من أقرب المقربين اليه ، فيشرق نجم مجدك في البلاط وتصير الى حالة يحسدك عليها كل انسان

فانطرح مكسيم على قدمي والده وقال — ابق انت في هذه الحالة

يا والدي ما شئت . . واما أنا فلا اريدها . . بل أريد الهرب والابتعاد ، اذ لم يبق في وسعي أن اسمع على الدوام العويل والنحيب ، وأشاهد المجازر والمذابح ، وأرى والدي . . .

وهنا توقف عن الكلام . فقال ماليوتا — وترى والدك . . ماذا ؟

— وأرى والدي جلاداً سفاحاً ، لا عمل له الا السعاية والفتك والاغتيال

فتبسم ماليوتا وقال — وأي عار في ذلك ؟ ؟ .. أفلا تعلم اني عضد الملك وسيف نقمته ، بل صاحب امره ونهيه ؟ وقد خدمته أحسن الخدم ، فضربت على أيدي النبلاء العصاة الذين كانوا يتآمرون عليه ويكيدون له ، ولا أزال أبحث عن كل عاص متمرد لاذيقه الموت ، فلا تمضي بعد هذا الا مدة قصيرة حتى تتطهر البلاد من كل من ينوي شراً أو ينطوي على مكيدة

فهز مكسيم رأسه لدى سماعه هذا الكلام وقال — أصمت يا والدي ولا تثر أشجاني ، لانك لا تنطق بالحق . . . فمن من اولئك المنكودي الحظ الذين قتلتهم كان يتآمر على الملك ؟ . . من منهم بلبل البلاد وزرع فيها الفتنة ؟ . . لا أحد . . وانما انت تغتال الناس وتوردهم هذه الموارد حباً للاغتيال والتشفي ليس الا . . وانت على الدوام تفسد ما بين الملك ورعيته ، ولولاك لكان الملك أرحم وأرأف. فلا تغضب الله بهذه الدسائس المتواصلة والقبائح المنكرة ، ولا تكن خالي القلب مجرداً من كل عاطفة

فتفرس ماليوتا في ابنه طويلاً ثم قال — ليس لي أن ادرك شيئاً من هذه الحكم التي تسردها علي ! . . فما الذي يهمك انت من امر اولئك النبلاء ويدفعك الى المحاماه عنهم ؟ . . دع القضاء يجري مجراه ، ولا يهمك الا نفسك . . . وقل لي بربك : أتريد أن تظل حياتك كلها وانت دون اولئك

النبلاء ؟ . . وبأي شيء ترى انت منحط عنهم ؟ . . فهل جبلهم الله من غير التراب الذي جبلك منه ، أم اجرى في عروقهم دماً لا يجري مثله في عروقك ؟ . . لا شك اذاً ان المال هو علة فخرهم وجبروتهم . . . ولكن مهلاً فانك عما قليل ستصبح كأحسنهم ثروة وجاهاً ، لان كل من يصدر عليه حكم الاعدام منهم ينالنا من ثروته النصيب الاوفر . . . وقل لي الآن : الاجل من أسعى انا وأدأب ؟ اليس لاجلك يا ولدي ؟ . . فكم احتملت من المصائب والمشاق ، وكم عانيت من الجهود والاخطار ، وليس لي من أمنية الا ان أراك في اعلى درجات المجد والغنى . . . ومع هذا كله ، افلست والدك الحبيب ؟ او ليست طاعتي واجبة عليك ؟ او لا تشعر نحوي بعواطف المحبة والبنوة ؟

فتنهد مكسيم من كبد حرى وأجاب – كلا ، فاني لا اشعر بشيء من هذا

فارتعش ماليوتا كمن مسه مجرى كهربائي . وكانت كلمات ابنه كعقرب لدغت صدره . ولكنه امسك غيظه وقال – وماذا يقول الملك اذا عرف عن رحيلك ؟

فقال – اني راحل فراراً منه ، وفي ذلك خير لي وله على السواء . . فان الله يأمر بمحبته وطاعته ، واما انا فقد نظرت الآن ، فرأيت من سيء أعماله وانغماسه في الفحش والرذائل واستباحته لكل محظور من المحرمات والمظالم ما ترتعد لهوله الفرائص ، فكرهته بسبب ذلك ونفرت منه ولم يبق في استطاعتي أن اواصل النظر الى تلك الفظائع والمنكرات ، ولعلي اذا ارتحلت عنه ولم أعد أرى كيف يسفك الدم الزكي ، قد تعاودني محبته

فأعود الى طاعته وخدمته ، أو أظل بعيداً عنه ، أخدمه وأخدم البلاد في غير هذه الدائرة وبغير هذه الأثواب

— وكيف تحيا والدتك اذا هجرتها ؟ . . لا شك انك تنغص بذلك حياتها فتموت غماً وكمداً

— ان الله رحيم ، فسيلهمها الصبر ولن يغفل عنها ، وانا ارجو أن تغفر لي وتصفح عني ، لأنني مغادرها اضطراراً

فعبس ماليوتا وقد قدحت عيناه شراراً ، لانه تيقن ان جميع الوسائل التي تذرع بها لم تفده شيئاً . . فقام وطفق يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً ، وقد بلغ منه الهياج وأصبح منظره مثال الرهبة والذعر . . ثم وقف أمام مكسيم وقال بصوت يتهدج خشونة — لقد تماديت في القحة والعصيان ولم تسمع نصحي ، فأنا أتهددك الآن بكل ويل ان لم تمتثل امري وتع كلامي . . . ان هذا الرحيل الذي عولت عليه لن اسمح لك به ، لانك بذلك انما تطوح بنفسك في مهواة الشقاء والهلاك . فان سافرت ولم تبال فاني أحرمك بركتي الابوية . . ولا تطمع أن تفر من نقمتي بعد ذلك ، أنت وجميع من تريد الانضمام اليهم . . هذا هو كلامي الاخير اليك في هذا الشأن ، فقم الآن الى سريرك ، فعسى ان تزول من دماغك هذه الافكار السخيفة . . وها اني منطلق الآن الى القصر لاسلم الملك مفاتيح السجن ، فأرجو أن أراك غداً على أفضل ما أشتهي . . واني لن انسى هذا الامير نكيتا الذي علقت به ، فسأظفر به يوماً وأسحقه سحقاً

قال هذا وخرج . وكانت السماء قد تلبدت بالغيوم . ثم قصف الرعد ولمع البرق . .

ولبث مكسيم بعد خروج والده حيران لا يدري ماذا يفعل . وقد تراكمت عليه الاحزان وتشردت افكاره ، الى أن وطن نفسه اخيراً على الرحيـل في تلك الليلة . فقام من ساعته ودنا من مخدع والدته ، فجثا على الارض على باب المخدع وشخص ببصره الى السماء وقال في نفسه — انك يا الهي اعرف بقلبي ونيتي مني ، فانا الان مغادر هذا المنزل ضد ارادة والدي لانه لم يعد في طاقتي الصبر والاحتمال ، فاغفر لي هذا التعدي على شريعتك ! . . واما انت يا والدتي الحنون فسامحيني وتجاوزي عن ذنبي ، لاني راحل عنك بدون رضاك وبركتك ، مع علمي بان قلبك سيتصدع ألماً لهذا ، لانك لن تريني بعـد الآن . ولـكني اسألك ان تغفري لي وتزوديني بركتك وادعيتك الحارة . .

ثم انحنى فقبل عتبة المخدع ، وعاد الى غرفته ، فجهز نفسه وتمنطق بسيفه وانحدر الى الاسطبل . وكان المطر قد انهمر اذ ذاك بغزارة ، كأنه ساخط على العالم البشري بأسره . . فوقف مكسيم مصغياً ، فلم يسمع شيئاً ، فدخل الاسطبل ، وكان السواس نياماً ، فقتاد جواده . ولما اسرجه وهمّ بالركوب سمع حترشة بالقرب منه ، فالتفت واذا بكلبه « بويان » قد خرج من وجاره ، فدنا منه واخـذ يبصبص له بذنبه ويلحس يده ، كأنه علم بمفارقته فخرج لوداعه . فلمسه مكسيم بيده قليلاً ، وتحوّل منه الى الجواد فامتطاه وخرج . وما بعـد قليلاً حتى وقف جواده وأجال نظره في المنزل وهو يتنهد وعيناه سابحتان في الدموع . ثم ألقى نظرة الوداع الاخير ولوى عنان جواده وسار تحت ستر الظلام غير عالم بما خبأه له الغيب . ولـكنه ماسار الا القليل حتى سمع هريراً شديداً . لان كلبه بويان كان قد أفلت من مربطه وجاء يعدو

وراءه ، وكان مكسيم يحبه كثيراً ويعنى به ، وقد أعجبه الان اخلاصه له وتعلقه به ، فأنس به وار تاح الى مرافقته . ثم واصل سيره وهو لا يدري الى اين

الفصل الخامس عشر

الميل

بينما كان ماليوتا في الحديث السابق مع ابنه ، كان الملك يوحنا في مخدعه مستحرا في الصلاة والابتهال ، وهو تارة يستغفر ربه عما ارتكبه من الاثام ، وطوراً يبكي ويقرع صدره

وفيما هو مستغرق في صلاته ، سمع وقع اقدام ثقيلة في الدهليز المؤدي الى مخدعه ، فالتفت فرأى حاضنته (أنوفرفنا) واقفة في الباب ، وقد استندت على عصاها ، ورنت اليه بملء الاشفاق والحنو

كانت هذه المرأة طاعنة في السن ، تبلغ المئة من عمرها ، وقد كلل المشيب رأسها وحنت السنون ظهرها ، فضعف بصرها وثقل سمعها وتجعد وجهها . وكانت قد عركتها الحوادث وسبكتها التجارب ، حتى قتلت الدهر خبراً وعرفت الايام بطناً وظهراً . وكان الملك يوحنا قد ولد على يديها . وعلى يديها باركه ابوه قبيل وفاته . وقد عرفت بحصافة العقل واصالة الرأي والورع والتقوى واشتهرت بالعرافة حتى ضربت الامثال ببراعتها وتفوقها . وكان أكثر رجال البلاط يرهبونها ويحاذرون غيظها . وكانت هي تكره كل أذية

وتنفر من كل استبداد ، وطالما دافعت عن الابرياء ووقفت في وجه الملك ورجاله

وكان يوحنا يصغي اليها في بعض الحوادث ويخشى غضبها وسخطها ويحترمها كوالدة . ولكنه كان اذا ثار غضبه ينكر عليها كل كلام ويعرض عن كل نصح

ولما رآها الان تنظر اليه ولا تتكلم ، واصل صلاته دون ان يعبأ بها

فقالت له بصوت أبح وهي واقفة تقلب فيه نظرها — قد طالت صلاتك بايوحنا . . فاملك تستغفر ربك عما جنيته اليوم من الذنوب . . فصل صل ياولدي ، فالله رحيم يقبل توبة خائفيه . . ولكن الغريب في امرك انك تستغفر الله ليلا ، وتنتهك كل حرمة نهاراً ، وهكذا فان لك كل يوم عدداً غير قليل من الجرائم والمنكرات . . فلو تبت توبة صادقة وعاهدت نفسك ان لا تعود الى مثل هذه الفظائع ، لغفر الله لك مآثمك السابقة وأنار بصيرتك ونقى قلبك . . اما الان فهما بالغت في التضرع والابتهال فلن يلتفت اليك ، لانك لا تقلع عن اعمالك البذيئة ولا تتوب عنها التوبة الصادقة

فنظر الملك الى حاضنته شزراً وقال — حسبك من مثل هذا الكلام يا أوفرفنا ، لانك لا تدرين ماتقولين

فهزت العجوز رأسها وقالت — ان كنت لا أدري ما اقول ، فما هذه الجناية الفظيعة التي اقترفتها اليوم في اثناء الوليمة ؟ . . لماذا قتلت النبيل الشيخ بالسم ، وكدت ترتكب جريمة اخرى أفظع من الاولى ؟ . . وهل تزعم اني لم اطلع على كل ماجرى منك بالتفصيل ؟ . . أفلا تخاف يوم الموقف الرهيب ؟ . الا تعلم ان الله يحصي خطواتك ويرصد خطاياك وذنوبك ؟ .

وان هذه الذنوب ستلتف على عنقك في ذلك اليوم ، وانها قد أصبحت الان اثقل من رمل البحار ، وبلغ وزنها الوف القناطير ! .. فماذا يحل بك يوم تجرك هذه الذنوب الى قعر الهاوية ، ويزدلف الشياطين اليك من كل جانب ليعذبوك العذاب الابدي ؟ ..

فوجم الملك عن الكلام ، وقد ارتسمت في وجهه علائم الخوف الشديد ، لانه تصور يوم الحشر وتمثلت لديه جرائمه التي لا تحصى . . وطالما تصور مثل هذه الحالة الرهيبة فيما مضى من حياته ، ولكنه كان في اكثر الاحيان يصرف ذهنه عنها زاعما انها من تجارب ابليس ، فلم يصغ الى صوت ضميره ، وكان يعود كل مرة الى فظائعه ومآثمه اكثر من ذي قبل . . . اما الان فقد رأى في كلام حاضنته حقيقة راهنة وأنذاراً مخيفاً ، فامتقع لونه واقشعر بدنه واصطكت اسنانه وكان اشبه بالمحموم وهو تحت اشد اعراض الحمى

فلما رأته أنوفرفنا في هذه الحالة خافت عليه سوءا وأسرعت فقالت بلطف — ولكن لا تجزع يا سيدي لان الله رحيم . . فوجّه اليه قلبك وثق به ولا تحد عن شريعته ، وهو يتولاك بعفوه ورضاه و يسددك الى السبيل السوآء .. وهاءنذا لا أكف عن الصلاة لاجلك ، ليغفر الله لك و يرحمك

فنظر اليها يوحنا طويلاً ثم قال — اني أشكر لك عنايتك يا أنوفرفنا وقد زال عني البأس فاذهبي بسلام

فهزّت أنوفرفنا رأسها استياءً ، لان كلام الملك لم يعجبها وقد عدّته احتقاراً لها ، وقالت — أراك قد مللت كلامي ولم تطل أناتك عليّ ، فكيف ترجو ان يصبر الله عليك و يرحمك ؟ . . ولكن ما هـذا ؟ . . انك ترتعد ،

وقد اشتدت عليك الحمى . . ولدي شراب مسكن تكفيك جرعة واحدة منه لازالة هذه الحمى في الحال، وانا ماهرة جداً في تركيب هذا الشراب او الدواء، وكنت أعده المغفور لهما والديك ، فكانا يتناولانه بلا تردد فينتعشان ويشعران حالاً بانخفاض درجة الحرارة وزوال الالم ، — فهل تريد ان آتيك بشيء منه ؟

وأراد يوحنا ان يجيبها ، فسمع طرقاً في النافذة ، فأجفل وتقلص وجهه فقالت انوفرفنا — لا تخف يا سيدي ، فانه المطر . . وهذا صوت وقوعه على النافذة

وما فرغت من كلامها حتى ابرقت السماء وهزم الرعد . وكان يوحنا لا يزال يرتعد ويرتجف . فاستتلت العجوز قائلة — انك مريض ايها العزيز ، فمر ان أناولك جرعة من الدواء

فقال الملك — لا حاجة لي الى شيء . لاني معافى

فقلت — وهذا كل ما أرجوه لك . . ولكني أرى الامر بالعكس فان جميع اعضائك تنتفض . . فان لم ترد دواء فقم وارقد في الفراش ، ولا تنم على هذه الاخشاب لانها لا تليق الا بالنساك وانت لست ناسكاً والحمد لله . . نعم انك آليت ان ترتد عليها كلما شعرت بتبكيت الضمير . . فدعها الآن وشأنها وقم الى سريرك ، ففي النوم راحة لنفسك وتفريج لغمك

فلم يجبها يوحنا بشيء لانه كان لاهياً بافكار اخرى . . وانه لكذلك اذ سمع وقع اقدام تدنو من المخدع ، فذعر وقال لحاضنته — يخيل الي ان شخصاً قادم الى هنا ، فانظري من يكون

فقالت له – ومن ترى يأتينا في مثل هذا الهزيع من الليل بلا سابق انذار؟.. فانت واهم ياسيدي

قال – كلا. ليس ذلك وهماً، لان الأقدام تقترب الى هنا

ففتحت أنوفرفنا باب المخدع ونظرت الى ما وراء الباب، فرأت ماليوتا مقبلاً.. وكان الملك قد صاح من داخل المخدع: من القادم؟

فقالت انوفرفنا وقد تطاير الشرر من عينيها – هذا ماليوتا سكوراتوف الشرير!.. فتبا له لانه أزعجك بقدومه في مثل هذه الساعة

غير ان الملك لم ينزعج كما زعمت حاضنته، بل سر سروراً عظيماً، وأقبل على ماليوتا بوجهه وهو يرحب به ويقول – اهلاً وسهلاً بك ايها الصديق الامين! هات أخبرنا اين كنت، وما وراءك؟

فحيا ماليوتا وقال – كنت يامولاي في السجن، أتعهد بعض المجرمين، ولم يتح لي ان أخرج الا الان، فأتيت لاسلمك مفاتيح السجن. فاعذرني لقدومي في مثل هذه الساعة المتأخرة

فألقت انوفرفنا نظرة احتقار على ماليوتا وقالت – ليس لك ما تلهو به الا هذا ايها الوحش المفترس – أن تتفقد السجون وتعذب الابرياء وتمهد للملك سبل العطب وتكرهه على ركوب المعاصي.. فالويل لك ايها الشيطان الرجيم ثم الويل لك، لانك تركت كل صفة انسانية وتجلببت كلك بالمآثم والقبائح، فسيشويك اخوتك الابالسة في نار مستعرة ويكون منقلبك عظيماً، فتعلم كيف يكون جزاء الظالمين

وقبل ان تتمّ كلامها لمع البرق واشتد هزيم الرعد، فخيل الى ماليوتا أن ذلك صدى غضب العجوز، فارتجف وأصبح وجهه بلون الاموات

واما الملك فما شعر بماليوتا الى جانبه حتي سرّي عنه ما تراكم عليه من الحزن والهم ، فتشجع وقال له مشيراً الى حاضنته — لا تصغ اليها يا ماليوتا لانها خرفة لا تعلم ما تقول . . فامض في اعمالك كلها بحسب اوامري ولا تحسب لاحد حساباً

ثم التفت الى حاضنته وقال — والان حسبك هذياناً ايتها الحمقآء ! . . أغربي عنا ولا تعودي الى ما ليس من شأنك

فهزت العجوز رأسها وقالت وقد هاج منها هائج الغضب — تدعوني خرفة وحمقآء ولا تخاف غضب الله ! . . وكأني بك تجهل انه عالم بما في القلوب وعادل في احكامه ، وقد حطم صوالجة الظالمين وخفض كل جبار متعظم جيلاً بعد جيل . . فاستعدّ اذاً لغضبه ، فانه سيعرّيك من مجدك وينزع أكليل رأسك ويمحق ملكك ! . . أستعد انت وجميع رجالك وفي مقدّمتهم هذا اللعين (وأومأت الى ماليوتا) — أستعدوا كلكم لقضاء الله وعدله ، فانه سوف يناقشكم الحساب ويجزي كلاً منكم بما قدّمت يداه.. أنكم لا تريدون ان تسيروا في صراط الحق والعدل ، فستهبطون الى الهاوية حيث يكون عذابكم عظيماً

وخرجت أنوفرفنا بعد ذلك بحنق شديد وهي تتمتم وتلعن . . ولبث الملك وماليوتا في مكانهما وقد امتقعت منهما الوجوه وارتعدت الفرائص . ثم اطرقا مدة وهما صامتان جامدان الى ان بلغت أنوفرفنا مخدعها ولم يعودا يسمعان وقع قدميها . . وكان الملك اول من استأنف الحديث ، فسأل ماليوتا عن المجرمين واحوالهم . ثم صرفه ، وكان قد غلب عليه النعاس ، فقام الى سريره ورقد

ولكنه لم يلبث ان أفاق مذعوراً من حلم مزعج سلب راحته وأثار هواجسه ، فرأى نفسه وحيداً في مخدعه . وكان القلق قد عاوده وملأ الجزع قلبه . . وحاول ان ينام ثانية فلم يستطع الى ذلك سبيلاً ، لان افكاره كانت في اشد حالات الهياج والاضطراب

وانه لكذلك اذ تراءى له شبح من بعض جوانب الغرفة ، فارتجف وأخذه رعب شديد وكاد يغشى عليه . . غير انه شدّد عزمه ونظر اليه ، فاذا هو شبح النبيل الشيخ الذي أهلكه بالسم في اثناء الوليمة . . وقد تقدم اليه بقدم ثابتة كأنه القضاء المبرم ، ثم وقف امامه وهو لا يرفع نظره منه

فاقشعر الملك وجمد دمه ويبست اعضاؤه وكاد يفقد صوابه . . وأراد ان يصرخ فلصق لسانه بحنكه وشعر بدوي هائل في اذنيه . .وكان الشبح قد انحنى امامه وقال : يبقيك الله يا يوحنا ويزيد في سلطانك . . فقد قتلتني ظلماً وجوراً . . فمثلت الان بين يديك أحييك وأدعو لك بدوام البقاء ! . .

وكان لهذه الكلمات صدى شديد رن في اعماق نفس الملك ، فطار قلبه شعاعاً وزفر زفرة حارة ، وهو لا يدري هل هذا الذي يراه هو النبيل بشخصه ؟ وهل الكلام الذي سمعه هو كلامه حقيقة ؟.. ام ذلك ضميره وقد قام يحاربه ويناقشه الحساب على ما جنته يداه

وفيما هو على هذه الحالة من الذهول والحيرة انتصب امامه شبح آخر ، فتفرس فيه ، فاذا هو نبيل آخر من مشاهير رجال المملكة يدعى (أداشف) وكان الملك قد قتله منذ اربع سنوات ، فظهر له الان وقال — أكرم الله الملك ومدّ في عمره . . فقد أنشب فيّ مخالب بغيه جزاء اخلاصي ووفائي ثم تم أداشف نسلةٌ من كرائم السيدات يقال لها (ماريا) وكان الملك

قد مثل بها وقتل بنيها الخمسة . وقد تراءت له في هذه الليلة مع بنيها وكل منهم يقول هاتفاً : ليحي الملك ! . . ليحي يوحنا الرابع ! . .

وبعدهم ظهر ثلاثة من كبراء رجال الامة وقادة الرأي فيها وهم (الامير كرلياتف والامير ابولينسكي والنبيل شرميتوف) ثم غيرهم وغيرهم من الزعماء والاعيان . وكان الملك قد أوقع بهم في اوقات مختلفة . . فظهروا الان امامه وحياه كل منهم بقوله : يبقيك الله يا يوحنا ويزيد في عزك وشوكتك ! . .

وتبعهم جمهور من الرهبان والشيوخ والراهبات ، وكلهم باللباس الاسود ، وقد اصفرت وجوههم وصبغت اثوابهم بالدم . فجثوا امام الملك وصاحوا : أيدك الله يا يوحنا وأعز نصرك . . لانك بطشت بنا فلم تهب كبيراً ولم تشفق على صغير ، وكلنا ابرياء ، ولا ذنب لنا الا الاخلاص في خدمتك والامانة لك . .

وتلاهم الجنود الذين قاتلوا مع الملك في حرب كازان وأبلوا فيها البلاء الحسن ، فكانت مكافأة الملك لهم انه أمر فأذيقوا اصناف العذاب ثم قتلوا شر قتلة . .

وظهر في الغرفة بعد ذلك جمهور غفير من العذارى ، وقد حللن شعورهن ومزقن ثيابهن وحثون التراب على رؤوسهن . . . ووقف الى جانبهن جمهور آخر من النساء يحملن اطفالهن . . وكانت اولئك العذارى وهؤلاء النساء يرددن مع الاطفال هذا الدعاء يبقيك الله يا يوحنا ويزيد في سلطانك وجبروتك ! . . لانك اضطهدتنا فجعلتنا هدفاً لنقمتك ، ولم ترث لنا ولم ترق ولم ترحم . .

وهكذا امتلأت الغرفة من الاشباح والخيالات ، وهي تروح وتجيء

وتدور من حول الملك وتجثو ثم تقف بهيئات مرعبة ، وهو ينظر اليها بعينين جاحظتين ، ويشعر بان الغرفة كلها تدور به ، وقد انخلع قلبه واصابه ذهول شديد ، ولبث مدة وهو كأنه شخص حجري . . . . .

ثم انطلق لسانه فصاح بأعلى صوته — اذا كنتم ايها الناس قد جئتم لتعذيبي بقوة عدوّ البشر ، فانصرفوا عني باسم الله القدير وانتظروا يوم الحشر فيدينني الله واياكم ! . .

وما قال هـذا حتى رأى الاشباح قد أحاطت به من كل جانب وهي تصيح وتولول . . . وكان المطر في تلك اللحظة قـد هطل بغزارة وعصفت الريح عصفاً شديداً ، فخيل الى الملك انه يسمع ابواقاً وهاتفاً يتخلل اصواتها بقوله : هلم يا يوحنا الى الدينونة ! . . ان الديان يدعوك ! . .

فارتجف الملك واستطير فؤاده روعاً وصـاح صيحة عظيمة دوى لها المكان ، وسمعها رجال الحاشية وكانوا نياماً في اسرتهم ، فهبوا مذعورين وتراكضوا الى مخدع الملك وهم في اشد حالات الارتباك ، فسمعوه يقول: أفيقوا كلكم ! . . لا تناموا ! . . لقد أزف اليوم الاخير ودنت ساعة الدينونة الرهيبة ! . . فهلموا جميعاً الى الـكنيسة ! . .

فدهش رجال القصر مما رأوا وسمعوا . ولما لم يسعهم الا الاذعان بادروا الى الاجراس فقرعوها . فنهض رجال الحرس من مراقدهم وتسارعوا الى الـكنيسة وهم يتعجبون . . وكان قوم منهم لم يرقدوا بعد ، لانهم دُعوا بعد الوليمة الى منزل الامير اثناسي فيازيمسكي وأقاموا عنده الى ذلك الوقت يشربون ويطربون . . فما سمعوا قرع الاجراس حتى هبوا الى اثوابهم

الرهبانية فارتدوها وأقبلوا وهم يتهادون في مشيهم من السكر، وقد ارتفع منهم صراخ يصم الآذان وعلا ضوضاؤهم . .

وكان الملك يسير امام حاشيته وهو يقرع صدره ويقول : يا الله ارحمني انا الخاطىء ! . . وأرح نفوس الموتى الذين قتلتهم ظلماً ! . .

ولما وصل الى فناء الكنيسة لم تقو رجلاه على حمله فهوى بجسمه الى الارض . فبادر اليه بعض الحراس وأنهضوه ودخلوا به الى الكنيسة . وكانت هناك حاضنته أنوفرفنا فاستقبلته وهي تقول - سكن روعك ياسيدي ولا تقنط من رحمة الله ! . .

ولم يمض الا القليل حتى غصت الكنيسة برجال الحرس . . وكان السجناء قد سمعوا الاجراس وأنغام المرتلين في الكنيسة ، فعلموا ان الملك يصلي ، فطفقوا هم ايضاً يصلون ويسألون الله ان يجعل في قلبه الرحمة والشفقة ، ويفتح لهم باب الفرج والخلاص منه ومن ماليوتا الظالم ولو بموتهم

وكان الاولاد الصغار في منازل القرية قد استيقظوا ايضاً على صوت الاجراس خائفين باكين ،وكانت والداتهم يفزعنهم باسم (ماليوتا)لاسكاتهم، فكان الطفل اذا سمع هذا الاسم الراعب يكف حالاً عن البكاء ويخلد الى السكينة وهو يتشبث بأثواب والدته مضطرباً مرتعشاً

الفصل السادس عشر

الوشاية

ولما كان الصباح عاد ماليوتا الى منزله فافتقد ابنه فلم يجده . فطار رشده لانه أيقن ان مكسيم قد هجره وانه لن يراه بعد . وقد وقع هذا الحادث عنده أسوأ وقع . وهب من ساعته فأنفذ من يبحث عن الفتى في جميع ضواحي القرية . ولم ير من اهل المنزل من ينتقم منهم لذلك الا السوّاس ، فقد اخذهم بالاهمال والغفلة وزجهم في السجن لينزل بهم اشد العقوبات . . ثم امتطى جواده وسار بنفسه يتفقد جميع الطرق والمسالك وهو يكاد يجن غيظاً ، ولا يدري كيف تكون حاله امام الملك ، أيخبره بفرار مكسيم ، ام يكتم الامر عنه الى حين ؟ . .

وفيما هو في هـذه الحالة من الحيرة والغضب سمع وقع حوافر خيل وراءه ، فالتفت واذا به يرى ولي العهد يصحبه ثيودور باسمانوف وجماعة من رجال الحرس ، وكانوا راجعين من نزهة الصباح ، وقد ارتفعت جلبتهم وعلا صياحهم وضحكهم

وكان ولي العهد قد أبصر ماليوتا ، ولم يخف عليه سبب كآبته وهمه . فوخز جواده وأسرع اليه وهو يقول بتهكم — أحييك بملء الاحترام ايها النبيل ماليوتا ، وأبلغك اننا قابلنا الان رجالك وهم يفتشون عن مكسيم ! فماذا حدث ؟ . . فهل أرسلته الى موسكو ليحمل اليك قبعة النبلاء ؟ . .

قال هذا وقهقه ضاحكاً

وكان ماليوتا حالما أبصر ولي العهد قد ترجل ووقف مكشوف الرأس احتراماً له ، وهو يخفي في صدره أحر من نار الجحيم

وكان ثيودور باسمانوف قد اقترب اليه ايضاً وهو يضحك و يردد كلام ولي العهد مستهزئاً

ولبث ماليوتا واقفاً حتى ابتعد ولي العهد بموكبه ، فمرت على وجهه سحابة غيظ وانتقام لونته بالوان الحرباء . ثم عاد الى جواده فامتطاه وهو يصرف باسنانه ، وقد لمعَ في عينيه برق الانتقام من ولي العهد و باسمانوف واقسم ان يشفي غليل صدره منهما . . ورجع بعد ذلك الى قصر الملك وقد أخفق مسعاه وعظم عليه رحيل ابنه وضاقت الدنيا في وجهه

وكان الملك اذ ذاك جالساً في مخدعه كئيباً حزيناً ، وقد أثرت فيه حوادث الليل تأثيراً أليما ، فاكفهر وجهه وساء خلقهُ

ولكنه لم يعتبر بشيء مما رأى ولم يتمظ ، وقد عزا جميع تلك الرؤى والغرائب الى الشيطان وزعم انه قام يحاربه لينصر عليه اعداءه ، فأضمر عدم المبالاة وصمم على متابعة القسوة والبطش الى ان تتم له الغلبة على اعدائه أجمعين ويقمع اهل الشر ومضرمي نار الفتنة ولو كانوا ألوفاً . وكان سوء الظن قد ملأ نفسه فاصبح يرتاب حتى بأقرب الناس اليه وأعز ذويه واخصائه ، وأصبح لكل حركة من حركاتهم ولكل كلمة من كلماتهم او نظرة من نظراتهم معنى خاص يؤوله ويفسره كما يشاء خاطره الضعيف وتريده نفسه المريضة . .

وانه لفي هذه الحالة المزعجة اذ دخل عليه ماليوتا وقد كتم امره وأخفى ما به . فارتاج الملك الى مجيئه كعادته في مثل هذه الاحوال وأقبل عليه

يستخبره عن المجرمين وماذا استطاع ان يقف عليه من اسرارهم وخفاياهم

فقال ماليوتا — لقد وقفت يا مولاي على امور كثيرة حرية بالبحث والاستقصاء ، لانها تميط لنا النقاب عن علائق هؤلاء المجرمين بغيرهم من الخونة والمتآمرين . غير ان هناك امراً واحداً عظيم الاهمية لم أستطع ان أحملهم على كشفه . فقد أبوا كل الاباء ان يفوهوا بكلمة وهابوا ان يصرّحوا باسم الرجل الذي حرضهم ولا يزال يحرض امثالهم على المعصية والمكيدة لجلالتك . ولا جرم ان هذا الامر هو الغاية الاولى التي نرمي اليها في جميع ابحاثنا وتحرياتنا ، لاننا انما نبغي ان نستأصل الفتنة من اساسها ، وهذا ما دعاني الى بذل الجهد حتى ظفرت بأمنيتي

فلما سمع الملك ذلك جحظت عيناه وجمد

واستأنف ماليوتا حديثه فقال — اجل يا مولاي فانها الحقيقة ولا بد ان تظهر مهما بالغ المنافقون في اخفائها . فكم صدرت اوامرك بالسجن والعقوبات الشتى ، وليس لك من غاية سوى تطهير البلاد من كل خيانة ودسيسة ، غير ان عدد الخونة واصحاب الفتن على الرغم من كل ذلك يزداد كل يوم ، ولن يتأتى لك استئصالهم ووضع الحد لكل ذلك الا اذا فتح عليك بوسيلة اخرى تؤدي الى النجاح

فدهش الملك . ولكنه لبث صامتاً يعي الحديث ولا يتحرك لئلا تفوته كلمة

ومضى ماليوتا في حديثه فقال — والذي يلوح لي ان سبب ذلك هو انك تقطع من الخيانة اغصانها واوراقها ، وتدع الجذع وشأنه ، فلا تمسه ، فيزداد على الايام تأصلاً وقوة

فلم يفهم الملك ما قصد اليه ماليوتا ، وقد اضطرم قلبه بحب الاطلاع على هذا السر الجديد

فقال ماليوتا — تذكر يا مولاي ايام كنت مريضاً وعلى شفا الخطر كيف ان النبلاَء لم يكترثوا الك ، لانهم كانوا يتوقعون موتك بفارغ الصبر ليملكوا اخاك فلاديمر . . غير ان الله الرحيم لم تخف عليه مؤامرتهم هذه ، فمن عليك بالشفاَء التام ، وبذلك أفعم نفوس عبيـدك الامناَء بهجة ، وأحبط سعي خصومهم الاشرار ورد كيدهم الى نحرهم

فأجفل الملك لهذا الكلام وقال في نفسه : « فهذا اذاً هو مغزى الرؤى والاشباح التي تتراءى لي حيناً بعد حين وكان مشهدها الاخير الليلة البارحة .. فان عدو البشر انما أراد ان يغشي على بصري لئلا أطلع على دسائس اخي . ولكن أمنيته لن تتم ، لاني سأكبح جماحه وأخمد انفاسه ! . . »

ولم يلبث بعد هذا التأمل ان عاد فأقبل على ماليوتا وهو يكاد يتميز من الغضب وقال — هات ما عندك عن اخي ، ولا تخف شيئاً

فقال ماليوتا وقـد أيقن بالنجاح — كلا ياسيدي الملك . فما كلامي الان عن اخيك فلاديمر ، لانه لا يضمر لك سوءًا ، وقد انحاز عنه النبلاَء فلا يعتمدونه الان في قضاء أوطارهم الفاسدة

قال — فمن اذاً تعني بكلامك ؟ ومن هو هـذا الذي سولت له نفسه مثل هذه المخاطرة ؟

قال — انت تعلم يامولاي ان اخاك قد كاد يجاري النبلاَء في افكارهم ، الا انه تبصر في العواقب ولم يعرهم اذناً صاغية . . ولم يكن في احجامه هذا

ما يردع النبلاء او يحولهم عن عزمهم ، فاختاروا لهذه المهمة شخصاً آخر ، كان من سوء طالعه أنه استسلم لارادتهم وطمع في الملك

فصاح الملك وقد برق ورعد — ومن هو هذا ؟ من هو ؟ . . قل بالعجل ! . .

فقال ماليوتا وهو يرتعش وجلاً — ولكن ما كل ما يعلم يقال يامولاي ولا سيما في مثل هذا الموقف

وكان الملك قد نفد صبره . . فقبض على عنق ماليوتا بكلتا يديه واخذ يهزه بعنف ويتهدده بكل ويل وهو يقول — من الرجل ؟ . . أذكر اسمه حالاً ! . .

فقال ماليوتا بنغمة المستعطف — ولكنني أسألك يا صاحب الجلالة ان تعفو عنه ، لانه لم يرتكب هذا الامر الا لصغر سنه . . فهو لا يفهم خطر هذا التواطؤ ، ولا يدري الى اين تقوده قدماه . . وما ذنبه الا انه اتصل بالنبلاء وأصغى اليهم ، فساقوه بآرائهم الخبيثة الى هذا السبيل

فوجم الملك . وقد هامت نفسه وأسقط في يده . .

وادرك ماليوتا ان ساعة التصريح قد دنت فقال — لا تذهب بعيداً في البحث عن الرجل يا سيدي . ولا تتعب نفسك للكشف عن هذه الخيانة خارج قصرك . . فان عدوك هو أقرب الناس اليك ، وهو يأكل ويشرب معك على مائدة واحدة ومن صحفة واحدة وكأس واحدة ، ولباسه من لباسك

وكان الملك يسمع وينتفض وهو كأنه العصفور بلله القطر ، وقد راعه الامر جداً . . ولبث حيناً لا يدري ماذا يقول او ماذا يفعل . .

وفي هذه اللحظة سمع من ساحة القصر اصوات طرب وغناء تلتها ضجة

ولغط . . وذلك ان ولي العهد كان قد وصل برجاله الى القصر ، فأبصر في الساحة جمهوراً من تجار الاقاليم ، جاءوا ليقدموا للملك « الخبز والملح » رمزا الى صحة عهدهم وصدق عبوديتهم وليشكوا له مساوىء رجال الحرس وعيثهم في بلادهم

فلما أبصروا ولي العهد ارتفعت اصواتهم بالهتاف والدعاء وجثوا امامه . فتقدم اليهم يسألهم عن شأنهم فقالوا – جئنا نرفع الى جلالة الملك ظلامتنا وشكوانا من رجال الحرس ، لانهم يعاملوننا بأشد ضروب القسوة ، وقد نهبوا خيراتنا وسبوا نساءنا واولادنا

فنظر اليهم ولي العهد شزراً وقال بازدراء :

انصرفوا الى بلادكم . . وسأكلم والدي بالامر

فقالوا – أقر الله عينيك يا مولانا وأثابك عنا وعن الرعية خيراً

وكان ولي العهد لا يزل في صهوة جواده ، وبإزائه ثيودور باسمانوف ، وامامه التجار جاثون ، وقد دنا منه احدهم يحمل بين يديه صحفة الخبز والملح

وكان ماليوتا ، حين سمع اصوات التجار في حال وصول ولي العهد وحاشيته ، قد أطل من النافذة فسمع ورأى كل ما جرى . . فلما قدم التجار الخبز والملح الى ولي العهد كما سبقت الاشارة ، قال ماليوتا للملك همساً وهو يشير بيده – أنظر يا سيدي ! اني لا أكاد أصدق عيني . . . فكأن الناس قد انبروا يهنئونه بسرير المملكة من الان . . ولعل ثيودور باسمانوف هذا ، وهو صديق ولي العهد الحميم كما تعلم ، من اول المحرضين له على الخيانة والنافثين فيه من هذه السموم الخبيثة

وما وقع بصر الملك على ذلك المشهد حتى اهتزت اعصابه غضباً

وتطاير الشرر من عينيه وفقد وجهه كل هيئة بشرية . . حتى ان ماليوتا نفسه ارتاع وجعل ينتفض من شدة الخوف والهلع . . غير ان الملك لم يبطىء ان تغيرت ملامحه ، فابتسم وقال لماليوتا وهو يشير الى ولي العهد — اني أدفعه الى يدك لتستأصل في الحال هذه الجرثومة ، جرثومة الفساد والخيانة ، من المملكة . .

فاخفى ماليوتا في صدره سروراً عظيماً وقال في رياء وخبث — ولكنه لايزال صغير السن ايها الملك . والتبعة كلها هي على النبلاء الذين أغووه . . فاسمح لي ان أشفع اليك فيه هذه المرة فقط ، فعسى ان يعيده ذلك الى رشده

وكان الملك قد تصلب قلبه . فنظر الى ماليوتا نظرة اخترقت صدره وقال — حسبك من مثل هذا ! . . فقد حكمت باهلاكه ، وماعليك الا ان تنفذ الحكم . . وليبق كل ذلك مكتوماً عن كل انسان

قال — اذا كانت هذه ارادتك فقد قضي الامر

قال — ويجب ان تبادر الى العمل من هذه الساعة ، لاني أكره التسويف . . فهو اليوم سيخرج الى الصيد والقنص في جهات « غياض الجاهلية » . وهناك يجب ان تغتاله وتتركه قتيلاً مهشما وتطرح جثته بين الادغال ، حتى اذا رآه في هذه الحالة احد لايشك في انه سقط عن جواده اتفاقاً فقضى نحبه

فسلم ماليوتا وخرج وهو يمل بنجاح مأربه . ولبث الملك بعد انصرافه واقفاً في مكانه مشرد الافكار تائه البال ، وقد بلغ منه الغضب والتعب . .

ثم اتجه الى الايقونات وصور القديسين المعلقة على بعض جدران المخدع وجثا امامها واندفع يصلي . .

اما ما كان من امر ماليوتا فانه بحال خروجه من لدن الملك ذهب فاجتمع بمتى خومياك وأقام معه ساعة يتساران ويرسمان الخطة التي يجب ان يتبعاها . . وكان متى هذا أشرس جميع رجال الحرس وأدهاهم وأكثرهم عيثاً وفساداً . وكان ماليوتا يعجب به ويكل اليه كبار المعضلات الجنائية ، فلا يبطئ ان يحلها في اسرع وقت وعلى احسن وجه ، دون ان يحاذر خطراً او يحسب للعواقب حساباً . . فاذا أراد ماليوتا احراق قرية او سبي امرأة او نهب بيت او الفتك بأحد اوغير ذلك من الفظائع لم يكن يعتمد في شيء من كل ذلك الا على متى اولاً . ولما كان هذا كلفاً بالمنكرات فكان يتلقى تلك الاوامر بسرور ثم يقضيها بحسب ما يريده سيده . .

وكان بعد هذا الاجتماع السري ببضع ساعات ان ولي العهد قد خرج للصيد والقنص في غابات موسكو ، ومعه جمهور من رجال الحرس وفي جملتهم ماليوتا سكوراتوف ومتى خومياك . . ولم يكن يسمع في تلك الجهات غير نباح كلابهم وأزيز رصاص بنادقهم . وكان كل منهم مهتماً بنفسه لا يكاد يعبأ بغيره

ففي هذا الوقت انفصل عن الجماعة ماليوتا ومتى . وقد قصدا مكاناً في الغابة وأقاما يرقبان ولي العهد باهتمام وتيقظ ، فلما رأياه منفرداً وقد أوغل في الغابة ، بادرا اليه وأخذا يسيران الى جانبيه وهما يفكهانه باحاديث الطير والوحش ونوادر الصيد، الى إن أصبحا في مأمن من الرقيب ، فانقضا عليه وفي اسرع من البرق انزلاه عن جواده ، فأمسك متى بذراعيه ، ووضع

ماليوتا في فيه منديلاً منعه الـكلام . ثم أعاداه الى صهوة الجواد ، وقد اوثقاه في السرج وجعلا على رأسه قبعة كبيرة تستر معظم وجهه . وسارا به بعد ذلك جهة « غياض الجاهلية » في أقصى تلك الغابات ، وهو بينهما طائع منقاد كالنعجة الى الذبح . ولم يسيرا كذلك الا قليلاً حتى انضم اليهما عشرون فارساً من رجال الحرس ، كان ماليوتا قـد أقامهم في مكمن ، وقد تقلدوا الاسلحة وساروا يتبعونهما صامتين دون ان يعبأوا بشيء من امر الفارس الاسير

وظل جمهور رجال الحرس منهمكين بالصيد ، وقد انتشروا في اماكن مختلفة سحيقة الاطراف كثيرة الادغال ، فلم يشعر احد منهم بغياب ولي العهد وسار ماليوتا برجاله سيراً حثيثا وهم لا يلوون على شيء وقد اقتربوا من غياض الجاهلية ، وهي على مسافة نحو ثلاثين كيلو متراً من قرية الـكسندروفا ، وتحيط بها من جميع الجهات غابات عظيمة . وكان السواد الاعظم من الروسيين يروون عن هذه الغياض اخباراً غريبة وحكايات مخيفة ، ويزعمون انها مأوى جماعات كبيرة من الابالسة والجن والمرَدة والعفاريت والارواح الشريرة على اختلاف أنواعها واسمائها

الى هذه الغياض ساق ماليوتا ابنَ الملك يوحنا الرابع للايقاع به بأمر والده نفسه . .

وفي هذا الوقت كان قوم آخرون — من غير رجال الحرس — محتشدين في بقعة فسيحة بين اشجار الغابة المحدقة بالغياض المذكورة ، وليس لهم علم بشيء مما اراد ماليوتا ان يمثله

الفصل السابع عشر

برسنو درنثاوه

كان اولئك الناس منتشرين في تلك البقعة بين اشجار البلوط والسنديان ، وقد تسلحوا بالسيوف والخناجر وارتدوا ملابس شتى من الصوف والـكتان ، و بعضهم لبس المخمل الموشى بالذهب . وكانوا منقسمين جماعات جماعات . وقد اشتغل بعضهم بتجهيز الطعام . ولها آخرون باللعب على انواعه . وتألب جمهور حول رجل منهم طاعن في السن كان يعرف بينهم باسم « العم كرشون » وقد استند الى جذع شجرة كبيرة وجعل يطرف القوم بضروب الاخبار والحكايات ، وهم مقبلون عليه يسمعون كلامه بمنتهى الاصغاء واللذة

وفيما هم كذلك اذ جاء من جهة الطريق ثلاثة شبان لا سلاح لديهم ، يقودهم فتى من القوم ، وقد تقدم حتى مثل امام العم كرشون وقال له وهو يشير الى الشبان — انهم يريدون الانضمام الينا

فأمسك الشيخ عن سرد اخباره واقبل على الغرباء يسألهم عن شأنهم . فنظروا اليه وقد ملكتهم الدهشة ، ووقفوا حيارى لا يفوهون بكلمة

فقال لهم الفتى الذي قادهم — ان العم كرشون يسألكم عن حالكم ، ومن اين انتم وماذا تبتغون . . فأخبروه بكل شيء . . لان هذا هو اول ما يقتضيه نظام عصابتنا من كل من يروم الانضمام الينا

فقال احد الثلاثة — انا من جهات موسكو

فسأله كرشون — ولماذا هجرت بلدك وجئت الينا ؟

فقال — لان رجال الحرس لم يبقوا لي شيئاً . فقد دمروا منزلي واحرقوا مقتنياتي

وقال الثاني — وانا كذلك . . جئت أبحث عن اهل لي

فضحك الحضور وقال له بعضهم — واي اهل لك في هـذه الغابة حتي تبحث عنهم ؟

فقال — ان رجال الحرس قد قتلوا والدتي وجدتي واخواتي واخوتي ، فلم يبق لي من تجمعني واياه صلة القربى ، فقلت لعل في الانضمام الى عصابتكم فرجاً . . وهكذا أقبلت اليكم لأكون اخاً لكم وتكونوا لي اخوة

فقالوا — اهلاً بك وسهلاً . فانت مذ الان اخونا ، لك مالنا وعليك ما علينا . ولعل الله يسهل لنا الاخذ بثأرك وثأر اكثرنا من اولئك اللئام ، لاننا جميعنا في هذا المعنى اخوة ، وما فينا الا من اصابته داهية من مثل ما أصابك . . فصبراً ايها الاخ فان الله مع الصابرين

ثم التفت كرشون الى الشاب الثالث وقال — وانت من اين ايها الصاحب وما بغيتك ؟

وكان هذا الشاب ضخم الجثة كبير الرأس طويل القامة مفتول العضل تدل هيئته على منتهى السذاجة والبله . فلما سمع كلام العم كرشون نظر اليه طويلاً ثم عرك جبينه وقال — وانا كرفيقي الاول من بعض القرى القريبة من موسكو

فقال كرشون — ولماذا جئت الى هنا ؟

قال — لان رجال الحرس اختطفوا عروسي

— وكيف اختطفوها ؟

— جاءوا واختطفوها

— وبعد ذلك ماذا جرى ؟

— لم يجر شيء سوى انهم اختطفوها

— فلماذا لم تجر في اثرهم وتخلصها منهم وانت على ما يظهر من الجبابرة الاشداء ؟

— لم أتمكن من ذلك . لانهم اخذوها وساروا بها بسرعة البرق . . وقد احتدمت غيظاً وتوعدتهم بالانتقام

فقهقه الحضور لهذا الكلام وقال بعضهم — ولكن خطبك ليس بذي بال ياصاح لانك تستطيع ان تجد كل يوم عروساً غير عروسك

فسكت الشاب وهو يبتسم تارة ويقطب اخرى . ورأى القوم في حركاته الغريبة ماحبب اليهم ممازحته . فدنا منه بعضهم واخذوا يتجاذبونه من جانب الى جانب ، وهو صامت ينظر اليهم ولا يدري أيغضب ام يصبر

واذ رأوا منه ذلك ازدادوا جرأة عليه وهم يضحكون ويقهقهون

فنظر اليهم شزراً وقال — والان ؟ أفلا تدَعوني وشأني ؟

فلم يبالوا . وقد أحاطوا به من كل جانب ، يعبثون به ويتدافعونه ، وهم يرجون ان يثيروا غضبه

وأراد هو ان يغضب . ولكنه عاد فصبر ، لانه لم يجد بعد سبباً

كافياً لذلك . . وكانت هيئته تزيد القوم جرأة عليه وتمادياً في العبث به .
وكانوا يصيحون بلا انقطاع — مابالك لاتغضب ايها الابله ؟

فانتصب الشاب وانتفخ وقد حدجهم بنظرة غضب وقال — والان ! فمن يمسني فلا يلومن الا نفسه

فعلت اصوات القوم بالضحك . وتقدم احدهم فدفعه بعنف وقال — هات فأرنا بأسك !

فبرق الشاب ورعد . ثم حسر عن ساعديه وتفل في كفيه . وأخذ يضرب بيديه ورأسه ويرفس برجليه ويجول بين القوم كالمجنون . وهم يفرون من امامه . وهو يتتبعهم بخفة الدب ويواصل الضرب والرفس يمنةً ويسرةً حتى شفى غليله ، فوقف بتمام السكينة وهو يضحك ويحرك جبينه كأنه لم يحصل شيء البتة . . وكان في اثناء هيجانه قد قلب عن النار قدور الطعام وكسر بعض الآنية

ولما سكن الهياج أحدق به القوم ثانيةً وقد دهشوا لشجاعته وقوته . فقال له بعضهم — ولم لم تظهر مثل هـذا الغضب يوم جاء رجال الحرس واختطفوا عروسك ؟ أفما كانوا باءوا بالفشل والخذلان ولاذوا بالفرار من وجهك ولو كانوا الوفاً ؟ . . والان قل لنا ايها الفتى الباسل ما اسمك ؟

فقال وهو يحرك جبينه ويضحك — اسمي توما

فقالوا — لله درك ياتوما . فانت في الحقيقة بطل ولا ندّ لك . وسوف يكون لك في العصابة شأن وأي شأن ! . .

وكان بعد ذلك أن جاء احـد اولئك القوم وكان في جهة اخرى من

الغابة وقال – ان الزعيم يريد ان يطرفنا بأخبار معيشته السابقة ووقائعه في جهات نهر فولغا . فمن أراد ان لايفوته شيء من ذلك فليسرع !

وحالما سمع القوم هذا الكلام تركوا كل شيء وأسرعوا الى حيث كان الزعيم ، وهم يتشوقون الى مثل هذه الاحاديث ، ولاسيما ما كان منها وصفاً لشجاعة او نزال

وكان الزعيم جالساً فى ظل شجرة باسقة الاغصان ، وقد لبس درعاً تحت صدرة موشاة بالذهب . وكان على رأسه خوذة جميلة وفي احدى يديه فأس ضخمة . وهو عريض المنكبين متوسط القامة تلوح على وجهه سيماء البسالة والانفة و لاقدام . ومن تفرس في وجهه قليلاً عرف انه برستن صاحبنا القديم الذي التقاه الامير نكيتا في قرية الدب وكان موثقاً مع رفيقه (العم كرشون) فحلهما ، وكان له مهما ما ذكر في حينه . . وبرستن هذا هو زعيم هؤلاء اللصوص ، وكانوا في كثير من الاونات يحتشدون في تلك البقعة بين اشجار الغابة . ومن هناك يكمنون للقوافل ويترصدون الفرص للبطش برجال الحرس حيثما استفردوهم وفي أي وقت اتفق لهم الظفر بهم

ولما اجتمعوا الان حول الزعيم هش لهم و بش واخذ يسرد عليهم نوادر كثيرة عجيبة مما اتفق له وهو في جهات نهر فولغا العظيم . وقد روى لهم طرفاً من اخبار صديق له جبار يدعى يرماك وهو زعيم عصابة كبيرة قوية من اللصوص تقيم في تلك الجهات . وقص عليهم من غرائب هذا الجبار مالا يكاد يصدق . كقوله مثلا انه كان يسطو وحده على قافلة برمتها فيسلبها اموالها و يفرق رجالها شذر مذر . . وانه مرة تهدد سفينة تجارية كانت تمخر في النهر ، فوقفت مستسلمة وسلب منها ما أراد . . وروى غير ذلك

من امثال هذه الغرائب التي ذاعت عن هذا الجبار في تلك الاصقاع ، حتى خافت الحكومة سطوته وخشي الناس بأسه ، وأصبح اسمه مضرب المثل في الاقدام ...

ومضت ساعة وبرستن مسترسل في الحديث ، واللصوص من حوله يسمعون ويتعجبون

وانهم لكذلك واذا بأحدهم وكان بعيداً في بعض اطراف الغابة قد أقبل مسرعاً وقال للزعيم — كنت ياسيدي منذ هنيهة أرقب الطريق فأبصرت نحو عشرين فارساً من رجال الحرس ...

فقاطعه برستن بقوله — والى اين وجهتهم ؟

قال — رأيتهم جادين في طريق غياض الجاهلية

فنهض برستن من ساعته وقد ظهرت على وجهه علائم الاهتمام وقال للقوم — ليتبعني عشرون رجلاً منكم . وليكمن عشرون آخرون بقيادة كرشون في الادغال القريبة من الغياض ، حتى اذا بدت مني اشارة اليهم او رأوا اننا لم نظفر بالفرسان المذكورين او طال الانتظار فلينجدونا

قال هذا وسار من ساعته ، وفي اثره عشرون لصاً يسابقون الرياح وعلى وجوههم امائر الفرح والطرب . . وانفصلت فرقة اخرى قوامها عشرون لصاً آخر سارت على مهل بقيادة كرشون لتكمن بالقرب من الغياض ، وكان منها توما « الباسل » الذي اشتهر امره بين اللصوص بحال انضمامه الى عصابتهم . وكان سلاحه هراوة ضخمة انتقاها من الغابة ، وقد ألقاها على كتفه وسار وراء الجماعة وهو يتمايل من جانب الى آخر

الفصل الثامن عشر

« الامير نكيتا وبوريس غودونوف »

بينما كان ماليوتا سكوراتوف ومتى خومياك يسوقان وليّ العهد الى غياض الجاهلية ، واللصوص في الغابات المحيطة بهذه الغياض على ما وصفنا ، كان الامير نكيتا في منزل بوريس غودونوف ، وقد جلسا الى مائدة عليها الوان الطعام والشراب ، وهما يتحادثان ويتباثان الأفكار والعواطف

ومضت عليهما ساعات لم يشعرا بمرورها ، الى ان ساقهما الحديث الى وليمة الامس وحوادث الليل بعدها ، فقال الامير – ما هذا الذي جرى للملك الليلة البارحة حتى امر فقرعت الأجراس ، وهب أهل القرية مذعورين ، واجتمع رجال الحرس للصلاة بعد منتصف الليل ؟ . . فهل ذلك أيضاً من مقتضيات نظام هذه الفرقة المباركة ؟

فهز بوريس كتفيه وقال – لقد شاع على الالسنة ان الملك يوحنا الرابع قاس ، وانه قد تعدى كل حدود الشدة في معاقبة المجرمين والخونة من رعيته . . وهو ولئن كان كذلك بعض الاحيان ، لكنه يحزن ويندم ويبكي بعد كل عقاب ، ويقضي الساعات الطوال في الصلاة عن نفوس الذين تنفذ فيهم احكامه . وقد يستدعي احياناً رجال الحرس بأسرهم لمثل هذه الصلوات الليلية كما فعل امس

وأدرك الأمير ان بوريس غودونوف كثير الحذر في كلامه . فلم يستغرب ولم يدهش ، لعلمه بالظنون والريب التي أفعم بها ذلك الجو ، وقد بات فيه كل رجل من اخصاء الملك جاسوساً على غيره ، لا ينفك يضمر له

السوء وينصب له من حبائل المكر ، الى ان يذله او يبعده من طريقه ، وهو قد يتوسل لذلك بجميع ضروب المحرمات وسائر وسائل النفاق . . . وكان الامير يعرف بوريس هذا قبل الحرب الأخيرة التي خاض غمارها في بلاد لنفا ، وكان بوريس في اول عهده بخدمة الملامح ، وقد استحكمت بينهما وقتئذ عرى الصداقة والاخاء ، وكان الامير يعجب بذكائه وسعة اطلاعه ، وقد رأى فيه الآن تغيراً وتكتماً لم يعهدهما فيه من قبل . . ولكنه رأى هذا التغير والانقلاب في كل شيء وفي كل رجل . . فطوى كشحاً عن الامر وتابع حديثه فقال — ولكن لا تنس ايها الصديق اني عرفت الملك كما عرفته انت ، عرفته في القصر وفي الكنيسة ، عرفته في خلوته وفي اجتماعه برجال امته . . والذي تحققته الآن ان الأحوال كلها في هذا البلاط قد تغيرت وساءت ، فساءت معها احوال البلاد كلها وعمت الفوضى ، وأن الملك قد تبدلت اخلاقه واطواره ، ففسدت حاشيته ، وكان لذلك اسوأ أثر في كل شيء . . . فمن هم هؤلاء رجال الحرس الذين اصطفاهم الملك ليكونوا أخص رجاله ورهبان ديره ؟ ألبسوا كلهم ذئاباً خاطفة بل شراً من الذئاب ؟ . ومن هذا ماليوتا سكوراتوف وثيودور بسمانوف وباسيل غريازنوي ومن على شاكلتهم ، حتى نالوا هذه الحظوة في عيني الملك ، وصارت اليهم أزمة البلاد ، وأصبح قولهم القول الفصل في الامور ، وهم من رعاع الناس وحثالة لامة ؟! . . وما ان لي يوسمن فقط في هذه الجهات ، ولكني رأيت من فظائعهم وكبائرهم ما تقشعر لهوله الابدان وتحار في ادراك كنهه العقول . . وانظر مثلاً الى ماجرى لي ساعة وصولي الى هنا . فقد دخلت قصر الملك ، بعد ان قضيت خمس سنوات في الحرب وعدت منها ظافراً منتصراً ، فاستقبلني

بعض اخصاء الملك بدعارة لا مثيل لها فقد أطلقوا علي دباً من دببة القصر كاد يوردني حتفي لولا شهامة فتى لا أعرفه وهو من رجال الحرس أيضاً كما ظهر لي من بذلته ، ولكنه هجم على الدب فصرعه ثم اختفى من امامي دون ان يذكر اسمه

فضحك بوريس وقال — نعم وقد سمعت بهذا الامر ونحن في الوليمة . . اما الذي أطلق عليك الدب فهو ثيودور باسمانوف بعينه ، وهو في الحقيقة من اهل الدعارة والتهتك . . ولكنه صديق ولي العهد ونديم الملك الخاص وليس لك ان تنتظر من مثله الا مثل هذا

قال — ولعلك تعرف ايضاً الفتى الذي أنجدني وصرع الدب ؟

قال — نعم عرفته . ولا يمكنك ان تتصور من يكون . ؟ فهو مكسيم بن ماليوتا سكوراتوف

فجحظت عينا الامير وقال — وهل يمكن ان يكون هذا الفتى ابن ماليوتا ، والفرق بينهما كالفرق بين الملائكة والشياطين ؟ . .

قال — هو ما ذكرت . . ومكسيم هذا قد دافع عنك في موقف آخر هو اشد من موقفك بازاء الدب . . فقد خالف الملك نفسه في حكمه عليك وخالف رأي ابيه وآراء جميع الحضور ، وأظهر براءتك بجراءة غريبة لم يعهدها رجال البلاط ولا يجترىء على مثلها احد ، ولكنها اعجبت الملك اخيراً ، وكان من امرها اني اغتنمت الفرصة قبل فواتها واسرعت فانقذتك ، وكان بعد ذلك ما تعرفه

قال — ان لك عندي ايها الصديق يداً لن انساها . واما مكسيم . . هذا الفتى العجيب الذي قاوم اهل البلاط باسرهم وخاطر بحياته في سبيلي

وهو لا يعرفني فقد صار له في قلبي منزلة عظيمة . . ويجب ان اجتمع به قبل عودتي الى موسكو وأشكره على صنيعه

قال — ولكن لا سبيل الى ذلك ، لانه خرج هذه الليلة من بيت أبيه ومن قرية الكسندروفا كلها على ان لا يعود . . وقد علمت ذلك اتفاقاً في هذا الصباح من بعض رجال ولي العهد

قال — وكيف خرج ؟ . . لا شك ان لذلك اسباباً خطيرة

قال — نعم . وأهمها ذلك البون الشاسع بينه وبين ابيه . . فهو يكره فرقة الحرس ، وابوه يريدها لانه من زعمائها العظام ومن احب الناس المناصب العالية . . ولذلك فقد كره مكسيم خدمة الملك وكره اباه وكره الوطن كله . . ولما اظهر الملك أمس رغبته في ترقيته ، وهو انما اراد ذلك ليكافئه على جرأته وصواب رأيه ، ابي ونفر ورفض نعمة الملك وآثر ساحات الحرب على الدعة والهناء في القصر

قال — وحسناً فعل . . وذلك خير له من البقاء مع رجال الحرس ومعاشرة هذه الزمرة الشريرة . . . واما انت ! . . . انت ايها الصديق . . فقد اذهلني امرك ! . . . انك شهم ابي وتحب الامة والبلاد ، والجميع يتوسمون فيك الخير والصلاح . ولكنك تنظر الى توغل رجال الحرس في شرورهم ولا تكترث لشيء ، كأن الامر لا يعنيك ! . . فلماذا لم تنه الملك عن امثال هذه المفاسد وتبين له سوء المصير ؟ . . بل كيف تستطيع ان تخمد صوت ضميرك وتتغاضى عن هذه الاعمال الشائنة ، وليس من نتيجتها الا البوار والدمار ؟ . .

فتبسم بوريس وقال — وانى لي ان اتعدى حدود خدمتي وواجباتي ؟ فالملك حر في اعماله وقد نصبه الله علينا . فهو حر ان يدني من بلاطه من

يشاء ويقصي عنه من يشاء . ومن انا حتى أجعل نفسي رقيباً عليه ومرشداً له ، وأتطاول الى ما لا يعقبني الا الهوان ؟ . . ان فرقة رجال الحرس قد نشأت ونمت بامر الملك واختياره . وقد رأى هو ان ذلك حسن ، فليكن كما رأى وأراد . . أفليست المملكة كلها للملك ؟ . . فالذي يتخذه منها لنفسه فهو له ، والذي يبقيه للرعية فهو لها من كرمه واحسانه

قال — ولكن فرقة رجال الحرس هذه هي الضربة القاضية على الامة ، وهي تودي حتماً بعز الدولة وسطوتها ، فهل من العدل ان يترك لرجالها الحبل على الغارب ، ينهبون البلاد ويجتاحون العباد بهذا التوحش وهذه الهمجية ؟ . ان التتر ايها الصديق قد تسلطوا على البلاد دهراً طويلاً ، ولكنهم لم يعيثوا فيها كما يفعل هؤلاء الحراس الملاعين . . وهم مع هذا لا يؤخذون بجريمة ولا ينزل بهم عقاب . . أفما ترى بعد هذا من المفروض على من كان مثلك حائزاً على رضى الملك ان يطلعه على الأقل على هذه الاهوال والشدائد وينذره بعواقبها ؟

قال — ان شرور العالم لا تحصى ايها الأمير ، وليس جنود الحرس هم وحدهم علة هذه الشرور . . وهبني قمت انتقد اعمال هؤلاء الناس امام الملك ، فماذا تكون العاقبة ؟ . . لا شك ان جميع رجال الحاشية يهبون حينئذ في وجهي ، ولا يلبث الملك ان يتغير علي وينبذني

قال — ولكنك تكون قد فعلت الواجب وقمت بما يقتضيه الضمير والشرف . . لانه حرام ان نرى الابرياء يمزقون بأنياب الاشرار ويتقلبون في سعير النار ولا نمد يداً لانقاذهم

قال — ولكني لا احجم عن النضال عن الحق كلما استطعت الى ذلك

سبيلاً . . نعم اني لا أعارض التيار في سيره كما تفعل انت ، ولكني أغتنم الفرص كلما سنحت وأجري في عملي بكل حذر وتأن كما حدث في قضيتك أمس . . وزد على ذلك فالقائد الفرد اذا كان في حومة القتال وحده ولا جيش لديه فماذا ترى يستطيع ان يعمل ؟ . . فلو رأيت ايها الامير اربعين لصاً قد هجموا على بريء ، فماذا كنت تصنع ؟

قال — أمتشق للحال حسامي وأكر على اللصوص لانقذ البريء من ايديهم ولو فقدت في سبيل ذلك نفسي

فنظر اليه بوريس بدهشة وقال — وهل تجود بروحك في مثل ذلك ؟ . . غير انك مهما جاهدت واستبسلت فلن يتأتى لك ان تغيث البريء . . وقد تقتل من اللصوص خمسة او عشرة ولكن عملك يكون بلا جدوى ، لان اللصوص يقوون عليك اخيراً ثم يمزقون البريء ارباً اربا ويلحقونك به

قال — قد يكون ذلك . ولكني استعذب كل عاقبة في ظل الواجب. وخير للمرء ان يموت في سبيل هذا الواجب من ان يكون في ذروة المجد ، يرى الفظائع والجرائم امامه ومن حوله ، وهو وادع مستريح ، يخشى ان يساعد المظلومين ويدفع عنهم شر الظالم

قال — قد تكون مصيباً في بعض الاحوال . . ولكننا لسوء الحظ لا نجد في كل الف او الفين في البشر من هذه صفاته . . فانا اهنئك ايها الامير بهذه النفس الكبيرة التي تحملها والاخلاق الفريدة التي تتحلى بها . .

***

وبعد صمت قليل كان كل من الصديقين يناجي في اثنائه افكاره ، لم

يشعرا الا وفارس قد أقبل بسرعة . فأطل بوريس من بعض نوافذ الردهة التي كانا فيها ، فأبصر ميخيش خادم الامير نكيتا قد دخل الى فناء المنزل وهو يحث جواده وينحط تعباً . وكان بوريس يعرف ميخيش جيداً فقال للامير – يخيل الي ان خادمك قد جاءك بمهمة خطيرة

قال – لا أظن ذلك . لانه انطلق اليوم باكراً الى بعض الاديار على مسافة نحو ست او سبع ساعات للزيارة

قال – هذا وأطل من النافذة فأدرك في لحظة ان خبراً سيئاً او في غاية الاهمية قد استقدم خادمه على تلك الحالة

وكان ميخيش قد رأى الامير فصاح بأعلى صوته – انت هنا ياسيدي تأكل وتشرب ولا تعرف ما هو جار من عظائم الامور . . فقد شاهدت الآن وانا في طريق موسكو وريازان ماليوتا سكوراتوف ومتى خومياك ، وبينهما فارس مغلول اليدين مكموم الفم وهما يسوقانه بمنتهى السرعة الى غياض الجاهلية للفتك به . . وما هذا الفارس المنكود الحظ الا ولي العهد نفسه ، وقد عرفته على الرغم من اجتهادهما في اخفائه . .

وقبل ان يتم ميخيش كلامه كان الامير قد انحدر بسرعة البرق وهو يرتجف من شدة الانفعال ويقول لبوريس غودونوف – وماذا تريد ان ننتظر بعد ؟ . . فها ان الايدي الاثيمة قد امتدت الى ولي العهد نفسه !

ثم اختطف مقود الجواد من خادمه ، فوثب الى ظهره وخرج قبل ان يسمع جواب بوريس

وظن ميخيش ان سيده منطلق الى القصر فقال – لا تركب هذا

الجواد ياسيدي لانه بلا سرج فلا يصلح لك وانتظر حتى أرى لك جواداً آخر يليق بشأنك !

غير ان الامير لم يسمع شيئاً ، بل انطلق كالسهم لايلوي على شيء .
ولم تكن وجهته الى قصر الملك كما زعم ميخيش ، بل سار في طريق موسكو وريازان في اثر ماليوتا ، وقد نسي انه أعزل من السلاح . . ولكنه لم يلتفت الى شيء من كل هذا ، وقد آلى على نفسه ان ينقذ ولي العهد ولو فداه بروحه

وكان بوريس غودونوف ينظر اليه من النافذة وهو يعجب من كرم طباعه وطيب فطرته ومروءته ، وقد رأى نفسه صغيراً حقيراً بالقياس اليه ، فازداد احتراماً له وشعر ، وهي المرة الاولى في حياته ، بحلاوة الجهاد في نصرة الابرياء ، وحسد الامير نكيتا على ما اختصه به الله من المزايا السامية والخلال الشريفة حتى اصبح مجمع الكمالات

وظل بوريس في مكانه الى ان توارى نكيتا عن بصره . ثم نزل وذهب الى القصر ، وقد تنازعته عوامل شتى وتأملات كثيرة

الفصل التاسع عشر

المعركة

وظل ماليوتا جاداً في سيره . . وكان كلما قطع مسافة يلتفت الى جميع الجهات كانه يتوقع محذوراً او يخشى رقيباً

ولم يكن احد من رجال الحرس الذين كانوا يرافقونه يعرف شيئاً عن هذا « المجرم » الذي يقردونه ، وقد ملكهم الدهش من مبالغة ماليوتا في

اخفائه ، ومن طول المسافة التي فرض عليهم اجتيازها للفتك به .وهم لو دروا ان الفتى الموثق في ظهر جواده بين ماليوتا ومتى خومياك هو ولي العهد لذعروا وأحجموا . غير انهم لم يعبأوا بالامر ، اذ لم يكن يهمهم الاسفك الدماء وقضاء اوامر الزعماء . .

وقبل ان وصل ماليوتا الى غياض الجاهلية سمع وقع حوافر خيل بعيدة، فاجفل وسأل متى قائلا – يخيل الي ان فرسانا يقتفون اثرنا !

فأصغى متى قليلا ثم قال – لا تخش شيئاً ياسيدي. فما هذا الذي تسمعه الا صدى وقع حوافر خيولنا

فقال ماليوتا – أسرع اذاً لئلا يندم الملك ويرسل فيستدعينا قبل انجاز العمل

وكان بعد ذلك ان الركب توغلوا بين اشجار الغابة وسلكوا الطريق التي تؤدي الى غياض الجاهلية . فوقف ماليوتا هنيهة وقال لمتى – ان فارساً يطاردنا ولا أظنه الا رسول الملك . . وكأني سمع صوته ينادينا

فقال متى – لتطب نفسك ياسيدي ولا يكن في قلبك روع ! . . فليس لاحد ان يدركنا ، وانما هذا الذي تسمعه هو صدى اصواتنا

غير ان ماليوتا لم يسر بعد ذلك الا قليلا حتى سمع صوتا جهوريا يقول – مكانك ياماليوتا ! . . مكانك يا ابن اللئام ! . .

فذعر ماليوتا والتفت ليرى صاحب الصوت ، واذا بالامير نكيتا قد أدركه . وقبل ان يفاتحه بشيء هجم عليه كالاسد الضاري وضربه بيده على رأسه فجدله عن جواده ، ثم ترجل فقبض على عنقه وجلد به الارض فكاد يحطم عظامه . وقد استخلص منه حسامه واراد ان يجهز عليه ، لولا ان متى

خومياك قد هجم لنصرة سيده واشتبك مع الامير بعراك شديد

وكان رجال الحرس الباقون قد وقفوا في اول الامر مبهوتين كأن صاعقة نزلت عليهم فهدت قواهم وحلت عزائمهم . ولكنهم ما عتموا ان ادركوا حقيقة الموقف ، فتألبوا وهجموا على الامير هجمة واحدة يريدون القبض عليه او قتله ، ولولا اشتباك اغصان الاشجار لفتكوا به في الحال . . وكان الامير قد صرع بعضاً منهم وعزم ان يكافح مادام فيه عرق ينبض ، وقد تحقق خطر موقفه وأيقن انه هالك لامحالة . .

وانه لكذلك اذ سمع بغتة صفيراً قوياً . ثم رأى رجالا مشاة قد أطبقوا على جنود الحرس مثل الصواعق خرجت من سحائبها . . ودارت رحى الضرب ولمعت نصال السيوف . . فسر الامير وتنفس الصعداء وقد استبشر وأيقن بالفوز

ولا بد ان يكون القارىء قد ادرك ان اولئك الرجال الذين دبرتهم العناية لنصرة الامير لم يكونوا الا العشرين لصاً الذين قادهم برستن

وفيما كان العراك ملتحما بين اللصوص ورجال الحرس سمع صفير آخر ، وهجم كرشون برجاله ، فاشتدت سواعد اللصوص وأقسموا ان يفتكوا بجميع الاعداء

وكان توما احد اللصوص قد أبلى في هذه المعركة البلاء الحسن . فانه كان يجول بهراوته بين الصفوف يهوي بها على الاعداء والاصحاب فيسقطون اكداساً ، وهو يجيل بصره بين رجال الحرس كأنه ينشد ضالة له . . وما لبث أن لمعت عيناه وبرقت اسارير وجهه ، لانه أبصر امامه متى خومياك فعرفه . . عرف انه هو الذي اختطف عروسه . . فحمل عليه بهراوته وضربه

بها فأصابت جواده ، فسقط ميتاً لساعته ، وهجم توما على خصمه فرماه الى الارض وأسرع فربض على صدره وجعل يضغط عليه ويعصره وهو يقول — لقد ظفرت بك ايها الوغد . . فسأطحن عظامك طحناً وأنتقم منك شر الانتقام لانك سبيت عروسي . .

* * *

وانجلت الواقعة عن سقوط جميع رجال الحرس . وقد صرع بعض اللصوص أيضاً . غير ان ماليوتا لم يظفر به احد ، فقد لاذ بالفرار ونجا بنفسه

وكان الامير نكيتا حالما التحم القتال انه بادر الى ولي العهد فحل وثقه في ناحية من ميدان المعركة ثم انزله عن الجواد ونزع من فمه الكمامة التي كانت داخله وأقام الى جانبه يحرسه

ولما انتهت الموقعة اخذ اللصوص يسلبون القتلى اشياءهم ويمسكون خيولهم الشاردة

وكان برستن قد عرف الامير نكيتا بحال وصوله . فلما تم القتال اسرع اليه فحياه كصديق مشتاق وهنأه بالفوز . فشكره الامير على بسالته ومروءته وصافحه بلهفة . ثم التفت الى ولي العهد وقال — اني احمد الله على نجاتك يا مولاي من ايدي هؤلاء البغاة اللئام ، وأعد نفسي سعيداً لاني تمكنت من خدمتك قبل فوات الفرصة . وكم كنت اتمنى لو ظفرنا بماليوتا اللعين . . . لكننا قطعناه واطعمنا لحمه للكلاب . . غير انه لن ينجو هذه المرة من العقاب فان جلالة والدك الملك ليذيقنه اصنف البلاء وينتقمن منه على ما سلف له من امثال هذه المآثم والموبقات . . واني اشكر اليد التي اسدتها الينا هذا

الرجل الباسل (واشار الى برستن) فقد وصل لنجدتنا ونحن في اشد الحاجة الى النجدة

ولما درى برستن ان الفتى الذي أتيح له اتقاذه هو ولي العهد نفسه وقف مبهوتاً يتأمل في حاله ويعجب مما جرى. ثم تقدم فجثا امامه الى الارض هو يهنئه بالسلامة

وكان هذا الخبر قد سرى بين اللصوص ، فتركوا القتلى وأقبلوا فجثوا امام ولي العهد وهم يحيونه ويعربون عن اخلاصهم وعبوديتهم. فبش لهم ولي العهد وقال — شكراً لكم ايها الشجعان على ما اظهرتموه من البطولة والاقدام . . نعم اني لا اعرفكم ولم أر احداً منكم قبل الآن غير اني اشكر الآن حميتكم ولن أنسى هذا الصنيع الجميل

فقال برستن — ولكننا يا مولانا لا نستحق شكرك ، لاننا انما قمنا بالواجب . . ولو عرفت ان الذي يسوقه ماليوتا ليفتك به هو سموك لجردت جيشاً كاملاً ، فلم يكن لذلك الشرير ان يفلت من ايدينا . . ولكن لا بأس فانه على كل حال سينال جزاء غدره . . واما الآن فلدينا احد اعوانه واشد انصاره ، وهو من معارفي السابقين . .

قال هذا ونادى توما وامره ان يقود متي خومياك

وكان توما لا يزال رابضاً على صدره يعركه ويتهدده . فلما سمع امر الزعيم قام عنه ، واذا باللصوص قد أغربوا في الضحك وهم يقولون — ليس هذا متي خومياك ، بل هو من رجالنا . . هذا خلوبكو ! . .

فحملق توما ببصره وهز كتفيه وقال لخلوبكو — وكيف جرى هذا ؟ . ولماذا لم تتكلم ؟ . .

فنظر اليه خلوبكو وقال والشرر يتطاير من عينيه — وأنى لي ذلك . . وانت كالدب سقطت علي وأخذت تضغط على صدري وحنجرتي حتى كدت تطحن عظامي طحناً ! ؟ . . فتباً لك من أبله . .

فقال توما — اما انا فكنت اظنك غريمي . . لاني لما ضربته بهراوتي وسقط على الارض هجمت عليه وفعلت ما فعلت

فقال خلوبكو — ولكن هراوتك ايها الاحمق قد اصابتنا كلينا . وبدلاً من ان تهجم على خصمك هجمت علي ، وانسل هو هارباً فلم أره

فقهقه الحضور لدى سماع ذلك . وضحك ولي العهد ايضاً . وقال برستن — يظهر ان التوفيق قد خدم متى خومياك ايضاً كما خدم سيده . . ولكن لا بد لنا من مقابلة اخرى معه في فرصة اخرى

ثم التفت الى ولي العهد وقال — والان فاذا اردت ياسيدي فاننا نوافقك حتى جادة الطريق

قال هذا وقدم للامير نكيتا جواداً مسرجاً وامر رفقاءه بالمسير . وكان بعضهم قد ركبوا ما ظفروا به من خيول رجال الحرس وساروا يخفرون ولي العهد . . ولما بلغوا ضواحي قرية الكسندروفا وقف برستن وهو يقول لولي العهد — اننا نستودعك الله الآن يا سيدي . . فقد آن لنا ان نعود الى الغابة وليس عليك من خطر باذن الله

فقال له ولي العهد — اراك مرتدياً لباس النبلاء . . فمن ايهم تكون ؟

فتبسم برستن وقال — لست نبيلاً يا سيدي . . وانما نحن في هذه الغابات نلبس ما تسوقه لنا الاقدار

وكأن ولي العهد قد ادرك ما اراده برستن فقال — انك قد قمت اليوم

بعمل مجيد تستحق لاجله كل ثناء · فسر معي الى القصر يعفُ عنك والدي ويجعلك في جملة خواصه

فقال برستن — غير ان ذلك لا يمكن ان يكون الآن فان ذنوبي اكثر من ان تعد . . ولي رفقاء آخرون يعز علي فراقهم ، وقد الفتهم والفوني والفنا جميعاً الحياة الحرة في السهول والغابات ، فلن نستبدل بها حياة أخرى ولو في القصور

قال هذا ثم صافح الامير نكيتا واتقلب راجعاً برجاله · ولم يبطئوا ان حجبتهم اشجار الغابة

ولبث ولي العهد في دهشة عظيمة من امر هؤلاء الناس فقال للأمير ، لم يبق لدي شك في ان برستن هذا ورفقاءه ليسوا الا عصابة لصوص كبيرة وانهم يكمنون في هذه الغابات لكل عابر سبيل

قال — هو ما تقول يا سيدي · ولكنهم في كل حال افضل من رجال الحرس واكثر مروءة ونبلاً . . وانهم ما تألفوا على هذه الصورة الا لمكافحة رجال الحرس والانتقام منهم ، وقلما يسطون على غيرهم

قال — وقد اعجبني زعيمهم وشعرت بكل ارتياح اليه . . وخيل الي انه من معارفك

قال — نعم . . لاني انقذته من الاسر في قرية الدب . . وكان متى خومياك يريد الفتك به وبرفيقه الشيخ

قال — نعم نعم . . وقد ذكرت الآن حديث متى خومياك ليلة حاكمك الملك وحكم عليك بالاعدام وجاريناه نحن في هذا الحكم عن غير روية .. ولولا

جرأة مكسيم بن ماليوتا لقضي عليك لا محالة . . فاعذرني ايها الامير واعف عما مضى . . .

وواصل الاثنان سيرهما وهما في مثل هذا الحديث . واذا بوريس غودونوف قد اقبل ومعه شرذمة من الفرسان أوفدهم الملك « للبحث عن ولي العهد . . . »

* * *

وأسدل الستار على هـذه الحادثة وحظر على اهل البلاط ذكرها . . ولـكنها انتشرت وذاعت بين جميع طبقات الشعب ونظمها الشعراء في حكايات شعرية لا يزال بعضها متداولاً حتى الآن . وفيها يرد ذكر الامير نكيتا موصوفاً بأجمل صفات البسالة والالمعية والشرف ، كما وُصف ماليوتا بكل قبح وشر ونعت بكل غدر ولؤم

ولم يصدق الناس في اول الامر الحادثة كما وصفناها ، ولم يتصور احد ان الملك نفسه يأمر بقتل ابنه وولي عهده ، بل اعتقدوا ان ماليوتا هو الذي بغى على ولي العهد واراد ان يبطش به بلا تحريض خارجي . .

ولـكن ماليوتا هذا لم ينله شيء من العقاب الذي كان يستحقه جزاء هذا الغدر . وقد بقي في عز ونعيم وهو يزداد تقدماً ورفعة ويترنح بخمرة الفوز والانتصار على اعدائه ومبغضيه .. وقد أقسم ان ينتقم من الامير نكيتا شر الانتقام ويذيقه مر العذاب . . وظل الملك يميل اليه ويركن الى اقواله ومفاسده ، وهو يحسب سعايته نصيحة ، وغدره اخلاصاً في الخدمة وغيرة على الوطن

الفصل العشرون

« هواجس موروزوف »

بينما كانت هذه الحوادث تجري في اماكنها ، كان النبيل دروجينا موروزوف جالساً في ردهة قصره في موسكو ، وعليه امائر الغضب وشرود الفكر . وقد مر عليه اربعة ايام وهو خال بنفسه كثير الافكار قليل الكلام ، لا يعلم احد بما ينطوي عليه من القلق والهم

وقد انفرد هذا النهار على عادته ، فجلس الى مائدة عليها « الكتاب المقدس » في مجلد كبير مذهب ، آملاً ان يدفع عن نفسه بقراءة شيء من فصوله بعض الكآبة والحزن . . وقد قلب صفحات كثيرة منه وهو لا يستطيع ان يقرأ شيئاً لتشتت افكاره ، فلبث جالساً وعيناه شاخصتان وافكاره سابحة

ومضت عليه في تلك الحال الساعات وهو لاه بهواجسه ، يتصور تارة زوجته هيلانة ، وطوراً الامير نكيتا ، وحيناً الامير اثناسي فيازيمسكي ، ثم يعود الى التأمل في حالة زوجته ، فيتنهد و يضطرب

ولا بد ان يكون القارىء قد عرف سبب حزن النبيل وانزعاجه . . فانه يوم زاره الامير نكيتا وهو عائد من بلاد لتفا على ما سبق ذكره ، رأى النبيل ان زوجته هيلانة كثيرة الارتباك شديدة القلق ، فظن انها رأت الامير اثناسي فخافت وقلقت . .

ولكنه بعد ان شيع ضيفه الامير نكيتا عاد الى مخدعه وهو مضطرب كئيب حزين النفس ، فلم يجد في نفسه ميلاً الى الرقاد . فخرج الى الحديقة

لعله يروّح عن نفسه ويدفع اضطراب افكاره ، فرأى في طرف الحديقة شبحاً أبيض ، فذعر وجمد في مكانه . . ثم سمع صوت زوجته فازداد ارتعاشاً لعلمه بانها راقدة منذ زمان . . فحدد بصره فرأى وراء السياج فارساً وقد دنت اليه هيلانة تكلمه ، فشعر كأن صاعقة انقضت على رأسه ولم يدر ماذا يفعل . . ثم عاد فأعار اذناً صاغية فلم يسمع الا حفيف النسائم . فلبث مكانه وقد جحظت عيناه واعتقل لسانه ، فكان كتمثال حجري لا يتحرك ، حتى ان تنفسه كاد ينقطع ليمنع حركة جسمه . . وكان تارة يظن ان هذا الفارس ليس الا الأمير اثناسي فياز يمسكي وقد تمكن اخيراً من استغواء هيلانة والاستيلاء على هواها . وطوراً ينفي ذلك وهو يقول في نفسه : « كلاً .. ان هيلانة لن تميل اليه وهو سبب خوفها وذعرها . . . فلعله الامير نكيتا الذي احببته بما يفوق حب الآباء لابنائهم .. ولكن لا . . ان نكيتا لا يخون اصحابه ، ولا يقابل زوجة صديقه هذه المقابلة التي لا يقره عليها شرفه وادبه . . فلم يبق الآن يكون هذا الفارس احد رجال الحرس او عاشقاً آخر لا أعرفه .. ولكن هل بلغ من هيلانة ان تكافىء احساني بمثل هذه الاساءة وتغدر بي هذا الغدر وانا لم أسىء اليها قط ولم اعاملها الا بمنتهى العطف والرقة ؟ . . . »

ثم تقدم ليتحقق الأمر فرأى الفارس قد انقلب راجعاً عن السياج وراح يعدو بسرعة وعادت هيلانة من موقفها ، ومرت بالقرب منه وهي لا تراه . . ولم يشأ النبيل ان يذعرها ، فتركها وشأنها وفي نفسه مور . . . وقد انبعث من صدره وهو في موقفه ذاك نفس كالنار ، ثم عاد الى مخدعه وقضى بقية ليله يتخبط في الغرفة ذهاباً واياباً وقد ضاقت الدنيا في وجهه . .

ولم يظهر النبيل لزوجته شيئاً مما يعلم من سرها ولم يتغير في معاملته لها . ولـكنه كان كلما خلا بنفسه انقبض واضطرب . ومرت عليه اربعة ايام وهو في مثل ذلك

وعاد الامير نكيتا في اليوم الرابع من قرية الـكسندروفا ، فزار النبيل في منزله واخبره بكل ما جرى له من الحوادث وما رآه في بلاط الملك من الغرائب . . وكان قدوم الامير قد أنسى موروزوف هواجسه ، فاستقبل صديقه بالبشاشة والولاء وأقبل يرحب به ويهنئه برضى الملك وعفوه . . ولم تخرج هيلانة لمقابلة الامير لانحراف طرأ عليها فلزمت مخدعها

وبعد بضع ساعات قضاها الصديقان في الحديث والتأمل قام الامير فاستأذن وانصرف ، ولبث موروزوف في منزله وقد عاد الى هواجسه وتجاذبته تيارات الافكار

وانه لـكذلك اذ اقبل احد خدمه وقال والبغتة بادية على وجهه — ان جماعة من رجال الحرس قادمون الى هنا ياسيدي وفي طليعتهم الامير اثناسي فيازيمسكي ، فهل تأمر باستقبالهم ؟

فذعر موروزوف وقال — وما عسى ان يريد الامير اثناسي مني وليس بيننا اقل صلة ، فلعله يقصد غير هذا المكان ، او قد تكون واهماً . . ولكن على كل حال عد وقف في الباب مع رفقائك ، فاذا رأيتم القوم يرومون الدخول الى هنا فامنعوهم وقولوا لهم ان مولانا لايريد ان يرى احداً من رجال الحرس في منزله

فوجم الخادم ولبث في مكانه يرتعش خوفاً . فصاح به موروزوف وهم ان يذهب بنفسه الى الابواب ، لولا ان خادماً آخر وافى مسرعاً وهو يقول —

ان الامير اثناسي فيازيمسكي قادم لزيارتك ياسيدي ، وقد وصل الان احد حجابه وقال لنا ان الامير آت اليك من قبل الملك

فنهض موروزوف للحال وامر الخدم ان يفتحوا الابواب . وأسرع هو فأخذ صحفة الخبز والملح وكانت من الذهب الخالص وخرج لاستقبال الضيوف . . .

وكان الامير اثناسي راكباً جواداً مطهماً . وقد ارتدى ثوباً من الأطلس الأبيض . وكان في عنقه جوهرة كريمة تتدلى على صدره ، وعلى رأسه قبعة عالية من القطيفه البيضاء فيها ريشة من الألماس تمايل لكل حركة . وكان هذا الامير طويل القامة وضيء الطلعة تتدفق من وجهه الجميل علائم النضارة وقوة الشباب . وكان في صحبته عشرون فارساً من رجال الحرس وكلهم في الملابس الفاخرة . وكان يتبعه شرذمة من السواس يقودون تبعاً لعادة ذلك الزمان في بلاد الروس ستة من جياد الخيل بالعدة الكاملة ، ويتقدمه احد حجابه وهو ينفخ في البوق تنبيهاً للناس

وكان النبيل موروزوف قد خرج لاستقبال هذا الموكب ومعه ذووه وخدامه . فلما التقى الفريقان ترجل الامير اثناسي ، وأسرع موروزوف فحياه وقال — انك ايها الامير آت الي من قبل الملك ! فهلاً برسول الملك وسهلاً ! . . وها اني استقبلك بالخبز والملح وأدعوك وذويك ان تدخلوا الى منزلي على الرحب والسعة !

فأجابه الامير — ايها النبيل دروجينا موروزوف ! ان مولانا المعظم ملك يوحنا الرابع قد أوفدني اليك لابلغك سلامه ورضاه . . فانت مذ الآن امام جلالته في مقامك السامي ومكانتك رفيعة بين النبلاء ! . .

سمع النبيل موروزوف هذا الخطاب وهو جاث على ركبتيه بتمام الوقار كأنه يسمع الملك نفسه . فلما فرغ الأمير من الكلام نهض الشيخ وقال وهو يرتعش من التأثر — أطال الله بقاء جلالة الملك وسكب عليه جزيل آلائه ومتعه بدوام النصر !. . فقد شاء ان يرفع عني سخطه و يعيد الي رتبتي في بلاطه . فانا عبد نعمته ما حييت !. .

قال هذا وتقدم فصافح الامير ودعاه ورجاله فدخلوا المنزل وهو يسير امامهم الى ردهة الاستقبال

* * *

وكان من عادة ذلك العهد اذا غضب الملك على احد نبلائه ولم يشأ ان يحكم عليه بالاعدام ان ينزوي ذلك النبيل في منزله ، لا يقص شعره ولا يرتدي بأثواب زينته ولا يحضر الحفلات الفخمة ولا يختلط برصفائه النبلاء ، وان يعيش مبعداً منسياً الى ان يشاء الملك فيرفع عنه غضبه ، فيعود الى مقامه ، او يظل ناقماً عليه الى ان يموت او يقتل بأمر الملك وتصادر ثروته

وكان من عادة يوحنا الرابع اذا غضب على احد ان لا يعفو عنه ولا يطيل اناته على احد الا ندراً . . وكان عفوه عن النبيل موروزوف هذه المرة نادرة من نوادره ، وقد يكون ذلك مظهراً من المظاهر الكثيرة التي كان يخفي وراءها عادة الغدر والخديعة . . .

غير أن موروزوف كان سعيداً برضى الملك وعفوه ، وقد فاضت دموعه بهجة ، واسرع فانفذ رسولاً الى الامير نكيتا يبشره ويدعوه لزيارته ومشاركته اياه في سروره . ثم انطلق الى كنيسة صغيرة في قصره ، كان يقيم فيها صلوات الصباح والمساء كل يوم مع ذويه ، وشكر الله ودعا للملك

ولم يكن الامير نكيتا ينتظر مثل هذه البشرى ، فسر وابتهج وقام من ساعته فركب جواده وجاء بموكب شائق يحفره ذووه وخدامه.. لان من عادة ذلك الزمان في بلاد الروس ان لا يسير الامير او النبيل في احوال مهمة او يقدم الى حفلة كبيرة الا في موكب . وكانت هذه المواكب تدل عادة على تفاوت النبلاء في الاقدار . فكلما كان النبيل أعظم ، كان موكبه أحفل وأفخم

الفصل الحادي والعشرون

المأدبة

بعد مافرغ النبيل موروزوف من صلاته جاء فتزبن ومشط لحيته و بدل ثيابه . فلبس رداء من القطيفة البنفسجية ووضع على رأسه قبعة عالية بديعة مصنوعة من جلد سمور ومزينة أجمل زينة . ثم دخل على ضيوفه فحياهم ثانية . وكان الامير نكيتا قد وصل ، فنهض الجميع الى مائدة كبيرة صففت عليها آنية المشروبات الفاخرة على انواعها . وكان السرور عاما طافحاً على الوجوه ، والجميع يتناولون مما امامهم من اشهى الشراب ، والحديث آخذ من القوم كل مأخذ . فلم ينتبه موروزوف لقعقعة اسلحة رجال الحرس التي كانوا يخفونها تحت اثوابهم ، لانه كان مهتماً بضيوفه يحادثهم ويلاطفهم

وكان القوم قد شربوا انخاباً كثيرة . فشربوا نخب الملك والملكة وسائر افراد الاسرة المالكة . ثم شربوا انخاب كبار رجال الدين ، فالامير الثامي ، فالامير نكيتا ، فالنبيل موروزوف . ثم نخب كل فرد من باقي

الحضور . ولما فرغوا استرعى الامير اثناسي الاسماع وقال – بقي نخب ربة المنزل . . فخذوا كؤوسكم ايها الاصحاب ولنشرب مسرورين ! . .

فأجفل موروزوف لدى سماعه ذلك وعاودته هواجسه وقد أيقن ان حبيب زوجته لابد ان يكون حاضراً ، فصمم على اكتشافه . ورأى الفرصة سانحة فتجلد وعاد الى سروره وقال – أشكركم ايها الاحباء لانكم بشربكم نخب زوجتي انما تريدون ان تعربوا عن احترامكم لها وللمنزل . . غير اني أرجو ان يكون ذلك بحضرتها

ثم أردف كلامه فقال لاحد الحجاب – أدع مولاتك وقل لها ان ضيوفنا الاعزاء يريدون ان يشربوا نخبها

فأبرقت اسرة الامير اثناسي ورجاله وأظهروا ارتياحاً عظيماً

ولم يمض طويل زمن حتى جاءت هيلانة وفي صحبتها وصيفتان من وصائفها . وكان بين يديها صينية من الذهب وعليها كأس واحدة وهي من الذهب ايضاً . فنهض القوم اجلالاً لها ، ولبثوا حيناً مبهوتين يتفرسون في ذلك الجمال الرائع وكل منهم يتمنى ان يحظى منها بكلمة او نظرة

وللحال دنا منها احد السقدة وملأ الكأس التي على الصينية من فاخر الشراب . فشربت هيلانة قليلاً ثم طافت بالقوم ، والساقي يترع الكأس كلما فرغت ، وهي تقدمها لكل منهم . وكان كل واحد من الضيوف يتناول الكأس بنوبته ويشرب نخب ربة المنزل ويشكرها

وكان موروزوف يراقب كل حركة تبدو من زوجته ومن كل واحد من الحضور . حتى اذا فرغت من عملها قال – والان يجدر بنا ايها الاصدقاء ، وقد بدأنا وشربتم نخب زوجتي ، ان نتمم عادة الاجداد القديمة بتقاليدها

المعروفة . فاسألكم احتراماً لتقاليد السلف الصالح ورمزاً الى عهد الولاء الذي أصبح بيننا من هذه الساعة ان تتقدموا فتقبلوا زوجتي

قال هذا وأشار الى هيلانة ان تقف في وسط الردهة . ففعلتْ وهي لاتجهل هذه العادة ، ولكنها كانت تود ان يعدل عنها في مأدبة اليوم . . بيد انها لم يسعها الا الاذعان ، فوقفت وهي خافضة الطرف وفي حالة شديدة من القلق والانزعاج

فقال موروزوف للامير اثناسي — تقدم ايها الامير اولاً

فقال الامير والسرور يرنح معطفيه — ولكن من تقاليد العادة ايها النبيل ان تتقدم انت اولاً لانك سيد المنزل

قال — أصبت

ثمّ دنا من زوجته فانحنى امامها الى الارض وقبلها . فأحس بحرارة شفتيها كأنهما تتقدان ناراً . واما هو فكانت شفتاه باردتين كالجليد

وبعد موروزوف تقدم الامير اثناسي . واذ أبصرته هيلانة أطرقت بعينيها الى الارض ولبثت جامدة كأنها صنم من حجر . وكان موروزوف يراقب في اثناء ذلك وجهها ، فلما رآها لم تتغير ولم ترتبك ، انتفى من ذهنه كل ريب بالامير اثناسي وقال في نفسه : « ليس هو المحب المجهول »

وكان الامير قد اقترب من هيلانة فحنى لها رأسه ثم ضغط على شفتيها قبلة طويلة لم تحتملها هيلانة ، فأحجمت الى الوراء وهي تتململ وقد بان عليها الاضطراب والاشمئزاز . . فجزم موروزوف بان اثناسي بعيد جداً عن قلب امرأته وانها لا تطيقه

ثم تقدم من هيلانة بعض رجال الحرس . وكانوا واحداً واحداً يجثون

امامها ثم يقبلونها ، والنبيل لايفتر عن المراقبة . وكان هيلانة علمت بما يخامره من الافكار وما يساوره من الظنون ، وقد رأته يتفرس فيها وفي كل من يدنو اليها بما لا مزيد عليه من التنبه والتيقظ ، نخافت ان جاء الامير نكيتا ليقبلها أن لا تستطيع ضبط نفسها فينكشف امرها . . ولذلك ارادت ان تتدارك الامر قبل وقوعه ، فتظاهرت بالتعب والمرض وسألت زوجها ان يأذن لها في الانصراف

وكان موروزوف قد أدرك غايتها وأيقن ان غريمه حاضر لا محالة ، وان هيلانة انما تخشى مقابلته ، فقال لها — ولكن لابد من القيام بنظام العادة الى النهاية ، فتشددي واصبري

ثم خاطب ضيوفه بقوله — تقدموا تقدموا ولا تبالوا كلامها لانها حديثة السن ولا تعرف عادات السلف

قال هذا واخذ يتساءل في نفسه : « ولكن اين الامير نكيتا ؟ .. ترى لماذا لا يتقدم ؟ . . »

وقد زاد تنبهه واخذ يفحص بنظره جميع الحضور

اما الامير نكيتا فكان واقفاً على حدة وقد تراكمت عليه التصورات وملكه البلبال . . فقد أدرك غاية النبيل وقرأ في وجه هيلانة الخوف والارتباك . نخاف ان هو تقدم اليها أن يزيد ارتباكها فيفتضح امرهما ، وان تأخر أن يجعل في نفس زوجها ريبة به . . وهو لو استطاع ان يقول لها في هذا الموقف كلمة فقط لازال عنها مخاوفها وأعاد اليها نشاطها وقواها المفقودة . . ولكن أنى له ذلك وعينا الشيخ لا تفارقانها لحظة ؟ . .

واخيراً صمم نكيتا ، فدنا من هيلانة وانحنى لها ، وهو يتحاشى أن يلتقي نظراهما

وكانت هيلانة عند اقتراب الامير قد أثرت فيها عواطف الحب واضطربت جوارحها ، فألقت نظرها الى الارض وفاض الدم الى وجهها فزاده رونقاً وبهاء . . ورأى موروزوف اضطرابها ، فلم يخف عليه الامر ..

***

ان هيلانة قد خدعت زوجها لانها اقترنت به ولم تطلعه على حبها لغيره ..

وهي لو عرفت ان زوجها قد رآها يوم قابلت الامير نكيتا عند سياج الحديقة ليلا ، لاعترفت له بكل شيء . .

نعم ان حبها للامير كان آية العفاف والطهر ، غير انه لا يليق بها كزوجة ، كما انه لا يليق بها وهي سيدة شريفة ان تخفي عن زوجها شيئاً وتخون عهد الزواج المقدس ..

ان هيلانة قد أحبت نكيتا وهي مطلقة القيد . ولكنها لم تطفىء او لم تستطع ان تطفىء جذوة هذا الحب وهي زوجة . .

وها هوذا حبيبها يتقدم الان اليها ليقبلها ، وقد أحست قربه ، ودنا قلبه من قلبها ، والتقت شفتاه شفتيها ، فغلبتها عواطفها ولم تعد تقوى على الكتمان..

وظهر ذلك من ارتعاش جسمها ، واحمرار وجنتيها ، وبريق عينيها وظهر ظهوراً أتم ساعة قبلها نكيتا ، فصاحت . « رحماك يا الهي ! . » وخانتها قواها فكادت تسقط الى الارض لو لم يبادر اليها زوجها في الحال ويعالجها بالمنعشات والمنبهات الى ان ثاب اليها روعها . .

ولم يحتج موروزوف الى مزيد بيان فقد برقت امامه الحقيقة ، وأيقن ان الامير نكيتا هو غريمه . وانه هو الذي قابل زوجته تلك المقابلة الليلية . فمرت ضبابة غيظ على وجهه ، ثم انقشعت الى حين ، فعاد الى طربه وسروره وهو يخفي في صدره كمداً عظيماً . . .

***

وانتهت حفلة التقبيل . فحييت هيلانة وخرجت ، والى جانبيها وصيفتاها تساعدانها . وعاد الضيوف الى مجالسهم يطربون ويلهون ، والخمرة تتدفق من الكؤوس فتدور سورتها في الرؤوس ، حتى اهتز المكان باهتزاز الابدان ، وعلا بين القوم اللغط واحتدم الجدال ، وأصبح الحديث كله عربدة وفقد كل نظام ..

وكان احد الحضور من رجال الحرس قد أسرّ في خلال ذلك الى الامير اثناسي قائلا — قد حان الوقت ايها الامير . فهل تأمر بالعمل ؟

فاجاب الامير بحدة — أمسك عن الكلام الان لئلا يسمعك الشيخ!

فقال الحارس — وهبه سمع ، فمن اين له ان يدري ما تقول ؟

فانتهره الامير قائلاً — لا تزد على هذا شيئاً . وانتظر اشارتي

قال — ولكن الوقت قد فات فلم هذا الانتظار ؟

ثم وقف يريد ان يعطي العلامة المتفق عليها بين القوم ، فأمسكه الامير وأجلسه في مكانه بعنف وهو يقول له همساً وعيناه تتقدان غضباً — مكانك ! اجمد في مكانك ، والا أغمدت خنجراً في صدرك !

بيد ان الحارس لم يزدجر وقد عاد فوقف وقال بصوت عال وهو

لايعي من شدة السكر - اذاً فأنت تريد قتالي !. ولا أحب الي من ذلك ، فخذ حسامك وهيا بنا امام هؤلاء الشهود ..

ثم جعل يقهقه ويشتم . .

كل هذا والامير نكيتا يسمع ويعي وهو كأنه في حلم . وكان موروزوف قد رأى هذه الحركة ، ولكنه لم يسمع شيئاً من الكلام فقام وقال - لقد تناصف الليل ايها الاصدقاء وحان وقت النوم ، ولابد لكم ان تأخذوا نصيباً من الراحة ، وقد أعد لكل منكم سرير خاص ، فهيا بنا !

فنهض الجميع وهم يشكرون للنبيل كرمه وسخاءه ثم خرجوا من الردهة واكثرهم فى حالة السكر الشديد

ولما اراد الامير نكيتا ان يخرج استوقفه موروزوف بقوله همساً - لي اليك بعض الحاجة فانتظرني هنا قليلاً

قال هـذا وخرج الى ضيوفه يقودهم الى اسرتهم ثم دخل الى مخدع زوجته

***

وكان في اثناء المأدبة أن جاء قوم آخرون من رجال الحرس لم يشعر بهم احد من اهل المنزل . وكانوا يقدون زرافات ووحداناً ويكمنون حول المنزل وكلهم مدججون بالسلاح . . وما مضى الهزيع الاول من الليل حتى أصبح منزل النبيل محاطاً من جميع الجهات بجنود الحرس

وكان قبل نهاية المأدبة أن خرج من ردهة الطعام على حين غفلة من الحضور حاجب الامير اثناسي . وكان القوم منهمكين بالشراب فلم ينتبه اليه

احد . ولما لم ير رقيباً دنا من احد ابواب المنزل وصفر صفيراً خاصاً . فبادر اليه احد الكامنين خارجاً

فقال له الحاجب — هل تم اجتماعكم ؟

فأجاب الحارس من وراء الباب — نعم

— وكم بلغ عددكم ؟

— اكثر من خمسين

— اذاً فانتظروا العلامة

— ومتى تعطى هـذه العلامة ؟ فقد أعيانا الانتظار وتاقت نفوسنا الى العمل

— ذلك منوط بالامير نفسه . ولـكن حذار يا متى ان تعمدوا الى التدمير والنهب . لان الامير ينهاكم عن ذلك كله

ولم يكن الحارس الذي جرى هذا الحديث بينه وبين حاجب الامير الا متى خومياك نفسه . وكأنه لم يعجبه كلام الحاجب فقهقه ضاحكاً وقال — لايهمني امر الامير او نهيه لانه ليس بسيدي ولا آمري

قال — أصبت . . ولـكن سيدك ماليوتا سكوراتوف أمرك ان تكون هذه الليلة مقيداً بخدمة الامير وطاعته

— نعم . . وانا مستعد ان اقوم بخدمته احسن قيام وأسهل له اختطاف السيدة . . وفي غير ذلك فانا طليق اليد أتصرف في هذا المنزل الـكبير بل القصر العظيم كما أشاء وليس لاحد ان يناقشني الحساب

— ولـكن الامير لايمزح !

— وانا كذلك لا امزح ! ولا يهمني من الامر كله الا ان في هذا المنزل

الباذخ من الخيرات والغنى ما تحن الى مثله نفسي . ولولا ذلك لما تطوعت هذه الليلة لخدمة اميرك . .

***

وبينما كان هذا الحديث جارياً بين حاجب الامير اثناسي ومتى خومياك كانت السيدة هيلانة في مخدعها تمزّق صدرها الزفرات وتحرق وجنتيها العبرات ، وقد تشرّدت افكارها وتولاها اليأس والقنوط . فجلست في سريرها وهي تندب حظها ولا تدري ما ينتظرها من النكبات . وقد وقع عندها حادث المأدبة اشدّ وقع وتأكد لديها ان زوجها قد قرأ افكارها ولم يخف عليه شيء من امرها . . وغلب عليها وهي في تلك الحالة ذكرى حبها للامير نكيتا ، وما كان من سفره الى ميدان الحرب ، وما كان من امرها يوم لجأت الى النبيل دروجينا موروزوف فعطف عليها واتخذها زوجة له ليرد عنها كيد مطارديها . . ثم تمثل امامها قسمها الرهيب لزوجها على الامانة والاخلاص ، وما طرأ عليها بعد ذلك حين عاد حبيبها وقابلته . . فقد أذكى ذلك نار الحب في قلبها وزادها وجداً وهياماً ، وصارت ان نامت او قامت او مهما فعلت لا ترى الا ّ نكيتا ، نكيتا وحده ، في انسان عينها وضمن قلبها وهي في كل ذلك مسوقة بعواطف خفية وقوة لا تقاوَم . .

تمثل لهيلانة كل ذلك فاضطربت وارتعدت كأن حمى ً شديدة تسلطت عليها وتساقطت دموعها كوابل المطر . . .

وانها لفي هذه الحالة واذا بموروزوف قد دخل عليها وهيئة الغضب الشديد بادية على وجهه . فرعبها منظره وذعرت

وتقدم موروزوف وهو يفحصها بنظره الحاد ثم قال – أخبريني ياهيلانة عن سبب ارتباكك واضطرابك في اثناء المأدبة

وكانت هيلانة لا تزال ترتعش وترتجف وقد ملأها منظر زوجها خوفاً فهمت ان تلقي بنفسها على قدميه وتعترف له بكل شيء .. ولكن خفقان قلبها أبكم لسانها فأخلدت الى السكوت .. وُخيل اليها ان زوجها قد لا يكون أساء الظن بالامير نكيتا ، فاشفقت عليه

ولما رآها موروزوف صامتة أعاد عليها كلامه وهو لم يغير شيئاً من هيئته ولهجته

فقالت وهي ترتعد – لاني كنت مريضة

قال – بل كنت خائفة ان ينكشف سرُّكِ وتظهر خيانتك . .

ولما رآها لا تحير جواباً تابع حديثه قائلاً – بينما كنت في صباح اليوم أطالع في الكتاب المقدس عثرت على بعض ما ورد فيه عن النساء الخائنات اللاتي يستوجبن عقاباً أليماً على غدرهنَّ ، فان مثل من يتخذ واحدة منهنَّ مثلُ من يمسك عقرباً

فأنت هيلانة أنيناً مرّاً وقالت بصوت يذيب الجلمود – لا تسيء الظن بي ياسيدي . فانا بجملتي لك ، محافظة على قسمي الذي أقسمته امام الله أن أطيعك وأكرمك وأحبك

فاجابها بصوت يتهدَّج خشونة – كذبت . . وأنك بذلك لترتكبين اثماً آخر . فانت لم تحبيني قط ، ولم تكوني امينة لي ، بل خنتني وعبثت بشرفي وصدعت قلبي . . فلماذا لم تقولي لي انك تحبين آخر ؟

فشرقت هيلانة بدموعها وقد فارقها العزم وخانها الجلد

فقال موروزوف وهو يزداد هياجاً وغضباً – لماذا أخفيت عني وقتئذ انك تحبينه ؟

فلم تبد هيلانة حراكاً وأدركت ان زوجها عالم بالحقيقة ، فهالها الامر وشعرت أن الارض تموج تحت قدميها

وعاد النبيل الى تتمة حديثه فقال – ولا أظنك تجهلين حالتك السيئة يوم رأيتك في الكنيسة قبل عقد زواجنا ولم يكن لك نصير وقد كادوا يكرهونك على الاقتران بالامير اثناسي فيازيمسكي ، فانتشلتك من مصيبتك وضممتك اليّ على امل ان تكوني لي امينة ، ولم أدر أني اتخذت لنفسي أفعى تنهش لحمي وتلسع قلبي . . وقد وعدتني بالاخلاص والامانة ولكنك كنت تخفين عني حبك لغيري ، فكنت معي وقلبك ليس لي . . . فلماذا لم تعترفي لي اذ ذاك بضميرك ؟ . . أفيسرك ان تتحصني باسمي وتنكثي عهدي . . فما كان الاخلق بك وقتئذ لو ابتعدت عن العالم وانقطعت الى احد الاديار من ان تحدي شيبتي وتكدري صفو حياتي ؟ . .

فجثت هيلانة امامه وقالت – لم يخطر ببالي شيء مما تتكلم به . . لانه كان آنئذ في بلاد لتفا ! . .

ولو انقضت صاعقة على رأس موروزوف ما كانت لتؤثر فيه كأثر هذا الكلام . . ولكنه حبس انفعالاته وقال بصوت مرتجف – ولكنك بعد عودته قابلته . . نعم قابلته في تلك الليلة عند سياج الحديقة . . وهناك جددتما العهود على غفلة من الرقيب ، ولم تعلما أني رأيتكما واطلعت على غدركما . . أفهذا هو جزاء احساني اليك وولائي له واتخاذي اياه بمنزلة الابن الحبيب ؟ . .

قال هذا وقد بلغ منه الغيظ مبلغه . فتناول من الجدار سيفاً كان معلقاً للزينة ، فاستله واتجه نحو الباب ، وقد أشعلته نار الغيرة وحب الانتقام

وكانت هيلانة لا تزال جاثية امامه ودموعها تتحدّر على خديها . فلما رأته تناول السيف صاحت من كبد حرى — ماذا تريد ان تفعل ياسيدي؟

فتبسم موروزوف عن كمد شديد وقال — لاتخافي على نفسك ، فاني لا أريد ان أعاملك بسوء ، وانما أريد . . .

وقبل ان يتم كلامه وثبت هيلانه فأمسكت به وهي تقول — خف غضب الله ياسيدي وتبصر فيما انت فاعل ! . . انه لم يسىء اليك . . وانما انا المذنبة فاقتلني وأرحني من هذا العذاب ! . . .

فدفعها موروزوف عنه ووثب الى الباب . ثم توقف فجأة لانه سمع خارجاً ما استوجب انتباهه . فاصغى واذا به يسمع ضوضاء شديداً وقد علت الاصوات وتبعها صوت طلق نار كهزيم الرعد . فأغلق الباب وأحجم الى الوراء وهو كالمأخوذ

وأما هيلانه فظنت ان زوجها أمر بقتل الامير نكيتا . . فذعرت وصاحت — ويلاه ! قد قتله ! . . ولكنه بريء براءة للملائكة من شرور الناس . . نعم ان نكيتا بريء ايها القاسي ! . فقتلني اقتلني الان لاني لا اريد ان أحيا بعده ! . . اقتلني لاني خنت عهودك وأذنبت اليك واستحققت عقابك ! . . واما الابرياء فلا تمسهم بمكروه ! . .

فخشي موروزوف ان تكون هيلانة قد أصيبت بمسّ من الجنون . . فشعر بعوامل تمزق صدره . .

وكانت الجلبة تزداد في الدار . فعاد الى الباب ليتحقق ما حدث ،

فسمع صوتاً يقول – حذار ايها النبيل ! فان رجال الحرس هاجمون عليك يريدون سبي زوجتك ! . .

وكان ذلك صوت الامير نكيتا . وقد سمعته هيلانة ، فأبرقت عيناها ولمع السرور في وجهها . وتقدمت الى الباب كأنها تريد ان تراه ، فدفعها موروزوف وأقفل الباب من الداخل ، وقد أسقط في يديه وضاع رشده . .

الفصل الثاني والعشرون

« الزئاب الخاطفة »

ثم سمع موروزوف وهو داخل المخدع وقع اقدام تتراكض وقعقعة اسلحة ، وقد ارتفعت الجلبة وعلا الصياح ، فخيل اليه ان معركة عنيفة تجري في داره وهو لا يقدر ان يعرف من امرها شيئاً . . ولكنه ما لبث أن شعر باقتراب القوم الى المخدع ، ثم بازدحامهم حول الباب كأنهم يريدون اقتحامه

وفيما هو يتأمل في هذه الحالة الغريبة ولا يدري كيف يؤولها سمع صوت الامير اثناسي فياز يمسكي يقول له من وراء الباب – فتح ايها النبيل والاّ قوّضت منزلك كله ! . .

فتحقق حينئذ موروزوف صدق انذار لامير نكيتا وكاد يفقد عقله

وواصل الامير اثناسي تهديده وهو يرفس الباب برجليه ويصيح – افتح ايها النبيل فقد عيل صبري ! . .

فقال موروزوف – لا أصدق ايها الامير أنك تقدم على مثل هذه

الفعلة الشنعاء الا أن تكون مدفوعاً بنشوة الشراب التي دارت في رأسك ففعلت ما فعلت .. ولكن لا حرج عليك لانك ضيفي .. والاولى بك ان تعود الى سريرك وغداً تنسى ولا شك وأنسى انا أيضاً ما صدر منك الان

فهزّ الامير الباب هزاً عنيفاً بيديه وقال — افتح ودع عنك هذه الاوهام !

فقال موروزوف — عدّ عما انت فاعل يا اثناسي لانك امير ولست لصاً

قال — بل انا شرٌّ من جميع اللصوص وقُطَّاع الطرق .. لاني من رجال الحرس . وقد همت بزوجتك ، فلا بدّ من الحصول عليها ولو ركبت أخشن المراكب وسلكت أنكر السبل

قال هذا وهو يوالي دفع الباب ورفسه ، ويعاونه على ذلك بعض رجاله الى ان فتح وهجم الامير الى داخل المخدع وقد امتشق حسامه والدم يقطر من جراح أصيب بها قبل وصوله .. فالظاهر انه لم يصل الى المخدع الا بعد عراك عنيف .. ولا شك ان الذي تصدّى له لم يكن سوى الامير نكيتا ..

فلما رآه موروزوف هاجماً صوّب غدّارة كانت بيده الى صدره وأطلق النار ، ولكن خانته يده فلم يصب الامير أذى ، وهجم من ساعته على النبيل وتبعه اصحابه ، فأصيب النبيل بضربة من حسام احدهم كادت تكون القاضية ، وسقط الشيخ فاقد الشعور ..

وهجم الامير اثناسي بعد ذلك على هيلانة . وما كاد يمسها بيديه الملطختين بالدم حتى طار صوابها ، فصاحت بصوت كأنه قطع احشاءها وسقطت الى الارض مغشياً عليها . فاحتملها الامير بين ذراعيه وأسرع فخرج الى حيث كان جواده فامتطاه وراح ينهب الارض ، وهيلانة امامه . فاقدة الشعور

اما رجال الحرس فقد ركب نفر منهم وساروا يتبعون الامير ، وأقام الباقون في منزل موروزوف يحرقون وينهبون ، وقد جمعوا من المال والحلي والجواهر والطرف الثمينة النادرة ما لا يحصيه عدّ ، وتألبوا حول تلك الخيرات ووجوههم طافحة بشراً ، ومتى خومياك يروح ويجيء وهو يقول بأعلى صوته « انها والله لغنيمة باردة ! . . . »

فقال له احد الرفقاء – رأيت الان بعض خدم المنزل قد حملوا سيدهم الشيخ موروزوف وعبروا به النهر . . فهل نتأثرهم ؟

فاجابه متى – دعهم وشأنهم ، فان ذلك لا يهمنا

ثم قال آخر – وماذا ترى ان نفعل بالامير نكيتا ؟

فاجاب – كنت أود ان أروي خنجري من دمه ، ولكني عدلت . . لان من سداد الرأي ان نسوقه الى قرية ألكسندروفا لينال هناك جزاء ما جنته يداه . . أفلم تروا كيف ضرب الامير تاسي بحسامه حتى كاد يخمد انفاسه ، ثم قتل من رفقائنا سبعة ؟

فقال بضعة اشخاص من رجال الحرس بصوت واحد – نعم نعم رأينا كل ذلك

قال – أفتكونون شهوداً عليه ؟

قالوا – نعم ، فكلنا شهود

قال – اذاً لا تؤذوه ، بل أبقوه مكبلاً بالاغلال ولا تغفلوا عن مراقبته ومتى سقناه الى القرية ورآه سيدي ماليوتا فانه يطير فرحاً ويشكرنا على هذه الهدية النفيسة ، لان له ثأراً على هذا الامير ، وهو يترقب الانتقام منه لاسباب لا تجهلون بعضها

فقال بعضهم – وكيف نجهل هذه الاسباب ، وحادثة قرية الدب غير بعيدة العهد . . .

وقال آخرون – وحادثة غياض الجاهلية ؟ . . فهل ننسى ما فعله هناك برفقائنا ؟

قال – احتفظوا به اذاً ، لان سيدي ماليوتا أدرى بمحاسبته على كل ما جنته يداه . . .

وظل رجال الحرس يضرمون النار في جوانب المنزل وينهبون كل ما وصلت اليه ايديهم من أنفس التحف حتى بزغ الفجر . ثم ساقوا الامير نكيتا وقفلوا راجعين الى قرية الكسندروفا وهم في أحسن حالات السرور والطرب . .

وهكذا سقط ذلك المنزل العظيم بل القصر الشاهق وراح طعاماً للنار ... فويل للظالمين الاشرار من الديّان الجبار ! . .

اما سكان تلك البقعة من معارف النبيل موروزوف وجيرانه فقد رأوا ما حلّ بالقصر من الحريق والدمار ، فبكوا اسفاً وحزناً ، ولكنهم لم يجترئوا ان يتصدوا لمقاومة رجال الحرس ، بل بادروا فأوصدوا ابواب منازلهم وفرائصهم ترتعد فرقاً وقلوبهم ترتجف هلعاً ، وهم يسألون الله ان يرحمهم ويرد عنهم كيد الظالمين . .

***

واما الامير اثناسي فظل يعدو مسرعاً وهو لا يلوي على شيء ، وقد سبق رجاله مسافة بعيدة ، وفي نيته ان يصل الى بلد قريب حيث كان

بانتظاره بعض اعوان له أقامهم هناك ليأخذوا هيلانة الى مدينة ريازان . .

ولكنه ما سار قليلاً بعد ذلك حتى رأى انه قد ضل الطريق وسار في جهة اخرى . وقد شعر ان جراحه التي لم يهتم بها في اثناء هياجه لا تزال تقطر دماً وأحسَّ منها بآلام لا تطاق ، فوقف جواده وقال لهيلانة — ان رجالي ايتها السيدة قد تأخروا كثيراً . . فلا بد من الانتظار !

وكانت هيلانة لا تزال الى ذلك الوقت فاقدة الشعور . غير انها لما وقف الجواد فتحت عينيها ، فرأت عن بعد حريقاً هائلاً ، ثم أبصرت الغابة والطريق . ثم شعرت انها ملقاة على ظهر جواد . . فجعلت تنبه دماغها لتتذكر وقائع الليل . . فتذكرت المأدبة وحفلة التقبيل . . وما لبثت ان شعرت بذراعي الامير اثناسي تطوّقانها وسمعت صوته ، فاختلج جسمها وذعرت ، ثم صاحت من الخوف وعادت فأغمضت عينيها . .

فنظر اليها الامير وقال وهو يبتسم — عجباً ياهيلانة ! فما الذي يخيفك مني ؟ . . اني أحبك بل أعبدك . وقد خصصت بك قلبي وأميالي وافكاري فلا تنفري مني وقد صرت في حوزتي ! . . أنك ستكونين معي أسعد من ملكة تحسد ، وستقضين حياتك في أتمّ الراحة والسرور . . فأزيلي من صدرك ما كنت تضمرينه لي من النفور والكراهة وانسي ذلك الماضي بأكداره وسيئاته

فجهدت هيلانة نفسها وقالت له وهي ترتعش وتضطرب — اذا لم يكن فيك ذمة ايها الرجل ، فاذكر على الاقل انك امير . . وعار عليك ان تفقد شرفك وتبلغ بك النذالة الى هذا الحد

قال — أني فقدت كل شرف وكل حياء . . وقد بعت كل شيء حباً

الحصول عليك يا فاتنتي !. .فنظرة منك تشرح صدري وتملكني ناصية الكون وتنيلني اوج السعادة

قالت – أفلا تخاف غضب الله ويوم الموقف الرهيب ؟ . . أفلا تخشى ان تهلك نفسك ويكون مصيرك الى جهنم النار ؟

قال – لقد مضى الوقت ايتها المفدّاة ونفسي هالكة لا محالة . . لان من يكافىء الخبز والملح بمثل مكافأتي فلا يرجونّ خلاص نفسه . . والخلاصة فانا في هذه الليلة قد فقدت نفسي وشرفي ولم يعد لي مطمع في الرجاء والرحمة . . وثقي بأني لا أريد سعادة الفردوس بجانب رضاك والحصول عليك ، فأنت مناي وأملي في العالم كله وسأموت على هواك

وما قال هذا حتى شعر بانحلال قواه ، لان الدم لم يزل يتدفق من جراحه وهو لا يدري ماذا يفعل . .

ثم أظلمت عيناه وكاد يغيب عن الوجود . ولكنه تجلد وعاد الى الكلام فقال – اني اشعر الآن ان ساعتي قد دنت ، فقد نزف دمي ولا سبيل الى وقفه . . وقصارى ما أرجوه منك يا هيلانة ان تحبيني ولو في هذه الدقائق الاخيرة فقط حتى لا أسلم نفسي للشيطان عبثاً . فاشفقي علي يا فتنة قلبي وقاتلة نفسي ! . .

وأراد بعد ذلك ان يضمها الى صدره ، فخانته قواه ووقع اللجام من يده ، فسقط الى الارض ، واستوت هيلانة على ظهر الجواد وأرادت ان تقفه فجمح بها وراح ينهب الارض وهي لا تقوى على ردعه فتمسكت بشعره واستسلمت للقضاء

اما الجواد فعدا بها في تلك الغابات . ولم تكن هيلانة تبصر غير

الاشجار . ثم صارت تسمع صوتاً بعيداً لم تلبث ان عرفت انه صوت رحى طاحون . ثم رأت ضوءاً ضئيلاً والجواد يسرع الى جهته . . وما هي الا بضع دقائق بعد ذلك حتى وقف الجواد بغتة ، فشعرت هيلانة ان ضبابة كثيفة قد غشت عينيها ، فسقطت الى الارض

الفصل الثالث والعشرون

« الطحان »

ولما فتحت هيلانة عينيها رأت نفسها على بساط من الكلأ الناعم ، وسمعت بالقرب منها خرير الماء ، فظنت لاول وهلة انها في حديقتها ، ومن حولها وصائفها يضفرن شعرها في ذلك اليوم الذي ابصرت فيه الامير نكيتا عائداً من بلاد لتفا . . فرفعت رأسها لتناديهن . ولكنها بدلاً من ان ترى وجوههن الغضة أبصرت شيخاً بلحية كثيفة بيضاء كالثلج ، وقد انحنى فوقها يتأمل وجهها ويقول : « عجباً ماذا أرى ؟ . . فهذا جواد الامير اثناسي هيازيمسكي . . وأما هذه السيدة فمن تكون ؟ . . ولا غرو ان حملها الجواد الى هنا لانه قد تعود المكان . . »

وكانت هيلانة قد رأت الشيخ وسمعت صوته ، فذعرت وظنته احد آلهة الغابة . . ولما ملكت روعها وقفت على قدميه وقالت — ابتهل اليك ايها الشيخ الجليل ان تغثني وتخبأني عندك ان كان في قلبك موضع للرأفة ! . .

ولم يكن هذا الشيخ سوى الطحان الذي عرفه القارىء من بعض الفصول السابقة من هذه الرواية

فلما سمع كلام هيلانة ورأى ما هي فيه من الكآبة والحزن اخذته عليها الشفقة وعزم على اغاثتها ، وقد خطر له في الحال انها ربما تكون زوجة النبيل موروزوف التي هام بها الامير اثناسي فيازيمسكي وكان يختلف اليه في كثير من الاوقات و يطلب مساعدته للحصول عليها لانها لم تكن تميل اليه . . فلعل الامير ظفر بها أخيراً ، ثم فرت هي منه على جواده الخاص . .

ولما خطر له ذلك هش لهيلانة وبش وقال لها — ليكن الله معك ايتها السيدة ! فلا تجزعي وثقي بأني سأحميك وأواريك عن كل انسان . . غير ان الامير اثناسي شديد المراس ، فاذا عرف اني وجدتك واخفيتك فلا يكون جزائي منه الا القتل

فتفرست فيه هيلانة وقالت وهي معجبة من أمره وخائفة منه — ومن أين تعرفني ؟

فضحك الطحان وقال — كيف لا اعرفك وانت السيدة هيلانة قرينة النبيل دروجينا موروزوف ؟ . . اني وان كنت في هذه العزلة فلا يخفى علي شيء من احوال الخلق ، لاني لا أفتر عن درس ابراج السماء ومراقبة مطالع الكواكب . . وهكذا اعرف حوادث الغيب وغوامض الاسرار

قالت — اذا كنت مطلعاً على كل شيء كما تقول ، فلا يخفى عليك اذاً ان لا خوف عليك من الامير اثناسي ، فانه ملقى الآن في بعض اطراف الغابة مضرجاً بدمائه . . اما انا فغير خائفة منه ، وانما خوفي من رجاله وذويه . . فأسألك ان تشفق علي وتؤويني

فأجفل الطحان عند سماعه ذلك وقال — وماذا حدث له ؟ . . ولكنني اعلم ان الامير اثناسي لن يموت من ضرب الحسام ، فقد كتب له انه سيلقى حتفه بغير ذلك . . وعليه فانه سيقوم معافى و يبادر الى البحث عنك في كل مكان ، فكيف تكون حالي معه اذ ذاك ؟

فمدت هيلانة يديها الى عنقها ، فانتزعت جوهرة بديعة كانت معلقة فيه ، فناولتها للطحان وقالت — خذها والطف بي وواريني كيف شئت. . . لا تخبر احداً من البشر بوجودي عندك ، ولا تدع مخلوقاً سواك يرى وجهي . . واذا انت أحسنت العمل فسيكون لك غير هذه المكافأة

فأبرقت عينا الطحان عند ما رأى الجوهرة . وقد تناولها وجعل يقلبها بين يديه على ضوء القمر . ثم التفت الى هيلانة بوجه يطفح بشراً وقال — طيبي نفساً وقري عيناً لانني اعدك ببذل الجهد في مواراتك ولا اضنُّ في سبيل ذلك ولو بحياتي . فلا تجزعي وعلى الله الاتكال

ولم يكد الشيخ يفرغ من كلامه حتى سمع وقع اقدام بعيدة . فأجفلت هيلانة وقالت — اخفني ايها الطحان اكراماً لله ! . . فها هم آتون الى هنا . .

فقام الطحان لساعته وقال لها — لا تخشي بأساً يا سيدتي

ثم اقتادها بيده الى غرفة في الطاحون ، فأجلسها وراء بعض العدول وخرج ، وقد اقفل عليها الباب من الخارج ، و بادر الى الجواد فأخذه الى جهة أخرى وراء الطاحون ، وعاد الى حيث كان مع هيلانة اولاً ، فسمع وقع حوافر واصواتاً تقترب الى جهته ، فاسرع الى فراشه وأطفأ مصباحه . .

وما كاد يختفي حتى وصل رجال الامير اثناسي . وكانوا قد عثروا على

الامير مطروحاً على الطريق ، فحملوه على حرَج اي شبه نعش . ولما انتهوا الى الطاحون وقفوا ، فوضعوا الحرج على الارض وترجل الباقون . فقال احدهم — لا شك ان الجواد قد قصد هذا المكان لاني رأيت آثاره . .

وقال آخر — سنبحث عنه بعد ان ننظر في حالة الامير . فهل انقطع الدم ؟

فقال آخر — كلا فانه لا يزال يسيل من جراحه كمن قربة ، فاذا لم يتمكن الطحان من قطعه فالخطب جسيم

وقال غيره — علينا اذاً بالطحان !

ثم تقدموا الى باب الطاحون واخذوا يقرعون بعنف شديد . فتناوم الطحان ولم يجب . اما هم فأخذوا يشتمون ويتوعدون ويرفسون الباب بكل قواهم . وما زالوا كذلك الى ان سمعوا سعالاً متقطعاً ثم ابصروا رأس الطحان قد برز من كوّة صغيرة وقال — من انتم ياقوم ، وما غرضكم في مثل هـذا الوقت ؟

فاجابه بعض الرجال بغضب شديد — اُخرج ايها الساحر سريعاً وبادر الى وقف الدم من جراح الامير اتناسي . فانه أصيب بضربة حسام شديدة كادت تقضي عليه ، وقد أحضرناه اليك مثخناً بالجراح ومغشياً عليه من كثرة النزيف

فقال الطحان وهو يظهر انه لم يسمع اسم الامير — واي امير تعنون ، واين هو الان ؟

فقالوا — تباً لك من احمق . . نحن في همّ وخوف ، والامير في آخر

رمق من الحياة ، وهو يتساءل ولا يتحرك . . اكسروا الباب ايها الاخوان واسحبوا الى هنا هذا الشيطان الرجيم ! . .

قال — على رسلكم يا احبائي . . فهاءنذا خارج اليكم . . فلا تغضبوا !

قالوا — هلمَّ اذاً بالعجل ! فأقل أبطآء ربما يذهب بحياة الامير

وما كادوا يتمون كلامهم حتى خرج الطحان من مرقده وهو يسير متثائباً ويقول — لا تسخطوا عليّ يا سادتي فاني كنت مستغرقاً في النوم وقد ضعف في هذه الايام سمعي ، فلم أسمع نداءكم . ولما قرعتم الباب خفت خوفاً لا مزيد عليه اذ ظننتكم لصوصاً فانهم كثيرون في هذه الجهات و . .

فقاطعه احد الرجال قائلاً — حسبك هدراً . . وانظر الان لعلك تقدر ان تقطع الدم ، فانه يتدفق بكثرة

فتقدم الطحان وتأمل جراح الامير وهو يقول — عجباً . . ومن ضربه هذه الضربة الشديدة ؟ . . فانها لولا رحمة الله لكانت القاضية

فتأفف القوم وقالوا — أفتقدر ان تقف نزيف الدم ايها الشيخ ؟

قال — بمنتهى الصعوبة . لان الحسام كان مسحوراً

فأجفل رجال الحرس وقال واحد منهم — الان تحققت ظنوني . . أفلم أقل لكم ان الحسام مسحور ؟ والاَّ لما استطاع الامير نكيتا ان يقتل به سبعة رجال وكاد يلحق بهم الامير الثاني

فأجاب آخر وقال — لا شك في ذلك . . فمن أين له ان يفعل كل ذلك لو لم يكن حسامه مسحوراً ؟

وكان الطحان يسمع ويتعجب وهو يتدبَّر الامر في نفسه ، ثم قال —

ولو لم يكن الحسام مسحوراً لكنت على الفور قطعت الدم . . واما الآن فاني أخشى . .

قالوا — وما الذي تخشاه ايها الساحر ؟

قال — أخشى ان ينعقد لساني فأصبح أخرس

فقال واحد من رجال الحرس لاحد رفقائه — هات كيس المال الذي اصابنا من ثروة موروزوف لنضمن لهذا الدجال حلّ عقدة لسانه . .

قال هذا وتناول الكيس فأخذ منه مقداراً من القطع الذهبية وألقاه في يد الطحان قائلاً — واذا أنقذت الامير ووقفت الدم فأعطيك غير هذا ايضاً والا فاني اخطف روحك

فأشرق وجه الطحان سروراً عند نظره الى الذهب في يده وقال — بورك فيك يا سيدي . اني وحقك لابذلن كل ما في طاقتي لانقاذ الامير من خطر الموت ولو كان في ذلك حتفي . ولكن ارجو ان تتنحوا عني قليلاً لان الرقية التي اريد ان أتلوها لا يكون لها مفعولها امام شهود . .

ولما بعدوا دنا من الجريح فقلب النظر فيه ثم ضمد جراحه ور بطها وهو يتمتم . فانقطع الدم . وتنبه الامير ولكنه لم يفتح عينيه

فقال الطحان لرجال الحرس — تعالوا الان يا سادتي وانظروا فقد وقفت النزيف وزال الخطر باذن الله . غير ان ذلك سوف يؤذيني لا محالة وقد بدأت من الان أشعر بيبوسة في لساني

فتقدم رجال الحرس وتفرّسوا في الامير فرأوا ان الدم قد انقطع والامير ملقى بلا حراك ووجهه شديد الاصفرار كأنه احد سكان القبور . . فأخذ كبير رجال الحرس مقداراً آخر من المال نفح به الطحان وقال — خذ

ما وعدناك به . وانك ستنال اعظم من ذلك اذا برىء الامير تماماً . . اما الان فقل لنا ألم تر جواده قد جاء الى هنا وفي صهوته سيدة ؟ . . فقد عرفنا من الآثار التي رأيناها على الطريق ان الجواد انما عدا الى هذه الجهة

فحملق الطحان بعينيه وفغر فاه كأنه لم يفهم شيئاً مما قيل له . . وقد خطر له في تلك اللحظة الامور التالية ، قال في نفسه : «لو كان الامير اثناسي معافى فمن الحماقة ان أخفي عنه هيلانة . ولكنه الان في خطر عظيم وقد تكون ساعاته معدودة . . اما النبيل موروزوف فلن يتركني بدون جائزة سنية اذا أخفيت زوجته عن طالبيها . . ويظهر ان الامير نكيتا ايضاً هائم بهذه الحسناء ، والا لما جاهد في سبيلها ذلك الجهاد وقتل سبعة حراس وكاد يلحق بهم الامير اثناسي نفسه . . ولا شك اني سأنال منه ايضاً ما لا يمكنني ان أتصوره في الاحلام ، وأصبح بكل ذلك غنياً وأقضي بقية حياتي في الرغد والهناء . . .»

ولما خطرت في باله هـذه التصورات أقسم لرجال الحرس انه لم ير الجواد ولا السيدة التي يشيرون اليها

فصدقوه ثم قالوا — افتح اذاً غرفة من غرف الطاحون للامير فنبيت عندك بقية هذا الليل

فقال — على الرحب والسعة يا سادتي . . ولكن ليس عندي علف لخيولكم ولا شراب وطعام لكم ، وانا هنا اكاد اتضور جوعاً . على انكم اذا سرتم قليلاً الى جهة الجنوب هذه تبلغون فندقاً رحباً تجدون فيه كل انواع الراحة المطلوبة للامير ولكم . . وفضلاً عن هـذا وذاك فان الحشيش في

هذه البقعة قد يؤذي خيولكم . لانه في بعض ايام معلومة وهذا اليوم منها يكون ذا مزايا سيئة العواقب على الخيول وقد تموت حالاً اذا رعت منه

فذعر رجال الحرس حين سمعوا ذلك لانهم خافوا على خيولهم و بادروا الى الخروج في الحال من ذلك المكان المخيف ..

وكان الامير لم يزل في غيبوبته . فتقدم اليه بعض رجاله فحملوه على الحرج وركب الباقون وساروا جهة الفندق . ووقف الطحان يشيعهم بنظره حتى اذا تواروا عاد ففتح الطاحون ، وأسرع الى الغرفة التي اختبأت فيها هيلانة فهنأها بنجاتها وسلامتها . ثم أحضر ماتيسر لديه من الطعام والشراب فدعاها والح عليها ان تأكل شيئاً فامتنعت .. وكان هو قد جلس امامها يشرب ويقص عليها حديثه مع رجال الحرس عن الامير اثناسي فيازيمسكي ، وكيف انه لم يقبلهم عنده للمبيت بل صرفهم الى الفندق خوفاً عليها وقال — نعم أرسلتهم الى الفندق .. وقد يبحثون عنه حتى الصباح ولا يجدونه . ولكنهم لن يعودوا هذه الليلة الى هنا لانهم خرجوا وهم لا يصدقون بالنجاة ..

ثم شرب نخب الامير نكيتا وروى لها حديث جهاده في سبيلها وكيف انه كان سبب نجاتها من الامير اثناسي ، لانه ضربه بحد حسامه ضربات كادت تودي بحياته كما أودت بحياة سبعة من رجاله ..

فأدركت هيلانة ان الطحان مطلع على حبها للأمير نكيتا وأيقنت انه ساحر . وقد أوجست منه خوفاً عظيماً .. وكأنه علم بما ساورها فطمأنها وسكن جأشها . ثم شرب نخبها ونخب النبيل موروزوف .. وظل يشرب ويسرد عليها اخباره وهو يبدي من الحركات ما يضحك الثكلى ، حتى دبت الخمرة في رأسه فانطرح على الأرض امامها ونام

ولبثت هيلانة في مكانها وقد تولاها الجمود . ثم غاصت في تأملاتها وهي تناجي الاشباح التي كانت تمثل في مخيلتها وتعيد في ذاكرتها حوادث هذه الليلة وما جرته عليها من انويلات . . فتمثلت زوجها الشيخ مضرجاً بدمائه ينظر اليها بعين الغضب والتوبيخ ويقول : « انت يا هيلانة سبب شقائي وعلة مصائبي كلها ! . . ولو كنت امينة في حقي لاحتملت احزاني بالصبر الجميل . . غير انك قد جرعتني بخياناتك سماً هو امر من الموت . . »

ولما تصورت ذلك ارتجفت واستهلت عيناها بالبكاء . .

ثم تجلت امام بصرها صورة الامير نكيتا وهو ممتشق حسامه ، يجول به فيطعن الاعداء ويوردهم حتوفهم . . وهو انما فعل ذلك كله في سبيل الدفاع عنها ، لانه يحبها ولا يبخل ببذل مهجته وما يملك على مذبح عبادتها . .

ولما خيل اليها ذلك أشرق وجهها وتنفست الصعداء . . ولكنها ما عتمت ان اضطربت وقالت في نفسها : « لقد سحق الشقاء قلبي وكسرت المصائب نفسي ، ولست أرى لي راحماً ولا مجيراً . . فما الذي أرتجيه من وجودي ، وما هي آمالي بعد الآن ؟ . . ان زوجي لا يتركني ونكيتا لا يتخلى عني ، وهنا الشقاء كل الشقاء . . . آه يا موروزوف ماذا حل بك ؟ . . وانت يا نكيتا هل تعلم ما انا فيه من الغصص والاشجان ؟ . . ومن ذ يصيبني ان نزل بك مكروه بسببي ؟ . . آه ما أنكد طالعي وأشقى حياتي ! . . »

وظلت تندب سوء حظها بمثل هذا الكلام وهي مقرحة العينين ملتهبة القلب حتى انبثق نور الصباح ولم تذق عيناها غمضاً

الفصل الرابع والعشرون

« ميخيش »

وفي ثاني الأيام من دمار منزل النبيل موروزوف شوهد في طريق الغابة فارس كبير السن يسير بين تلك الاشجار سيراً حثيثاً ، وهو من وقت الى آخر يقف جواده فينصت قليلاً ثم يعود الى المسير ، وقد شخص بصره وتولاه حزن عظيم



(ميخيش)
خادم الامير نكيتا

ولم يكن هذا الفارس سوى صاحبنا ميخيش خادم الأمير نكيتا . فانه لما رأى ان رجال الحرس قد ساقوا سيده الى قرية الكسندروفا ، وليس لديه حيلة في انقاذه من هذه الورطة ،عزم على ان يستجير بالطحان ، لعله لا يعدم عنده وسيلة تدفع عن سيده المكروه . وقد خطر في باله حديث احد اللصين اللذين انقذهما الأمير من ايدي رجال الحرس في قرية الدب يوم كان عائداً من بلاد لتفا كما مر ذلك في حينه . فقد قال له ذلك اللص . « اذا احتاج الأمير مساعدتنا في شيء فاسأل الطحان عنا يرشدك الى مكاننا . . . »

ولما خطر له ذلك زال عنه بعض الانقباض ، فركب جواده وانطلق وهو يود ان يطير الى الطحان لئلا يفوت الوقت ويقضى الامر . وما زال جاداً في السير حتى انتهى الى الطاحون . فترجل وربط جواده الى جذع شجرة هناك ودنا من الباب فقرعه ووقف ينتظر . ولما طال به الوقوف اخذ يقرع بعنف وينادي الطحان بمن فيه ؛ فلم يجده ذلك نفعاً . فجعل يلعن

ويشتم ويتهدد باحراق الباب . وانه لكذلك اذا به يسمع سعالاً خفيفاً ، ثم برز له رأس الطحان من الكوة الصغيرة ، وكانت فوق الباب. فتبسم ميخيش وحياه بلطف. فرد عليه الطحان التحية وسأله عن غرضه ، فقال — أما عرفتني ايها الصاحب ؟ فقد بت عندك ليلة مع سيدي يوم كنا عائدين الى موسكو

فتفرس فيه الحطان هنيهة وقال — كيف لا أعرفك وقد كنت آنئذ مع سيدك الامير ، وجاء بكما الي بعض الاصحاب . . فما غرضك الآن ؟

قال — لي اليك يا سيدي الطحان حاجة مهمة . فأرجو ان تنزل الي ، او تفتح الباب فأدخل وافضي اليك بغرضي

قال — لبيك ، فها نذا !

وبعد قليل فتح الباب وخرج الطحان فأقفله وراءه بكل عناية . ثم جلس وميخيش في ظل بعض الاشجار وسأله عن غرضه ، فقال — لقد حل بنا يا سيدي خطب جلل تهون المنية في جانبه . وذلك ان رجال الحرس قد ألقوا القبض على سيدي الامير وأخذوه الى قرية ألكسندروفا . ولعلهم أودعوه هناك السجن ، وهو لم يقترف ذنباً ولا ارتكب وزراً ، وانما دافع عن الحق وقام بنصرة النبيل موروزوف . . فان اولئك الاشرار البغاة قد هجموا على منزل النبيل يريدون اختطاف زوجته

فأظهر الطحان دهشة عظيمة من هذا الحديث وقال — اجل ، ان سيدك الامير نكيتا لفي منتهى الحزن في سجنه ، والشيخ موروزوف في أنغص عيش لتعدي رجال الحرس عليه واختطاف زوجته ، والامير أثناسي فيازيمسكي في اعظم المحن والعناء جزاء فعلته : — وجميعهم قد أصيبوا بسبب المرأة

فذهل ميخيش وقال — ومن انبأك بكل ذلك ؟ . . اني لم أقل لك شيئاً

فاجاب الطحان باسماً — وهل تظن اني أجهل كل ذلك ؟ . . فاعلم يا صاح ان الطبيعة لا تبخل عليّ هنا بشيء من اسرارها . فاني ولئن كنت معتزلاً الناس فانا مطلع على امورهم ولا يفوتني شيء من احوالهم واسرارهم

فأطرق ميخيش وهو يتأمل في كلام هذا الرجل العجيب ويعتقد فيه قوة خارقة . . ثم رفع رأسه وقال — وبما انك تعرف الغوامض واسرار الغيب فقد جئت أسألك ان لا تبخل عليّ بوسيلة أتمكن بها من الافراج عن سيدي . . ولقد قال لي ذلك الرجل الذي رافقنا تلك الليلة الى هنا وعرَّفنا بك « اذا احتاج سيدك يوماً الى مساعدتنا فأت الطحان واسأله عن برستن وهو يرشدك اليّ . . » . وعليه فاني ألتمس منك يا سيدي الطحان ان تغيثني . . دلني على برستن المشار اليه ، فلعلَّ في امكانه ان يفعل شيئاً لخلاص سيدي . واذا تم لنا الحظ وخرج الامير من سجنه فان أنسى معروفك ونضانت ، ويغمرك سيدي بكل ما تصبو اليه نفسك ويشتاقه قلبك

فهزَّ الطحان رأسه ونظر الى الارض وهو يتمتم ثم رفع رأسه والتفت الى جميع الجهات وعاد يتمتم ويبدي من الاشارات والاقوال ما دهش له ميخيش ، وقد أخذه الذهول الشديد . وابث ينظر الى الطحان وهو يتوقع منه حلاً للامر او رأياً صالحاً فيه بعض الفائدة

وطال انتظار ميخيش ، والطحان لا ينظر اليه ولا يمعن في حركاته

وتمتمته . فقال ميخيش — أرجو ان يكون قد فتح عليك برأي يحقق أملي او خاطر تنفعني به

فقال الطحان وهو كمن هب من غفلة — لم أر لا ان تعجل الاجتماع بيرستن لانه زعيم عصابة قوية من اللصوص تخشى الحكومة سطوتها بعض الاحيان . وهو اذا اراد امراً تم له ما أراد ، ولديه لذلك كل الرسائل وليس لاحد من الناس ايا كان ان يفعل فعله في مثل هذه الاحوال . فاقصده من فورك وأفض اليه بحديثك ، فيكون لك ما تريد ان شاء الله

قال — وكيف أجده ؟

قال — سر في طريق هذه الغابة واياك ان تنحرف يمنة او يسرة بل تابع سيرك الى الامام . وبعد مسير نحو ثلاث ساعات ترى امامك بين الادغال كوخاً كبيراً ليس فيه احد . فانتظر هناك حتى اذا خيم الظلام يقبل اليك جمهور من الاصحاب فاطلب زعيمهم وأخبره خبرك . هنا أسأل الله ان يوفق مسعاك ويظفرك بأمنيتك . ولا تنس ان تعود الى هنا بعد فراغك ، لان لي اليك حاجة مهمة . فقد وقعت الحمامة الجميلة في الفخ . فتأخذها وتقاسمني الفدية . .

ولما قال هذا نهض حالاً وعاد الى مرقده وأتم ... . ولم يفهم ميخيش شيئاً من كلامه هذا . وقد ازداد ذهولاً فقال بأعلى صوته — خبرني بربك عن هذه الحمامة الجميلة وما شأنها ؟ . . اني لم أفهم مرادك !

غير ان الطحان لم يجبه بشيء . .

ونبت ميخيش ينتظر الجواب ولكن على غير جدوى . فاعتده غيظاً

وبادر الى جواده فامتطاه وسار ينهب الارض قاصداً الى الجهة التي أشار اليها الطحان

الفصل الخامس والعشرون

« وما جزآء الاحسان الا الاحسان »

لم يهتد ميخيش الى الكوخ الذي اشار اليه الطحان الا بعد الجهد والعناء . وكان قد أقبل المسآء فترجل عن جواده وربطه الى جذع شجرة قريبة ثم دنا من الكوخ فقرعه ووقف ينتظر . ولما لم يسمع احداً رفسه برجله دفعات متوالية ، ففتح ودخل وهو مبلبل الافكار مضطرب الحواس وقد وقف يتأمل الكوخ وما فيه من الاثاث فرأى في مكان منه اثواباً مختلفة الازياء . وفي مكان آخر قدوراً وغيرها من آنية الطعام . ورأى ايضاً ايقونات وبعض صور القديسين معلقة هنا وهناك على الجدران .. وكان الظلام قد ملأ المكان . فأبصر ميخيش في الكوخ مصباحاً صغيراً أشعله ثم تمدد في زاوية من الكوخ وأطلق العنان لافكاره فسبحت به في عالم الخيال وقد خامرته المخاوف والوساوس . ولكنه ألقى على الله اتكاله وبات ينتظر قدوم رجال العصابة

وانه لكذلك اذ سمع وقع اقدام تقترب . ثم دخل الكوخ رجلان لم يشك ميخيش في انهما من العصابة . وما أبصراه حتى استغربا امره ووقفا ينظران اليه وينظر اليهما . ثم قال لهما — هل لكما ان ترشداني الى برستن؟

فقال له احدهما — اذاً فانت تريد مواجهة الزعيم ! فعما قليل يصل

وما فرغ من كلامه حتى دخل الكوخ بضعة رجال وتلاهم بضعة اخرى حتى ازدحم المكان بالاقدام . وفي آخر الجميع دخل رجلان احدهما كهل والآخر شيخ قد وخطه الشيب . فقال لميخيش احد الرجلين اللذين دخلا اولاً — ها هو الزعيم قد حضر ومعه العم كرشون

وكان برستن بحال دخوله قد رأى ميخيش وعرفه . فهش له وقال — اهلاً بك وسهلاً ايها الصديق ! فما الذي اقدمك الينا ؟ وكيف حال سيدك الامير بعد ان فتكنا برجال الحرس في غياض الجاهلية وانقذنا ولي العهد ؟ فلا بد ان يكون الملك قد أنعم عليه بما نستحقه شهامته و بسالته

فقال ميخيش متنهداً — ان انعامات الملك كثيرة ! ولكن سيدي الامير لا يستحقها ولا يريدها . لانه يكره رجال الحرس كرهاً شديداً . وهو لا يكاد يفرغ معهم من امر حتى يشتبك في غيره اشد اشكالاً منه وغموضاً ، لانه يدافع عن الابرياء جهده ، وهم يظلمون هؤلاء الابرياء ويضطهدونهم ، ولا عمل لهم الا هذا . . . فبعد ان نجا سيدي من غضب الملك بعد موقعة قرية الدب التي تهددها تعرض لرجال الحرس ثانية في غياض الجاهلية وخلص ولي العهد . وكانت ليلة امس لواقعة الثالثة ؛ فقد قتل منهم سبعة رجال وكاد يقضي على اميرهم اثناسي فيازيمسكي حبيب الملك واحد زعماء الحرس . الا انهم هذه المرة قد غلبوه بكثرتهم ، ثم اوثقوه وساقوه الى السجن حيث يكابد الان منهم ومن ماليوتا سكوراتوف على الاخص جميع اصناف العذاب وهو مثقل بقيوده لا يستطيع ان يدافع عن نفسه . . وهذه المرة اذا لم تساعدنا العناية يقضى على سيدي القضاء المبرم

فقال برستن بدهشة — عجباً ! أفلم يعاقب الملك ماليوتا على فعلته ؟ .

وكيف تركه بعد الذي ظهر منه من الاقدام على اغتيال ولي العهد ؟ . . ان ذلك لمن الغرائب والمدهشات ! . . ولكن هات الآن نبحث عما يتعلق بغرضنا . تقول ان الامير نكيتا في السجن . . فما الحيلة للوصول اليه ؟

فقال ميخيش — ذلك موكول اليك ، وليس من يعول عليه في هذه المهمة الا انت . . ولقد كنت اليوم عند الطحان وانبأته بالحادثة فقال لي قابل ازعيم برستن في الحال يكن لك ما تريد وتبلغ غاية القصد . . وها اني قصدت اليك يا سيدي فلا تخيب أملي

فأطرق برستن هنيهة ثم قال — وهل انت واثق بان الامير قد زج في السجن ؟ . . واين ؟ . . افي موسكو أم في قرية الكسندروفا ؟

قال — نعم . وفي قرية الكسندروفا . في السجن الكبير

قال — وانا اعرف هذا السجن جيداً . . وقد علمت ان ماليوتا نفسه يقفله كل مساء بيده ولا تفارقه مفاتيحه لحظة

قال — نعم ان ماليوتا هو امين المفاتيح ولكنه بعد ان يتعهد السجين ويعذب المسجونين يأخذه كل ليلة الى القصر ويسلمها للمالك ، وهذا يضعها تحت وسادته

فهز برستن رأسه وقال — ليس الامر بسيطاً يا عزيزي ميخيش . واذا لم تحدث أعجوبة سماوية فسيدك هالك لا محالة ، اذ لا سبيل الى الوصول اليه الا اذا كانت المفاتيح في غير القصر

فانحدرت من مقلتي ميخيش دمعتان محرقتان مسحهما بكمه وقال — وانا لا أدري كيف السبيل الى ذلك . . فلم يبق لي والحالة هذه الا ان أنطلق ايضا الى السجن وأموت الى جانبه

وكان برستن قد تأثر لبلواه وهبت في صدره عاصفة الاقدام وعزم على ان يحاول انقاذ الامير ولو ركب الى ذلك اخشن المراكب خطراً .. فقام للحال وانفرد بكرشون وقال له — تعلم ان للامير نكيتا علينا ديناً كبيراً ، فقد خلصنا كلينا من الموت الاحمر ، وقد حان لنا الآن ان نفيه دين المعروف هذا ونقوم بحق الجميل . فهل توافقني على ما عزمت ؟

فهز كرشون كتفيه وقال — ولكن انى لنا ذلك والامير فى اعماق السجن وليس لنا ولا سبيل للوصول اليه

قال — يجب ان نحاول ذلك ولو جازفنا بحياتنا

قال — ولكن هذه المجازفة ضرب من الجنون بل اشد انواع الجنون .. ومن نحن حتى نقتحم السجن ونقاوم السلطة ؟ واين رجالنا لذلك واين اهبتنا ؟

قال — نحن لا نريد ان نعلن حرباً على الدولة ! .. ولكننا نقدم على عملنا بالحيلة والروية .. وقد لا نعدم وسائل عدة تذلل امامنا كل صعوبة وتنيلنا بغيتنا

قال — مهما تكن الوسائل فانما تكون في جميعها كالباحث عن حتفه بظلفه

قال — قد يكون ذلك ايضاً . ولكن ما جزاء الاحسان الا الاحسان .. فنحن ايها العم كرشون لولا يد الامير نكيتا لما حيينا الى الآن .. نعم لولاه لكان رجال الحرس قد قطعونا ارباً ارباً واطعموا الكلاب لحمنا .. فكل قطرة اذاً من دمائنا انما تجري بفضل الامير واحسانه .. وها ان الامير قد وقع الان في الفخ . فهل من المروءة ان نعرض عنه وننقض معروفه ؟ وهل من الشرف ان نتخلى عنه وننسى فضله علينا ؟

قال — ولكن ما حيلتنا في ذلك ؟ .. فهل فتح عليك بشيء ؟

قال — لا . وقد نرى هذه الليلة ما نجمع عليه الرأي

قال — اسمح لي ان أخالفك هذه المرة ولو ساءني ذلك وساءك. فاذهب وحدك ان شئت وخذ من رجال العصابة من شئت ، ودعني أقضي بقية حياتي في هـذه الفلوات ، لاني غير راغب الآن في المشنقة ولا اريد ان أموت حرقاً او تقطيعاً او بغير ذلك من ضروب القتل الشنيع

قال — انت وشأنك . فابق حيث شئت وسأنتظرك حتى الصباح ، فان لبثت مصراً على الرفض انطلقت وحدي . . وقد لا يعدمني الله غيرك في هذه المهمة

قال برستن هذا وخرج من الكوخ فجلس على جذع شجرة قريبة وغرق في تأملاته . ثم عاد فقال للصوص — قد حانت ساعة الرقاد . فمن اراد منكم فليصلّ

فقام اللصوص واضطجع بعضهم ولبث الآخرون يصلون و يتضرعون ، وقد أكثروا من الجثو والورع ولا سيما توما فانه بقي يصلي بعد الجميع . ومن رآه على تلك الحالة جزم بانه اكثر عباد الله صلاحاً وتقوى . .

ورقد اللصوص . وسمع ميخيش بعد ذلك غطيطهم . ثم رأى كرشون قد نهض من مضجعه فدنا من بعض الايقونات وجثا واخذ يقرع صدره ويصلي بمنتهى الحرارة والتخشع ، والدموع تسيل على خديه . . فتعجب ميخيش من امره وأيقن أن لهـذا اللص الشيخ شأناً لا يعرفه احد من رفقائه . .

ولما فرغ كرشون من الصلاة عاد الى مكانه وقد أقلقته افكاره فلم يستطع نوماً ، ولبث يتقلب من جانب الى جانب حتى بدت طلائع الفجر ، فقام الى

حيث كان برستن فأيقظه وقال — اني اتبع لك من ظلك ايها الزعيم، فقدني الى حيث تشاء ولو كان في ذلك منيتي ! . .

فدهش برستن وقد سُرّى عنه وقال — وكيف ذلك ؟ وما الذي غير عزمك وحملك على مجاراتي في هذه المجازفة ؟

قال — افكاري . . فقد حرمتني النوم اربع ليال متتالية

قال — وهل تسير معي ولن ترجع حتى نبلغ الغاية ؟

قال — وهل عندك شك في ذلك ؟

قال — بورك فيك ايها العم كرشون . . فهذا ما كنت اتوقعه منك قياماً بهذا الفرض المقدس الذي علينا كلينا للأمير نكيتا . . فكم بقي من الليل ؟

قال — لم يبق شيء . فقد انبلج الفجر

قال — أيقظ توما . فانا باحتياج الى مثله في هذه المهمة . وسأحدثك بما عزمت عليه . .

وما فرغ الثلاثة من التأهب حتى كان جميع اللصوص قد قاموا . . فانبأهم برستن بانه منطلق مع كرشون وتوما الى قرية الكسندروفا . وأخبرهم ما ينبغي لهم ان يفعلوا وكيف وفي اي مكان . . ثم ودعهم وودع ميخيش وقال له — اذهب انت لشأنك ورافقنا بدعائك

ثم خرج ومعه كرشون وتوما

الفصل السادس والعشرون

« في السجن »

في سجن مظلم ، معظمه داخل في الأرض ، كان الامير نكيتا مكبلاً بالقيود ، وهو في اشد حالات الكآبة والحزن ، ينتظر الموت ويرجوه لينجو من الآلام الشديدة التي كابدها وهو في تلك الحالة

ولم يكن يعرف كم يوماً مضى عليه منذ دخوله السجن ، لأن نور الشمس لم يكن ينفذ اليه وهو تحت الأرض . غير انه كان يسمع من وقت الى آخر قرع الاجراس ، فعلم انه قد مضى عليه اكثر من ثلاثة أيام وهو في تلك الظلمة المدلهمة . وقد خارت قواه وبرّح به الجوع والعطش ، لانه لم يدخل فاه القوت ولم يذق جفناه الكرى منذ دخوله الى ذلك المكان . .

ولم يكن يشغله وهو في حالته تلك الا تذكار ما جرى . فكان يقضي الساعات الطوال كل يوم وهو لاه بافكاره ، يناجي نفسه بما كان وبما سيكون ، والعوامل الشتى تتنازعه والنار ترعى فؤاده . .

لم يدر نكيتا ماذا حل بهيلانة ، ولا ماذا جرى لموروزوف . وانما عرف ان الامير اثناسي لا يزال حياً ، وانه قد صرع موروزوف وسبى هيلانة ، وان رجال الحرس قد دمروا منزل النبيل ونهبوه ، وانهم انما فعلوا ما فعلوه من هذه الفظائع برضى الملك نفسه . .

ولم يبق عنده شك في ان موروزوف قد وقف على سره ، وأدرك علاقته بهيلانة ، وهيام هيلانة به . . ورجع الى اول عهده بهذا الحب ، وكيف

نشأ وانتهى بين الزعازع والاهوال ، وكم جر من الويلات على الحبيب والزوج معاً . .

وود نكيتا ان يكون موروزوف باقياً حياً ليطالب بحقه و ينتقم لنفسه من الغاصب . . وود ان يظل هو ايضاً حياً ، وأن يخرج من السجن بضعة أيام فقط ، لينتقم لهيلانة و يستغفر موروزوف و يقفه على طهارة زوجته ، ثم يعود فيموت قرير العين ناعم البال . .

ولكنه كان اذا بلغ بفكره هذا الحد من التأمل يتمثل موروزوف جثة هامدة ، وهيلانة في حوزة الامير اثناسي وهو يسومها العذاب الواناً ، وهي بلا نصير ، — فينفطر قلبه حزناً وتثور في رأسه سورة الانتقام . .

وفيما هو مستغرق في مثل هذه التأملات في صباح اليوم الرابع من اعتقاله سمع حركة بعيدة فأصغى واذا به يسمع صريف الباب الخارجي للسجن ، فأيقن أن الساعة قد دنت واستسلم للقضاء . . ثم سمع فتح الباب الثاني ، واخيراً فتح باب حجرته فأبصر رجلاً بثياب الجلادين قد دخل و بيده مشعل كبير . ثم تبعه رجلان آخران عرف نكيتا للحال انهما ماليوتا سكوراتوف و بوريس غودونوف . فلما اقتربا منه وقف ماليوتا امامه ونظر اليه وهو يتبسم تبسم الازدراء والشماتة ثم قال — أسعد الله صباحك ايها الأمير وزادك عظمة ومجداً ! . .

قال له ذلك بصوت يشبه مواء الهرة وقد دنت من مصيدة الفأر

وكان الأمير قد سرت رعشة في جسمه ساعة رأى ماليوتا وسمع

صوته . . ولكنه أعرض عنه بأنفة ونظر الى بوريس غودونوف وقال — أشكرك يا بوريس لانك زرتني في هذا المكان الموحش ، فهوّنت علي بذلك الموت

ثم مد اليه يده الموثقة ، يريد ان يصافحه . فأحجم بوريس عنه الى الوراء كأنه لم ير تلك اليد ، ولم يقل شيئاً

فقال له الامير — لم أكن أنتظر منك مثل هذا الجفاء . . فلعلك لم تأت الى هنا الا لترى انفاذ الحكم فيّ ! . .

ثم تنهد من قلب جريح وخرجت من بين شفتيه زفرةٌ تدلُّ على حرارة النار المتأججة في صدره

فأجابه بوريس بملء السكينة — لقد جئت وماليوتا بأمر جلالة الملك لنسمع اقرارك . . وهذا كل ما في الامر ، ولا شأن لي معك غير هذا فلا تزعم اني من مريديك مادام الملك ناقماً عليك

فلما سمع الامير ذلك نظر الى بوريس متعجباً ، وقد اشتد حزنه والتهب قلبه ولم ينبس ببنت شفة

ومضى بوريس في حديثه فقال — وقد مضى زمن الرحمة والعفو . ولا اخالك تنسى قسمك للملك على ان تكون خاضعاً لاحكامه في كل شيء . . فان اعترفت لنا الآن بجريمتك بكل تفاصيلها يحكم عليك بالاعدام السريع ، والا فانك تعرض نفسك لأشد العذاب

ثم قال لماليوتا — هيا بنا نسأله عن الحادثة !

فقال ماليوتا متبسماً . . رويدك يابوريس ! فأن لي مع سموه حساباً قديماً ولا بد من ايفائه اياه . .

قال هذا وأمر الجلاد ، فركز المشعل في الارض ، ثم عمد الى قيود الامير فقصرها وشدها شداً محكماً

وتقدم ماليوتا بعد ذلك فانحنى لنكيتا ، ثم جثا امامه وقال بلهجة المتهكم الساخر – تعطف الآن ايها الامير الجليل على عبدك هذا الذليل الجاثي امامك خاضعاً صاغراً . . وارمقه بنظرك السامي والتفاتك العالي ! . . فانا يا مولاي لم يتح لي قبل الان أن ادنو من امثالك بمثل هذه المهمة الخطيرة . . وانى لمثلي ان يدنو منك وانت سليل الامراء الفخام وفي عروقك دم الكرامة والعظمة ، وهو كما يقولون ليس كالدم الذي يجري في عروقنا نحن السوقة . . فأذن لي ايها المولى الكريم ان أمتع بصري بمشاهدة هذا الدم الشريف لاتحقق صدق القائلين ، وتدب في الجرأة لمخاطبة أمثالك

ثم اخرج من تحت ردائه خنجراً صغيراً وزحف نحوه . .

فارتعد الامير وصعد الدم الى رأسه . . وهو لو كان مطلقاً لهجم على ماليوتا فقطعه وسحق رأسه بنعله . . وقد نظر الى بوريس ثانية ، فرآه جامداً لا يتحرك . .

وتابع ماليوتا كلامه فقال – ثم اسمح لي يا سيدي ان أتخذ من جلد ظهرك سيوراً لحذائي ، وأجعل لحمك الفاخر طعاماً لكلابي ! . .

وكان ماليوتا في اثناء ذلك يتلون بهيئات مختلفة ، وصوته يرتفع وينخفض ، فيحاكي تارة عواء الذئب وطوراً مواء الهر

وكان ذلك اكثر مما يمكن نكيتا احتماله . . . انه لم يرهب الموت قط . وقد سار اليه يوم حكم عليه الملك يوحنا بالاعدام غير هياب ولا وجل . . وأما ان يرى ماليوتا بتلك الهيئة و يسمع تهكمه بتلك النغمة فكان اشد عليه

من الموت. وقد تمنى لو ان صاعقة انقضت عليه في تلك الساعة فسحقته من ان يرى ويسمع مثل ذلك وهو مقيد اليدين والرجلين لا يستطيع الى الدفاع عن نفسه سبيلاً . . فأنَّ انيناً محرقاً ولم يتكلم . .

وكان ماليوتا ينظر اليه وهو في منتهى الطرب والحبور . ثم رمى من يده الخنجر وانتصب واقفاً وقال وقد تغيرت نغمة صوته فجأة — دعني أفيك الدَّين الذي لك عليَّ في غياض الجاهلية . وعلى بعض رجالي في قرية الدب . وعلى غيرهم في منزل صديقك الاحمق موروزوف . .

ثم صر بأسنانه ورفع يده ليضرب الامير على وجهه . غير ان بوريس غودونوف وثب اليه فأمسك يده وقال — حذار من مثل هذا العمل . . فانما نحن هنا الآن لنأخذ اقرار الأمير لا لنعاقبه . فاذا لطمته فانه يضرب برأسه الحائط فيشقه ولا يبقى من نسأل ونستنطق

فزأر ماليوتا قائلاً — دعني أفيه دينه ولا تعترضني بشيء .

فأمسكه بوريس بكلتا يديه وهو يقول — تروَّ فيما انت فاعل . . فلن أدعك تجري شيئاً من هذا

وكان ماليوتا في تلك اللحظة قد أصبح كوحش ضار أبصر دماً فهاج وماج ولم يرد ان يفهم شيئاً . وحاول التملص من بين يدي بوريس ليهجم على فريسته فلم يتمكن . ونشب بين الاثنين عراك شديد ، كان مايوتا في اثنائه يهيج ويلعن ويتهدد ، وقد صدم في اثناء ذلك المشعل فقلبه ، وداسه بوريس بقدميه عمداً فانطفأ ، وأصبح الجميع فى ظلمة حالكة

وكأن ذلك أعاد الى ماليوتا رشده ، فصاح ببوريس وهو يتلذع غضباً — حسن . . فسأشكوك الى الملك لانك تدافع عن عدوه !

فأجاب بوريس — لك ان تفعل ما تشاء . . واما انا فسأفضي الى الملك بالحقيقة وأخبره بانك أردت ان تقتل الامير قبل الوقوف على اقراره مما يدل على انك تخشى ان يفتضح امرك و يطلع الملك على بعض جرائمك الخفية

فلم يجب ماليوتا بشيء . بل أسرع فخرج من الحجرة ثم من السجن وهو يشتم ويزمجر ، وقد أمر الجلاّد بالخروج معه فخرج ايضاً .. وانتهز بوريس هذه الفرصة فتقدَّم الى نكيتا وحلَّ قيوده ثم قال له همساً وقد ضغط على يده — لا تقنط من رحمة الله ايها الامير ، فعسى ان يرقّ الملك لك و يعفو عنك !

ثم انثنى عنه وخرج وقد أوصد الباب ، ولم يدرك ماليوتا الا عند الرتاج الخارجي ، فسلمه المفاتيح امام الحراس وهو يقول — انك خرجت ولم تقفل الابواب . . وقد يظن بذلك انك من مريدي الأمير ، وانك تريد ان تسهل له طريق الفرار . . .

وبقي الأمير نكيتا ممدَّداً على الأرض العارية في غياهب ذلك السجن الموحش وقد ساد السكون ، فلم يسمع هناك سوى ضربات قلبه وزفرات أنفاسه المتقطعة وهو في تلك الحالة الهائلة التي نترك وصفها لتصور القارىء اللبيب . .

* * *

وبينما كان ذلك يجري في السجن وقد انتهى الامر الى ما قدمنا كان الملك يوحنا جالساً في مخدعه مضطرباً ممتقع اللون وقد تسلطت عليه الافكار المزعجة . .وكان حادث الأمير نكيتا أهم ما شغل خاطره وقتئذ . . فقد كان متردداً بين ان يحكم عليه بالاعدام او يطلق سراحه . .

وكان الملك يشعر بميل خاص الى هذا الرجل ، وذلك لما رآه فيه وتحققه بنفسه من المزايا الفريدة التي لم يرها في غيره . . نعم ان الأمير لم ينتظم في فرقة رجال الحرس ليكون في جملة اخصاء الملك ، بل كان في كثير من الأحوال يناصبهم العداء ويدافع عن الابرياء بكل ما فيه من قوة وعزيمة . . غير ان الملك لم ير في كل ذلك ما يحمل على سوء الظن به . فكان في باطنه يرتاح اليه ويود قربه ولا يوجس شراً من جهته . . وقد أيقن ان نكيتا لن يخدعه ولن يخونه ، بل يحبه ويخدمه ويقدسه في غير رياء او مداهنة . وقد أعجبه منه على الخصوص اباؤه المجيب وكتمانه لكل امر يقوم باعبائه ونفوره من التمدُّح وعدم اكتراثه للمكافآت على انواعها . وكان في جرأته لا يجارى وفي صدقه لا يحاكيه احد من رجال الحاشية على الاطلاق ، فكان اذا سئل أجاب حالاً بالواقع من غير تمويه او مغالطة ، ولو كان في جوابه ما يقضي عليه بأشد العقوبات . . .

ولما خطرت للملك هذه التصورات شعر بالعطف الشديد على الأمير نكيتا وعزم ان يعفو عنه ويعينه في أعلى مراتب الشرف في البلاط . . ولكنه لم يلبث ان عدل عن هذا العزم واخذ يبحث في مخيلته عن هفوات الامير ويؤولها بحسب هواه . . فتراءى له ان ظاهر الامير ليس كباطنه . وانه قد نفر منه فلن ينضم اليه لانه يمقت رجال الحرس فكأنه يمقت الملك نفسه . وقد ألحق برجاله هؤلاء اهانات شتى وقتل منهم جمهوراً غير قليل وتصدى لمقاومة ارادة الملك وأنقذ ولي العهد لا غيرة على العرش بل مجاراة للنبلاء الخونة الذين يكيدون للملك ويفكرون في خلعه وتنصيب ابنه . . وقد يكون هو في طليعة هؤلاء الناقمين المتمردين . وقد يكثر عديدهم اذا بقي الامير

حباً . وقد ينحاز اليهم غيرهم من كبراء الامة ورجال الدولة ، ويقل أنصار الملك فتقل بذلك هيبته ويغلب اخيراً على امره . .

ولما خطر للملك كل ذلك لم يبق سبيل الى التردد فأيقن بأن الامير نكيتا مجرم وانه يستحق الاعدام ليكون عبرة لغيره من جماعة الامراء والنبلاء ، ويكون في ذلك حسم الداء قبل استفحاله ودفع الامر قبل وقوعه . . ولم يبطىء ان عين اليوم التالي أجلاً لانفاذ الحكم

ولكنه اراد ان يخفف عن الامير وطأة العذاب في هذا النهار ، فأرسل اليه الى السجن بالطعام والشراب من مائدته الخاصة ، وأمر بان يحل من قيوده حتى صباح اليوم التالي . وكان هذا تعطفاً خاصاً ندر اظهاره لغير الامير من المجرمين

ولكي يطرد الملك عن نفسه السآمة والافكار المزعجة امر فاحتشد الاخصاء والندماء ورجال الحرس وخرجوا وهو في طليعتهم الى البرية للصيد والقنص . وكانوا قد امتطوا صهوات الجياد وساروا الى الجهة التي أرادها

وكان الوقت ضحى والنهار دافئاً والسماء نقية . . وما هي الا ساعة او بعض الساعة حتى كان الركب قد انتشروا في بعض ضواحي قرية الكسندروفا . ثم تفرقوا وراء الصيد جماعات جماعات ، وكل يود ان يرضي الملك بمهارته وحذقه

الفصل السابع والعشرون

« الاعياد »

ولبث القوم لاهين بالصيد والقنص ساعات طوالاً وهم في سرور

وطرب . وقد نسي الملك هواجسه فلم يقلقه شيء ، وتشاغل بالصيد والمفاكهة وانبسطت نفسه فضحك كثيراً ومزح كثيراً . .

وانه لكذلك واذا بمشهد جديد قد استلفت بصره وزاده طرباً وانبساطاً. وذلك انه أبصر على الطريق أعميين يتوكآن على العصي . وكان احدهما كهلاً والآخر شيخاً بلحية طويلة بيضــاء . وقد ارتديا الاطمار البالية وحمل كل منهما على كاهله جراباً لجمع الصدقات . وكان يقودهما شابٌ طويل القامة مفتول العضل ، وقد ارتدى مثلهما الاطمار وحمل لهما بعض آلات الغناء كالمزمار والقيثارة

وكان الاعمى الكهل سائراً امام الشيخ ممسكاً اياه بيده وهما يسيران ويستدلان بعصيهما على سواء السبيل . وكثيراً ما كانا يكبوان ثم ينهضان فيشتمان دليلهما الشاب لانه تركهما وسار وحده

فلما أبصرهما الملك لم يملك نفسه من الضحك وهو كلما طال تأمله فيهما طابت نفسه وازداد طرباً . . وقام من ساعته فدنا منهما .وكان الاعمى الكهل قد سقط في حفرة كانت على الطريق وتلاه الاعمى الشيخ . ثم ما عتما ان خرجا منها وقد وحلت اطمارهما فامتلآ حنقاً على دليلهما واندفعا يلعنانه ويسبانه ، والملك ينظر ويسمع ويقهقه بأعلى صوته . ثم تقدم فسألهما — من اين والى اين ايها الرجال ؟

فاجابه الاعمى الكهل — اغرب من هنا ولا تتعرض لنا ! . .

فصاح به واحد من رجال الحرس الذين تبعوا الملك — اخرس ايها الاحمق ألا ترى من امامك ؟

فقال له الاعمى — انت احمق وابن أحمق ! . . فمن اين لنا ان نرى

وقد فقدنا بصرنا ؟ . . واما انت فلك من العيـون اربع الا اثنتين ، فتبصر القريب والبعيد وتميز الابيض من الاسود . . ومع هذا فلم تبصرنا ! . . فقل لي الان من هو الاعمى منا ؟ ومن هذا الذي امامنا ؟

فأشار الملك الى الحارس ان يصمت . ثم كرّر سؤاله على الاعمى بمزيد اللطف وقال — لا تعتب عليـه لانه لا يدري ما يقول . . فمن انتم والى اين تقصدون ؟

فقال — نحن رجال طرب نضرب في بلاد الله قاصيها ودانيها ، نروي الاحاديث والاخبـار والحكايات والاشعار ، فنسلي الاصحاب ونطرب الاحباب . . وقد كنا الاسبوع المنصرم في مدينة « ميروم » والان نريد قرية « الكسندروفا »

فقال الملك وقد أعجبه كلام الاعمى — وهل في ميروم من اصحابكم من هو نظيرك في سرعة الخاطر وجرأة الجنان والمهارة في هذه الصناعة ؟

فأجاب الاعمى بلا ارتباك — ان لنا في هذه المهنة اصحاباً كثيرين . ففي ميروم العم ميخا والخالة أوليانا والشيخ نيكيفور . . . وجميعهم يضحكون الثكلى ويُسَرُّون من كل همّ بنوادرهم واخبارهم . . ولو رأيتهم وسمعتهم يا سيدي لاستلقيت على قفاك وضحكت حتى المساء

فازداد الملك ارتياحاً وطرباً وقال في نفسه : « حقاً انهم رجال طرب فلا بأس من استدعائهم هـذا المساء ليسلوني بحكاياتهم ونوادرهم الهزلية ، فقد سئمت اخبار رواة هذه الجهات وأود ان أسمع غيرها . . »

ثم قال للاعمى — وهل تعرفون انتم من الحكايات والنوادر ما يشرح الصدر ويسلي الخاطر ؟

فتبسم الاعمى وقال — كيف لا ونحن أمهر اهل هذا الفن !.. ولكننا بسبب ذلك قد أصبنا مرة بمصيبة كادت تكون القاضية.. وذلك اننا دعينا الى بيت احد النبلاء فقصصنا على اهله في جملة ما قصصنا حكاية القائد المهذار وما جرى له مع زوجته من غرائب الاخبار.. وقبل ان نفرغ من الحكاية طردنا من ذلك البيت على أسوأ حال ولم يتصدّق علينا اهله بشيء من المتاع او المال.. ولما خرجنا علمنا ان البيت المذكور هو للقائد ستاريتسكي وقد روينا حكايته امامه ونحن لا ندري انه هو القائد المهذار بالذات

وما كاد رجال الحرس يسمعون هذا الكلام حتى قهقهوا طرباً وعلت بينهم اصوات الاستحسان ، لان القائد المذكور كان من النبلاء الذين يكرههم الملك وقد باتت ايامهم معدودة.. فكان كلام الاعمى سبباً لشماتة رجال الحرس وزيادة سرورهم

وقد ضحك الملك ايضاً وأثنى على الاعمى وقال له ولرفيقيه — سيروا الان في طريقكم الى القرية. فاذا بلغتموها انطلقوا حالا الى القصر وانتظروا عودتي.. واطلبوا ممن تصادفونه من الخدم ان يطعموكم ويسقوكم ويعطوكم أردية غير أرديتكم.. وقولوا لهم ان الملك نفسه قد أمر بكل ذلك.. وسأدعوكم مساء متى عدت من الصيد لأسمع حكاياتكم ونوادركم

واذ تحقق الاعميان انهما في حضرة الملك أجفلا وارتعدا ثم وقعا بوجوههما الى الارض وهما يقولان — ارحمنا ولا تعاملنا بعدلك ايها الملك العظيم !.. فاننا لفقد أبصارنا لم نعرف من انت !.. فلا تأمر بقطع رؤوسنا ولا تسمح باهانتنا ، بل تجاوز عن سيئاتنا واغفر لنا

فضحك الملك وطيب خواطرهما ثم انصرف عنهما . فنهضا واستأنفا السير ودليلهما امامهما يقودهما بيديه

وما زالوا سائرين ، وهم في كل دقيقة يكبو واحد ويقوم آخر ، حتى أدركوا انهم تواروا عن الابصار . فوقف أصغر الاعميين والتفت الى جميع الجهات ثم قال لرفيقه — لقد قمنا بتمثيل الفصل الاول احسن قيام . . فبورك فيك ايها العم كرشون ما أبرعك في تمثيل الاعمى . . ويلوح لي انك تعبت تعباً مفرطاً من كثرة التعثر والسقوط . . ولكن ما لي أراك كاسف البال كثير المواجس ! فهل ندمت على ما نحن عليه مقدمون ؟

فقال كرشون — ليس هذا ما يكربني او يخيفني . وقد صممت على العمل معك ، فلست براجع ولوكان في ذلك هلاكي . . واما الذي يهمني وقد أقلقني في هذه الايام على الخصوص فهو سر لم أكشفه لاحد بعد ، وربما أفضيت به اليك ايها الصديق ونحن بمأمن عن الرقباء

فقال برستن — وما عسى ان يكون هذا السرّ ؟ اطلعني عليه . فان كان هماً اجتهدت في تفريجه عنك ، او حزناً قاسمتك اياه

***

قال — اعلم ايها الصديق ان في قلبي حزناً عظيماً تولاني منذ عشرين سنة ولا يزال يتفاقم عليّ حتى منعني القرار وحرمني النوم والراحة والهناء . ومما زاده اشتداداً أني في كل هذه المدة الماضية لم أبح به لاحد ، لا في جهات نهر فولغا العظيم ولا في موسكو . وقد ثقلت الآن المساه . . وفيما انا فلم أعد أحتمل الكتمان . . وحاولت مراراً أن أعترفبي وقد حملت بين يديها

لعل في ذلك تخفيفاً لبعض اشجاني ، فلم أجسر . . اما الآن وقد صرت الى حالة يغلب ان اقضي فيها نحبي فأروم ان أروي لك الخبر لعلي أنال راحة بذلك . . فهيا بنا نقعد عند ذلك المنعطف فلا يرانا احد

فأجابه برستن الى طلبه وقال للدليل — اما انت يا توما فابتعد عنا واقعد هناك الى جانب الطريق وكن شديد الانتباه والتيقظ ، حتى اذا طرأ مفاجىء تنبهنا حالاً باشارة خفية . . ولا تنس انك أصم أبكم فاياك ان تفوه بكلمة

فقال توما — كن براحة من هذا القبيل فسأنفذ امرك بكل دقة

فانتهره برستن قائلاً — صه ايها الاحمق ! فلا تكلمنا ايضاً ، بل تعود الصمت التام لئلا تفسد علينا الامر

فسكت توما وانصرف عنهما فانبطح على الأرض وجعـل يراقب كل جهة

فقال برستن لرفيقه — نعم ان توما أحمق وبليد ولـكنه نعم الرفيق في مثل هذه المهمة ، لانه شديد العضل قويّ الساعد مخلص وأمين للغاية ، فان حدث لنا ما نكره فانه يهجم على الخطر قبلنا ويدافع عن حياتنا احسن دفاع . . وهات الآن ايها العم كرشوز فأخبرني بقصتك

قال — تعلم ايها الصديق اني لصٌّ وقاتل ، وقد ارتكبت من الجرائم في زماني مالا يعد ولا يحصى ، ولم أرحم احداً ممن كنت أظفر بهم . . وهكذا قضيت العمر في هذه الاعمال كما قضيته انت حتى الآن

فاتقدت عينا برستن غيظاً وعبس بوجوههما لفقه بهذا الـكلام المملّ وقال — واي عجب في ذلك ، فانما المظيم ! . . فانا لا تسمح باهانتنا ، بل تجأ

فقال كرشون – صدقت . وانا لا اعارضك في ذلك . وانما اردت ان اسألك ، هل تشعر انت على أثر كل فعلة بكرب يتولى نفسك ويقبض صدرك كما أشعر انا ؟

قال – بالله حسبك ايها العم كرشون من مثل هذا الكلام ، اذ ليس الآن وقته . . فانس الآن كل شيء ولا تدع للحزن سبيلاً الى نفسك ، لاننا الآن على طريق جهاد عظيم لابد فيه من الشجاعة والطرب معاً ، والا عدنا ونحن أخيب من القابض على الماء

قال – أصبت. فقد نسيت كل شيء الا امراً واحداً ليس في طاقتي اغفاله ، ولعلي اذا ذكرته لك يهون عليّ وَقرُهُ فأسلوه . . فقد كنت قبل عشرين سنة مضت واحداً من لصوص نهر فولغا ، وكان زعيمنا « دانيلو » الشهير ، ولم تكن انت قد ظهرت وقتئذ . وقد فعلنا هناك ما هو عنوان البسالة وآية الاقدام . فكنا نسطو على القوافل والمراكب فلا نبقي على احد ولا نبيب عن شيء . وكان الزعيم بعد كل حادثة يوزع الغنائم على الجميع فلا يدع احداً بلا نصيب . . وتتابعت السنون على مثل ذلك ونحن في تلك الجهات على أنعم حال واهنأ بال . الى ان زين لي شيطان الطمع ان انفرد عن العصابة احياناً وأسطو وحدي طمعاً في الحصول على ثروة لا يقاسمنيها احد . . و بهذا الفكر قمت ذات يوم فارتديت اطماراً كهذه وخرجت الى بعض الجهات . ثم كمنت في مكان وجعلت أرصد الطريق وأنا أعلل النفس وأمنيها . وقد انتظرت على هذه الحالة طويلا حتى أعياني الانتظار ولم أرَ احداً . . وخجلت ان أعود صفر اليدين فصممت ان أبقى في المكمن حتى المساء . . وفيما انا كذلك رأيت امرأة تسير على مسافة غير بعيدة عني وقد حملت بين يديها

صرة كبيرة . فأشرق وجهي سروراً ووثبت من موضعي وهجمت عليها أريد الصرة وانا أظن ان فيهـا ما يغنيني . . وكانت المرأة قد أبصرتني فذعرت وصاحت بملء صوتها فأسكتها بطعنة من خنجر كان في يدي أغمدته في قلبها ثم تناولت الصرة واقبلت الى الغابة وأسرعت ففتحتها فرأيت فيها . . . ماذا تظن اني رأيت ؟ . . رأيت طفلاً رضيعاً وكان بين الموت والحياة . . . فأظلمت الدنيا في وجهي وأقبلت على نفسي ألومها على هـذا المنكر . ثم خنقت الطفل وطرحته بين الادغال وعدت من حيث أتيت . وقد أثر هذا الحادث في نفسي اثراً شديداً فلم يصف لي عيش ولم يهنأ لي بال كل هذه المدة ، وانا كلما تمثلت هذه الفظاعة يقشعر بدني وتنقبض نفسي . وكان شبح المرأة وشبح طفلها قد لازماني فلم يفارقاني لحظة . . .

ثم صمت كرشون وهو يتأوه ولها برستن بافكاره . . وفيما هما كذلك سمعا طلقاً نارياً ، ورأيا باشقاً كبيراً مقتولاً قـد هوى من علٍ ووقع عند قدمي كرشون فأجفل ، والتفت برستن الى توما فرآه يشير اليهما بيده ، فقال لرفيقه — انس الآن ايها العم كرشون كل ما مضى ، فلسنا الآن لصين ، بل نحن أعميان ومهنتنا تفكيه الناس بالحكايات والنوادر . . وها قد أقبل بعض رجال الملك

فهزّ الشيخ رأسه وقال وهو ينظر الى الباشق المقتول — ان هـذا قد زاد في حزني وألمي ، لانه نذير السوء ومقدمة الشؤم [1]

فنظر اليه برستن وقال بلهجة الآسف — يظهر لي انك خائف ومتطير من هذه المهمة . . فأسألك ان تعود وأنا أسير وحدي

فقال كرشون — معاذ الله . وكيف أدعك تذهب وحدك وانا حي

---

(١) وذلك ان لفظة « كرشون » باللغة الروسية معناها « الباشق »

أرزق ؟ . . نعم اني حزين النفس وقد تشاءمت بهذا الباشق . . ولكني مصمم على الموت في هذا السبيل المقدّس الذي أرجو ان يكون كفارة عن ذنوبي . . وقد بقي امر واحد لا بدّ من أطلاعك عليه ايضاً قبل الشروع في العمل . . فهل تعرف قرية « البشارة » بقرب نهر فولغا ؟

قال — نعم أعرفها

قال — وهل تعرف بظاهر هذه القرية سهلاً اسمه الدائرة ؟

قال — وهذا ايضاً أعرفه

قال — وهل تذكر أنك رأيت في ذلك السهل شجرة سنديان كبيرة ؟

فأجاب برستن وعلامات القلق بادية على وجهه — نعم أذكر . . وقد قطعت الشجرة ولم يبق الا جذعها . . فما الذي تريده بكل هذه الاسئلة ؟

قال — أريد ان اقول لك اني لن أرى تلك الجهات بعد الان . ولم يعد يتاح لي ان أمتع الطرف بمياه نهر فولغا العزيز ، لاني أشعر باني ذاهب الى حتفي ولست بخارج من قرية ألكسندروفا حياً . . اما انت فقد يصادفك حظ أسعد مني فلا تنال بمكروه . فأسألك بعد قضاء هذه المهمة أن تنطلق الى جهات فولغا . فاذا وصلت الى قرية البشارة سر في جنح الظلام الى سهل الدائرة وابحث عن جذع السنديانة ، ومتى وجدته استقبل جهة مغرب الشمس وسر خمسين خطوة ، ثم احفر الارض فتجد كنزاً كبيراً لا تستطيع ان تحصيه ، وكنت قد طمرته في تلك البقعة قبل مصيري الى هذه الجهات وانضمامي اليك . . فاذا ظفرت به فهو لك وانت حر ان تتصرّف به كيف تشاء . ولكني ألتمس منك ان تخصص مقداراً منه للاحسان والصدقة عن نفسي ومقداراً آخر للكنائس والاديار . . . هذه هي حكايتي رويتها لك

ايها الصديق وانا أشعر بالطمأنينة قد دبّت الى نفسي و بدّدت بعض همومي

ولم يكد كرشون يتمّ كلامه حتى وصل اليهما بعض الفرسان من رجال الحرس ، فمروا من جانبهما وهم يضحكون و يصخبون . . وكان الاعميان قد قاما يمشيان في طريقهما الى القرية وتوما يقودهما ويبدي من الحركات المجونية ما يضحك الثكلى

الفصل الثامن والعشرون

« الحكاية »

وماكاد الاعميان ودليلهما يصلون الى اول المنازل في قرية ألكسندورفا حتى لقيهم مشعوذان يرقصان ويغنيان بأعلى الاصوات وفي ايديهما بعض آلات الطرب . فلما رأيا الاعميين ورفيقهما ازدادا ضحكاً ومجوناً ، ثم اقتربا منهم واخذا يعبثان بهم ويضحكان ، وقد انتهز احدهما فرصة وقال لاصغر الاعميين همساً — قد تأكد لنا ان الامير منذ خمسة ايام في السجن الكبير الذي تجاه منزل ماليوتا . . وغداً موعد عقابه

فقال له برستن — وهل كلكم هنا ؟

قال — نعم . وعلى أتمّ الاستعداد

ثم انقلب عنه وهو يضحك و يرقص و يغني بملء فيه



(ملاح روسي)

وظلّ الاعميان ودليلهما سائرين حتى وصلوا الى القصر ، فأقاموا في

بعض جوانبه يتثاءبون ويمزحون وهم ينتظرون امر الملك . وقد حمل اليهم خدم القصر شيئاً من الطعام والشراب ، فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً

ولما أقبل المساء عاد الملك من نزهته ، وقد أثر فيه التعب فانصرف تواً الى مخدعه . وما كاد يستقر به الجلوس حتى دخل عليه ماليوتاسكوراتوف وسلمه مفاتيح السجن حسب العادة . فاستخبره الملك عن الأمير نكيتا واقراره فأجاب — انه يا مولاي قد أقر بهجومه على رجال الحرس في منزل النبيل موروزوف وانه قتل منهم سبعة وأثخن في الامير الثاني فيازيمسكي . . ولكنه يأبى الاعتراف بالمكيدة التي دبرها لاغتيال جلالتك ولا يريد ان يدلنا على المكان الذي لجأ اليه موروزوف . وقد عزمت ان أنطلق اليه مرة أخرى في صباح الغد لأحمله بسائر ضروب العذاب والمثلة على الاعتراف بالحقيقة ، فلعله يذكر لنا اسماء غيره من اعداء المملكة ممن لهم يد في المكيدة

ولم يشك الملك هذه المرة في ان ماليوتا كاذب ومنافق . فنظر اليه شزراً وقال — ولكن نكيتا لا يمكن ان يكون كما ذكرت . . فلا تتعب نفسك بامتحانه ، وإياك ان تناله بسوء . . وقد صحت عزيمتي على أعدامه ليس لانه خائن كما تقول ، بل لانه يحتقرني ويأبى الانضمام الى حاشيتي

قال — وقد قتل من رجالنا جمهوراً كبيراً ودافع عن بعض الخونة من اصدقائه النبلاء . . فليس من الرأي ان نتركه وشأنه يفعل ما يشاء ويزرع الفتنة حيث يشاء . .

وقبل ان يفرغ ماليوتا من كلامه جاءت أنوفرفنا حاضنة الملك ، فوقفت

في باب المخدع ونظرت الى ماليوتا شزراً ثم قالت للملك — انك ياسيدي قد أرسلت اليوم الى هنا اعميين . . فما شأنهما ، وماذا تريد منهما ؟

فقطن الملك لهما وقال لحاضنته — ارسليهما الى هنا لأسمع شيئاً من حكاياتهما ونوادر اخبارهما ، فقد ظهر لي أنهما من مهرة هذا الفن

فقالت أنوفرفنا — وهل رأيتهما يا سيدي قبل الآن ؟ فاني في ريبة منهما . .

فأجفل الملك وقال — وهل ظهر لك منهما ما يحمل على مثل ذلك ؟

قالت — لا . وانما قلبي يناجيني بانهما يضمران سوءاً . فمن مجرد نظري اليها أدركت انهما على جانب عظيم من الدهاء والحيلة

فبهت الملك . ثم نظر الى حاضنته ولم يجب

ومضت هي في حديثها فقالت — قلت لك انهما شريران . نعم شريران كهذا الخبيث (وأشارت الى ماليوتا) فلا تدنهما منك . . ولكنك لا تستطيع بفضل هذا المحتال ان تميز الشيطان الرجيم من الرجل الفاضل البار مثل الامير نكيتا الذي أودعته السجن وتريد عقابه ، وهو نادر المثال لم يرتكب اثماً ولم يأت منكراً . غير ان هذا الوحش ماليوتا لا يزال يتهمه بامور هو بريء منها براءة الملائكة من شرور الناس . . فحذار ان تضيف الى مآثمك هذه الجريمة الجديدة ، فانها تعقبك اشدّ الندامة وتنغص عيشك . .

فاصفرّ ماليوتا لدى سماعه هذا الكلام وقال للملك — هل تأذن لي يا مولاي ان أنظر في شأن هذين الاعميين وأمتحن صدقهما ؟

فقال الملك — لا لزوم الى شيء من ذلك . فانا أمتحنهما بنفسي ولا أظنهما الا صادقين ، فهما أعميان ومهنتهما التسول وسرد الحكايات

والاحاديث الهزلية . . ومع هذا فسأكون على تمام الحذر . . فناولني الدرع والعكاز

ولما اخذهما لبس الدرع وارتدى فوقها ثوباً طويلاً ووضع العكاز الى جانبه في السرير . وكان لهذا العكاز طرف حاد من الحديد وقد طعن به الملك كثيرين ممن كانوا يسخطونه ويستوجبون نقمته السريعة

ثم قال الملك لماليوتا — اما انت فلا تذهب هذه الليلة الى منزلك بل اكمن في بعض الدهاليز مع نفر من الحرّاس ، فاذا حدث شيء او ارتبت من شيء وناديتكم تبادرون اليّ في الحال

فانحنى ماليوتا امام الملك ثم وضع المفاتيح تحت وسادته وخرج . وتبعته أنوفرفنا

وما كادا ينصرفان حتى أقبل الاعميان وهما يتوكآن على العصيّ ويتمتمان . ولما دخلا خرّا على وجوههما الى الارض ودعوا للملك بطول البقاء . . وكان برستن في اثناء ذلك قد فحص المخدع بلحظة واحدة ، فعرف ما حواه من الاثاث ، ورأى ان سرير الملك قائم في احدى الزوايا وتجاهه نافذة في الحائط لا تقفل الا بالزجاج . — لان الملك كان يحب ان تنفذ الى مخدعه اشعة الشمس عند اول شروقها

***

ثم اضطجع الملك في سريره وبقي الاعميان جاثيين امامه ينتظران امره ، وهو يراقبهما بأشد الانتباه . . ثم امرهما فوقفا وهما يدعوان له بالتأييد

ودوام السعادة . فقال لهما وهو لا يرفع نظره منهما – وفي اي زمان كفّ بصركما ايها الرجلان ؟

فأجاب برستن – منذ الطفولية يا سيدي . . فلا نذكر اننا أبصرنا الشمس في زماننا

قال – ومن علمكما الاغاني والحكايات ؟

قال – الله نفسه يا سيدي وذلك منذ أقدم الاحقاب

قال – وكيف ذلك ؟

قال – يقول شيوخنا ان السيد المسيح لما عزم على الصعود الى السماء تألب حوله المساكين والعميان والعرج والفقرآء والزهاد وقالوا له : « كيف تريد ايها السيد ان تتركنا بلا عضد ، ومن ترى يقوتنا ويكسونا ويسقينا من بعدك ؟ » . فاجابهم المسيح بقوله : « لا تجزعوا . فاني سأترك لكم جبل ذهب ونهر عسل وكروماً يانعة وسهولاً واسعة . وستكونون في أحسن نعمة واوفر سعادة » . فقال له تلميذه يوحنا اللاهوتي : « ولكن ذلك لا يفيدهم طويلاً . لان الاقويآء والاغنياء لا يلبثون ان يقهروهم ويغصبوهم تلك الخيرات . واما انت يا سيدي فاذا أردت بهم خيراً فامنحهم غير ذلك» قال : « وماذا ترى ان أمنحهم ؟ » . قال . « موهبة الغنآء والحديث . فاذا طافوا المدن والقرى يغنون أطيب الاغاني ويقصون شائق الاخبار فانهم يكسبون مورداً دائماً للحياة ، ويكسبون مع هذا المورد ارتياح الناس اليهم ومودتهم لهم » . فقال المسيح : « ليكن لهم بحسب ما اقترحت . وليكن كل من أحسن اليهم مباركاً الى الابد »

فابتسم الملك لهذا الكلام وقال – وماذا تعرفان من الحكايات ؟

فقال برستن — نعرف كثيراً يا سيدي. نعرف حكاية الجنية والفتاتين، وحكاية الطاوس ذي الريش الذهبي، وحكاية الحطاب العجيب، والفتى الجبار، والكتاب الازرق، واسير الهوى، والملك السعيد وغيرها.. فأيها تحب لافكه خاطرك وأبهج نفسك؟

قال — احك لي اولاً حكاية الطاوس

فحنى برستن رأسه ثم اندفع يسرد الحكاية المطلوبة، والملك يسمع ويعجب بمهارته وطلاقة لسانه. ولكنه مالبث ان قاطعه قائلاً — اني أعرف هذه الحكاية، فليحك لي رفيقك حكاية الكتاب الازرق

فانتبه كرشون كأنه هبّ من حلم وشرع في الحكاية. قال:

« زعموا ان كتاباً عظيماً طوله اربعون باعاً في عرض عشرين وفي مثل ذلك ثخناً يقال له الكتاب الازرق، وكان معجزة من معجزات الدهور وآية عجيبة من آيات الاكوان، قد نزل منذ عهد بعيد من السماء »

« وكانت السحب قبل ذلك قد حملته مدة طويلة وطافت به زمناً مديداً في الارجاء السماوية وقرأته الملائكة واعجبت بما فيه من الحكم الباهرات والايات البينات »

« وعرف ملوك الارض وعظماؤها بهذا الكتاب العجيب فاجتمع لرؤيته اربعون ملكاً واربعون اميراً واربعون كاهناً وجمهور لايحصى من النبلاء والعظماء والقواد ورجال الحرب والسياسة والناس على اختلاف الطبقات والمواطن »

« وتقدم احد المقدّمين بين الملوك، وهو الملك فلاديمر، فقال لرصفائه — من يستطيع منكم ايها الاخوان ان يقرأ لنا شيئاً من حكم هذا

الكتاب، ويقفنا على ما لا نعلم من امر الشمس والقمر والنجوم كيف نشأت، ولماذا تهبُّ الرياح ، وتنعقد السحب ، وكيف ابتدأ الليل والنهار ، وما هي غاية الانسان في هذا الوجود ، وكيف نشأ الامراء والملوك ؟ . . »

« سمع الملوك هذا الكلام ولم يحيروا جواباً ، وقد طال صمتهم، الى ان برز احدهم وهو الملك داود الحكيم وقال — انا لذلك ايها الاخ ! . . ثم تقدمَّ وساعده جميع الملوك والامراء ، ففتحوا الكتاب ووقفوا كأن على رؤوسهم الطير وقرأ الملك داود في الصفحة الاولى من الكتاب ما يأتي : تكوَّنت الشمس من اشعة وجه الله. والقمر من اشعة احدى عينيه . والنجوم من اشعة العين الاخرى . ونشأت الرياح من تنفسه . والسحب من افكاره . والنهار من تبسمه . والليل من غضبه . وخلق الناس في هذه الارض لتسبيح الله وتمجيده ، وقد نشأوا من آدم ، من رأسه الملوك ، ومن عظامه الامراء والنبلاء، ومن ركبتيه الفلاحون والعمال والمرأة . . »

« فلما سمع الملوك هذا الكلام حنوا رؤوسهم احتراماً للملك داود وقالوا — انك أوفرنا عقلاً وأغزرنا حكمة واكثرنا علماً ، فأقرأ الآن وقل لنا : من أعظم الملوك ، وما أعظم الممالك ، وأكبر البحار ، وأشهر الانهار ، وأقدس الجبال ، واهم المدن ؟ . . »

« فقال الملك داود بعد أن قرأ شيئاً في الكتاب — ان أعظم الملوك هو الملك الابيض ملك الشمال ، وأعظم الممالك هي مملكته الواسعة هي روسيا المقدسة لان فيها الكنائس الجامعة والاديار الكثيرة والعبادة الحقة، وإكبر البحار هو البحر المحيط ، وأشهر الانهار هو نهر الاردن الذي اعتمد فيه السيد المسيح ، وأقدس الجبال هو جبل ثابور الذي تجلى عليه وأظهر

مجده لتلاميذه ، وأهم المدن هي اورشليم مدينة السلام التي أشرق منها نور الدين فأنار المسكونة بأسرها وفيها قبر المعلم العظيم . . »

« وكان الملوك يسمعون كلام الملك داود بمزيد الاصغاء وقد طفحت وجوههم سروراً فقالوا — واقرأ ايها العزيز وقل لنا . . . . »

وأراد كرشون ان يتابع حديثه فقاطعه الملك وهو يظهر ميله الى الكرى فقال للاعميين وهو يتثاءب ويتمطى — وهـذه الحكاية سمعتها منذ بضع سنين . . . فهل تعرفان شيئاً من حوادث القديسين وأخبار النصرانية في عهدها الاول ؟

فقال برستن — كيف لا ؟ . . فاننا نعرف حكاية ألكسيس رجل الله ، ويوسف الصديق ، والفتيان الثلاثة ، وأصحاب الكهف ، وغيرها . .

قال — فقصَّ عليَّ اذاً حكاية اصحاب الكهف

فانحنى برستن ثم انتصب وشرع في سرد الحكاية ، وكان كلامه فيها أنشاداً ، قال :

(*) « حدث ذلك في القرن الثالث بعد المسيح ، في عهد الملك داسيوس ملك الروم ، وكان يعبد الطواغيت وهي الابالسة والاصنام ويذبح لها . وكان ينزل المدن والقرى فلا يترك فيها احداً مؤمناً بالله الا فتنه حتى يعبد الاصنام . . ونزل يوماً مدينة أفسوس ، وكان فيها قوم على دين المسيح يعبدون الله . فاتخذ شرطة من الكفار من اهلها يتتبعون اهل الايمان في اماكنهم . فمن وقع به الملك خيره بين القتل وعبادة الاصنام . فمنهم من

(*) اعتمدنا في كتابة هذه الحكاية على بعض مؤرخي العرب

يرغب ومنهم من يأبى فيقتل . ثم يؤمر بأجسادهم ان تعلق على سور المدينة وعلى كل باب من ابوابها »

« واتفق ان سبعة فتيان من ابناء البطارقة والاشراف خرجوا ذات يوم لينظروا الى المعذبين من اهل المدينة . ففتح الله أبصارهم فكانوا يرون الرجل اذا قتل هبط اليه الملائكة من السماء وارتقوا بروحه . فآمنوا في الحال وجعلوا يتضرّعون الى الله و يقولون : « ربنا رب السماوات والارض . لن ندعو من دونه احداً . . اللهمّ اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وادفع البلاء والغمّ عن الذين آمنوا بك . . »

« وانهم لكذلك اذ أدركهم الشرطة ، وكانوا قد دخلوا في مصلى لهم وسجدوا على وجوههم يبكون ويتضرعون الى الله ، فساقوهم الى الملك . فقال لهم : « ما منعكم ان تعبدوا آلهتنا ؟ فاختاروا أما ان تعبدوا ما نعبد او أقتلكم ! » . فقال مكسيمينانوس وهو اكبرهم : « ان لنا الهاً ملأت السماوات والارض عظمته لن ندعو من دونه الهاً . اما الطواغيت فلن نعبدها ابداً . فاصنع ما بدا لك . . »

« فامر الملك فنزع منهم اللبوس الذي كان عليهم من لبوس عظمائهم وقال : « أن فعلتم ما فعلتم فاني سأنزل بكم عقوبتي . وما يمنعني ان أعجل ذلك الا حداثة سنكم . فلا أحبّ ان أهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تتذاكرون فيه وتراجعون عقولكم . . »

« وخرج الملك بعد ذلك من أفسوس لبعض شؤونه . وعلم الفتية السبعة بذلك فاجتمعوا وائتمروا ان يأخذ كل منهم نفقة من بيت ابيه» فيتصدقوا منها ثم يتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة

فيمكثون فيه ويعبدون الله ، حتى اذا عاد داسيوس أتوه فيصنع بهم ماشاء..
فلما جنهم الليل خرجوا الى الجبل وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له ملكوس .
فكان يبتاع لهم طعامهم من المدينة وكان من أجملهم وأجلدهم . وكان اذا دخل
المدينة لبس ثياب المساكين واشترى الطعام وتجسس الاخبار . . ولبثوا
كذلك الى ان عاد الملك وعلم بامرهم. وقد ألقى ابليس في نفسه فأمر بالكهف
فسد عليهم حتى يموتوا جوعاً وعطشاً . وقد توفى الله ارواحهم وفاة النوم »

« وان رجلين مؤمنين في بيت الملك علما بالامر فكتبا شأن الفتية
وأسماءهم وأنسابهم في رقيم وجعلاه في تابوت من نحاس وجعلاه في البنيان على
باب الكهف . . وتنوسي امر الفتية . وناموا ثلاثمئة سنة . . الى ان كان
عهد الملك ثاودوسيوس وكان من اهل التقى والصلاح . وقد تحزب الناس
في ملكه احزاباً . فمنهم من يؤمن بالله ويعلم ان الدينونة حق ، ومنهم من
يكذب . فحزن حزناً شديداً لما رأى اهل الباطل يزيدون ويظهرون على
اهل الحق ويقولون . « لا حياة الاّ الحياة الدنيا . وأنما تبعث الارواح
ولا تبعث الاجساد . . »

ولما قال برستن ذلك اختلس نظرةً الى وجه الملك فرآه قد أطبق
أجفانه . فتبادل وكرشون النظر ثم مضى في حديثه وهو لا يغير نغمته ، قال :

« ثم ان الله الرحيم أراد ان يظهر الفتية اصحاب الكهف ويبين للناس
شأنهم ويجعلهم آيةً ليعلموا بها ان الساعة آتية لا ريب فيها . . فألقى سبحانه
وتعالى في نفس رجل من ذلك الجبل ان يبني فيه حظيرةً لغنمه . فاستأجر
عاملين فجعلا ينزعان الاحجار التي سد بها باب الكهف ويبنيان بها تلك
الحظيرة حتى فرغت وفتح الباب على الفتية . وأذن الله ذو القدرة والعظمة

والسلطان ان يقوموا، فجلسوا فرحين مستبشرةً وجوههم طيبة انفسهم. وقد سلم بعضهم على بعض وهم كأنهم استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون فيها اذا اصبحوا من ليلتهم التي يبيتون فيها. ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون، لايرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء يكرهونه، انما هم كهيئتهم حين رقدوا، وهم يرون ملكهم داسيوس الجبار في طلبهم»

«فلما قضوا صلاتهم قال لهم مكسيمينانوس: «ان الملك سيطلبنا اليوم او غداً فيجب ان نظل ثابتين في ايماننا». ثم قال لملكوس: «انطلق الى المدينة فاسمع ما يقوله الناس في شأننا، ولا تشعرنّ بنا احداً، وابتع لنا طعاماً وأتنا به فانه قد نالنا الجوع»

«فأخذ ملكوس الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ دراهم من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع الملك داسيوس وانطلق خارجاً حتى اتى باب المدينة مستخفياً يصد عن الطرق تخوفاً من ان يراه احد من اهلها فيعرفه فيذهب به الى داسيوس الطاغية. ولم يشعر ان داسيوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنه.. فلما رأى ملكوس باب المدينة رفع رأسه فرأى فوق الباب علامة الصليب، فعجب وجعل ينظر اليها مستخفياً. ثم ترك ذلك الباب وتحول الى باب آخر من ابوابها، فرأى مثل ذلك. فخيل اليه ان المدينة ليست بالتي كان يعرفها. ورأى ناساً كثيرين فلم يعرف منهم احداً. فجعل يمشي ويتعجب منهم ومن نفسه وهو حيران او كأنه في حلم..»

«ثم دخل المدينة وسار في سوقها فسمع كثيرين يذكرون الله ثم المسيح، فزاده ذلك عجباً وحيرة وجعل يقول في نفسه: «ما أدري ما هذا.. أما عشية امس فما كان على وجه الارض انسان يذكر المسيح الا

قتل، واما اليوم فأسمع كل انسان يذكر هذا الاسم ولا يخاف » . ثم لقي فتى من اهل المدينة فسأله عن اسم المدينة فقال : « أفسوس » . فقال في نفسه : « لعل بي مساً او أمراً أذهب عقلي . . »

ثم دنا من الذين يبيعون الطعام ، فأخرج الدراهم التي كانت معه ، فأعطاها رجلاً منهم وطلب طعاماً . فأخذها الرجل ونظر الى ضربها ونقشها وهو يعجب منها . ثم طرحها الى رجل من اصحابه ، فنظر اليها . . ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل وهم يعجبون منها ويقولون : « لا شك ان هذا الفتى قد أصاب كنزاً ! . . » . فلما رآهم في مثل ذلك فرق فرقاً شديداً وهو يظن انهم فطنوا به وعرفوه وانهم لا يلبثون ان يحملوه الى داسيوس . فقال لهم : « اقضوا لي حاجتي فقد اخذتم مالي ، والا فأمسكوا طعامكم فلا حاجة لي فيه » . فقالوا له : « من انت وما شأنك ؟ انك لقد وجدت كنزاً من كنوز الاولين وتريد ان تخفيه عنا . . انطلق معنا وشاركنا فيه وإلا سلمناك الى السلطان وهو أدرى منا بمعاقبتك » . فأطرق ملكوس لا يدري مايقول . فلما رأوه لا يحير جواباً اخذوا كساءه فطوقوه في عنقه واندفعوا يقودونه في سكك المدينة مكبلاً حتى سمع به كل من فيها واجتمع عليه الناس صغيرهم وكبيرهم وهم يقولون : « ما هذا الفتى من اهل المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه . . » . وكان ملكوس مستيقناً ان اباه واخوته واهله بالمدينة ، وكلهم من العظماء ، وانهم سيأتونه اذا سمعوا . . ولكنه كان متعجباً لانه عشية امس كان يعرف اكثر اهل المدينة ، ولا يعرف اليوم منهم احداً . . »

وعاد برستين يختلس النظر الى الملك ، فرآه نائماً وسمع غطيطه . فأشار الى

كرشون بيده ، فتقدم خطوتين الى الامام ، وواصل بر-تين الحكاية فقال :

« وانطلق الناس بملكوس الى رئيسي المدينة اللذين يدبران امرها ، وقـد سار بينهم وهو يقول : « اللهم أله السماء والارض ! أفرغ عليّ اليوم صبراً وأولج معي روحاً منك تؤيدني به عند داسيوس الجبار ! » . ثم جعل يبكي ويقول : فرّق بيني وبين اخوتي ! . . ياليتهم يعلمون ما لقيت وأين يذهب بي ! . . وقد كنا توافقنا ان نكون معاً ، لا نفترق في حياة ولا موت وأن لا نكفر بالله ولا نعبد الطواغيت من دون الله عزّ وجل . . . . »

« ولما وصل الناس بملكوس الى الحاكمين ونظرا الى الدراهم قال له احدهما : « اين الكنز الذي وجدته يافتى ؟ . . فهذه الدراهم تشهد عليـك انك قد وجدت كنزاً ! » . فقال ملكوس : « ما وجدت كنزاً كما يدّعون ولكن هذه الدراهم دراهم آبائي ونقشُ هذه المدينة وضربها » . قال : « من انت؟ » . قال: « اني من اهل هذه المدينة » . قال : « من ابوك ومن يعرفك بها ؟ » . فأنبأهم باسم ابيه. فلم يجدوا احداً يعرفه ولا اباه . فقال له الرئيسان: « انت رجل كذاب لا تخبر بالحق ! » . فلم يدر ملكوس ما يقول . وقـد نكس رأسه الى الارض . فقال بعض من حوله : « هذا الرجل مجنون » . وقال غيره : « ليس بمجنون ولـكنه يحمق نفسه عمداً لكي يفلت منا » . فقال له احد الرئيسين : « وهل تظن أننا نصدق أن هـذا مال ابيك ، ولنقش هذه الدراهم وضربها اكثر من ثلاثمائة سنة ، وانت غلام شاب ؟ فهل تظن انك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شمط كما ترى ، وحولك سراة اهل المدينـة وولاة امرها ، وخزائن هذه البلدة بايدينا وليس عندنا من هـذا الضرب درهم ولا دينار ؟ . . وأني لأظنني سآمر بك فتضرب وتعذّب عذاباً شديداً

ثم أوثقك حتى تقرّ بهذا الكنز الذي وجـدت ! » . فقال له ملكوس : « أنبئوني عن شيء أسألكم عنه ، فان فعلتم صدقتكم الخبر » . قالوا : « سل لا نكتمك شيئاً » . قال : « فما فعل الملك داسيوس ؟ » . فقالوا له : « لسنا نعرف اليوم على وجه الارض ملكاً بهذا الاسم . وقد كان منـذ ثلاثمائة سنة وهلك » . قال : « فوالله ما يصدقني احد من الناس بما اقول . . لقد كنا فتية الملك . . وانه أكرهنا على عبادة الاوثان والذبح للطواغيت ، فهربنا منه عشية أمس فنمنا ، فلما انتبهنا خرجتُ لاشتري لاصحابي ولي طعاماً وأتجسس لهم الاخبار ، فاذا انا كما ترون . . فانطلقوا معي الى الكهف الذي في الجبل أركم اصحابي »

« فلما سمع الرئيسان ذلك قالا : « يا قوم لعلّ هذه آية من آيات الله عزّ وجلّ جعلها لكم على يدي هذا الفتى . فانطلقوا بنا معه ليرينا اصحابه كما قال » . ثم سارا بملكوس وفي اثرهم اهل المدينـة كبيرهم وصغيرهم نحو اصحاب الكهف لينظروا اليهم . . . »

وفي هذه اللحظة رأى برستن من النافذة ضياء بعيداً ، فتفرّس فيه ملياً فعرف ان رجاله قد بدأوا بالعمل وأضرموا النيران في بعض جوانب القرية ومنازلها ، فخاف ان يشتدّ الحريق ويحدث في القرية هياج عظيم قبل ان يتوصل الى مفاتيح السجن ، فأراد ان يدنو من الملك ليأخذها من تحت وسادته ولكنه خشي ان يتحرّك من مكانه لئلاّ يتغيّر صوته . فأشار الى كرشون بالاسراع ، فتقدم كرشون خطوتين اخريين ووقف يتأمل وهو يشجع نفسه ، وواصل برستن الكلام فقال :

« اما الفتية اصحاب الكهف فلما رأوا ان رفيقهم ملكوس قد احتبس

عنهم بالطعام عن القدر الذي كان يأتيهم فيه ظنوا انه قد اخذ وذُهب به الى الملك داسيوس . . . وانهم لفي مثل ذلك اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل قادمة اليهم ، فظنوا ان رسل الجبار داسيوس قادمون ليقبضوا عليهم ، فقاموا الى الصلاه . . واذا بملكوس قد دخل عليهم وهو يبكي . ثم أخبرهم بخبره وقصَّ عليهم المسألة . فعرفوا عند ذلك انهم كانوا نياماً باذن الله تعالى ذلك الزمان كله ، وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث . . . ثم دخل على اثر ملكوس رئيسا المدينة فرأيا تابوت النحاس وكان لا يزال مختوماً ، فدعوا رجالاً من عظماء اهل المدينة وفتحا التابوت ، فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً فيهما : « ان مكسيمينانوس وملكوس ومرتينيانوس وديونيسيوس ويوحنا وسرابيون وقسطنطينوس كانوا فتية هربوا من ملكهم داسيوس الجبار مخافة ان يفتنهم عن دينهم ، فدخلوا في هذا الكهف . فلما أخبر بمكانهم امر بالكهف فسدَّ عليهم بالحجارة . . »

« فلما قرأ الناس ذلك عجبوا وحمدوا الله الذي أراهم آية البعث فيهم . ثم دخلوا على الفتية الكهفَ فوجدوهم جلوساً ووجوههم مشرقة ولم تبلَ ثيابهم . . فخرَّ الرئيسان والذين كانوا معهما سجداً لله تعالى . وبعثوا في الحال بريداً الى الملك ثاودوسيوس بالخبر ، فجاء سريعاً واعتنق الفتية وبكى . . »

ورأى برستن ان الحريق في القرية يزداد اشتعالاً ، فمدَّ يده الى كرشون واشار الى الحريق ثم الى الملك وقال :

« فقال الفتية لثاودوسيوس : « نستودعك الله ونقرأ عليك السلام ونعيذك بالله من شرّ الجنّ والانس . . » ثم رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفي الله ارواحهم . وقام الملك فجعل ثيابه عليهم وأمر ان يجعل لكل

واحد منهم تابوت من ذهب . فلما امسوا ونام أتوه في المنام وقالوا : « أنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ، ولكنا خلقنا من التراب والى التراب نصير . فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله . . » . فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج ، فجعلوا فيه ، وبنى على باب الكهف بيتاً للعبادة ، وعين للفتية عيداً عظيماً يعيد كل سنة . . »

وقبل ان يفرغ برستن من هذا الكلام مدّ كرشون يده ليسحب المفاتيح.. وفي هذه اللحظة فتح الملك عينيه فقابل نظره نظر كرشون وهو ماد يده ، فصاح به صيحة عظيمة ، وتناول العكاز من جانبه فطعنه به في صدره ، فخرّ المسكين على الارض والدم يتدفق منه . . وفي الحال بادر ماليوتا سكوراتوف الى المخدع وتبعه رجاله . ولما دخل هجم على برستن ، فلكمه هذا في صدره لكمة شديدة أطارت صوابه . ثم وثب الى النافذة فكسر زجاجها وقفز منها بأسرع من البرق الى الخارج ناجياً بنفسه

وكان ماليوتا قد عاد الى رشده فصاح برجاله — امسكوا اللص الهارب وسدوا عليه جميع الطرق ! . .

فأسرع بعض الرجال ونزلوا الى حديقة القصر واخذوا يبحثون

الفصل التاسع والعشرون

« النجاة »

اما كرشون فتقدّم اليه بعض رجال الحرس وأنهضوه ، فوقف مطأطئ الرأس والدم يسيل من صدره . وكان الملك يتأمل في وجهه ويتعجب ثم

قال له — قل لي ايها اللص الشرير من انت ومن أرسلك اليّ بهذا العزم ؟

فقال كرشون برباطة جأش — لا أخفي عليك ايها الملك اني أردت ان أسرق مفاتيح خزينتك . . ولا مأرب لي غير هذا

ولم يشك الملك في ان الاعمى صادق هذه المرة ، وانه ورفيقه انما تآمرا على سرقة الخزينة لاغير ، فقال له وهو يستشيط غضباً — وهل بلغت منك الجسارة الى هذا الحد ؟ . . فقل لي من انت واين رفقاؤك ؟

فأجاب كرشون وهو يحاول اطالة الكلام ليتمكن برستن من الفرار — العفو ايها الملك العظيم ! . . فانا احد فقراء الناس . . واما رفقائي فهم الليل الحالك و . . .

فقاطعه ماليوتا وهو يضغط بيده على صدره من شدة الم اللكمة — كف الهذيان ايها الاحمق . . فستحدثنا غداً عن رفقائك وانت في موقف العذاب ساعة نفقأ عينيك ونسلخ جلدك . .

ثم تفرس فيه ملياً وقال — يخيل الي اني رأيت هذه الهيئة الممقوتة قبل الان . ولكني لا اذكر اين ومتى . .

فضحك كرشون وحنى امامه ماليوتا وهو يقول — أجل ياسيدي فات تعرفني حق المعرفة . . وقد تقابلنا في غيض الجاهلية منذ بضعة ايام فقط .

فتفرس ماليوتا من شدة الغضب وأسرع فأمر رجاله ان يأخذوا الشيخ ويتقصروا في أمره ملياً

فقال الملك لماليوتا — اعتنوا به ولا تدعوه يموت تحت الامتحان

والمذاب ، فاني عازم ان أختار له بنفسي نوعاً من العقوبات جديداً رائعاً ليموت فيه شر ميتة . . نخذه من هنا ثم عد الي

فقال ماليوتا لكرشون - اشكر جلالة الملك ايها الاحمق فانه أمدَّ أجلك بضعة ايام اخرى . . .

ثم خرج به وفي اثرهما رجال الحرس

* * *

واما برستن فكان قد اغتنم جلبة الحراس واحتشاد الجماهير الى مواضع الحريق وفر من حديقة القصر وهو يجري كالنعام الجافل ملتحفاً بحجاب الظلام . . وقادته قدماه الى ساحة السجن فلم ير هناك احداً . وفيما هو حائر في امره لا يدري ماذا يفعل ، برز اليه فتى عرفه للحال انه من رجاله ، وهو المشعوذ الذي لقيه مع رفيقه عند دخوله الى القرية . . فهذا لما أبصر الزعيم دنا منه وقال - قد قتلت السجان فأين المفاتيح ؟

فاجاب برستن بحزن - قد خاننا القدر وخفق مسعانا ، فلم نظفر بالمفاتيح وخسرنا العم كرشون . . فاجمع رجالنا وغادروا هذه الجهات بما أمكنكم من السرعة قبل ان يدركنا الخفراء والجنود

وانه لفي هذا الحديث اذ رأى شاباً آخر يدنو اليهما فعرفه انه توما ، فسر في داخله وقال له - أسرع فأخبر الرفقاء ان يسبقونا الى السنديانة العوجاء

فحملق فيه توما وقال - والامير ؟ . . أفلا تريد انقاذه ؟

قال - وكيف السبيل الى ذلك وقد فقدنا العم كرشون ولم نفز بمفاتيح السجن ؟

فضحك توما وقال — ولكن ما حاجتنا الى المفاتيح؟.. فالسجن مفتوح

فلم يتمالك برستن ان تبسم تبسم الاستبشار وقال — ومن فتحه؟

قال — انا

قال — وكيف فعلت ايها الجبار؟

قال — لم أفعل شيئاً.. بل جئت الى هنا لا تأمل ضخامة هذا السجن، فرأيت السجان مطروحاً على الأرض بلا حراك، فدنوت من الباب لأجرب مناعته، ثم دفعته بكتفي دفعتين ورفسته برجلي مرة فقط ففتح

نخفق قلب برستن سروراً لتيقنه بلوغ الأمنية. فوثب الى توما فضمه الى صدره وقبله في وجهه ثم قال له — اتبعني اذاً لننقذ الأمير.. واما انت (يريد الفتى المشعوذ) فلا تبرح مكانك وارصد كل حركة لئلا يداهمنا احد من الحراس او الجنود..

ثم التفت برستن يمنةً ويسرةً. واذ لم ير خطراً يتهدده دخل الى السجن ومعه توما. ولما كان للسجن بابان آخران داخليان رفسهما أيضاً توما فانفتحا بأكثر سهولة لانهما كانا أقل مناعة من الباب الخارجي.. ودخل برستن وهو يكاد ينقطع نفسه من شدة سروره. ولما وصل الى حيث كان الأمير خاطبه قائلاً — هيا يا ايها الامير؟

وكان نكيتا قد أفاق على صوت فتح الابواب، فظن ان مليوتا ورجاله قد جاؤوا ليقودوه الى المنفى فقال — وهل بدأ الصباح؟.. ام انت يا ماليرتا قد جئت لتعذبني قبل ان تجيء لتشفي ما بقي من غليلك؟.. ولكن لا بأس فافعل ما انت فاعل. فانا اريد الموت واستقبله باسماً لانه يخلصني من هذا الوجود مفعماً شراً وفساداً!

فقال برستن — لست انا ماليوتا .. بل انا الرجل الذي أنقذته من الموت !.. ولكن بالله عليك ايها الأمير ان تسرع لنخرج من هنا

قال — فمن انت اذاً ؟ اني لم اعرف صوتك !

قال — لا عجب في ذلك فستعرفني .. اما الآن فهلم سريعاً

فلم يجب الأمير بشيء لانه ظن ان برستن هو احد رجال ماليوتا وقد جاء ليثير غيظه بمثل هذا التهكم

وكان برستن قد عيل صبره فقال — أفلا تصدقني ايها الأمير ؟.. اذكر قرية الدب وغياض الجاهلية !.. فانا برستن

ولم يكد هذا الاسم يقرع سمع الأمير حتى استوى في مكانه ، وقد طفح قلبه سروراً وحنت نفسه الى الحرية والحياة وتجلت في مخيلته صورة هيلانة ، فكاد ينهض قائماً ويتبع برستن .. غير انه تذكر قسمه للملك ، فانقبض صدره وجمد الدم في عروقه وقال — لا . لا تقدر ان أخرج من هنا ، فاني قد أقسمت للملك على الطاعة لأوامره وعدم الفرار من احكامه ، فلن أحنث بيميني

فارتاع برستن وقال بحدة — ولكن الوقت لا يساعدني على الأخذ والرد معك طويلاً ، فان رجالي ينتظروننا على مثل جمر ، وكل دقيقة تمضي قد تفضي بنا الى التهلكة . وقد عرفت ان غداً موعد تنفيذ الحكم فيك . فقم الآن وعجل بالخروج من هذا المكان مادام نجم التوفيق ساهراً على حياتك

فتنهد الأمير وقال برنة حزن — لا يمكن ان يكون هذا . فاخرج وحدك ودعني وشأني ، والله المسؤول ان يتولى عني مكافأتك

فحار برستن في امره وقال — أفتسخر منا اذاً ايها الأمير ؟ اني قد أحرقت القرية لاجلك وأهلكت أعز رفيق لي ، وربما هلك أيضاً كثيرون غيره من رجالنا . ومع هذا فانت ترفض النجاة وتؤثر البقاء في السجن ؟ ان ذلك لمن اغرب الغرائب . . والآن قل لي نهائياً : هل تريد ان تخرج معنا من هنا ؟

فاجاب نكيتا بلا تردد — لا أريد . .

ثم اضطجع على الارض وهو لا يزيد على قوله شيئاً

فقال برستن لتوما — أخرجه من هنا على الرغم منه ، لأن الوقت لا يسمح لنا باضاعته في مثل هذا الجدال

ثم وثب هو أيضاً الى الأمير . وقبل ان يتمكن من النطق بكلمة سدّ فه سدّاً محكماً . وكان الجوع والضعف واضطراب البال قد أثرت في الأمير كثيراً فلم يستطع المقاومة . فلفه برستن وتوما بثوب من امتعتهما وحمله توما على ظهره وخرجا به من السجن . ولما التقيا اللصّ (المشعوذ) امره برستن ان يسبقهما ويجمع الرفقاء بظاهر القرية ، وواصل هو وتوما المسير بمنتهى الحذر والاحتراس

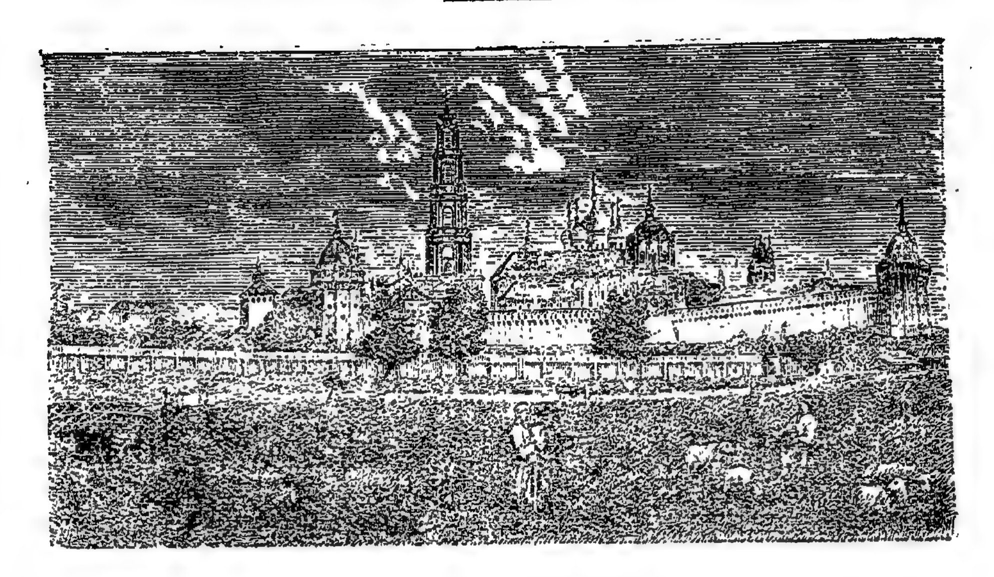
وفيما هما كذلك أبصرهما بعض رجال الحرس فسألوهما من يحملان .

فقال برستن باهتمام — رجلاً راح طعاماً للنار . .

ولما كادا يخرجان من القرية استوقفهما احد الخفراء . فوثب اليه برستن فطعنه بخنجره فأرداه قتيلاً . وسار بعد ذلك وهو لا يكاد يطأ الأرض بقدميه تيهاً واعجاباً بنفسه . . وما انبثق الفجر حتى كان اللصوص قد خرجوا جميعاً من قرية الكسندروفا ، ولم يفقد منهم الا العم كرشون

الفصل الثلاثون

مكسيم



دير الثالوث الاقدس من أعظم الاديار الروسية وأقدمها

تركنا مكسيم بن ماليوتا سكوراتوف وقد غادر بيت ابيه وخرج تحت جنح الظلام من قرية الكسندروفا ، يتبعهُ كلبهُ بويان وهو يطفر مسروراً لأنه اتيح له أن يفلت من مربطه ويلحق بسيده. ولم يكن مكسيم في رحيله هذا يقصد جهة معلومة أو غاية خاصة بل كان جل اهتمامه ان يبتعد ما امكن عن رجال الحرس، فلا يعود يرى اعمالهم البذيئة وتماديهم في الغي والطغيان وأيقاعهم بالشرف والفضيلة . وكان في أول خروجه من القرية يجد السير خوفاً من أن يدركه رسل ابيه فيرغموه على العودة . ولكنه بعد أن تحقق نجاح عمله اخذ يسير سيراً معتدلاً قاصداً الى الجهات الجنوبية من البلاد وهو يبتهل الى الله أن يلهمه ماذا ينبغي له أن يفعل

ولما طلع الفجر وقف جوادَهُ وأخذ يتأمل في احواله وقد مرّت امامه تذكارات شتى وتجلت له صورة والدته وهي حزينة جداً لفراقه لانه تركها بغتة دون ان تراه وتباركه . فبكى بدمع مدرار . ثم عاود المسير وقلبه مشتعل بنيران الاحزان . وكان في طريقه غابة كثيفة فسار فيها وهو لا يعرف شيئاً من هذه الجهات لانه لم يطأها قبل الان . . ولما نصف النهار أبصر في سفح جبل امامه ديراً كبيراً تحيط به بقعة فسيحة اكتست بكل نوع من المغروسات والاشجار . فشعر مكسيم بميل شديد الى دخول هذا الدير وقال في نفسه : « هذا افضل مكان استطيع أن ألجأ اليه بضعة أيام فلا يراني احد ولا ينم عليّ احد مهما بالغ والدي في البحث والاستقصاء . . ولا بد أن ألاقي أيضاً هنا راحة لقلبي المتألم وتعزية لنفسي الحزينة . . »

واذ خطر له هذا الفكر سدد مسيره الى جهة الدير . ولما بلغه طلب من بعض الرهبان الذين صادفهم في الباب أن يأذنوا له في مواجهة الرئيس . ولم يكن الا القليل حتى [illegible]ناه رئيس الدير وكان شيخاً طاعناً في السن اشتعل و[illegible] وله لحية كبيرة بيضاء [illegible] تنبئ [illegible] ودعة تامة وصلاح كبير . فحياه مكسيم بلطف وخشوع [illegible] وطلب أن ينفرد به ليخبره بحاله . فبش له الرئيس وأمر بعض الرهبان أن يعنوا بجواده وكلابه . ثم سار واياه في دهليز الدير حتى وصلا الى الكنيسة

ولما دخلاها جثا مكسيم على ركبتيه ولفظ صلاة حارة أثرت فيه تأثيراً خشوعياً لم يشعر بمثله مدة حياته السابقة كلها . . وفيما هو كذلك وقع بصره على صورة « الابن الشاطر » فارتعد وخيل اليه أنه بفراره من منزل والديه انما يشبه الابن الشاطر . غير أنه لا يشعر بوخز ضميره . فهو اذاً لم يأت

منكراً ولم يسيء الا الى والدته لانه خرج ولم تره . . ولكنه لم يستطع ان يفعل غير هذا . .

ولما مضى عليه في هذه التأملات بضع دقائق التفت الى الرئيس وقال — باركني ايها الاب الصالح وارحمني . . لانه يلوح لي ني خاطيء كبير . ولكني لم أفعل ما يبكتني عليه ضميري ولا ما يسخط الله عليّ

فأجابه الرئيس بلطف — صل ياولدي فرحمة الله عظيمة . و ذا اردت ان تعترف لي بما يخالج افكارك وبما يقلق بالك وتتوب الى الله التوبة الصادقة فان الله يقبل توبتك ويتولاك برحمته وغفرانه

فقال مكسيم وهو يرتعش — ان ذنبي عظيم في نظر الناس يا أبت . . فقد كرهت الملك وبغضته

فنظر اليه الرئيس وقد ملكه الدهش و عرق

فقال مكسيم — لا تلمني ايها الاب تعجيس قبل ان تسمع كلامي . فقد قضيت زمناً مديداً في خدمة الملك ولكن الايام تزيدني لا نفوراً منه وكراهية له

فقال له الرئيس — انك يا ولدي لفي ضلال مبين ولعل ذلك من تجارب الشيطان . . والذي يزيدني دهشة أنك تثني على نفسك بذلك . فاني لم أسمع قبل الآن من أقر ببغضه الملك سواك . . حتى ان اللصوص والقتلة لم يتصفوا بمثل ما اتصفت به انت

فامتقع مكسيم وقال وهو يضطرب — اذاً فانا الآن اضل سبيلاً من كل سارق وقاتل . . فارشدني يا ابي الى سواء السبيل ، وعلمني ماذا اعمل . فان نفسي حزينة جداً وهي تكاد تنشق من شدة الالم

— فنظر اليه الرئيس وهو يود ان يستطلع خفايا نفسه، فلم ير في وجهه مايدل على المكر والخديعة ، بل رأى دلائل الشهامة والمروءة والبسالة والشرف مرتسمة عليه ، فتعجب وقال — يعسر علي أن اصدق ما فهت به يا ولدي . . فانت شاب في مقتبل العمر ونضارة الحياة . . فكيف تتهم نفسك بما لا يعقبك الا كل ويل ؟ . . وانت كما ظهر لي لأول وهلة على جانب عظيم من الذكاء والالمعية ، فكيف استرسلت الى النفور من الملك وبغضه ، وهذه الشرائع كلها تأمرنا بمحبته وتوجب علينا طاعته ؟ . . ألم تقرأ ما جاء في الوصية الخامسة من الامر الالهي باكرام الاب ؟ . . فاذا كان الله يأمرنا بمحبة الاب واكرامه ، فكم يجب أن تكون محبة الملك واكرامه ، وهو اعظم من الاب كثيراً ؟ . . فهل تعرف هذه الوصية وتطيعها ؟

فاطرق مكسيم ولم يجب

فاعاد الرئيس سؤاله قائلاً — هل تحب اباك ياولدي ؟

فاجاب مكسيم بصوت خافت — كلاً . .

فاجفل الرئيس وقال — كلاً . . .

ثم حدق ببصره اليه وعاد فقال وهو في اشد حالات الذهول — فاذا كنت تكره الملك ولا تكرم اباك ، فمن انت اذاً ؟

اجاب — انا مكسيم بن ماليوتا سكوراتوف

قال — فانت اذاً ابن ماليوتا ؟

قال — نعم انا هو ذلك الشقي التعس ! . .

ثم اجهش في البكاء . . وكان الرئيس قد أطرق برأسه الى الارض

وهو يتأمل ويستغرب. ثم رفع رأسه وقال — أخبرني الان بالتفصيل كيف كرهت الملك وأبغضت اباك..

فقص عليه مكسيم ما كان من امره في قرية الكسندروفا واخبره بأحوال رجال الحرس ومعيشتهم. ثم سرد عليه ما كان بينه وبين والده من الحديث في الليلة الفائتة، ولم يخف عنه شيئاً

ولما فرغ من اعترافه قال له الرئيس — اعلم انك الآن في موقف رهيب.. فان بقي في نفسك امر آخر فافض به الي.. وقد قلت انك تبغض الملك، فهل خطر لك يوماً ان تكيد له او تثير فتنة في البلاد؟

فقال مكسيم — لا هذا ولا ذلك ايها الاب الجليل.. وأسهل علي ان تبتر اعضائي ويسل لساني من ان يجول في فكري شيء من الخيانة للملك وللبلاد، او ان أنطق بشيء غايته الفتنة والتهييج.. فانا مخطئ في عدم محبتي الملك، لا في خيانتي له او للوطن

قال — ان اعترافك يا ولدي قد تم من كل شيء، وفرارك من القرية على الصورة التي ذكرت لايعد اثماً، لانك انما هربت من الضلال وجميع تجارب ابليس.. واعلم ان لله في عباده احكاماً لا يدركها احد.. فالجوع والامراض وسائر المصائب البشرية تتعرض للانسان بسماح من الله تعالى لحكمة سامية، وما على الانسان الا ان يخضع ويصلي ويترقب.. وهكذا الآن. فقد تولى زمام المملكة ملك هائل ظالم ليس للشفقة ولا للرحمة الى قلبه سبيل.. بيد انه من الله وليس لنا ان نقاوم ترتيب الله.. ونحن بخضوعنا لهذا الملك انما نخضع لله الذي أقامه وأوجب علينا طاعته.. ولقد صارحتك بهذا كله وانا واثق بأنك لن تخونني ولن تشي بي

قال هذا وبارك مكسيم ودعاه ليقيم عنده في الدير مدة طويلة ...
ثم خرجا من الكنيسة فجلسا الى مائدة الطعام مع جماعة الرهبان . وفي اثناء الأكل قام الرئيس ومكسيم فشربا نخب الأسرة المالكة ورؤساء الدين وسادة البلاد ، وشاركهما جميع الرهبان في المسرة والدعاء

وأقام مكسيم في الدير اسبوعاً كاملاً كان فيه موضوع عناية الرئيس وولاء الرهبان ومحبتهم .. وكان يقضي سحابة نهاره في حدائق الدير يراقب اعمال الرهبان ونشاطهم واجتهادهم . فبعضهم كانوا يعنون بالتصوير ونسخ الكتب ، والبعض الآخر بعمل الصلبان والايقونات من خشب السرو او بتذهيب الآنية الخشبية ، وآخرون يهتمون بغرس الاشجار وترتيب المزروعات وما شابه ذلك من الأعمال التي كانوا يتقنونها ويتفننون فيها .. وقد سر مكسيم جداً بذلك كله وأحب الرهبان وارتاح الى معيشتهم وسكينتهم وحسدهم على خلوهم من الهم والاضطراب . وقد أكبر الفرق بينهم وبين رهبان الملك او رجال الحرس الذين اتصفوا بفساد الأمور وخبث الضمائر وسوء الأفعال ، بقدر ما كان هؤلاء متصفين بالورع والصلاح

* * *

وسمع مكسيم ذات يوم من بعض الرهبان الذين كانوا يتجولون في الخارج ان جمهوراً غفيراً من التتر قد هجموا على ولاية « ريازان » وعاثوا فيها فساداً كبيراً ، وان اهالي تلك الولاية لم يستطيعوا ان يقاوموهم او يدفعوهم عن ديارهم . فتأجج في صدره الشوق الى خوض معمعة القتال ، وود ان يطير من ساعته الى تلك الجبهة ، لعله يتمكن من استنهاض الهمم واثارة الحمية الوطنية في صدور ابناء البلاد لمدافعة العدو

ولما خطر له ذلك اجتمع بالرئيس وأخبره بعزمه ثم قال — وقد حملت معي بعض المال ، ولما لم يكن لي به فائدة فاني أقدمه لك لتضيفه الى مال الدير . . واني أسألك ايها الأب الصالح ان ترسل من قبلك بعد ثلاثة أيام راهباً أو رجلاً آخر من خدمة الدير الى قرية الـكسندروفا ليخبر والدتي بحالي ، واني صحيح معافى أطلب بركتها ورضاها

فشكره الرئيس على هذه التقدمة وقال — اما المال فاني أقبله وقد ابني به كنيسة ندعو لك فيها على الدوام بالخير والهناء ، ولـكن لابد ان تبقي منه لنفسك شيئاً لانك تحتاج في طريقك الى النفقة ، واما سفرك في مثل هذه السرعة فقد غمني كثيراً لاني أحببتك ورجوت ان تنالك نعمة الله ، فتترك العالم وتشاطرنا هذه الحيوة النسكية في هذا الجبل . فأصغ الي يابني وابقَ بيننا

فقال مكسيم — غير ان ذلك لا يمكن لاني طالما رأيت ان اخدم البلاد بساعدي واقسمت اعظم الاقسام ان أبذل حياتي في سبيل هذه الخدمة وسأبر في قسمي ، فلا تحاول ان تثنيني عما عزمت ودعني أخوض غمار الموت مسروراً وادعُ لي وباركني ولا تنس وتذكّني

ولما لم ير الرئيس بداً من ذلك باركه ودعا له بحسن البلاء في جهاده ووعده بابلاغ رسالته الى والدته . ثم شيعه مع بعض الرهبان الى خارج الدير . فشكره مكسيم على ذلك ، ثم امتطى جواده وسار في طريق روازن يتبعه كلبه ظافراً مسروراً

وكان النهار دافئاً والجو صحواً والشمس تسير الهوينى في قبة زرقاء ، ومكسيم مستتر في تلك البطاح وقد وطن نفسه على مقارعة الخطوب

واستقبال القدر كيف جاء . ولما آذنت الشمس بالمغيب وقف هنيهة يتأمل في حالته وكيف يقضي هذه الليلة وهو غريب لا يعرف تلك الجهات . ثم عاود المسير وهو يودُّ ان يرى في طريقه قرية يأوي اليها . وبعد ان سار على هذه الحالة ساعةً من الزمن لمح عن بعد نوراً ضئيلاً فاتجه اليه وهو يرجو خيراً . ولما اقترب منه رأى كوخاً منفرداً وأبصر من نافذته امرأة جالسة الى سرير طفلها وكانت تغني له ، فأصغى قليلاً فسمعها تقول : « . . نم يا ولدي الحبيب فعماً قليل ينقضي زمن المحنة وتزول المصيبة . لأن الملك سيلقي القبض على ماليوتا سكوراتوف اللعين ، فيضرب عنقه ويخلص البلاد من عيثه وشره . . . »

وما سمع مكسيم ذلك حتى انتفض وصعد الدم الى وجهه . فترجل عن جواده ودخل الكوخ وهو في حالة الاضطراب الشديد . . فلما أبصرته المرأة خافت ونادت زوجها ، وكان مستلقياً في جانب من الكوخ ، فقام وقد وقع عليه الذعر . فقال له مكسيم — من انتم وماذا تعملون هنا ؟

فانحنى الرجل امامه وقال وهو يرتجف — منذ زمان طويل ونحن في هذا المكان يا سيدي نصنع الغرابيل والسلال ونبيعها للتجار الذين يجتازون بنا حيناً بعد آخر . ولولا رحمة الله لقضي علينا جوعاً وعرياً

فنظر مكسيم الى الرجل وامرأته فرآهما في أشد حالات البؤس والفقر ، فأخرج من جيبه ما أبقاه لنفسه من النقود ووضعها على مائدة هناك وحوّل وجهه يريد الخروج . فاستوقفه صاحب الكوخ وجثا امامه مع زوجته وهما يشكرانه ويبكيان من شدة الفرح ويقولان — أنبئنا باسمك يا مولانا لنعرف المحسن الينا العظيم ونصلي لاجله

فقال مكسيم – صليا لاجل ماليوتا . . ودلاني الآن على طريق ريازان فبهت الرجل وقال – ها هي امامك يا سيدي . ولكني أسألك ان لا تسافر في هذا الوقت . فان كثيرين من قطاع السبيل منبثون في هذه الارجاء عصابات مختلفة . وقد هجموا الليلة الفائتة على قافلة برمتها فسلبوها وفتكوا برجالها . وقد سمعنا أيضاً ان التتر ظهروا في ولاية ريازان واجتاحوا جانباً منها . فأسألك ان تبيت عندنا هذه الليلة وغداً تنصرف الى حيث تريد

وكان مكسيم راغباً اشد الرغبة في المبيت ، ولكنه لم يشأ ان يبقى في منزل سمع فيه بأذنه شتيمة ابيه ، فودع الرجل وزوجته وخرج ، وهو يرجو ان يرى مبيتاً آخر . وكان القمر قد طلع فأنار تلك الارجاء بنوره الساطع

ولم يقطع مكسيم الا بضعة فراسخ حتى رأى كلبه بويان قد هجم على جانب من الطريق واخذ في الهرير والنباح ، وكان يزداد عنفاً وشدة كأنه يرى كميناً وراء بعض الادغال . فتعجب مكسيم وهجم جهة الكلب ، فسمع صوتاً جهورياً يصيح به – قف وانزل عن الجواد والا قطعناك ارباً اربا ! . .

وقبل ان يملك مكسيم روعه رأي نفسه محاطاً بستة اشباح ، وفي ايديهم العصي الضخمة . وللحال جرد سيفه في وجوههم وضرب أقربهم اليه فكاد يخطف أنفاسه . ورفع يده ليضرب الآخر ، غير ان الرجال هجموا عليه هجمة واحدة فتمكنوا منه وأنزلوه عن جواده وأوثقوه ، وما كادوا ينظرون الى لباسه وحسامه حتى صاحوا كلهم بصوت واحد – هـذا احد رجال الحرس . . فيالها من غنيمة أصبناها هذه الليلة ! . . فهلم نأخذه الى الجماعة حياً لنلهو بتعذيبه بعض الوقت

الفصل الحادي والثلاثون

« ثورة اللصوص »

على مسافة نحو فرسخين من المكان الذي جرت فيه الحادثة الآنفة الذكر كان جمهور عظيم من الرجال محتشدين في بقعة فسيحة بين اشجار الغابة ، وقد تدجج اكثرهم بالاسلحة ، وامامهم براميل مختلفة الاحجام مترعة خمراً ، فكانوا يتناولون منها وقد دارت بينهم الكؤوس واخذوا يطربون ويلهون . . ومن تفرس فيهم قليلاً عرف للحال انهم عصابة اللصوص اصحاب برستن . ولكن لم يكن بينهم الشيخ كرشون الذي كان في مثل هذه الاجتماعات يطربهم بنوادره ونكاته ، فكانوا يتذكرونه ويشربون نخبه ويودون لو فدوه بارواحهم . .

ولم يمض عليهم وهم في تلك الحالة الا القليل حتى لعبت الخمرة برؤوسهم فعلا ضوضاؤهم وكثر بينهم الصخب واشتد القيل والقال

فقال احدهم — من يعرف ماذا يجري الان لعم كرشون ؟

وقال آخر وقد أترع كأسه دهاقاً — هو الان على ما أرى في أشد المحنة والضيق . . وسيذيقونه الموت الاحمر

وقال غيره — لك لله ايها العم كرشون ! . . لقد كنت لنا نعم الرفيق وللعصابة باسرها نعم المرشد والصديق . . ولا أخالك تفشي سرنا ولو تحت اشد العذاب

– انه لا يفشي سر العصابة ولو مزقوه تمزيقاً

– والحق يقال ان خسارة العم كرشون لهي مصيبة فادحة أصابتنا جميعاً

– الا الزعيم . . فانه أوقع كرشون في الفخ ونجا بنفسه

– وكيف أوقعه ؟ . . وما هذا الزعيم الذي يسلم اصحابه ويسوقهم الى المهالك ؟

– انه فعل ذلك حباً للامير

– ومن هو هذا الامير الذي لاجله أهلك برستن أعز اصدقائه وأحسن رجاله ؟

– صه ! فان الامير صديق حميم لزعيمنا . . ألا تراهما الان منفردين في الخيمة يتباثان ويتساران ؟ . . فان سمعك برستن فماذا يقول ؟

– وهبه سمع . . فانا لا ارهبه ، لاني أرى انه بدأ العمل لخذل العصابة وغدر بشيخها

– وأي عجب في ذلك ؟ . . فقد كان كرشون احسن من برستن من عدة وجوه وأصفى نية ، فغدر به هذا الغدر الوخيم ليصفو له الجو ويرتاح من مزاحمته

– وانا أظن انه غدر به عمداً

– وأنا كذلك أزعم . .

– وما سبب وجود الامير بيننا ، وأي علاقة له معنا ؟ . . ان ذلك لمن المدهشات

- لعل برستن يريد الفدية عنه ، لانه خلصه من السجن

- انت واهم يا اخي ! . . والحقيقة هي ان الملك قد غضب على الامير وزجه في السجن . فلما انقذناه انضم الينا ووعد ان يقودنا الى قرية الكسندروفا لنقتل رجال الحرس وننهب خزينة الملك ونقتسمها

- اذا كان الامر كما تقول فلماذا لا يقودنا وقد صار لنا هنا ثلاثة أيام حتى مللنا الانتظار ؟

- لا يقودنا لان زعيمنا كما ترون جبان وضعيف

- لا . لا تصف برستن بمثل هذا ، فانه بطل مغوار وفارس صنديد

- فلم اذاً هذا الابطاء ؟

- لانه يريد كما يظهر ان ينفرد وحده بالاستيلاء على الخزينة ولا يشركنا في شيء منها

- او انه يريد ان يبيعنا كما باع العم كرشون

- ولهذا فهو لا يريد ان يخلص كرشون من ايدي معذبيه

- افلا نقدر ان نذهب بانفسنا وننقذ كرشون ؟

- نعم نقدر ولا شيء يمنعنا . ولا حاجة لنا الى برستن ، لانه لا ينفعنا بشيء

- ونقدر أيضاً ان ننهب الخزينة . . فليقدنا الأمير ويرشدنا الى مكانها

- وقد سمعنا ان الملك قد خرج هذين اليومين لزيارة بعض الاديار واخذ معه نصف الحراس . . فلنذهب الآن !

- نعم فلنذهب ! ما دامت الفرصة سانحة !

– ولنحرق القرية مرة أخرى !

– ونقتل رجال الحرس !..

- فليقدنا الأمير ولا نريد ان يظل برستن زعيماً لنا !...

قالوا هذا ونهضوا على اقدامهم ، فاحتسوا الكؤوس دفعة واحدة وهم يصيحون ويعربدون ؛ وقد بلغ منهم الهياج مبلغاً عظيماً

***

وفي اثناء ذلك كان الامير نكيتا والزعيم برستن منفردين في خيمة في أقصى مكان من البقعة يتسامران. وقد ساقهما الحديث الى ان قال برستن – انك ايها الأمير لعلى أعظم جانب من الشهامة والشرف .. ولكني لا أدعك تعود الى السجن او الى قصر الملك مهما قلت وسعيت

فقال الأمير – انك أنقذتني من السجن فشكراً لك .. ولكن لابد من رجوعي اليه عاجلاً او آجلاً

قال – ولكني أنقذتك من السجن لتنجو من الموت ، لا لتعود اليه

قال – بيد اني أراني الآن في ما هو أشد ظلمة من السجن .. والموت احب الي من النجاة على هذه الصورة .. فقد عاهدت الملك على الطاعة والانقياد لارادته . فكيف انكث عهدي ؟ وماذا يكون حديث الناس عني اذا علموا بفراري ؟

قال – مالك ولأقاويل الناس ؟ فأنت موقن ببراءة نفسك ، وانه قد حكم عليك ظلماً وعدواناً .. ولعل الملك نفسه يعرف هذه الحقيقة ، وقد ندم على تسرعه في الحكم

قال - مهما يكن الأمر فلا بد من الرجوع

قال - وانك سترجع ولكن بعد حين . لان من رأيي ان تنتظر على الأقل ريثما يخمد غضب الملك ، فربما عاد الى صوابه وعرف خطأه فيستقبلك مسروراً

***

وفي هذه اللحظة اشتد هيجان اللصوص وارتفعت ضجتهم ، وكانوا قد دنوا من خيمة الزعيم وهم يصرخون :

- الى القرية ! الى القرية ! الى قرية الكسندروفا !

- نريد ان نحرق القرية !

- وننقذ العم كرشون !

- وننهب براميل الذهب من الخزينة !

- ونقتل جميع رجال الحرس !

- ولا نبقي على احد منهم !

- فاين الأمير ؟ . . اين الأمير ؟ . .

- ليخرج ويقدنا الى القرية !

- ويرشدنا الى مكان الخزينة !

- واذا أبى ذلك فهيئوا المشنقة !

- هيئوها له ولبرستن !

- اين الأمير ؟ . . اين الأمير ؟ . . .

فلما سمع برستن هذه الأقوال طار صوابه . فقام من ساعته وهو يقول لنكيتا - اننا الآن في أشد المواقف حرجاً . . فقد بلغ السكر من القوم كل مبلغ . ولا أعلم كيف نعاملهم لنسكن هياجهم . فأسألك ان تظهر انك تريد ان تقودهم الى قرية الكسندروفا ، والا فتسوء العاقبة لاني أعرف منك بهؤلاء الناس

فارتعد الأمير ونهض من مكانه وهو لا يدري ماذا ينبغي له ان يفعل ، وقد شعر بانحطاط قدره بازاء هذه المصابة وكاد يتميز غيظاً ، لولا ان برستن سأله وألح عليه بمجاراتهم قليلاً لان السكر أعماهم وأفقدهم رشدهم . . فتجلد وخرج من الخيمة وقال للصوص - ماذا تطلبون !

فقالوا - سر بنا الى قرية الكسندروفا !

- كن زعيمنا لاننا نرفض زعامة برستن !

- وقدنا في الحال الى موضع الخزينة !

- وان رفضت طلبنا فليس امامك الا المشنقة ! . . .

ولو زلزلت الارض تحت قدمي الامير نكيتا لما ارتعد وارتجف اكثر من تلك الدقيقة الهائلة في ذلك الموقف . . وكان برستن قد سمع ورأى فخشي ان يفرغ صبر الامير فينقض على الثائرين ويسوء المصير . ولذلك أسرع الى اللصوص وصاح بهم قائلاً - ويحكم ! ما هذا الكلام وهذه البذاءة ؟ . . تريدون ان يقودكم الامير الى القرية ، وهو سيفعل ذلك بطيبة خاطر . . اما الآن وقد تناصف الليل وبلغ منكم السكر فاذهبوا الى مضاجعكم ودعوه يأخذ نصيبه من الراحة . . فاليوم خمر وغداً امر

فصاح احد اللصوص — نحن فى غنى عن نصحك ، وقد خلعناك من الزعامة ، فلا نريد ان نعرفك بعد الان !

وقال آخر — انظروا ! ان برستن يأبى ترك الزعامة

وقال ثالث — دعوه وشأنه ولا تسمعوا اقواله

وقال رابع — لا بل اسحبوه الى المشنقة !

وقال خامس — الى المشنقة ! . . الى المشنقة ! . . .

فاحتدم برستن غيظاً ونظر الى اللصوص فرأى عيونهم تقدح شرراً ، فقال وقد وضع يده على مقبض سيفه — اخرسوا ايها الانذال ! ولا تظنوا اني راض بهذه الزعامة . وها اني أرفضها رفضاً باتاً . فأقيموا عليكم من تشاؤون

فقال احد اللصوص — بالصواب نطق !

وقال آخر — وليس له ان يقول الا هذا لان الحق معنا

وقال ثالث — ان برستن لا يستحق ان يكون زعيماً لنا . . .

فقال برستن — نعم اني لا أستحق ان اكون زعيمكم ! فسأنطلق الى جهات غير قولها وهناك أكون زعيماً لقوم آخرين يفوقونكم بسالة ومودة

فاجابه احد اللصوص — لا . لا . لا ندعك تتركنا ، لاننا نخشى ان تخوننا كما خنت العم كرشون

وقال آخر — فيجب ان تبقى معنا وتخضع لاوامر الزعيم الجديد . .

ثم تقدم احدهم وبيده كأس من الخمر فدنا من الامير وألقى يده على كتفه وقال — تفضل يا حضرة الامير واشرب نخبنا ، وهلمّ نعانق بعضنا بعضاً ، لانك مذ الان زعيمنا وقائدنا !

فهاج الدم في عروق نكيتا وشعر بسهم اخترق صدره فكاد يستل حسامه و يضرب به اللص الذي دنا منه على تلك الصورة . غير ان اصواتاً جديدة استلفتت سمعه و بصره ، فرأى حركة غريبة وسمع بعض اللصوص يقولون — أنظروا أنظروا فان بعض رجالنا قد أسروا واحداً من رجال الحرس ، وها هم قادمون به الى هنا

***

وما هي الا هنيهة حتى أقبل من بعض اطراف الغابة بضعة رجال من العصابة ، وقد حملوا بايديهم البنادق والعصي الضخمة ، وبينهم مكسيم موثق اليدين ، ووراءهم جواده يقوده احدهم وعليه اللص الذي ضربه مكسيم بسيفه ، ووراء الجميع بويان كلب مكسيم وهو يتبعهم لاحقاً بسيده غير حافل بالجروح التي اصابته في اثناء دفاعه عنه . وكان في طليعة هذا الرهط اللص خاوبكو وهو يرقص ويغني ، ورفقاؤه يهتفون له ويصفقون

فلما رآهم برستن على تلك الحالة قال للامير نكيتا مشيراً الى الاسير — ما أنكد حظ هذا الشاب ! . . فانه سيلاقي الان من هؤلاء الاشرار اشد الاهوال ، وسيموت موتاً بطيئاً شنيعاً بعد ان يذوق جميع ضروب العذاب . لان أسر احد رجال الحرس يعد عند رجال العصابة مبرجاً عظيماً . فانظر كيف انهم اجتمعوا حوله واخذوا في تهيئة آلات العذاب . فهم سيحاسبونه الان على كل ما جرى لهم فيما مضى من رجال الحرس من البلايا والنكبات..

وكان الامير يسمع ويتأمل حالة هؤلاء القوم وما هم عليه من التوحش والفظاظة . ولو عرف ان الحارس الذي بينهم هو مكسيم الذي أنقذه من

الدب ودافع عنه ذلك الدفاع المجيد امام الملك لهجم عليهم وخلص من ايديهم او قتل معه . . ولكن تألب الجماعة حوله كان يحجبه عن نظره فلم يستطع معرفته

اما مكسيم فكان ينظر الى تأهب اللصوص لقتله بملء السكينة والثبات دون ان يبدو عليه اقل ارتعاش او جزع ، لانه لم يكن يخشى الموت ولا العذاب ، بل كان يتأسف لموته في تلك الحالة وهو أعزل وموثق اليدين لا يسمع قعقعة السلاح ولا صهيل الجياد ، بل يرى قوماً اجلافاً سكارى و يسمع أغانيهم السمجة وقهقهتهم الشنيعة ، فقال في نفسه : « لم اكن أنتظر موتاً حقيراً كهذا ! فلتكن مشيئة الله . . »

وبينما هو كذلك لمح الامير نكيتا فعرفه وهمّ ان يقترب اليه ، غير ان واحداً من اللصوص أمسك بخناقه وقال — قد بسط الفراش فاخلع ثيابك وارقد بسلام !

فقال مكسيم — حلوا يديّ لاتمكن من ذلك ؛ واسمحوا لي ان أصلي قليلاً

فحلّ احدهم وثاقه وقال — صلّ واختصر لاننا بغاية الشوق الى مداعبتك

ولما فرغ مكسيم من صلاته اقتاده اثنان الى عصي طويلة ركزاها في الارض ثم اخذا يجرّدانه من ثيابه ليربطا يديه ورجليه بها . . وكان في تلك اللحظة ان الامير نكيتا نظر الى الاسير ، وما كاد يتفرّس فيه قليلاً حتى عرفه ، فطار رشده وأسرع فدنا من الجماعة وقال بصوت جهوري — كنتم تقولون منذ هنيهة انكم لا تريدون زعامة برستن وانكم قد اخترتموني لهذا المنصب ، فهل انتم جميعاً مصممون على ذلك ؟

قالوا - نعم . فكلنا مجمعون على اختيارك وتوليتك

قال - فاذاً سلموني الان فأس الزعامة

فسرَّ اللصوص وبادر بعضهم فأحضروا فأس برستن وقدَّموها له .

فتناول الامير الفأس وتقدم الى احد اللصين اللذين كانا الى جانب مكسيم وقال له - حل الحارس !

فذهل اللص ونظر اليه مستفهماً . .

فصاح به الامير - حله حالاً !

فقال اللص - وكيف ذلك ؛ فهل تريد ان تطلق سراحه ؟

فانتفض الامير وقد بلغ منه التهيج حتى لم يعد يستطيع صبراً ، فرفع الفأس وضرب بها اللص فشق رأسه . واللصوص واقفون حيارى وقد بلغ الذهول منهم كل مبلغ . .

وكان الامير قد التفت الى اللص الآخر وأمره بحل الاسير . . فبادر هذا وحله وهو يرتعد فرقاً . فأمسك الامير بيد مكسيم ثم تقدم الى اللصوص وقال - ليس هذا الشاب من فرقة رجال الحرس كما فهمتم من لباسه بل هو عدوهم الاشد ، وليس فيكم من يبغض هـذه الفرقة المشؤومة اكثر منه ، فانا أعرفه حق المعرفة ، ولذلك فهو مذ الان من رجالنا وأعواننا له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن يمسه بشيء فما جزاؤه الا القتل . اما الان فخذوا أهبتكم وانتظموا صفوفاً لاني مزمع ان أقودكم الى حيث طلبتم

وكان اللصوص قد ألجمتهم مفاجأة الامير لهم بشدته وقوة حجته ، فوقفوا وهم لا يزالون حيارى لايدرون ماذا يفعلون . . وبعد ان صمتوا قليلاً قال بعضهم همساً - حقاً انه زعيم نادر !

وقال آخرون - ولكنه شديد المعاملة قاس قاهر!

وقال غيرهم - وهذا مانحن في حاجة اليه لينيلنا مبتغانا ويكبح جماح كل غادر..

هكذا كان اللصوص يتحادثون وهم يتجهزون للمسير

وكان الامير قد عانق مكسيم وهنأه وهو يحمد الله على ما تم . ودنا منهما برستن فرحب بمكسيم ثم قال للامير - ليس عملك ياسيدي الامعجزة من المعجزات . فانت بهذه العزيمة التي لاتقاوم قد أذهلت اللصوص وأنقذت صديقك ، وليس لاحد غيرك ان يفعل في مثل هـذا الموقف الحرج ما فعلت .. والان فمن الحكمة ان تواصل خطتك هذه الليلة الى النهاية . فاظهر انك مصمم ان تقود القوم الى قرية ألـكسندروفا للحصول على مايريدون ، الى ان يبدو لنا وجه آخر نصرفهم اليه ، وتكون نشوة الشراب قد طارت من رؤوسهم ..

وكان اللصوص في اثناء ذلك قد تجهزوا . فقام الامير وأخذ يشدد عزائمهم ويعدهم بكل خير .. ثم أمرهم ان ينتظموا مئات مئات

فقال له بعضهم - ولـكن لابد من التمهل قليلاً ياحضرة الزعيم الى ان يتم حشدنا .. فقد ذهب رهط منا الى جهات ولاية ريازان ولم يعودوا حتى الان

فقال الامير - حسن . لابد من الانتظار اذاً

الفصل الثاني والثلاثون

الذهب للجهاد

لم يمض على انتظار القوم الا وقت قصير بعد ذلك حتى حضر اللصوص الغائبون ، وفي طليعتهم فتى منهم اسمه غريغور وكان أعور شديد البأس . فلما وصل حيا رفقاءه وقال — ما أسعد هذا اليوم ! فقد محا الله عني نصف ذنوبي

فسأله رفقاؤه باهتمام — وكيف ذلك ، وماذا جرى ؟

فقال — ذلك لاننا ظفرنا بأحد اعداء الوطن . . وسنظفر ان شاء الله بغيره من امثاله

ولما قال هذا وصل رفقاؤه وبينهم رجل موثق اليدين مرتد جبة مخططة وعلى رأسه قبعة عالية محدبة الاطراف ، وهو أفطس الانف بارز الفكين ضيق العينين . فأقامه غريغور في وسط جماعته ثم وضع الى جانبه أسلحته وهي حربة وسيف وكنانة فيها بعض السهام . فلما أبصره اللصوص صاحوا جميعاً من شدة الفرح — هذا تتريٌ . . فيا لها من غنيمة !

فقال غريغور — نعم تتريٌ ، وهو من الجبابرة الاشداء ، ولو لم يكن معنا توما لما تمكنا من القبض عليه

فسأله الرفقاء — وكيف ظفرتم به ؟

قال — بينما كنا صباحاً نتجول في طريق ريازان أبصرنا تاجراً فوقفنا نريد ان نسلبه ماله فقال : « لا تتعبوا فقد لقيني التتر في حال خروجي من مدينة ريازان ولم يبقوا معي ما أقتات به الى ان أصل الى موسكو »

فقال احد الحضور — تباً لهم من اشقياء!

وقال آخر — وماذا فعلتم بالتاجر؟

فقال غريغور — زودناه بشيء مما لدينا وصرفناه بسلام.. ثم رأينا فلاحاً وكان يركض مذعوراً، فسألناه عن حاله، فأخبرنا ان التتر هجموا على ضيعته وأحرقوها بعد ان سلبوا اهلها ونكلوا بهم تنكيلاً فظيعاً.. ولم يتوار الفلاح عن أبصارنا حتى شاهدنا عن بعد جمهوراً غفيراً من الفلاحين وفيهم النساء والاولاد وهم يولولون ويقولون: « ان التتر قد انقضوا على قريتنا فأحرقوها ونهبوا الكنيسة وحطموا الايقونات ودنسوا الاقداس »

فصاح بعض اللصوص — وكيف اجترأ الاشرار على امتهان حرمة الكنائس؟

فقال غريغور — وقد علمنا أيضاً انهم قبضوا على رجال الدين في كثير من القرى فقتلوا بعضاً وربطوا البعض الآخر الى أذناب خيولهم ثم طردوا الخيول فعدت باولئك الشهداء الى ان تناثرت اجسامهم على الحضيض..

فقال احد اللصوص — وكيف لم يصعق الرعد هؤلاء الاشرار على هذه الفعلة المنكرة؟

وقال آخر — بل كيف لم تنشق الأرض وتبتلعهم؟

وقال ثالث — وهل غلت ايدي الروسيين، ام استحال دمهم الى ماء؟

وقال رابع — لا عجب من ذلك، فليس في ولاية ريازان الآن الا الفلاحون والنساء والشيوخ والأطفال. فمن ترى يستطيع ان يقوم في وجه التتر ويرد كيدهم الى نحرهم؟

وقال خامس — وما بال الحكومة متقاعدة عن ارسال جيش يضرب الاعداء الضربة القاضية ويعيد الأمن الى نصابه ؟

وقال سادس — ربما لم يبلغها الخبر بعد

وقال سابع — وكيف لم يبلغها وقد بلغنا نحن ؟.. واين هي هذه الحكومة حتى تعنى بمثل ذلك ؟

وقال ثامن — آه لو كنت انا هناك وعلمت ولو بشيء قليل من اخبار هذه الفظائع لفعلت وفعلت !

وقال تاسع — ولو كنت انا ايضاً لقمت بما يعجز عنه الابطال

وقال عاشر وقد وجه كلامه الى غريغور — وكيف فعلتم حتى ظفرتم بهذا التتري ؟

فقال غريغور — كنا كامنين في بعض الغابات فأبصرنا على الطريق نحو ثلاثين فارساً من التتر برماحهم وقسيهم . ولما كنا اقل عدداً منهم لبثنا في مكمننا ننظر اليهم ولا نجسر ان نتصدى لمناجزتهم .. ونحن لكذلك واذا بفارس منهم قد تأخر عن رفقائه فترجل عن جواده ليأخذ كيساً سقط منه على الطريق . وكان اصحابه قد سبقوه فقلت لرفقائي : « هذه غنيمة باردة . فلنهجم كلنا على هذا الفارس ونقتنصه » . وللحال انطبقنا عليه من كل جانب غير انه قاومنا اشد مقاومة ، ولولا توما لكان نجا من ايدينا .. وها هو ذاك الفارس الذي اقتنصناه

فصاح جميع اللصوص — بورك فيك يا توما ! فانت بطل شديد وجبار عنيد !

ثم سأل احد اللصوص — وماذا كان في الكيس الذي سقط من هذا الرجل ؟

فقال غريغور — انظروا !

ثم عمد الى الكيس فأفرغه امامهم واذا فيه صليب وبعض الآنية الكنسية وكلها من الذهب . فلما رأى اللصوص ذلك ثار ثائرهم واشتدّ غضبهم وطفقوا يتهدّدون التتر ويتوعدونهم بأشد ويلات الانتقام

* * *

وكان الامير نكيتا يسمع كل ذلك ويعيه ، وقد رأى امائر الغيظ والانتقام بادية على وجوه اللصوص فاستبشر خيراً ، وأسرع فدنا منهم وقال — لم يبق منكم من لم يقرع سمعه نبأ هذه الكارثة الوطنية الفظيعة . . ولم يبق منكم من لم يتأثر بها اشدّ التأثر .. ان الاعداء قد استهانوا بالدين واحتقروا الامة فنجسوا المعابد ودنسوا الاقداس ودمروا القرى وذبحوا الناس ذبح الاغنام وبلغت بهم القحة الى اكثر من ذلك . . فهل من الوطنية ان نتركهم وشأنهم ؟ وهل من المروءة ان نرى البلاد تخرب والكنائس تحرق والاقداس تنهب ورجال الدين يقتلون بصورة تقشعر لها الابدان ، ولا نمد ايدينا الى الذود عن حياض الوطن وشرف الامة وحرمة الدين ونطهر البلاد من عيث المفسدين ؟! . .

ولما قال هذا أدار نظره في الحشد فرأى الجميع يصغون اليه متأثرين وقد فعلت كلماته فيهم فعل السحر . . فبرقت عيناه سروراً ومضى في خطابه فقال — فمن منكم بلا أثم ؟ . . أظن ان آثامنا جميعاً لا تحصى . . فهل

تريدون ان تمحى هذه الآثام ؟ . . فاذا أردتم ذلك ، وكلكم يريد ، فهيا بنا نقدّم للوطن خدمة قد تكون اجل الخدم وأشرفها . . هيا بنا نهجم على اعداء الكنيسة والامة ، فننال من الله جزاء المجاهدين ومن الملك عفواً مجيداً !

فازداد اللصوص تأثراً وانفعالاً ، وقد دبّت في قلوبهم النخوة والمروءة واستفزّهم حب الوطن والايمان

فقال بعضهم — لقد اصاب الامير في قوله . . فمن منا يرضى بهذه الحالة السيئة ، بل بهذه الفوضى التي لا نظير لها ؟

وقال آخرون — ومن يستطيع ان يرى الكنائس تحرق والآنية المقدسة يزدرى بها والاقداس تنجس ولا يفور دمه ؟

وقال غيرهم — فاين دمنا واين اقدامنا ؟

وقالوا — فالشرف اذاً يدعونا الى مقاومة اعداء الوطن والدين والضرب على ايديهم الاثيمة

وقالوا — والشريف يموت مرة لا مرتين . ولكن اين الموت المجيد في ساحة الوغى من الموت على المشنقة ؟

وقالوا — نعم . فالموت في ساحة الوغى اشرف وأجلّ . بل هو عنوان المروءة والشهامة والبسالة . .

ثم قال احدهم — ما لنا ولهذا الكلام . فالدفاع عن الوطن والجهاد في سبيل الدين فرض مقدس على كل انسان . وها اني اول من يتطوّع للقتال

وقال آخر — وانا ايضاً أتطوّع وأود ان أفدي الوطن بروحي

وقالوا جميعاً — كلنا نتطوّع . . وليس فينا من يرضى بالذلّ . وليس فينا من يقبل هذا العار وهذه السبة ! ! . .

فقال الامير ووجهه يطفح سروراً — يقول بعض من لا يعرفكم انكم نسيتم الله . ولم يبق فيكم نفس ولا ضمير . . فأظهروا للملأ الآن انكم ذوو نفوس ابية وضمائر حية ، وانكم متفانون في محبة الوطن والدين ومستعدون لخدمة بلادكم وملككم ولو باهراق دمائكم

فاتقدت في صدور اللصوص نيران الحماسة وقالوا كلهم بصوت واحد — نحن مستعدون لخدمة الوطن ونريد ان نخدمه في كل حين ، فلن ندع التتر ولا غيرهم من اعداء الامة والدين يستهينون بروسيا المقدسة . . فقدنا ايها الأمير الى حيث تشاء ولو الى النار ! فنفدي الوطن بأرواحنا . أهجم بنا على هؤلاء التتر فنذيقهم الموت الزؤام ونطهر البلاد من شرهم وفسادهم

فقال الامير — واذا أتيح لكم وضربتم التتر الضربة القاضية ورأى الملك انكم قمتم بخدمة الوطن خدمة سنية تفوق خدمة رجال الحرس فانه يعفو عنكم ويغمركم بنعمه وآلائه وتكونون قد اكتسبتم بذلك في نظره ونظر الامة جمعاء اسماً يغطي على جميع سيئاتكم

فقال اللصوص — حبذا ما تقول . . فلا أفضل من الجهاد في سبيل الوطن . ولا أحب من الموت في خدمة الملك والدين

فقال الامير — اذاً فلنشرب نخب الملك !

قالوا — نعم لنشرب

فأخذ الامير كأساً وقال — ارفعوا كؤوسكم واشربوا جميعاً نخب ملك البلاد وسيدها الاكبر القيصر يوحنا الرابع العظيم !

فصاح اللصوص — ليحيي الملك !

قال — وليحي الوطن والدين !

قالوا — وليمت جميع اعدآء الوطن والدين !

قال — وليحي كل خادم امين لبلاده ودينه !

قالوا — وليحي الامير نكيتا زعيمنا وقائدنا !

قال — ان الله معنا وسنظفر بالأعداء ونذيقهم عذاباً أليماً !

قالوا — هيا بنا ! فقد اشتد ظمأنا لشرب دمائهم . . وهاتوا الآن هذا التتري وألقوه في النار . .

فقال نكيتا — مهلاً ! لا تفعلوا قبل ان نستنطقه

ثم امر بمجيء بالرجل . فقال له — كم هو عددكم واين مخيمكم ؟

فأشار التتري الى انه لا يفقه كلامه . فقال غريغور — أمهلني ايها الامير ، فأنا أفتح فمه

ثم أحضر جمرة بملقط وأدناها من فم التتري يريد ان يكويه بها .

فصاح التتري — سأتكلم سأتكلم . . سلوا عما تريدون

فأعاد الامير سؤاله بقوله — كم هو عددكم ؟

— قال — ليس له احصاء يا سيدي

قال — كم تظنه يكون ؟

قال — نحو عشرة آلاف . وبعد بضعة أيام يحضر جيش آخر قوامه مئة الف

قال — ومن يقودكم ؟

قال — يقودنا الآن الامير « شيخات » ثم تصير القيادة للخان نفسه

قال — واين مخيمكم ؟

فتردد التتري وهو يظهر انه يجهل ذلك. فأدنى غريغور الجمرة من فه

فصاح — هو قريب من هنا يا سيدي

قال — وكم تكون المسافة بيننا الآن ؟

قال — نحو عشرة فراسخ لا اكثر

قال — عليك ان تكون دليلنا الى المخيم. فهيا بنا

قال — لا سبيل الى ذلك في هذا الليل . وغداً أرشدكم الى حيث تريدون

فكواه غريغور بالجمرة وقال — بل يجب ان تفعل ذلك الان !

فصاح التتري — رحماكم ! اني فاعل ما تطلبون . . فلا تعذبوني .

فقال الامير للصوص — كلوا الان وأطعموا هذا الرجل . وسنزحف بعد نصف ساعة ، فكونوا على أتم الاستعداد والاستبسال

***

وفي الموعد المضروب كان جميع اللصوص قد تأهبوا ، فانتظموا وخرجوا من الغابة بقيادة الامير نكيتا ، وكل منهم متشوق الى الوصول الى ساحة الوغى

وكان مكسيم وبرستن راكبين الى جانبي الامير . فقال مكسيم — لقد أنقذتني اليوم ايها الامير من الموت بعد ان استهدفت لكل نوع من المهالك ، فلا أدري كيف أشكرك على مروءتك وبسالتك

فقال الامير — لا تشكرني يا مكسيم ، فان ما فعلته ليس الا مكافأة لصنيعك ، وانا لم أقم الا ببعض الواجب المفروض عليَّ . . أفلا تذكر الدب؟

أفلا تذكر الوليمة في قصر الملك ؟ . . فقد خلصتني انت ايضاً من الموت فأوفيتك الان بعض جميلك

فقال برستن — اما انا فأهنئك ايها الامير بما آتاك الله من هذه المزايا الفريدة التي لايجاريك فيها احد من الامراء والكبراء . ولا أدري كيف لا يقدر الملك اخلاصك و بسالتك ويجعلك اعظم رجال دولته ، ولا كيف يصدق اقوال الوشاة فيك . . فهل من العدل ان تكون من المغضوب عليهم وانت مشكاة الفضل والحق وآية الوطنية والصدق ؟ . . نظرت اليك ساعة بادرت الى انقاذ صديقك مكسيم وانت في وسط هذه الجماهير الغفيرة من اللصوص وقد أعماهم السكر وأصبحوا أشد توحشاً وشراسة من الوحوش الضارية ، وأعجبتُ بعظمة نفسك وقوة جنانك كما أعجبت بحسن تدبيرك وسحر بيانك . ولولا ذلك ، ولولا هذه المقدرة العجيبة ، لما تسنى لك ان تنقذ صديقك وتخرج من هذه المعمعة سالماً . . . ونظرت اليك يوم هجمت على رجال الحرس في غياض الجاهلية . ورأيتك تجههم وحدك لا نقاذ ولي العهد دون ان تحسب لاحد حساباً ، ولم يدفعك الى ذلك الا مروءتك النادرة المثال . . . ونظرت اليك يوم تقابلنا في قرية الدب ، وقد ظفرت بتي خومياك وأصحابه وكانوا اكثر عدداً من رجالك . . رأيتك في جميع هذه المواقف الخطيرة ، وفي جميعها كنت معجباً اشد الاعجاب بك . فانت لا تجزع ولا تنفعل ولا ترهب ولا تلين لشدة ولا تهن لكثرة ولا تضعف عزيمتك لشيء ولا تحجم عن امر أقدمت عليه مهما اعترضك في سبيله من المثبطات ومهما قام في وجهك من الحوائل . . وقد تفردت بذلك كله مما لم يجتمع مثله او بعضه

لأحد من الابطال ، ولم أر نظيراً له الا في رجل واحد فذ من اصدقائي يقال له « يرماق » . . واني كلما نظرت اليك او سمعت كلامك ذكرت صديقي هذا وحنت نفسي الى لقياه . . وهو صديق حميم لي وقوزاقي مثلي ، ولكن له نفساً كنفسك وقلباً لا يهاب الموت كقلبك ، فكأنكما فرعا دوحة واحدة ، وكأنكما جبلتما على الاريحية ونُحتما على المروءة والاباء والبطولة والاقدام والتفاني في حب الوطن . . وصديقي هذا زعيم فرقة كبيرة من امثاله القوزاق ، وهو يروح ويجيء بهم في جميع جهات نهر فولغا . وقد هابه التتر وسائر الاقوام النازلة هنالك وحملت اليه قبائل كثيرة منهم الاتاوة ولم تتعرَّض الحكومة له بأمر لانها لا تجسر على منازلته . وهو في اقدامه آية من الآيات ، فاذا هجم ولو وحده فلا يقف الاعداء في وجهه ولو كانوا مئات ، واذا خاطب رجاله يحضهم على قتال اخترق اعماق قلوبهم ونفخ فيهم من روحه ففعلوا العجائب . . والاعجب ان هذا الرجل مخلص الملك كل الاخلاص . وهو يستطيع بكل سهولة ان يحكم ارجاء النهر العظيم كلها ويكون فيها اميراً مطلق الارادة لا ينازعه في ذلك منازع . ولكنه لا يفعل لانه لا يريد مقاومة الملك والانتقاض عليه . . وقد علمت منه انه ينوي اختراق جبال اورال والهبوط منها الى بلاد سيبيريا العظيمة لاكتساح تلك الاقطار وضمها الى البلاد الروسية . ولا شك ان مثل ذلك مما تعجز عنه الجيوش الجرَّارة والحكومات العظيمة . ولكن يرماق اذا نوى امراً أتمه ، وستسمع بالخبر اليقين بعد بضع سنين . . واني أتمنى ايها الامير ان تطأ قدماك يوماً ما جهات نهر فولغا لترى يرماق هذا بعينيك . ويا ليتك تسير معي الى هناك بعد ان نفرغ من امر الاعداء هنا ، فتجتمع بذلك الرجل

الباسل العظيم . ولا ريب في انكما اذا اجتمعتما تستطيعان ان تؤدّيا للوطن اشرف خدمة يسجلها التاريخ لاعاظم مشاهير الابطال

فقال الامير — اما خدمة الوطن فلا فضل فيها لاحد لانها فرض مقدّس يوجبها الدين والشرف ، وكلنا مدفوعون الى ذلك بدافع غريزي تنبض به قلوبنا . . واما تمنيك ان أجتمع بصديقك يرماق فلا أحب الي من ذلك ، ولكن بعد مثولي امام الملك ، اذ لا بد من الرجوع اليه والاستسلام لامره

قال — عجباً ايها الامير ! أفلا تزال مصمماً على الرجوع الى الملك في مثل هذه السرعة ؟ . . أفلم تختبره بعد ؟ أفلم تقف على اطواره الغريبة ، وما ينطوي عليه من سوء الظن والغدر ؟ . . فكيف تريد الرجوع وهو ناقم عليك اشد نقمة ولا يصدق ان يراك لينشب فيك مخالب انتقامه ؟ . .

قال — ليفعل ما يشاء . . وان كنا نريد الرجوع اليه فيما بعد فليس الا . . ولكن ما لنا ولهذا ! . . نحن الآن سائرون في جهات . . وانت أعلم مني باحوال التتر وحروبهم ووقائعهم . . فكيف ظهروا في ولاية ريازان وهي في قلب المملكة ؟ . . ومن اين جاءوا وما غرضهم ؟

قال — ولكن البلاد ايها الامير ولا سيما الانحاء الجنوبية والشرقية منها لم تتمتع بالراحة قط . وقد تمضت عشرات السنين وهي معرضة لهؤلاء التتر . وهم يهجمون عليها من الجنوب والشرق ، من جهات شبه جزيرة القريم ومن جهات استراخان وقزان . وقد تصل عصاباتهم وجيوشهم الى موسكو نفسها احياناً . وليس غرضهم من كل ذلك الا الغزو والسبي ، فهم ينهبون خيرات البلاد كلما رأوا الفرصة سانحة ، ويسوقون فتيانها بالالوف يبيعونهم

في بلادهم وفي بلاد الاتراك عبيداً . وكثيراً ما يهجمون بقيادة خان القريم نفسه

قال — وكيف تنظر الحكومة الى مثل ذلك وتسكت ؟ . . فلم لم تحشد جيوشها لمطاردة الاعداء ودفع هذه الكوارث عن البلاد ؟

قال — انها ترسل حيناً بعد آخر بعض الجيوش ولكنها قلما تظفر بالاعداء الظفر النهائي . وقد ينسحب التتر بمحال ظهور الجيش ثم لا يلبثون ان يعودوا الى عيثهم . ولولا عصابات القوزاق واللصوص لعاد التتر واكتسحوا البلاد كلها وامتلكوها وأذلوها ، والملك لاه بالصيد والقنص تارة وبالفحش والدسائس تارة اخرى . . .

فزفر الامير لدى سماعه هذا الكلام زفرة حارّة وغاص في تأملاته . وسكت برستن ايضاً . وكان مكسيم يسمع ونفسه تتألم وقلبه يتصدّع

وواصل القوم مسيرهم وجميعهم صامتون . وكان التتري الاسير سائراً في طليعتهم يخفره كل من خلوبكو وغريدور

وفيما هم على تلك الحالة سمع من بعيد صوت غناء وعزف ، فأمر الامير بالوقوف وأقبل على برستن يسأله . فأصاخ برستن بسمعه وقال — أظننا صرنا على مقربة من مخيم التتر ولا يبعد ان يكونوا وراء هذه التلة ، فان شئت ذهبت أستطلع حالهم ولا ألبث ان آتيك بكل ما تروم معرفته

فقال الامير — اذهب وكن على حذر

فترجل برستن وانطلق يعدو الى الجهة التي سمع منها الغناء وكله عيون وآذان ، ولم يلبث ان توارى عن الابصار . اما اللصوص فترجل

الفرسان منهم بامر الامير عن خيولهم وجلسوا جميعهم على العشب ينتظرون ، وقد وطنوا عزائمهم على القتال

ومضى نحو ساعة من الزمن ولم يعد برستن ، فقلق لذلك الامير وأوجس عليه خوفاً . وانه لكذلك اذ ظهر له من بين العشب رجل يعدو وقد كاد يحاذيه . فامتشق الامير حسامه وهجم عليه وهو يحسبه من الاعداء . فقال الرجل ضاحكاً — مهلاً ايها الامير ! فانا برستن . وقد دنوت على هذه الصورة من التتر واطلعت على كل ما تهم معرفته . . فهم كتيبة كبيرة تفوق عددنا أضعافاً . ولكن اكثرهم الان لاهون بالغناء والطرب غير حاسبين لاحد حساباً . وقد صحت عزيمتي ان أختار من رجالنا فرقة اسير بها جهة الاعداء ، حتى اذا قربنا منهم أجفلنا خيولهم وباغتناهم ، وتكون انت في اثناء ذلك قد قسمت رجالنا الباقين فرقتين ، فاذا سمعتم اصواتنا فاهجموا من جهتين ، وانا الضمين بالفوز والانتصار

ولم يكن الامير يشك في مهارة برستن وقد رأى منه خفة وجرأة لا تكادان توجدان في سواه ، فاستحسن رأيه . ولم يبطىء برستن ان اختار فريقاً من اشداء رجاله وأخفهم حركة وسار بهم بمنتهى التيقظ والحذر . ولبث الامير مع باقي اللصوص كامنين عند التلة ينتظرون الاشارة ويتأهبون للهجوم

الفصل الثالث والثلاثون

« الظفر »

وكان مكسيم لا يزال في جنب الامير ، وهو يود ان تنشب معركة

ليكافح فيها جهده . فلما أبعد برستن بالفرقة التي اختارها قال – لم يبق لنا ايها الامير وقت طويل للانتظار . فقريباً ويحتدم النزال ولا يعلم الا علاّم الغيوب بما سيكون . فأودُّ قبل المعركة ان أكاشفك بما في نفسي ، وانا واثق من كرمك وأنفة نفسك انك لا تهزأ بي او تستخف بطابي



الرمي بالنبال

فبهت نكيتا وقال – وما هو هذا الذي تريد ان تكاشفني به ؟ قل ولا تخف عني امراً

قال – دعني اولاً اطلعك على ما جرى لي . فقد خرجت من قرية ألكسندروفا سراً ، في نيتي ان لا أعود اليها البتة ، لاني كرهت الحياة بين رجال الحرس . وكان خروجي ضد ارادة والدي وبدون اطلاع والدتي وانت تعرف اني وحيدهما من الذكور . وقد صار لي من العمر الان تسعة عشر عاماً ولم أصادق احداً من رجال الحرس ، بل كنت بينهم غريباً أقضي اوقاتي في الانفراد والعزلة ، لا تزيدني الايام الا نفاراً منهم وكرهاً لمساوئهم ودسائسهم ، حتى ضاق صدري ولم يبق امامي الا باب واحد للفرج وهو الابتعاد عنهم . . فلما رأيتك في قصر الملك مالت اليك نفسي وافتتن لك قلبي ، لان عينيك غير عيونهم ونغمتك لا تشبه نغماتهم ، فكأنك من عالم

وانت من عالم آخر . . نعم ان بوريس غودونوف هو اكثرهم فضلاً وانقاهم سيرة ، ولكنه لا يماثلك في الصراحة وحب الحقيقة والوطنية والكمالات الانسانية الاخرى . . واني لن أنسى موقفك الحرج بازاء الدب ، ثم في اثناء الوليمة عندما تقدم اليك فيودور بسماوف بكأس الخمر بعد مقتل النبيل الشيخ ، ثم ذهابك الى النطع بذلك الثبت العجيب ، ثم حديثك اليوم مع اللصوص . ففي كل ذلك كانت نفسك عظيمة وشهامتك لا مثيل لها . . وقد اشتد ولعي بك بسبب كل ذلك وأحببت ان ارافقك الى كل مكان فلا أنفصل عنك . . نعم انك أرفع مني شرفاً وفضلاً ، ولكن نفسك العظيمة لا تحتقر عطف احد مهما كان ومهما كانت

فضغط الامير على يده وقال : لا تقل هذا يا مكسيم . فانت أعظم مما تظن . وقد رأيت منك ما لم أره من سواك ، لا يمكن ان [illegible] . وقد [illegible] لي في [illegible] الصدق فانت هو ، وقد كان في الناس من يحب الحق ويكره [illegible] فذلك رجل لا سواك . . وقد أحببتك وليس لي من امنية الا ان تصل الى جانبي أسلوبك عما لقيته في هذه الحياة من المكاره

فقال مكسيم وقد تهلل وجهه فرحاً — اذا كان الامر كذلك ، وسمح [illegible] سيدي الامير [illegible] قتال وحرية على العادة القديمة في مثل هذه الاحوال ان [illegible] . . فهذه هي منيتي التي اعدها سعادة حياتي [illegible] حتى كان . . فلا تحتقر [illegible] ولا [illegible] من [illegible] منزلة

فقال الامير — لا أحب اليَّ من ذلك ايها الصديق الحبيب ، ولا سيما ونحن في هذا الموقف في ميدان النزال

ثم انتزع من عنقه صليباً من ذهب كان معلقاً بسلسلة ثمينة من الذهب ايضاً فناوله لمكسيم . وانتزع هذا من عنقه صليباً معدنياً فقبله وقال للامير — بهذا باركتني امي ونحن في حالة الفقر قبل ان دخل ابي في خدمة الملك. فخذه يا اخي وصنه لانه أثمن ذخيرة لديَّ

فتناوله الامير وعلقه في عنقه ثم ضم مكسيم الى صدره وتعانقا طويلاً

ولما فصلا بعضهما عن بعض قال مكسيم وهو يذرف دموع الفرح — الان انت اخي ايها الامير فلن يفرق بيننا شيء سوى الموت ، فعدوك عدوّي وصديقك صديقي ، وقد طابت نفسي فلن أشعر بمرارة الحياة بعد الان ، لاني وجدتُ من أعيش معه وأموت عنه

فقال نكيتا — وانت اخي بعهد الله وميثاقه ، فان أرضي بفرقتك ابد الدهر

قال — واذا كتبت لنا الحياة فاننا سنواصل خدمة الوطن العزيز بكل ما أوتينا من قوة وحمية ، ولكن في غير دائرة رجال الحرس وفي غير جوّهم القاتم

ثم صمت مكسيم ، وأطرق الامير يتفكر

وانهما لفي ذلك واذا بهما يسمعان جلبة قوية واصواتاً ترتفع من جهة مخيم التتر . ثم ابصرا خيولاً شاردة في عرض القفر ، ومرَّ بعضها بازائهما . فوثب الامير الى ظهر جواده واخترط سيفه وصاح برجاله ، فركبوا وهجم وهم يتبعونه كأنهم يسابقون الرياح

ولما أشرفوا على مخيم التتر أبصروا حريقاً هائلاً في بعض جوانب المخيم ، والتتر يتراكضون ويتدافعون من جانب الى جانب ، وقد تصاعدت فوق رؤوسهم غيوم الدخان ووقعت فيهم الحيرة والارتباك وذابت قلوبهم فرقاً . فاستل اللصوص سيوفهم وأطبقوا عليهم يقاتلونهم قتال الاسود ، والامير يشجعهم بمثاله قبل كلامه . فانه كان يهجم الى اشد المواقع خطراً ويحمل على الاعدآء حملات تدك الجبال

وما أشرقت الشمس حتى تغطت تلك البقعة بجثث التتر وركن الباقون منهم وهم جمهور كبير الى الفرار . وكان امامهم نهر صغير فعبروه الى شاطئه الآخر بقيادة الامير شيخمات . وكانوا قد عاد اليهم روعهم فوقفوا واخذوا يرشقون اللصوص بنبالهم ويطلقون عليهم العيارات النارية . ولما لم يكن مع اللصوص سوى السيوف والحراب تعذر عليهم اللحاق بالاعدآء . ورأى هؤلآء تخاذلهم فاشتدت عزيمتهم واخذت فرق منهم تجتاز النهر الى حيث كانوا اولاً . فجمع الامير رجاله وحضهم على المكافحة والثبات الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً . . غير ان اللصوص كانوا قد شعروا بقلتهم وضعفهم ، فرغبوا الى الامير ان يأمر بانسحابهم من ميدان النزال لئلا تفنيهم نار العدو وليس معهم ما يدافعون به . . فوقف الامير واجماً وقد اخذته الحيرة

وفيما هو كذلك دنا منه برستن وقد طفح وجهه سروراً وبيده سيفه يقطر منه الدم وقال له — لا تقنط يا سيدي ، فالله معنا !

فدهش الامير وسأله عن مراده فقال — في تلك الجهة المقابلة ارى جيشاً واظنه روسياً وهو آت لنجدتنا

فقال بعض اللصوص الذين سمعوا كلامه — ومن اين للجيش الروسي ان يصل لنجدتنا في مثل هذه السرعة ؟ . . واذا كان هناك جيش فلا شك انه نجدة للتتر لا لنا ، ولعلها من جيش الخان الذي أشار اليه التتري الاسير

فقال برستن — انهم روسيون بلا شك لانهم مشاة ، والتتر لا يزحفون مشاة . .

وما كاد يتم كلامه حتى كان الجيش المشار اليه قد اقترب من التتر من الجهة الاخرى والتحم بين الفريقين القتال . فسر اللصوص وتقويت عزائمهم . وكان الامير نكيتا قد سُرّي عنه ايضاً وامر رجاله فعبروا النهر وأغاروا على الاعداء من المؤخرة . وكان بين الفريقين ساعة هائلة دارت فيها الدائرة على التتر وقتل منهم خلق كثير

وفي اثناء المعمعة مر مكسيم بجانب الامير فقال له — الحمد لله يا اخي . فقد تغلبنا على الاعداء وظفرنا بهم ظفراً باهراً

فقال له الامير — ولولا هذه النجدة لدارت علينا الدائرة . أنظر الى قائدها فانه قد أبلى في هذه الواقعة بلاء حسناً . فمن هو يا ترى ؟ . . وقد خُيّل اليَّ اني رأيته قبل الان . . ولكني لا أذكر أين رأيته ومن هو ؟

فقال مكسيم — انك تعرفه بلا شك . . فهو الذي أطلق عليك الدب في باحة قصر الملك . . وهو ثيودور باسمانوف بعينه ولكنه بعمله اليوم قد كفر عن جميع سيئاته ومآثمه

فدهش نكيتا لدى سماعه ذلك . لان ثيودور هذا كان مشهوراً في البلاط الملكي بالخلاعة والبذاءة . . ولكنه مال اليه الان لبسالته وتفننه في اساليب الطعان . وود ان تنتهي المعركة ليجتمع به ويمد اليه يد الولاء والاخاء

اما مكسيم فلم يلبث في محادثة الامير طويلاً . بل لوى عنان جواده وانثنى راجعاً الى النزال وقد طفح السرور على وجهه وملأت السعادة قلبه ، والامير ينظر اليه ويعجب من شجاعته وعدم مبالاته بالمخاطر

وبينما مكسيم يجد في اثر التتر وهو لا يحسب للخطر حساباً ، ارتد عليه بعضهم يقاتلونه قتال اليأس ، وصوب احدهم الى صدره سهماً اخترقه وجندله عن جواده الى الارض . . وكان الامير قد رأى من موقفه ما يتهدد اخاه ، فهجم ليحميه ، وكانت الفرصة قد فاتت وراح مكسيم شهيد البسالة والاقدام . .

ولم يكن الامير ينتظر مثل هذه الخاتمة المحزنة في مثل تلك الساعة ، وقد انتهى القتال وصرع جمهور كبير من التتر ولاذ الباقون بالفرار متشتتين في كل جانب ، والروسيون يجرون في اعقابهم وقد أعلنوا في ثغورهم النصر وهم يصيحون صياح الانتصار ويقسمون ان لا يبقوا منهم احداً . .

وليس للقلم ان يصف حالة نكيتا حينما وصل الى حيث كان مكسيم ورآه مطروحاً على الارض يتدفق الدم من صدره وقد أغمضت عيناه . فقفز عن جواده وانحنى على اخيه يقبله ويناديه وهو يئن انيناً موجعاً ويبكي بكاء مراً . ثم رفع رأسه المعفر بالتراب فألقاه على صدره وصاح بصوت يئن — مكسيم ، مكسيم ! أأنت حي بعد . . افتح عينيك وسمعني صوتك يا اخي ! . .

ففتح مكسيم عينيه الذابلتين ومد الى الامير يده ثم قال له بصوت متقطع وصوت خافت — الوداع يا اخي الحبيب ! . . ان الزمان ابى الا ان يفرقنا . . فأنا ذاهب عن هذه الارض التي لم ار فيها سوى شقاء . . ولكن واأسفاه على قلب وبقي حزيناً حين يسمع خبري ! . .

فقال الامير وقلبه يتمزق حزناً — آه يا اخي . . آه يا أخي ! . .

ثم ان مكسيم تجلد وعاد الى الكلام فقال — وأعظم ما أرجوه منك يا أخي أن تقابل والدتي عند عودتك ، فتلطف بقلبها الكسير وتقول لها « ان ولدك مات وهو يذكرك ويرجو رضاك »

فقال الامير وهو لايملك دموعه — سأفعل ذلك

قال — وخذ هذا الصليب من عنقي وأعطها اياه . . واما صليبي فأبقه معك تذكاراً دائماً

قال — وهل بقي في صدرك شيء تفضي به الي ؟ . . فعلى من تأسف بعد والدتك ؟ . . أليس لك حبيب تريد ان توصل كلاماً اليه ؟ . . قل ولا تخجل لاني أود ان أقضي لك أوطارك كلها

قال — لم يدخل قلبي حب شيء سوى وطني العزيز . فانا أحبه اكثر من حبي لوالدتي ، وقد كنت أود ان أحيا لاخدمه وأزداد تفانياً في حبه والدفاع عن حياضه . . ولكن . . قد قضي الامر . .

ولما قال هذا أغمض عينيه وقد اشتدت حرارة وجهه وسرعة تنفسه . وبعد بضع ثوان نظر الى نكيتا ثانية وطلب ماء . وكان النهر قريباً ، فقام الامير مسرعاً ، ولم يلبث ان عاد يحمل في خوذته شيئاً من الماء . فلما جرع مكسيم منه قليلاً انتعش وقال — اني أشعر الان ببعض الراحة ، فانهضني قليلاً يا اخي لامتع بصري بمشهد فوزنا الباهر

ولما أنهضه الامير ، وأبصر مكسيم اندحار التتر والبقعة المغطاة بجثثهم تبسم وقال — لااود الان أن اموت ولكن . . .

ولما قال هذا تدفق الدم من فيه . . ثم سقط رأسه على صدر الامير

وفاضت روحه .. فأكب عليه الامير يقبله ويندبه ، وقد انصدع قلبه ..

ولم يكن الا القليل حتى احتشد اللصوص ورجال باسمانوف الى حيث كان الامير ،وقد تأثروا جميعاً لمصرع مكسيم وشاركوا الامير في ندبه ورثائه. ثم دفنوا جثة الفقيد بما يليق بمثله من ابطال المعارك

الفصل الرابع والثلاثون

« فيودور باسمانوف »

— — —

ولما انتهت المعركة على الوجه الذي ذكرناه امر فيودور باسمانوف جنوده ان ينزلوا في تلك البقعة للراحة والمبيت ، وامر ان ينصب سرادقه العجيب على صفة النهر ، وأرسل من يدعو الامير نكيتا لتناول طعام العشاء . ثم مشط شعره وادّهن وتعطر وجلس في صدر السرادق ، وأمامه فتى جميل الوجه قد جثا امامه على ركبتيه وحمل له في يديه مرآة ، فكان باسمانوف ينظر في المرآة ويتبسم اعجاباً وتيهاً .



راقصة روسية من عهد حديث

وكانت امارات المكر والدعارة بادية في وجهه وقد أيقن ان الامير نكيتا سيحتقره حينما يراه مهتماً بمثل هذه العادة وقد يعدّها سخافة لا تليق بالرجال ، فتعمد ان يأخذها هو

بالاحتقار انتقاماً وكبراً. ولذلك فلما دخل الامير عليه وحياه بلطفه وبشاشته لم يتحرك من مكانه بل حنى رأسه ، ولم يزد

فقال له الامير ببساطة — ما بالك ايها النبيل ؟ فهل تشكو من شيء ؟

قال — كلا . لا أشكو شيئاً ، وانما أشعر ببعض التعب . . وأرى أن وجهي يكاد يحترق

ثم تبسم وأصلح شعره الذهبي وعاود النظر في المرآة وهو يقول — ويؤنني ايها الامير أني لا أتمكن اليوم من الاستحمام حسبما اعتدتُ وليس لي ما يسليني هنا في هذه الارض الجرداء . . ولكن غداً ان شاء الله سأعود الى منزلي في البلدة القريبة من هنا وأدعوك لمرافقتي اليها ، فعسى ان أقوم بضيافتك هناك كما يليق بشأنك وترى ما لا تراه في قرية الكسندروفا بل وفي موسكو نفسها من الغادات الحسان والغلمان الملاح والملاهي والافراح ما يزيل الكروب ويبدد الاتراح . .

ولم يكن بكيت ينتظر مثل هذا الحديث ، فاشمأز وقال — أشكرك ايها النبيل على ذلك وارجو أن تعذرني لعدم تمكني من تلبية دعوتك

قال — ولم ذاك ،

قال — لاني أريد الشخوص الى قرية ألكسندروفا

قال — عجباً وكيف تعود اليها وقد فررت منها ، من السجن ؟

فقطب الامير وقال — لم أفر ، وليس الفرار من شيمتي ايها النبيل ، بل أخرجتُ من السجن قسراً . . ولذلك فانا عائد الى الملك لاني وعدته ان أظل في طاعته ما حييتُ فلا يمكنني ان أخلف وعدي

قال – ولكن الملك لا يضمر لك الا الشر . فلا تعد اليه ايها الامير ، وقد لا أعود انا ايضاً . .

قال – وكيف ذلك؟

فتنهد باسمانوف بمكر وقال – نعم ايها الصديق اني خدمت الملك احسن الخدم وأخلصها ، لم أضن عليه قط بشيء مما في وسعي . . ومع هذا فهو يحترم لبوتا سكوراتوف و وريس غودونوف وغيرهما اكثر مني

قال – اما انا فموقن كل الايقان ان الملك يحبك وقد رفع رتبتك وأدناك اليه اكثر من جميع الندماء والاخصاء

قال – غير ان ذلك لا يرضيني لاني طامح الى ما هو أعلى منه . فالخدم التي أقوم بها للملك لا يستطيع ان يقوم بها سواي . فاي امر فوضه الي ولم أنهض به اتم نهوض ؟ . . وزد على ذلك فهل للملك ان يجد بين ندمائه واخوانه من هو الطف مني صورة واجمل شكلاً واتم خلقاً

فلما سمع الامير هذا الكلام لاحت على وجهه علامات الانقباض . ولحظ منه باسمانوف ذلك فقال – وقل لي بربك يا الامير : هل رأيت شعراً حريرياً كشعري ، اوعينين نجلاوين كعيني ، اويدين ناعمتين كيدي .

فتضايق نكيتا وقد اخذ منه كلام باسمانوف كل مأخذ من الحجل

فقال – وقد سمعت ايضاً انك تسلي الملك برقصك . . . . ذلك درتك

فقهقه باسمانوف ضاحكاً وقال – واي حرج علي في ذلك ، ما دمت من اخصاء الملك ومخلصين له في السرّ والعلانية ؟ . . فهو اذا اراد ان ارقص رقصت او أغني غنيتُ . .

فازداد نكيتا انقباضاً وكدراً . ولم يتمالك ان قال – عفواً ايها النبيل !

فليس في امكاني بعد مثل هذا الكلام ان أجالسك او أشاركك في طعامك وشرابك ! .

قال هذا ونهض يريد الخروج

وكان باسمانوف حين سمع كلامه قد اتقدت عيناه بنار الغضب فقال - انا أعلم انك تكرهني منذ زمان . وكذلك جمهور النبلاء والامراء الذين على شاكلتك . . فانتم ترمونني بكل فرية وبكل تهمة باطلة تشفياً وانتقاماً . . ولكنني لا اهتم باحد منكم ، وسيان عندي رضيتم او غضبتم

فلم يجبه الامير بشيء بل حول ظهره ليخرج . فأمسك به باسمانوف قائلاً بلطف - ولو قال لي واحد غيرك هذا الكلام لما أحجمت عن مناقشته الحساب . . بيد انك الان ضيفي وقد أبليت في معركة اليوم احسن بلاء ، فلا أود مخاصمتك

فتوقف الامير عن الخروج وقال - وانت ايضاً قد أظهرت من البسالة والعزم ما يقل نظيره . . فهل يليق بمن هذه فعاله في حومة الوغى ان يخفض من شأنه ومقامه أو يتشبه بالنساء ويجاريهن قولاً وعملاً ؟

قال - لا تتعجب ايها الامير وثق اني لم اكن بهذه الاخلاق قبل مصيري الى قرية ألكسندروفا ودخولي في خدمة الملك . . وانا ان فعلت هناك شيئاً مما ذكرت ، فانما اكون بذلك مسوقاً بحكم الاضطرار ارضاء لرغائب الملك

قال - مهما كانت الاسباب فلست ارى لك عذراً في شيء من ذلك لانك من النبلاء ولا يحسن ان يعزى اليك شيء من تلك الخلاعات والفضائح

فقطب باسمانوف ثم قال - لكن هل تعرف ايها الامير طريقة

معيشتنا في قصر الملك؛ فنحن هناك نقضي الايام بلياليها في الصلوات والعبادات .. أفلا يحق لنا والحالة هذه ان نغتنم بعض الفرص لترويح النفس وتفكيهها بشيء من الملاهي؟.. وزد على ذلك فان الملك نفسه يرغب الينا في اكثر الاوقات ان نقيم حفلات الرقص والطرب حباً للتسلية وطرد السآمة والضجر. ولا شك انك لو كنت انت ايضاً في مكاني لما تأخرت عن الاشتراك في ذلك ولو بعض الاحيان

قال – معاذ الله ان أفعل ذلك او أشهد مثل ذلك ولو أفضى الامر الى اراقة دمي

فألقى عليه باسمانوف نظراً غريباً وقال – وهل تفضل الموت على مثل هذه الملاهي والمسرات؟

قال – نعم .. وهل تريد انت بفضل ذلك القصف ان يدعوك الناس «فيودورة» ؟.. وليس ذلك منتهى العار والدناءة ..

قال – قل ماشئت .. ولكن لا تنس انني من ندماء الملك ولا تسعني مخالفته مهما كانت العاقبة ومهما كان من القيل والقال .. غير اني أسألك الان ان ندع هذا البحث جانباً اذ لا فائدة تجنى منه. وهلمّ نفتكر في امر الاسرى .. فقد أسرنا نحن وانتم نحو مئة رجل من التتر. فما رأيك فيهم؟

قال – أرى ان نعاملهم كما يعامل عادة الاسرى ونفوض الامر لجلالة الملك

قال – اما انا فلا أرى رأيك .. وخير لنا ان نصفهم في عرض

البرية موثقين ثم نرميهم واحداً واحداً بالنبال ونحن منهم على بعد مئة خطوة ، وأينا قتل منهم اكثر فاز بقصب السبق على غيره في هذا المضمار

فنفر الامير لدى سماعه ذلك وقال — ليس ذلك من شيمتي ايها النبيل. فأنا لا أنازل احداً وهو مقيد

قال — اذا كان في ذلك ما يزعجك فاننا نحل وثقهم وندعهم يركضون ثم نصطادهم بالنبال واحداً واحداً

قال — وهذا ايضاً لا أفعله ولا أدعك تفعله لاننا لسنا في قرية الكسندروفا الان

فتململ باسمانوف في مقعده كمن لدغته عقرب وكاد يظهر عليه الغضب ، غير انه لم يشأ ان يخاصم الامير لانه رآه أقوى منه حجة وأصح رأياً فتبسم وقال — عجباً ايها الامير كيف انك تصدق كل شيء . . أفما عرفت بعد اني أمزح وأن كلامي كله معك انما هو مزاح ومداعبة ؟ . . اما انت فقد صدقته وتأكد لك اني أرقص بحضرة الملك واني افعل غير ذلك من الغرائب . . فثق الان بأني لم أجر شيئاً من ذلك ولا تصدق كل افك وبهتان واعلم بأني قد سئمت الحياة في البلاط ولا يسرني هناك شيء مادام ماليوتا سكوراتوف وبوريس غودونوف وباسيل غريازنوي والامير اثناسي فيازيمسكي وأمثالهم نافذي الكلمة لدى الملك وهو يميل اليهم ويصدق اقوالهم . . وقد رأيت رأياً ولا اخالك ترفضه .فثق بي ودعني أسبقك الى قرية الكسندروفا ، حتى اذا مثلت امام الملك أنبأته عنك وحدثته ببسالتك وفوزك المبين على التتر ، وأكون بذلك قد مهدت سبيل الصفح عنك ، فيستقدمك الملك اليه ويجعلك أقرب اخصائه . وانت متى صرت الى هذه

الحالة فلا يصعب عليك ان تكافئني بخدمة صغيرة تنفعني بها ولا تثقل عليك . وذلك انك تأخذ تشي اولا بماليوتا ثم بالامير اثناسي ثم ببوريس غودونوف ثم بغيرهم من ذوي المكانة العالية في القصر . واذا خدمك التوفيق فلا يمضي على ذلك الا ايام قليلة حتى يتغير الملك عليهم جميعاً و يعمد الى تنكيسهم . . وهكذا يصفو لنا الزمن ويصبح الملك رهن اشارتنا نديره كيفما نشاء ، وتكون انت بذلك قد خدمت نفسك وخدمتني . . فكيف ترى هذا الرأي ؟

ولم يسمع الامير نكيتا هذا الكلام حتى اقشعر جسمه ولم يعد في وسعه ان يحتمل مثل هذا التلون وهذه الرقاعة ، فظهرت على وجهه علامات الاحتقار الشديد لجليسه وقال له وهو في حدة الغضب — انصر عن هذا الحديث فان الذي تقوله لهو منتهى الخسة والدناءة وأنا ارفع من ان أسمع مثل هذا الكلام . .

فارتجف باسمانوف وقال — وهل انت تميل الى ماليوتا او الامير اثناسي او الى غيرهما من زعماء رجال الحرس حتى نفرت من كلامي ؟

فقال الامير وهو لايملك نفسه من شدة الانفعال — اني اكرههم وأكره جميع رجال الحرس كرهاً شديداً ولو سألني الملك عنهم لقلت له في حضورهم انهم أوغاد وأنذال . . أما أن أشي باحد من الناس ولو كان أشد أعدائي فهذا مما لم أتعوده ، ونفسي تترفع عما تعودتموه انتم من دس المفاسد والقاء الضغائن وما بين ذلك من التدليس والمصانعة . . .

فقال باسمانوف — فأنت اذاً لا تريد ان تقاسمني نعمة الملك !

فاجابه الامير — لا أريد . . نعم لا أريد . .

ثم خرج من السرادق وهو في اشد حالات الهياج . ولم يتمكن

باسماتوف هذه المرة من ارجاعه ، فلبث في مكانه يصرّ باسنانه وقد أقسم ان ينتقم من الامير على هذه الاهانة . . وبعد قليل نادى جماعة المغنين من رجاله واخذ يشرب و يطرب وهم يعزفون و يرقصون

اما الامير فلما خرج تنفس الصعداء وتوجه اولاً فزار حفرة اخيه مكسيم ثم انضم الى اللصوص ، وكانوا قد اجتمعوا في بعض جوانب تلك البقعة وأضرموا النار وجلسوا يأكلون و يلهون

الفصل الخامس والثلاثون

« الانفصال »

وما انبلج فجر اليوم التالي حتى كان اللصوص يتأهبون للمسير ، وقد وقف يرستن في وسطهم وقال — لم يعد في امكاني ان أبقى معكم ايها الرفقاء لان واجباً يستحثني للرحيل عن هذه الاصقاع . فانا منطلق الى جهات نهر فولغا ، فأستودعكم الله الان وأسألكم الصفح عن كل ما بدا مني نحوكم من الاساءة

فتعجب اللصوص وقالوا كلهم بصوت واحد — وكيف تتركنا ؟ والى اين نذهب بدونك ؟

قال — اذهبوا مع الامير فهو لا يتركم

فذهل اللصوص ووقفوا حيارى . فقال لهم الامير — اعلموا باني قد أقسمت لجلالة الملك ان لا أفرّ من حكمه . وكلكم تعرفون اني لم أخرج من

السجن الا مرغماً . ولهـذا فها انذا عائد الى الملك برًّا بقسمي . فهل تحبون ان ترافقوني ؟

قالوا — وهل يصفح لنا ويرحمنا ؟

قال — ان ذلك في علم الله ولا اريد ان أخدعكم او أعللكم بما ليس من ولايتي . . فقد يعفو الملك عنكم وقد لا يعفو . فتأملوا ملياً في هذا الامر ثم أجمعوا رأيكم وأخبروني

فتنحى اللصوص عنه وعن برستن الى جهة اخرى واخذوا يتداولون ويتشاورون . ولم يبطئوا ان عادوا وقالوا — اننا نتبعك اذا كان الزعيم معنا ايضاً

فقال برستن — ان ذلك يستحيل عليَّ الان ، كما انه لا يمكنني ان أظل معكم ، لاني وطنت النفس على الرجوع الى وطني الاصـلي في جهات نهر فولغا ولا سيما بعد ان صدر منكم بحقي ما صدر . فاما ان تنطلقوا مع الامير او ان تختاروا لكم زعيماً آخر غيري . . واني أنصح لكم ان ترافقوا الامير الى حيث يريد ، لان الملك لا بدَّ ان يعفو عنه وعنكم لاجل هـذه الخدمة الوطنية الخطيرة التي قمتم بها بأجمعكم

فلما رأى اللصوص أصرار برستن على الانفصـال عنهم تنحوا مرة اخرى وبعد مفاوضة طويلة انقسموا فرقتين ، فتقدمت احداهما الى الامير وكانت اكثر عدداً من الاخرى وقالت — ها نحن بين يديك فقدنا الى حيث تشاء

فقال الامير — وعلى اي شيء عزم أخوانكم الباقون ؟

قالوا – انهم اختاروا خلو بكو زعيماً ، فلم نرض نحن به وآثرنا الذهاب معك الى قرية ألكسندروفا

فقال برستن للامير – ان رجال تلك الفرقة لا يصلحون للانضمام اليك ، لانهم دون هؤلاء بسالة واقداماً وأخلاقاً

فقال له الامير – ولماذا لا تذهب انت ايضاً معنا ؟

قال – ان لذلك سببين . فالاول هو ان الملك لن يعفو عني لان جرائمي اكثر من ان تحصى ولا هي مما يعفى عنه . والثاني هو اني في أشد الشوق الى صديقي يرماق ، فلا بد لي من المسير اليه ، فقد مضى على فراقنا عدة سنوات حسبتها دهوراً طوالاً . فأستودعك الله ايها الصديق الباسل وأسأله تعالى ان ينيلك مبتغاك وان يجمعني بك مرة أخرى

ثم دنا منه فتعانقا طويلاً ، وانفصلا بعضهما عن بعض وهما في اشد الانفعالات النفسانية . .

ولما أشرقت الغزالة على تلك البطاح كان اللصوص قد تأهبوا للمسير . فنظر نكيتا الى المكان الذي كان فيه سرادق ثيودور باسمانوف فلم ير شيئاً ، فأدرك ان باسمانوف قد ترك تلك البقعة غلساً وسار بعسكره حثيثاً لتكون له الاسبقية في تبشير الملك بالغلبة . .

ولما تم تأهب اللصوص تقدم برستن اليهم يودعهم واحداً واحداً . ولما دنا من توما عانقه وهو يقول – بورك فيك ايها الفتى الباسل . فقد كنت في معركة أمس تقاوم عشرة ابطال ، فسوف يكافئك الملك احسن مكافأة

فقرك توما جبهته وقال – ولكنني لا اريد الذهاب الى قرية ألكسندروفا

فذهل برستن وقال — فالى اين تريد اذاً ؟

— أريد ان أرافقك

— والى اين ترافقني ؟ فانا ذاهب الى جهات نهر فولغا

— وانا ايضاً أذهب الى هناك

— ولمَ لا تذهب مع الامير ؟ هل تخشى رجال الحرس ؟

ففرك توما جبهته مرة اخرى ثم أصلح ثيابه وقال — انا لا أخشاهم وانما لا أحب ان أراهم لانهم اختطفوا عروسي

فضحك برستن وقال — فاذا كنت لا تريد ان تنسى الاساءة ولا تريد الا مواصلة الانتقام فانضم الى خلوبكو

قال — لا أريد

— فماذا تريد اذاً ؟

— أريد ان أذهب معك الى جهات فولغا

— اما انا فلا أريد ان انطلق الى هناك حالاً

— وانا كذلك

— وأريد قبل مبارحة هذه الديار ان ازور قرية ألكسندروفا

فقال توما وقد حدق اليه ببصره — ولاي سبب تريد ذلك ؟

قال — لاني في السنة المنصرمة أكلت هناك جوزاً ونسيت القشور

فنظر اليه توما بتعجب ثم ضحك ضحكة عالية كأنه أدرك ان برستن يريد بذهابه الى قرية الملك ليس لأجل قشر الجوز كما قال، بل لأمر آخر،

فقال — مهما كان السبب فلن أنفصل عنك

قال واذا ستوك هناك فلا تم لا تمسك

قال — اني لا أخشى احداً ما دمت برفقتك

قال — ودع اذاً رفقاك وهيا بنا..

ولما كان توما يودع اللصوص قال الامير لبرستن — فاذا كانت وجهتك قرية ألكسندروفا فطريقنا اذاً واحدة

قال — كلا ياسيدي. فأنا أسير في مسالك لا تعبرها انت وسأسبقك الى القرية بأيام كثيرة لأنه لا بد لك من التأخر قياماً بشؤون رجالك. واذا اتفق ورأيتني فأسألك ان لا تظهر انك تعرفني. ولكن الأرجح اننا لا نتقابل، فسأخرج من القرية قبل وصولك اليها، لأني لا اريد ان أقضي هناك الا وقتاً قصيراً لبعض شؤون لا بد من قضائها

فأدرك الأمير ان لبرستن سراً لا يود كشفه، وقد يكون ذلك كنزاً مطموراً في بعض ضواحي القرية او غير ذلك، فسكت ولم يسأله شيئاً

ولم يكن بعد ذلك الا القليل حتى سار اللصوص فرقتين في وجهتين مختلفتين. وكان الأمير قد زار قبر أخيه مكسيم آخر مرة ثم سار في طليعة رجاله على ضفاف النهر يتبعه بويان كلب مكسيم وهو محني الرأس كأنه عرف ما اصابه فظهر عليه الانكسار الشديد..

أما برستن وتوما فانطلقا في جهة اخرى انطلاق الرياح، ولم يلبثا ان توارايا عن الأبصار

الفصل السادس والثلاثون

« هبوط المسعى »

بعد ان مضى على كسرة التتر اسبوع كامل كان ثيودور باسمانوف قد

وصل الى قرية ألكسندروفا عائداً من ولاية ريازان،فشخص تواً الى القصر وصدره طافح بالمسرة،لأنه أيقن أن الملك سيرحب به ويتلقاه بجميع ضروب الاكرام والاجلال لأنه قام بالمهمة التي ندب اليها أحسن قيام.وقد ظن أن الملك لم يطلع بعد على تفاصيل الموقعة،فأمل ان يكون هو البادئ في هذه البشرى وصمم على أن يعزو شرف الظفر كله لنفسه،فلا يذكر الأمير نكيتا بشيء.غير أن الملك كان قد عرف تفاصيل المعركة قبل وصول باسمانوف الى القرية ولم يخف عليه شيء..

فلما مثل ثيودور بين يديه شرع يسرد له خبر الموقعة من اولها ويذكر له ضروب التفنن والفروسية والحنكة التي أبداها وكانت السبب في قهر التتر وكسرهم أوشم كسرة،وختم الخبر بقوله — وهكذا فاني بذلت وسعي وطوحت بنفسي الى اشد المخاطر في سبيل مرضاتك ياسيدي الملك،فلا تنس أنت أيضاً عبدك الأمين الذي كاد يجود بروحه في ساحة الوغى حباً لخدمتك وخدمة البلاد ، وهو مستعد أبداً لقضاء كل ما تأمر به جلالتك من امثال ذلك

وكان الملك مقبلاً على باسمانوف يسمع كلامه بأتم الاصغاء . . ثم تبسم وقال في دهاء — وبماذا تريد أن نكافئك جزاء هذه الخدمة ؟

قال — بالذي تراه أصلح لشأني وأرفع لمقامي في عيون رجالك

قال — وكيف تشير علينا أن نكافىء الامير نكيتا ؟ فأنه على ما بلغنا قد أبلى في هذه المعركة أحسن بلاء ، ولولاه لتغلب عليكم التتر ومزقوكم كل ممزق

ولم يكن باسمانوف ينتظر مثل ذلك الكلام . فأطرق هنيهة وهو

غائص في لجة من الافكار المقلقة . ثم رفع رأسه وقد امتقع لونه واتقدت نار الحسد في صدره وقال — وهل نسيت أيها الملك أن الامير نكيتا هو أحد المجرمين الكبار وقد فر من السجن ؟ فبماذا تريد أن تكافئه بغير المشنقة ؟ أما أنه أبلى في المعمعة بلاء حسناً فهذا مناف للواقع والذي أبلغك الخبر كاذب لا محالة.. فان الامير نكيتا قد كاد بسوء تدبيره وعدم انتظام رجاله أن يفسد العمل ويجعل الغلبة للأعداء ، ولعله قصد بذلك مناصرتهم علينا لأهواء في نفسه لا يعلمها الا الله

فألقى الملك نظرة ازدراء على باسمانوف وقال — حسبك من مثل هذا الكلام ، لاني عرفت تفاصيل الواقعة اكثر مما تعرفه انت ، فلن يتأتى لك والحالة هذه ان تشوّه عليَّ الحقيقة وتنسب كل الفضل لك . وهل نسيت وقائعك السابقة ؟ ففي ايها نجحت ؟ . . اما نجاحك في هذه الوقعة فيعزى كله الى الامير نكيتا بلا جدال . فهو قائد مدرب وبطل مغوار لا يهاب المنية ولا تزعه المهالك ، وقد كان الظفر حليفه في سائر المعامع التي خاض غمارها سواء كان ذلك في بلاد نفقا او في حروبه مع التتر وغيرهم من اعداء البلاد . . وجئت انت الان تختلس فضله كله وتعزوه لنفسك في قحة وبلا حياء

وكان باسمانوف كمن يسمع الحكم المبرم عليه . . فلما فرغ الملك من كلامه قال له بصوت يرتجف من شدة الغيظ — لم يكن في حسباني يا سيدي الملك ان تعاملني بمثل هذا الفتور وتقابلني بمثل هذه القسوة ، وانا لم أقم حتى الان الا بما يرضيك . . أجل يا مولاي انني أتفانى في خدمتك ومرضاتك اكثر من ماليوتا سكوراتوف وبوريس غودنوف والامير

اثناسي فيازيمسكي وغيرهم من الاخصاء ، ولكنك تفي الجميع حق خدمهم وتغمرهم بالنعم السنية وترفع مقاماتهم ورتبهم ، واما انا فلا تلتفت اليَّ ، بل تصم أذنيك عن سماع ندائي وتحسب حسناتي سيئة وخدمتي ذنباً

فقال الملك متهكماً — الحق معك . . فان اولئك الاخصاء لا يجارونك في الرقص ! . . فانت تفوقهم جميعاً من هذا القبيل

فلما سمع باسمانوف ذلك شعر ان الدم جمد في قلبه ، فلم يتمالك ان قال — فاذا كنت غير أهل لخدمتك فاصرفني من امام وجهك ولا تدعني أذوب كمداً . .

قال باسمانوف هذا وهو يأمل ان يلين الملك فيشفق عليه و يرثي لحاله غير ان الامر كان بالعكس ، لان الملك كان قد فترت محبته له من يوم الحكم على ولي العهد بالاعدام . وكان ذلك الفتور يزداد يوماً فيوماً ، ومااليوتا لا يدع فرصة تمرّ دون ان يغتنمها للسعاية به

ولذلك فلما فرغ باسمانوف من كلامه نظر اليه الملك بعبوسة وقال له بلهجة الآسف المزدري — ولئن كان ابتعادك يشق علينا لانك عضدنا ونصيرنا ، غير اننا نسمح به اضطراراً ونحن على يقين بان شؤون المملكة ستختل ببعادك وتضطرب احوالنا الداخلية والخارجية معاً . . فاذهب اذاً على بركة الله الى حيث تشاء ، فلسنا نريد ان نعترضك في ارادتك او نحول دون بغيتك . .

ولم يطق باسمانوف احتمال مثل هذا الاستخفاف به ، فتبدلت سحنته وتصبب العرق البارد من جبينه . ولم يلبث ان نهض وقال — أشكرك يا سيدي الملك على ما تفضلت به . أشكرك لانك تطردني من امام وجهك

وانا لم أجن اثماً ولا أتيت منكراً. وها انذا سأطوف البلاد أتحدث بعطفك عليَّ وميلك اليَّ. فقد خدمتك وكافأتني احسن مكافأة . . على اني أحمد الله لاني لم أزل مخلصاً لك في السر والعلانية ، ولم أتوسل بالسحر ولا بغيره من الامور الخفية التي يتوسل بها بعض اخصائك توصلاً لنيل مآربهم وهم يظهرون لك منتهى الاخلاص وحسن الوفآء

ولما قال هذا تحوّل يريد الخروج فاسترقفه الملك بقوله — قلت ان البعض يتوسلون بالسحر . . فمن هم ؟

قال — واي فائدة من ذلك ايها الملك ؟

قال — قل . فانا آمرك بذلك . قل من عرفت من هؤلآء الاخصاء الذين يستخدمون السحر لقضآء اوطارهم ؟

قال — قد عرفت واحداً منهم الان وهو الامير اثناسي فيازيمسكي . فانت تحبه ولا تزال تغمره بالنعم التي لا حدّ لها وتطلق له ان يفعل ما يشآء ، بينما هو يغتنم كل فرصة فيشخص الى موسكو ومنها ينطلق الى طاحون في وسط غابات وهناك يقضي اوقاته في السحر وسائر اعمال ابليس بقصد أذيتك واغتيالك . . وهذا الامير هو من أقرب أخصائك وانت تثق به الثقة العميآء . . فهل رأيت كيف يكافىء محبتك اياه وارتياحك اليه ؟ .

وكان هذا الكلام وقع أنكى من الحسام في قلب الملك . فهاجت فيه الافكار وماجت ، وبقي مدة مطرقاً عابساً ، ثم رفع رأسه وقال — وانت كيف عرفت ذلك ؟

فقال باسمانوف وقد أيقن بنجاح الشرك الذي نصبه — عرفت ذلك من خدم الامير نفسه

قال — ولماذا لم تنه اليَّ الامر قبل الان ؟

قال — لانى لم اطلع عليه منهم الا اليوم

فأطرق الملك قليلاً ثم قال — اذهب الان ولا تبرح القرية قبل ان تقف على امري وسأتحرّى هذه القضية بنفسي

فخرج باسمانوف وهو مسرور لانه أدرك بعض النجاح في تغيير قلب الملك على احد مناظريه ومزاحميه ، وقد سرّي عنه بذلك بعض قلقه واضطرابه

الفصل السابع والثلاثون

« شكوى موروزوف »

بعد انصرف تيودور باسمانوف خرج الملك الى ديوان القصر وقد أحاط به بعض رجال الحرس من كل جانب . فطلب ان يقدَّم اليه النبلاء الذين حضروا من موسكو ومن غيرها من المدن والاقاليم لمواجهته في شؤونهم واحوال اقاليمهم . فكان يحادثهم واحداً بعد واحد فيقضي حاجاتهم ويزوّدهم بالاوامر اللازمة ويصرفهم . وفي آخر الكل دخل احد الحجاب وقال — بقي النبيل دروجينا موروزوف وهو يسأل جلالتك ان تأذن له في مواجهتك

فجحظت عينا الملك وقال — عجباً ! أو موروزوف هنا ؟ . . فقد نمي اليَّ انه قضى فريسة النار يوم احترق منزله . . فأدخله لننظر في امره ، فقد عفوت عنه منذ زمان

وبعد قليل دخل النبيل موروزوف تحفُّ به المهابة والجلال . ولما دنا من الملك جثا امامه على ركبتيه ودعا له بالتأييد :. وكانت الانظار قد أحدقت به والجميع أنصتوا ليسمعوا كلامه

وكان النبيل أصفر الوجه تدل ملامحه على الحزن الشديد ، وقد بقي على جبهته اثر جرح أصيب به من سيف الامير اثناسي فيازيمسكي يوم هجم عليه وسبي امرأته . . وكان مرتدياً ثوباً بسيطاً ليس عليه شيء من علامات العظمة والأبهة

فنظر اليه الملك وقد تذكر حالة هذا الشيخ وأنفته وكبرياءه ، وقابلها بحالته الان وهو ذليل منكسر ، فسرَّ لهذا الانقلاب العظيم ، لانه كان يكره موروزوف ويكره فيه تصلبه بآرائه وشموخ نفسه ويعدُّه بسبب ذلك عدواً له . . بيد انه أراد الان وقد رآه بتلك الحالة ان يظهر له المودَّة والعطف فقال — ما بالك ايها النبيل مرتدياً هذا الثوب البسيط وانا قد عفوت عنك منذ زمان ؟

فاجاب النبيل وهو لا يزال جاثياً — وهل يليق بي ايها الملك ان أرتدي الثياب الفاخرة وقد هجم عليَّ رجالك ، فدمّروا منزلي وسبوا امرأتي بقيادة احد اخصائك الامير اثناسي فيازيمسكي ؟! . .

فقال الملك — انهض وأطلعني على جلية الخبر . واذا ظلمك احد فلن يفلت من العقاب ولو كان اقرب الناس اليَّ

فلم ينهض موروزوف بل لبث جاثياً وقال — مر اذاً ايها الملك بطلب الامير اثناسي الى هنا ، ليسمع كلامي ويجيب عنه

فأطرق الملك هنيهة ثم قال — أصبت . . وأنا أيضاً أريد ان أجمعك بالامير اثناسي ليسمع شكواك بنفسه

ثم امر بعض الحجاب باستدعاء الامير ، وامر موروزوف ثانية ان ينهض ويجلس ، ففعل

وكان قد مضى على الحادثة التي جرت في منزل النبيل موروزوف اكثر من شهرين كان الامير اثناسي في خلالهما قد برىء من جراحه وعاد الى المعيشة في قرية ألكسندروفا كعادته السابقة . غير انه كان شديد الاكتئاب حزيناً للغاية ، لانه لم يسمع عن هيلانة شيئاً ، وقد جهد نفسه للوقوف على شيء من اخبارها ، وبثّ للبحث عنها العيون والارصاد فلم يفز بطائل . . فسئم الحياة وعاف الملذّات والملاهي وكان يقضي اوقاته خالياً بنفسه لا يشارك رجال الحرس في حفلاتهم ومسرّاتهم ، حتى دهش الجميع لتغير اطواره ونسبوا ذلك لعارض جنوني نزل به من شدّة الصبابة والهيام . . وكان الملك لا يدخر واسطة لتسليته الاّ فعلها ، ولكن مساعيه كلها قد ذهبت بلا جدوى . . غير أنه اذ سمع عنه من باسمانوف ما سمع تغير عليه فجأة وصار يسعى لكشف أسراره ونياته ، وقد أيقن أن له من الخفايا ما لا يجوز الاغضاء عنه . ولذا فلما حضر موروزوف وعرض شكواه تلقاه بالاصغاء وحسن المقابلة ورضي أن يحضر الامير للمحاكمة ، وقد أمل أنه سيطلع بهذا الجمع بين الخصمين على كثير مما يريد تحقيقه

***

وبعد هنيهة حضر الأمير أثناسي ، وقد دل ظاهره على ما سرى في

باطنه من الاحزان والشدائد فتجعد وجهه وخطف لونه ولزمته العبوسة الدائمة

فقال الملك — تقدم الى هنا يا أثناسي وقف أنت ايضاً يادروجينا وأخبرني بالتفصيل عن الحادث الذي جرى لك ولا تخف شيئاً

فنظر النبيل الى الملك وسرد عليه قصته بتمامها . فذكر له امر هجوم الأمير اثناسي واحراق منزله وسبي امرأته . . الى غير ذلك من البلايا والكبائر التي انزلها الأمير ورجاله به وهم انما جاءوا اليه من قبل الملك بمظهر الصداقة والولاء

فوجه الملك حينئذ كلامه الى الأمير اثناسي قائلاً — وهل جرى ذلك كله كما قرر النبيل ؟

فدهش الأمير من هذا السؤال ، لأن الملك كان قد عرف الحادثة بتفاصيلها بعد وقوعها حالاً . . فقال — نعم

فقطب الملك والقى على الأمير نظراً حاداً ثم قال — وكيف تجرأت على هذه الفعلة الوحشية ؟ . . وهل بلغ منك ومن رفقائك الحراس ان تسطوا على بيوت الناس وتنهبوها ؟

فازداد الأمير حيرة وقال — انت تعلم يا سيدي الملك ان احراق منزل النبيل قد تم بغير امري . . واما سبي ربة المنزل فقد كان باذن منك

فاستشاط الملك غيظاً وصاح به — باذن مني ؟ . . ومتى أذنت لك في ذلك ؟ . . انك تهذي ايها الرجل ! . .

فلما سمع الأمير ذلك سقط في يده ولم يدر ما يقول ليبرر نفسه ... ان الملك نفسه قد اباحه سبي امرأة النبيل ، وهو الذي ارشده الى ذلك بتلك الحكاية التي سردها له في اثناء الوليمة ، فكيف يحاول الان نفي ذلك الأمر ؟ . .

وكان الامير الى تلك الدقيقة يكره الحيـاة ويود ان يتخلص منها ولكنه اذ علم الان ان هيلانة لم تزل بعيدة عن زوجها ، وانه قد لا يعـدم الوسائل الفعالة للحصول عليها ، عاوده حب الحياة وجرى في عروقه دم الرجاء ، وعزم على ان يدفع التهمة عن نفسه بكل طريقة ، فقال للملك —

كلاّ يا مولاي ! انك لم تأذن لي في سبي زوجة النبيل ، وانما أمرتني ان أنطلق الى منزله وأبلغه رضاك وعفوك عنه . فأخذت فرقة من رجال الحرس وذهبت اليه لاقوم بالمهمة التي ندبتني اليها . . ولا يخفى ان النبيل يكرهني منذ زمان وقد أضمر لي السوء لما كان قد حصل بيني وبين امرأته من العلائق قبل ان صارت اليه . وكان عنده اذ ذاك الامير نكيتا فصمما على الايقاع بي . . وبعد المأدبة هجما برجالهما علينا وهم يحاولون ان يفتكوا بي وبرجالي ، فدافعنا عن انفسنا وقابلناهم كما قابلونا . . وكانت امرأة النبيل قد خافت على نفسها من زوجها ، فسألتني ان أحميها ولا أتركها ، فحملتها من منزلها على جوادي باختيارها التام ، وما كدت أبعد عن منزل النبيل حتى أثرت بي الجراح التي نالتني منه ومن الامير نكيتا ، فسقطت عن الجواد لا أعي شيئاً ولم أسمع عن النبيلة بعد ذلك خبراً ، فلعلّ زوجها ظفر بها بعد الحادثة فحبسها او قتلها لينتقم مني . . واني لفي غاية العجب منه . . كيف يهجم عليّ في بيته ويفعل ما فعل ثم يأتي فيشكوني ، مع ان الحق في الشكوى ايها الملك هو لي لا له . . .

ولم يكن للملك ينتظر مثل هذه الوقحة الظاهرة وهذا الكذب الفاضح

بيد انه سكت ولم يعترض الامير في شيء ، وقد خطرت له اذ ذاك افكار ومآرب

وكان موروزوف يسمع كلام الامير اتناسي و ينتفض من شدة الغضب. فلما فرغ الامير نظر اليه موروزوف بازدراء ، وقد نسي انه بحضرة الملك ، فقال — انك كاذب ومخاتل ! . . وليس لي ما أقوله لك غير هذا . . . ولكني مستعد ان أقسم في حضرة الملك بالله والشرف اثباتاً لصدق كلامي وادحاضاً لترّهاتك وبهتانك ! . . .

ثم التفت الى الملك وقال — مره يا سيدي الملك ان يردّ عليّ زوجتي او يرشدني الى مكانها

فنظر الملك الى الامير وقال — فبماذا تجيب موروزوف ؟

قال — قد قلت لك يا سيدي اني سقطت على الطريق لا أعي شيئاً ، لان الدم كان يتدفق من جراحي بغزارة . وقد وجدني على تلك الحالة رجالي فحملوني الى طاحون في بعض اطراف الغابة . ولولم يعالجني الطحان و يقطع نزيف الدم لكنت قضيت نحبي لا محالة . . وما اخذني رجالي لم يكن بجانبي لا جوادي ولا زوجة احد . . ودعواه عليّ في ذلك باطلة

فلما سمع الملك ذكر الطاحون والطحان ازدادت شكوكه في الامير اتنسي وصدّق وشاية باسم نوف . غير انه أخفى ذاك في صدره الى فرصة أخرى وقال — ان الشريف موروزوف مستعد ان يقسم على صحة دعواه

فقال الامير — وانا ايضاً مستعد ان اثبت كلامي وأدحض دعواه بأغلظ الايمان

لكن الحضور قد دهشوا لوقاحة الامير وكذبه ونفاقه ، لانهم عرفوا

كيف جرت الحادثة وقد شهدها كثيرون منهم . . وهم ولئن كانوا اشراراً، الاّ انهم ذُعروا ولم يصدقوا ان مثل الامير اثناسي يقدم على القسم الكاذب بالله و بالشرف . .

ولم يكن الملك ينتظر مثل هذه الدناءة التي عزم الامير عليها وهو على جانب عظيم من نبل الاصل وشرف المحتد . . غير انه لم يزجره ، بل أطرق صامتاً مفكراً يلتمس حلاً لهـذا المعمى ليتسنى له معاقبة الاثنين دفعة واحدة . .

وبعد قليل رفع رأسه وقال لجماعة الحرّاس الواقفين – لا يمكن ان يكون الحق في جانب الاثنين اذ لا بدّ ان يكون احدهما كاذباً . . ولما كنتُ لا أريد هلاك نفس احدهما فليتحا كما في ميدان النزال وليفعل الله ما يشاء . وقد صحت عزيمتي ان يكون لهما بعد عشرة ايام يوم مشهود يتبارزان فيه في ساحة الكبرى ، فمن نصره الله كان صادقاً ومن خذله كان كاذباً ، وهو ان قتل من خصمه نال جزاءه والاّ فستناله يدُ الجلاّد . .

ولما سمع رجال الحرس هذا الحكم أيقنوا ان الملك انما يريد بذلك اهلاك موروزوف لا محالة لانه شيخ طاعن في السن ، لا قبل له بمبارزة الامير اثناسي وهو فى شرخ شبابه ومنتهى نضارته ، وظنوا ان الشيخ سيعترض على هذا الحكم ولا يقبله ، او يستأذن بان يقيم عنه هذه الساية مبارزاً بالاجرة . . غير ان موروزوف لم يفعل بل حنى رأسه للملك وقال في وقار وسكينة – ليكن ما أردت ايها الملك ! . . اني ضعيف وطاعن في السن ولم أتقلد عدّة الكفاح منذ مدة طويلة ، ولكن حاشى للعدل الالهي ان ينتصر لغير الحق . . فانا راض بمبارزة الامير وتارك الانتقام لله وحده

وكان الامير اثناسي حالما سمع كلام الملك قد سرَّ واستبشر وأفعمت نفسه آمالاً لما يعلمه في نفسه من القوة والتفنن في اساليب البراز ، بالقياس الى خصمه وهو في غاية الضعف والشيخوخة . . ولكنه ما سمع كلام موروزوف حتى خفق قلبه وداخله الشك في الفوز وخاف عدل الله . فوجم وارتعد ، غير انه كتم ما به وقال بدون تردد — امرك مطاع يا سيدي الملك !

فقال الملك له ولموروزوف — انصرفا الان الى حيث تشاءان . وبعد عشرة ايام تبادران الى الساحة الكبرى مصحوبين بشهودكما وكفلائكما ، والويل لمن ينتقم منه عدل الله ! . .

ثم ودعهما وعاد الى مخدعه . فخرج موروزوف من الردهة بقدم ثابتة وعلى وجهه امائر العظمة ، وهو لا يكاد ينظر الى احد من رجال الحرس

الفصل الثامن والثلاثون

« البراز »

وفي اليوم الثاني ظعن الامير اثناسي من قرية الكسندروفا شاخصاً الى موسكو وهو عرضة لتلاعب الاماني وتدافع الهواجس والتأملات . كانت افكاره منصرفة الى امرين وهما البراز والحصول على هيلانة ، وقد يقن انه اذا فاز في الاول فلا بدَّ ان يتوصل الى الثاني ، فعزم ان يتهيأ للبراز بكل وسيلة تؤول الى فوزه ونجاحه . غير انه لما كان شاعراً بان الارجحية في ذلك ستكون لصاحب الحق في الدعوى ، وما هو الا كاذب

مفتر ، خاف عاقبة الامر وخشي غضب السمآء ولا سيما وانه كان يشعر حتى ذلك الوقت بشيء من آلام الجراح التي اصابته في اثناء المعركة الليلية في منزل النبيل مرروزوف . . ولما قوي فيه هذا الخوف عزم على ان يكاشف صاحبه الطحان بما في ضميره ، ويطلب منه المعونة والارشاد ليقوى على خصمه وينال بغيته .. وبهذا العزم وبتلك الآمال ركب جواده وخرج من موسكو وسار بين الغابات في الطريق المؤدّية الى الطاحون . ولما أشرف عليها وبلغ بعض اطراف البقعة المحيطة بها رأى عن بعد شبحين كان احدهما الطحان نفسه فعرفه ولم يتمكن من معرفة الآخر . وكان قد ترجل عن جواده فربطه الى بعض الاشجار وسار مشياً على الاقدام ، وهو يودّ ان يعرف الشخص الاخر ويسمع ما يدور بينه وبين الطحان من الكلام . وقد حدّثته نفسه ان في الامر نوعاً من الدسيسة

ثم كمن ورآء بعض الاشجار وأرسل نظره فأبصره جواداً مطهماً عليه عدّة فخمة ، وقد وقف صاحبه بازائه وهو مقبل على الطحان يحادثه بمزيد الاهتمام ، وكان الطحان يقول له — ثق ايها النبيل بمهارتي وحسن تدبيري فسوف تعود المياه الى مجاريها وتصبح أحبّ الاخصاء الى الملك ، وانا أضمن لك انه لا تمضي مدة قصيرة حتى يسقط الامير اثناسي ثم غيره وغيره من اعدائك ومناظريك ويسطع نجمك في أفق السعادة والاقبال . وهذه العشبة التي أعطيتك اياها الآن فريدة في نوعها ولها من الخواصّ والمزايا ما يحير الالباب

وكان الامير اناسي قد سمع اسمه وبعض كلمات متقطعة من كلام الطحان لم يفهمها ، لان خرير الماء ودوي حجر الطاحون حالا دون سماع

الكل ، فجمد في مكانه وأصغى لعله يسمع شيئاً آخر يقفه على بعض هذه الغوامض

ولما فرغ الطحان من كلامه قال له الرجل المجهول — سأفعل بما أشرت، فان افادني علاجك غمرتك بالصلات والهدايا ، والاَّ فلا يكون جزاؤك الا الشنق

قال هذا وامتطى جواده يريد الانصراف

وكان الامير قد سمع هذا الكلام . ولما رأى صاحبه في صهوة جواده عرفه للحال انه ثيودور باسمانوف ، فتعجب من وجوده في ذلك المكان . غير انه لبث في مكمنه مصغياً فسمع الطحان يقول له — لا تنس ان تحمل العشبة في عنقك تحت اثوابك ولا تتغاض عن التقرُّب الى الملك ، فتردَّد عليه وأظهر له سرورك وفكههُ على الدوام بطرائف النوادر ولطائف الاخبار

ولما فرغ من كلامه لوى باسمانوف عنان جواده ورجع من حيث اتى وهو مستبشر بنجاح مسعاه . وقد مرَّ في طريقه على مقربة من الاميراثناسي فلم يشعر به . وكان الامير تام الثقة في باسمانوف وأيقن انه سيكون له عدوًّا ومناظراً . ولكنه تذكر الحب والزواج والامر الذي قدم لاجله فلم يكترث لشيء

وكان الطحان بعد ان شيَّع زائره بنظره قد جثم على الارض واخذ يعدّ القطع الذهبية التي نفحه بها وهو في غاية الجذل والحبور . وانه لكذلك اذ شعر بيد ثقيلة ألقيت على كتفه، فالتفت فأبصر وراءه الاميراثناسي فياز يمسكي وعلى وجهه اصفرار الذعر والرعب وتلجلج منطقه . فقال له الامير وقد أرسل

اليه نظراً حاداً – أخبرني ايها الساحر عن علاقتك بباسمانوف ، وما هو الامر الذي جاءك به ؟

فأجاب الطحان وهو يرتعد فرقاً – اهلاً وسهلاً بك يا مولاي . . أخبرني انت اولاً عن صحتك ! . .

فقطب الأمير وقال – أطلعني حالاً على جلية الامر قبل ان أذيقك العذاب ألواناً . . وقد سمعتكما تذكران اسمي ، فما الداعي الى ذلك ؟

فأخذ الطحان يحرك جبينه ولا يدري ما يقول

وكان الامير قد عيل صبره ، فوثب الى عنقه وقبض عليه بكلتا يديه ، ثم جرّه الى الماء وهو يتهدّده بكل ويل

فقال الطحان وقد طارت نفسه شعاعاً – سأذكر لك حديثنا كله ولا أخفي شيئاً ، فلا تفعل بي مكروهاً

فتركه الأمير قائلاً – هات فأخبرني اذاً عن بغية باسمانوف

فقال – قد جاء يا سيدي يطلب مني عشباً لبعض شؤونه ، وعرفت انك كامن هنا ترى وتسمع ، فكلمته بصوت مرتفع لكي تسمع بأذنيك وتتحقق شدة اخلاصي لك . . . ويعلم الله اني كنت بانتظارك منذ الصباح

قال – وماذا طلب باسمانوف ؟

قال – قال ان الملك تغير عليه رمقته لأنه اصطفاك انت وبوريس غودونوف ومالبوته سكوراتوف فلم يعد يحفل بسواكم . فشق ذلك عليه وجعل يسعى للحصول على ما فقده من المكانة . وقد طلب مني بعض الأعشاب التي يمكن ان تساعده على نيل مبتغاه وتعيد اليه محبة الملك ورضاه . . اما انا

فلم أبال بطلبه ، ولكنه ألح كثيراً ودفع كثيراً ، وأردت الخلاص منه فأعطيته عشبة لا تنفعه شيئاً . .

ولما كان الأمير في شاغل عن ذلك لاهتمامه بامر أهم لم يحفل بحديث الطحان . فقال له متضجراً – واي مغنم لي من كل هذه الترهات ؟ . . فليفعل باسمانوف ما يشاء وليتودَّد الى الملك بقدر ما يشاء . . . وقد جئت الآن أسألك أولاً عما اكتشفته بخصوص هيلانة . . فهل عرفت مخبأها ؟

قال – كلا يا سيدي لم أهتد الى ذلك . وقد بذلت لهذه الغاية أقصى جهودي وأحييت سبعة ايام بلياليها وانا أحدق في الماء لعله يكشف لي شيء من امرها فلم أفز بطائل ، سوى انها تراءت لي في صهوة جواد بين الادغال والآجام وفي صحبتها فارس طاعن في السن يسير الى جانبها ويجتهد في تعزيتها ، وهي لا تريد ان تتعزّى . . ولم أر غير ذلك

قال – ومن ترى يكون هذا الرجل الطاعن في السن ؟ أليس زوجها موروزوف ؟

قال – كلا يا سيدي . بل هو من عامة الناس . لان بينه وبين زوجها بوناً كبيراً في الهيئة واللباس

قال – كنتُ أود ان تطلعني من امرها على أكثر من ذلك ، ذ[illegible] ان تتوفق قريباً الى ما يرضيني ويكون لك من ورائه ما تطيب به نفسك

فأبرقت اسرّة الطحان وقال – هذا ما أتمناه يا سيدي وأسعى اليه بكل قواي

قال – وقد جئت أشكو اليك امراً آخر ، وستنجدك على ادراك

[illegible]

قال — لبيك يا مولاي فانا اطوع لك من بنانك

قال — فهل تقدر ان تسحر السلاح ؟

فقهقه الطحان وقال — وكيف لا يا سيدي وهذا العمل مهنتي ومهنة آبائي واجدادي منذ مئات السنين ؟ . .

قال — اعلم اذاً ايها الساحر اني بعد ايام معدودة سأبارز خصماً لي عنيداً . فأريد ان أتغلب عليه وأقتله في ساحة النزال . ولهذا أطلب منك ان تسحر حسامي ليتم لي ما أشتهي

فأطرق الطحان وهو يسائل نفسه عن الخصم الذي يريد الامير مبارزته . . فخطر له ان ذلك الخصم قد يكون ثيودور باسمانوف ، ولكنه ما عتم ان نفى ذلك من ذهنه لان الامير قد أظهر منذ هنيهة عدم اكتراثه له . . ثم ظنه الامير نكيتا ، ولكنه علم ان نكيتا قد سجن وان اللصوص بقيادة برستن قد اخرجوه من السجن وفرّوا به الى جهات بعيدة . . فلم يبق من اعداء الامير اناسي الا النبيل موروزوف ، فهو عدوه الازرق وخصمه الاشد . ولعل النبيل بسبب الاهانة التى لحقت به من الامير اناسي قد طلبه للبراز . وهو ولئن كان شيخاً فقد يمكنه ان يقيم بديلاً عنه . . ولما جالت هذه الخواطر في ذهن الطحان أيقن ان الرجل الذي سيبارزه الامير هو النبيل موروزوف بعينه او رجل آخر ينوب عنه . . فنظر الى الامير وقال — دعني اولاً يا سيدي أبحث في الماء عن خصمك وأكشف هذا الغامض بنفسي

قال — افعل ما تشاء

فهرول الطحان الى الى حيث يرحون وهو يطوي ان عاد يحمل

بيده زجاجة . فجاء ، وغمسها في الماء واخذ يحدّق فيها ببصره ويتمتم . . ثم تبسم وقال — قد عرفتُ خصمك يا سيدي . . فهو طاعن في السن ولكنه ذو بأس شديد . . . وها اني أراك ايضاً الى جانبه

فلم يتعجب الامير من هذه المعرفة لانه كان موقناً بقوة السحرة وفعالهم الغريبة ، فقال له — وماذا ترى ايضاً ؟ قل ولا تخف عني شيئاً

فقال الطحان وهو لا يرفع نظره عن الزجاجة — أرى جمهوراً من الملائكة الى جانب الشيخ كأنهم وقفوا للدفاع عنه . . وعليه فقد صار يصعب جداً ان أسحر لك الحسام ليكون عدتك الوحيدة في هذا النزال الهائل

فارتجف الامير وقال — أنظر جيداً ايها الشيخ ! أفلا ترى الى جانبي احداً ؟ ألا ترى من يدافع عني ايضاً

فرفع الطحان رأسه وقال — نعم أرى . . ولكنهم نفر قليل . . وقد تعكر الماء الان فلا أبصر شيئاً

قال — ألم يبق لي امل في الانتصار . . أفليس لك ان تسحر لي حسامي لأتفوّق على خصمي . . .

فأمسك الطحان عن الكلام وهو مطرق الى الارض يتأمل ويهز رأسه ويرقص حاجبيه . ثم نظر الى الامير وقال — سأفعل ذلك كرامةً لك . لان عملاً كهذا يقتضي تعباً مفرطاً وجهداً شديداً . . فهات حسامك وليفعل الله ما يشاء

فناوله الامير الحسام وتنحى عنه قليلاً ، وهو يعتقد انه قد صار بمأمن من الخطر وقريباً من ادراك الوطر

وكان الطحان قد حفر في الارض بالقرب من الماء حفرة عميقة ،

طمر فيها الحسام وطفق يدور حوله وهو يعزّم ويتمتم بألفاظ متقطعة وكلمات غريبة لا يفهم منها شيء . . وبعد نحو ساعة أخرج الحسام من الحفرة فنفض عنه التراب وناوله للامير قائلاً — تفضل يا سيدي ، فقد أصبح الحسام على غاية ما تريد وتشتهي . وانك ستغلب به لا محالة . وهو سيقيك ضربات عدوّك مهما كانت شديدة ، الاّ اذا غمس حسامه في الماء المقدّس

فأجفل الامير وقال — وهبه فعل ذلك . . فماذا ؟

قال — ان للماء المقدّس قوة تفوق السحر . . ولكن لا بأس ، فسأعطيك نوعاً خاصاً من الاعشاب تعلقه في عنقك ، فيدرأ عنك المصائب ويعضدك

قال — دبر ما شئت لأحرز الفوز المبين

فهرول الطحان ثانية الى حجرته . ثم عاد يحمل كيساً صغيراً فيه شيء من الاعشاب ، فوضعه بين يدي الامير وهو يقول — خذ هذا واحمله في عنقك ولا تخش بأساً ، فان فيه من الاعشاب الفعالة ما قضيتُ في انتقائه وجمعه من قلل الجبال شهوراً واعواماً

فخبأ الامير الكيس ثم أدّى للطحان مقداراً من المال وتحرّك يريد الانصراف . فاستوقفه الطحان وهو يشكره على كرمه ويقول — ولكني أرجو منك يا سيدي ان لا تدخل الكنائس قبل يوم البراز لئلا يفسد العمل

قال — وهل لك ان تعرف من الآن من منا سيظفر بخصمه ؟

فأجاب الطحان وهو يتلجلج — ان ذلك في علم الله . . والارجح انك انت ستكون الظافر . . وقد انبأتك قبلاً انك لن تموت بحدّ الحسام .

فودّعه الامير ثم اقتاد جواده فركبه وعاد الى موسكو وهو غائص في بحار التأملات

***

وكان في غياب الامير اثناسي من قرية ألكسندروفا ان الملك استدعى ماليوتا سكوراتوف وفوّض اليه ان يلقي القبض على خدّام الامير ويحملهم على الاعتراف باعمال سيدهم الخفية ولا سيما ما كان لها علاقة بالطحان

ولا ريب في ان ماليوتا قد أنفذ هذا الامر بالارتياح التام . فألقى القبض على جميع خدام الامير وذويه وزجهم في السجن وأذاقهم من ضروب العذاب ما أكرههم على الاقرار بكل ما لقنهم اياه ماليوتا ، وكان اكثره بل كله عارياً عن الصحة . . ولما استوثق ماليوتا منهم سأل الملك ان يعين شهوداً وكتبة ليكتبوا له بالتفصيل اعتراف خدام الامير ففعل. ورُفع التقرير الى الملك موقّعاً باسماء اولئك الشهود والكتبة واذا فيه ما يأتي :

« ان الامير اثناسي فيازيمسكي يتردد الى الطاحون بكثرة وفي نيته اهلاك الملك بقوة الساحر الطحان . . وانه يميل الى الامير فلاديمر شقيق الملك ويسعى سراً لتنصيبه بدلاً من الملك يوحنا الرابع الحالي .. وانه يشيع عن الملك اموراً كلها مختلقة وكاذبة ولكنها تحقره في عيون الرعية . . وانه يكاتب التتر وغيرهم من اعداء المملكة ويدعوهم الى اعلان الحرب على روسيا واضرام نيران الثورة فيها . . »

وما وقف الملك على ذلك حتى استشاط غضباً وصمم على قتل الامير

اثناسي . الا انه امر ماليوتا ان يبقي كل شيء مكتوماً وان يخبر الامير اذا سأل عن خدامه انهم اتهموا بالسرقة . .

ثم ارسل يستدعي ثيودور باسمانوف ليسأله ثانية عن الامير اثناسي ، فعاد الرسول واخبره ان باسمانوف قد ظعن بالامس من قرية الكسندروفا ووجهته موسكو . ولم يكن الملك يتوقع ان يغادر باسمانوف القرية بلا اذنه ، فغضب عليه ايضاً وخامرته من جهته الظنون المختلفة

واغتنم ماليوتا هذه الهزة فقال له — وما أدرانا ياسيدي اذا كان باسمانوف غير متفق مع الامير اثناسي على العمل يداً واحدة ضد جلالتك؟ . واما وشايته بالامير فليست الا رياء منه . وما هما في الحقيقة الا متعاضدان على نصب الاشراك والمكايد لاغتيالك

فاجابه الملك — قد يكون ما زعمت . وسيكشف لنا المستقبل كل ما يبطنان . ولكنني اطلب منك لان تبقي جميع هذه الامور طي الكتمان ، ولاتدع باسمانوف يعرف اني طلبته في اثناء غيبته حتى لا يتنبه الى شيء مما اريد

الفصل التاسع والثلاثون

المبارزة

وكان قد أزف اليوم المضروب للمبارزة القضائية التي أمر بها الملك . فلما أسفر صباحه اخذ الناس يفدون الى الساحة الكبرى زرافات زرافات، وقد غصت نوافذ البيوت وشرفاتها وسطوحها بالمتفرجين من كل صنف . وكان الخبر عن هذا النزال قد ذاع منذ بضعة أيام في كل مكان وأقبل

الاهلون من موسكو وضواحيها وسائر المدن والقرى المجاورة ليشهدوا مبارزة بين رجلين لم يكن يجهلهما احد من الخاصة والعامة

وكان يرى بين الجماهير المحتشدة رجلان احدهما كهل قد ارتدى اثواب المغنين وحمل بين يديه ربابة ، والاخر شاب قوي البنية مفتول العضل تظهر على وجهه لوائح البساطة والبلاهة معاً . وكان الكهل يدفع رفيقه الشاب بيده ويقول — هيا بنا نزحم الناس لنصل الى الحاجز ونبصر باكثر جلاء

وكان الشاب لا يكترث في بدء الامر لكلام رفيقه ، وقد سار صامتاً يتمايل ذات اليمين وذات اليسار وينظر الى كل جهة ، ولكنه تنبه اخيراً لاشارة رفيقه واندفع امامه يزاحم الناس ويشق الجماهير وهو لا يلوي على شيء . وكان بعمله هذا قد أثار سخط كثيرين من المتفرجين لانه كان يدفعهم بمنكبيه ويديه فيرميهم الى الارض غير مبال بشتائمهم ولغطهم . . وكان رفيقه يقول له — سر بنا حيث ركزت الحراب

وكان المكان الذي اشار اليه المغني معداً للملك واخصائه ، وقد اقيمت هناك منصة عالية فرشت بالجوخ القرمزي ونصب عليها كرسي للملك وركز حوله من جميع جهاته حراب رجال الحرس الذين عهد اليهم بخفارة المكان ، وقد عينت فرقة اخرى منهم لحراسة الحواجز التي تحيط بميدان المبارزة وكان جميع الحراس قائمين كل في مكانه لا يدعون احداً يدنو الى المكانين

وبعد الجهد والعناء وصل الرفيقان الى ميدان المبارزة واخذا يتفرجان على الحراب ويتأملان الحواجز الحديدية التي تكتنف المكان من كل جانب . فصاح بهما احد الحراس وقد رفع حربته في وجهيهما قائلاً — ارجعا من هنا والا اذقتكما موت الزؤام !

فنظر اليه الشاب وهو في غاية الذهول . ثم التفت الى رفيقه كأنه يطلبه الجواب . فرفع هذا ربابتهُ بين يديه ثم حنى رأسه للحارس وقال — دعنا يا سيدي نتفرج على هذه المبارزة العجيبة . فنحن من مدينة فلاديمر وقد جئنا لنمتع ابصارنا ونطرب الناس بأناشيدنا وعزفنا

فقال له الحارس — قفا اذاً حيث انتما ولا تتقدما

***

وبعد قليل جاء الى ميدان البراز وكلاء الخصمين وشهودهما واثنان من النبلاء وكاتبان وقد عهد اليهم مراقبة المبارزة والنظر في خطتها . . وبينما كانوا يتباحثون ويقررون الخطة التي يجب مراعاتها قرعت الاجراس وبوقت الابواق ايذاناً بحضور الملك، وقد جاء راكباً جواداً كريماً ومن حوله رجال الحرس محدقون به كالحلقة . ولما وصل الى المنصة ترجل عن جواده ثم رقى المنصة فحنى رأسه للشعب يمنة ويسرة وجلس في كرسيه وعلى وجهه امارات الدعة والسرور

ولما تم كل شيء نزل الى الميدان من جهتين متقابلتين الامير الشمسي فيازيمسكي والنبيل دروجينا موروزوف وكلاهما بالعدة الكاملة من الخوذة والدرع والسيف وغيرهما من ادوات النزال وكلها مرصعة بالاحجار الكريمة . وقد ركب كل منهما جواداً مطهماً عليه من الحلى والجواهر ما يأخذ بالعيون ويبهر النواظر

وكان المغني ورفيقه لا يزالان واقفين باقرب من الميدان يشاهدان ويتعجبان ، وقد همس ذو الربابة الى رفيقه قائلاً — اي الجوادين تفضل ؟

فحرك الشاب جبهته وأشار الى جواد موروزوف

فسأله له رفيقه - ولماذا ؟

فأجاب — لانه اكثر اكتنازاً من الآخر

فضحك رفيقه وسكت

وفي تلك اللحظة سُمع في جميع اطراف الساحة اصوات المنادين بما يأتي : « ايها النـاس ! انكم مشاهدون الان مبارزة بين الامير اثناسي فيازيمسكي والنبيل دروجينا موروزوف ، لان كلاً منهما قـد شكا الآخر مدّعياً الحق لنفسه . . وها انهما الان برضى جلالة الملك وامره سيحكمان بينهما السيوف فتنجلي الحقيقة لكل ذي عينين . . واما انتم فاسألوا الله ان يظفر صاحب الحق بخصمه وينصره عليه نصراً مبيناً ! . . »

ولما كان المنادون يهتفون بما ذكر سكنت الاصوات وتحوّل كل الخلق المحتشد هناك بأبصارهم وأسماعهم لئلا يفوتهم شيء من هذا المشهد

ولما فرغ المنادون من كلامهم خرج احد النبيلين الواقفين في الميدان و من منصة الملك وانحنى امامه وقال - قد تمَّ كل شيء يا سيدي ، فهل تأذن بالشروع في العمل ؟

ولما أجاب الملك بالايجاب عاد [illegible] ثم تنحى مع رفقته والوكلاء والشهود والكاتبين الى بعض الاطراف واعطى الاشارة الاولى

* * *

ركن الامير اثناسي والنبيل موروزوف واقفين ، وكل في صهوة جواده

يستعد لاقتبال الموت وسيفه مجرّد بيده . وكانا بعيدين بعضهما عن بعض ينتظران العلامة المؤذنة بالنزال . فلما اشار اليهما النبيل برقت في ايديهما السيوف ولبثا ينتظران اشارة اخرى ليطبق كل منهما على الآخر حسب اصول المبارزة المرعية اذ ذاك في مثل تلك الاحوال

غير انه قد حدث في تلك اللحظة امر غريب حال دون الاشارة المنتظرة وقضى بدهشة الجميع . . وذلك ان الامير ثنامي ارتعد بغتة وامتقع لونه ووقع من يده عنان جواده وكاد يهوي الى الارض ، لو لم يتداركه شهوده وينزلوه عن ظهر الجواد . بيد انه ما لبث ان ثاب اليه روعه فقال — خذوا الجواد من هنا لاني لا أريد ان اقاتل راكباً

ولما رأى موروزوف ان خصمه ترجل ، ترجل هو ايضاً واستعد للمبارزة راجلاً . . غير ان الامير ما كاد ينتصب للبراز ويأخذ السيف بيده حتى اصطكت ركبتاه وخارت قواه

فدهش شهوده ووكلاؤه وقال له صديق وحدهما بالك ايها الامير؟ تجلد وقابل خصمك بسيفك المشهورة والا كنت عرضة للسخرية والتعيير

فقال — انزعوا عني عدتي فانها ثقيلة ولست أطيق حملها

ولما بادروا الى مساعدته انتزع من عنقه كيس الاعشاب الذي اخذه به الطحان وطرحه جانباً وقال وهو يتميز غيظاً — تباً لهذا الحجر فقد خدعني

وما كاد الشهود يتنحون عن الامير حتى هجم عليه النبيل موروزوف وهو يقول — استعد لقضاء الله ايها الخائن الغادر ، فلأذيقنك الموت الاحمر جزاء خيانتك وغدرك . .

ولكنه لم يستطع ان يصل الى خصمه ، لان الشهود والوكلاء عادوا فوقفوا بينهما

فقال الامير وقد احمرّت عيناه من شدة الغيظ — سأقيم عني بديلاً ، لان خصمي قد غمس سيفه في الماء المقدس لكايتي وأهلاكي

وللحال تقدم شهود موروزوف وأثبتوا انخذال الامير وانتصار النبيل. فردّ عليهم شهود الامير قائلين — كلا لم ينتصر احد من الخصمين لانهما لم يتبارزا

واشتدّ بين الفريقين الجدال ٠

وكان الملك يراقب كل حركة . فرأى اولاً ما حلّ بالامير من الهوان فأيقن بفشله . . ثم لحظ الكيس الصغير الذي انتزعه من عنقه ورماه الى الارض ، فأمر باحضاره ، ولما جيء به تفرّس فيه قليلاً ثم ناوله لماليوتا وهو يتبسم ويقول — احرص عليه . . فسأسألك عنه

ولما رأى اللجاج بين شهود الخصمين امر باستدعاء الامير اثنامي وقال له — يظهر ان لا طاقة لك بلقاء موروزوف !

فأجاب الامير وصوته يتلعثم وقد علت وجههُ صفرة الموت — أسمح لي يا سيدي الملك ان أقيم بديلاً عني في هذه المبارزة ، لان جراحي تؤلمني شديداً فلا أقوى على حمل السلاح

وكان طلب الامير منافياً لأصول البراز لأنه لم يعرضه قبلاً ، ولذلك كان من المتحتم عليه وقد قبل الشروط ان يبارز او يقرّ بخيانته . . غير ان الملك اجابه الى طلبه هذا لانه كان يضمر اهلاك النبيل ايضاً فقال — أدعُ من شئت ليقوم عنك بمبارزة موروزوف ، فان توقفت والا فاستعدّ لحتفك

فانصرف الامير من امام وجهه وهو يكاد يتعثر بأذياله . وبعد قليل وقف المنادون وصاحوا بأعلى الاصوات : « ان الامير اثناسي فيازيمسكي يطلب رجلاً ليقوم عنه بمبارزة النبيل موروزوف ، فان انتصر فله من الامير جميع ضياعه في ضواحي موسكو ، وان قتل فلعياله ثروة الامير بكاملها . . . »

فلم يجب احد من الحضور الى هذا النداء ، لان الجميع كانوا يعتقدون صحة دعوى النبيل وغدر الامير . . ولما طال الانتظار صمم الملك على اعلان براءة موروزوف والقاء القبض على الامير اثناسي . ولكنه سمع فجأة قائلاً يقول — قد وُجد من يدافع عن الامير !

فالتفت واذا بمتى خومياك قد ولج ميدان المبارزة وهو يتأهب للنزال

الفصل الاربعون

« مصرع الباطل »

اما النبيل موروزوف فما كاد يرى امامه متى خومياك احد خدام ماليوتا سكوراتوف حتى ظهرت عليه امارُ الاحتقار ، فأعاد سيفه الى غمده وقال للشهود — لا يليق بالنبيل موروزوف ان يبارز مثل هذا النذل ! . .

ثم أقبل على الملك وقال — لقد اذنت جلالتك لعدوي ان يقيم بديلاً عنه مستأجراً ، فأذن لي انا ايضاً ان أفعل كذلك ، وإلاَّ فمر بارجاء المبارزة الى ان يصبح الامير في حالة تمكنه من ذلك

وكان طلب موروزوف عادلاً ، فلم يستطع الملك الاَّ ان يجيب سؤله فقال — اختر من تحب ، والاَّ فاعترف ببغيك واستعدّ للعقاب ! . .

وكان متى خومياك في اثناء ذلك يجول في الميدان وهو تارة يفتل شاربيه ويتبسم تبسم الكبر والخيلاء ، وطوراً يلوح بسيفه في الهواء ويقول بملء فيه — هاتوا لي رجلاً يبارزني ! .. اين الابطال ؟ اين رجال النزال ؟ فهل لاحد منكم ان يبرز الي ؟ ..

وكان المغني ورفيقه حين أبصرا متى خومياك في حومة النزال قد شخصت اليه أبصارهما وقال المغني همساً — لو كان حسامي معي لما نزل اليه غيري ..

ثم عاد فقال لرفيقه — هل عرفتهُ ؟

اما رفيقه الشاب فلم يجب بشيء ، بل تقدم بأسرع من لمح البصر ، فرفع بعض الحواجز ودخل الى باحة الميدان وانتصب تجاه متى وهو يقول — انا لك !

ثم وقف مبهوتاً من هذه الجرأة ، وهو ينظر تارة الى متى خومياك ، وطوراً الى رجال الحرس، وحيناً الى الملك . ثم تبسم وعرك جبينه

فتقدم احد النبيلين المراقبين وسأله — من انت ايها الفتى ؟

فنظر اليه الشاب ولم يحر جواباً

فأعاد عليه النبيل السؤال مرة اخرى

فأجاب — انا توما ! ...

فلما سمع النبيل ذلك لم يملك نفسه من الضحك ، فتركه وشأنه ..

حينئذ دنا منه النبيل موروزوف وقال — أشكرك ايها الفتى لاقدامك على نصرة الحق . فاذا أتيح لك وانتصرت على العدو فلك مني الجوائز السنية وكل ما تصبو اليه نفسك .. فاثبت اذاً وليكن الله معك

اما متى خومياك فما أبصر توما مقبلاً اليه حتى ارتعدت فرائصه وسرت قشعريرة الى سائر اطرافه ، وذلك لانه عرفه ، وكان قد شهد قتاله في غياض الجاهلية ، ولا سيما حين هجم عليه وضربه بهراوته فقتل جواده وكاد يبطش به لولا حيلة وخفة وارتاه وفتحتا له باباً للنجاة . . غير ان متى لم يشأ الان ان يظلّ خائفاً مذعوراً فتجلد ووقف ينتظر ما سيكون

ثم تقدم احد النبيلين الى توما وقال له — قد جئت ايها الفتى للمبارزة ولم تتقلد سلاحاً . . فبماذا تريد ان تقاتل ؟

فلما سمع توما ذلك عرك جبينه والتفت جهة رفيقه كأنه يريد ان يشاوره في هذا الامر ، فلم يره في مكانه . وقد عرف القارىء ولا شك ان هذا المغني رفيق توما لم يكن الاّ برستن زعيم اللصوص . فلما رأى ان توما قد نزل للبراز خاف ان تستريب به العيون ، فترك مكانه وتغلغل بين الجمع المزدحم اخفاء لنفسه

اما النبيل فلما رأى تردد توما قال له — خـذ سيفاً وعـدّة ونازل خصمك

فلم يجبه توما ، بل عرك جبهته مرة اخرى واخـذ يتفرّس في وجوه الناس باحثاً عن رفيقه . . وكان الملك يرى ذلك ويتعجب ، وقد دهش لملامح هذا الشاب وحركاته فلم يتمالك ان ضحك وقال — ألبسوه عدّة وليبرز للنزال لنرى براعته

فأحضر له الشهود خوذة ودرعاً وسيفاً وباقي ادوات النزال . غير ان الخوذة كانت صغيرة جداً بالنسبة الى حجم رأسه ثم تغطّ الا قمته ، وكذلك

الدّرع كانت صغيرة بالقياس الى صدره وعرض كتفيه . . فتأفف توما وعاد يفتش بنظره عن رفيقه ليسأله ماذا ينبغي له ان يفعل

فلما أبصره الملك على تلك الحالة المدهشة أغرب في الضحك . ولم يبق في تلك الساحة الا من ضحك عليه . . فاحتدم توما وقال – ما بالكم تضحكون ؟ . . اني أبارز هذا الرجل بدون هذه الاسلحة . .

ثم نزع عنه الخوذة والدرع وطرح باقي الاسلحة جانباً ووقف كالمعتوه . فازداد القوم ضحكاً وقد علت اصواتهم وكثر لغطهم . فقال له احد النبلاء – وبماذا تريد ان تقاتل اذاً ؟

فحرك توما جبهته والتفت الى جهة الملك وقال – أليس عندكم هراوة ؟

فصاح بعض رجال الحرس – من هذا الأبله الذي جاء يقاتلنا بالهراوى ؟ أخرجوه من الميدان وانظروا غيره من ذوي العقول الصحيحة

وكان الملك قد ازداد ضحكاً واستفزّه كلام توما ، فانتهر رجال الحرس وقال بأعلى صوته – أعطوه هراوة وليقاتل كما يشاء

فلما سمع متى خومياك ذلك ذعر واصفر وجهه وقال للملك – لا تسمح يا سيدي باحتقار عبدك الى هذا الحد . فمن هذا الفلاّح حتى جاء يبارزني بهراوة ؟ . .

فقال له الملك – دعه ينازلك بما يشاء . . اما انت فبارزه بالحسام وسائر ادوات سلاحك . . ولننظر كيف يتأتى لهذا الفلاح ان يدافع عن الدبيل موروزوف ! . .

ولم يكن الا القليل حتى أحضرت بعض الهراوى والعصي الضخمة ، فجعل توما يتناولها واحدة واحدة ، فيهزُّها ويجربها في الهواء ثم يطرحها

جاباً . . ولما لم يعجبه شيء منها التفت الى الملك وقال — أفلا يوجد أضخم من هذه الهراوى ؟

فاستلقى الملك من شدة الضحك وأمر باجابة سؤاله

فأسرع بعض رجال الحرس يبحثون عن مطلوبه وما عتموا ان عادوا وقد حملوا هراوة ضخمة جداً . فتناولها توما وهزها بيده ثم رفعها وضرب بها الهواء ، فسمع لها دوي كالرعد ، فتبسم وقال — الآن طاب لي القتال . . .

اما رجال الحرس فتذمروا ولم يكتموا غيظهم وقد نظر بعضهم الى بعض وهم يقولون — من اين برز هذا الشيطان الرجيم ؟ . .

***

ولما خرج الشهود والوكلاء والنبيلاز والكاتباز ، وبقي في حومة الميدان توما ومتى خومياك ، رفع توما كميه وتفل في يديه ثم نظر الى خصمه وقال — استعد الآن لضرباتي بهذا النذل الزنيم . . فسأعلمك كيف تسبي العرائس ! . .

وكان متى قد أيقن بالوبال وبدت عليه امارات الانكسار فلما رآه الملك على تلك الحالة امر بالشروع في المبارزة . وللحال رفع توما الهراوة فوق رأسه وجعل يديرها بقوة ومهارة ، وهو يدنو من خصمه تمزاً . . . وكان متى في اول الامر يرجو ان ينتهز من خصمه غرة فيصيبه بمجدافه . غير ان اجتهاده ذهب عبثاً ، فصار همه ان يتقهقر امام توما لينجو من هراوته . وكانت هذه الهراوة ترسم حول توما دوائر كبيرة تقيه حسام متى وتجعله عزيز المنال

وكان المتفرجون قد مالوا الى توما وصاروا يتوقعون انتصاره . بقدر ما كان الملك ورجال الحرس قد ساءهم انحدار متى واهتمامه بالنجاة فقط . .

ولبث توما يثب بهراوته نحو خصمه ، وهو يتهدده بكل ويل انتقاماً لعروسه التي سباها . . وكان قد دخل في طور الاحتدام والغضب ، وأخذ يجتهد ان يصدم خصمه في رأسه او كتفه او رجليه او جنبه او ظهره . . والناس يظهرون استحسانهم وارتياحهم بتصفيقهم المتواصل ، وقد ارتفع بينهم صياح الاعجاب وجعلوا يراهنون على فوز توما وهم غير منتبهين لاستياء الملك ورجال حاشيته

وظلّ توما يتتبع خصمه بخفة الدب حتى ضايقه اخيراً ولم يبق لمتى باب للفرج . فحمل توما عليه حملةً عنيفةً وضربه بالهراوة ضربةً سمع لها دويٌّ شديد ، فهوى متى الى الارض لايعي شيئاً . وانقض عليه توما جثناً على صدره واخذ يعركه ويقول — لقد انتقمت منك ايها النذل وأخذتُ بثأر عروسي ! . .

ولما صرع متى علت اصوات الجماهير سروراً واستحساناً . فنظر اليهم الحرّاس شزراً وهم يصرفون عليهم باسنانهم ويتوعدونهم بكل شرّ

وكان ماليوتا سكوراتوف حالما سقط متى قد بادر الى الملك وهو كمن فقد رشده وقال — ان متى خومياك يامولاي من احسن رجال فرقة الحرس . فاسمح ان نخلصه من هذا الشيطان لئلا يطحن عظامه

فأمر الملك بذلك بعض الرجال ، فأسرعوا الى متى وسحبوه بكل جهد من تحت توما . . ولكنه كان جثة باردة . . .

ولما كان الجميع لاهين بهذا المشهد وقف الى جانب توما رفيقه المغني (برستن) وقال له همساً — ما بالك لا تزال واقفاً هنا ايها الفاقد العقل ؟ . فاتبعني حالاً وانج بنفسك ! . .

ثم اختلسا أنفسهما وانسلاّ بين تلك الجماهير فلم يشعر بهما احد

الفصل الحادي والاربعون

« الحكم على الامير اثناسي »

وكان بعد ذلك ان دعا الملك النبيل موروزوف . فسكت الناس وشخصوا بأبصارهم ، فرأوا الملك قد وقف احتفاء بالنبيل ، ثم سمعوه يقول له — لقد شاء العدل الالهي ان تنتصر ايها النبيل على خصمك ، وبذلك أعيدت كرامتك وأيدت براءتك علناً امام جميع هذه الخلائق . . فانا أهنئك وأعدك خيراً وأسألك ان لا تبرح من قرية ألكسندروفا قبل الوقوف على ما أريد

فخرّ موروزوف على الارض وهو يشكر الملك كثيراً ويدعو له بالعزّ والتأييد

ثم امر الملك باحضار الامير اثناسي فيازيمسكي . ولما جيء به ألقى عليه نظرة طويلة كمن يريد ان يخترق أعماق قلبه ليطلع على خفاياه . . وبعد ذلك خاطبه قائلاً — لا شك انك غير ناس شرطي ، وتعلم اني لا أحيد عن انفاذ كل كلمة او كل امر يصدر مني . . وقد حكمت بالموت على من يغلب منكما في ميدان المبارزة . . ولما كان النبيل موروزوف قد انتصر عليك انتصاراً مبيناً وأظهر الله بذلك خيانتك وكذبك فقد استوجبت الموت العادل . . فهل لك كلام تقوله ؟

فاجاب الامير وقد لاحت على وجهه علامات اليأس — اني مستعد

لشرب كأس الحمام .. فمر بقطع رأسي لا نجو سريعاً من عذاب هذه الحياة

فبدت على وجه الملك ابتسامة غريبة وقال — نعم انك تستوجب الموت .. غير ان لك جريمة اخرى تقتضي عقاباً اشدّ هولاً من الموت ..

ثم وجه كلامه الى ماليوتا فقال — اين الكيس الذي عهدتُ اليك في حفظه ؟

فتقدم ماليوتا وناوله اياه . فأخذه الملك ونظر الى الامير قائلاً — ما هذا ؟

فارتجف الامير وجهد نفسه ليتكلم .. فقاطعه الملك بقوله — ايها العبد المارق ! لقد قرّبتك الى عرشي وقلدتك اكبر مناصب الدولة وغمرتك بكل نعمة ، ولكنك عققتني وسعيت في أذيتي بأشراكك وحبائلك، ولم يكن همك الا اتلافي بمثل هذه الاعشاب السحرية ...

قال هذا وأدار نظره في الجماهير ثم عاد فقال للامير بصوت عال — ولقد شقّ عليّ ذلك جداً لانك احد كبراء حاشيتي وقد عشت في كنفي متمتعاً بكل غبطة ونعيم ، فما الذي دعاك وغرّر بك الى السقوط في هذه التهلكة ؟ .. ولم يكن في حسباني ان يظهر مثل هذا الشرّ في احد رجال الحرس الذين اصطفيتهم لمساعدتي والقيام بمشيئتي ... فانا مثل رب الكرم وقد اختارني الله لحفظ هذا الكرم من كل فساد ، فلما رأيتُ ان الاشراف والنبلاء واكابر القوم لا يريدون ان يساعدوني بل تآمروا عليّ أخذتُ منهم الكرم وسلمته لفعلة آخرين ، وهؤلاء الفعلة هم رجال الحرس . فالذين دعوتهم الى وليمتي ليكونوا معي يداً واحدة في العمل وقد تهاونوا وأبوا ان يلبوا دعوتي فهم غير اهل للدعوة ، وأرسلتُ عبيدي الى مفارق الطرق يدعون

اليَّ كل من وجدوه ، فخلت وليمتي بهم . وهؤلاء ايضاً هم رجال الحرس الذين لبوا الدعوة ....

ثم نظر الملك الى الناس وقال — والان أسألكم ماذا جرى لذلك الرجل الذي وجد بين المدعوين وليس عليه حلة العرس ؟ .. لا شك انكم تقولون انه قد استوجب عقاباً أليماً ، لان الخدَّام أوثقوا يديه ورجليه وطرحوه في الظلمة البرَّانيـة حيث يكون البكاء وصريف الاسنان ...

وكان الناس يسمعون كلام الملك وهم صامتون مبهوتون كأنَّ على رؤوسهم الطير .. ولم يكن بينهم من تحرَّكت في قلبه عاطفة الشفقة على الامير اثناسي لكثرة ما عرف به من الصلف والعتوّ

اما رجال الحرس فقد ارتسمت على وجوههم امارات الخوف والاضطراب ولم يجسر احـد منهم أن يقول كلمة للدفاع عن الامير . غير ان اثنين منهم ظهرت على وجوههما علامات الانتصار والشماتة وهما ماليوتا سكوراتوف وثيودور باسمانوف ، وكان الاول منهما ينتظر بفارغ الصبر صدور امر الملك بالقضاء على الامير ، والثاني يعزو ذلك كله الى الاعشاب السحريَّة التي سلحه بها الطحان والتي أيقن انه سيدرك بها ذروة السعادة والعز ..

واما الامير اثناسي فظلَّ صامتاً وقد حنى رأسه على صـدره ولم يرد ان يقول شيئاً لتبرئة نفسه مما نُسب اليه ، لأنه كان يعرف صلابة الملك واستبداد رأيه

ثم قال الملك لماليوتا ولمن كانوا حوله من رجال الحرس وهو يشير الى الامير اثناسي — والان خذوا هذا الرجل من امامي .. قيدوه واطرحوه

في ظلمة السجن الى جانب اللص (يريد كرشون) الذي دخل مخدعي في تلك الليلة المشهورة . . واني سأحكم عليهما بما يستحقان

ورفع بعد ذلك بصره الى السماء وقال — لا تخذلني ايها الاله الرحيم ! بل وطد ملكي وأظفرني باعدائي واعداء البلاد ليسود السلام وتتمتع الرعية بالراحة والسعادة

ولما قال هذا نزل عن المنصة ، فامتطى صهوة جواده وعاد الى قصره ومن حوله رجال الحرس صامتون خائفون

وللحال تقدم ماليوتا الى الامير اثناسي وبيده حبل طويل فأوثق يديه وهو يقول مستهزئاً — عفواً يا سيدي الامير اذا كان فيما نفعله ما يوجب غضبك علينا ، فانما نحن مأمورون بهذا . .

ثم خفره ببعض الجنود وقاده الى السجن

واخذ الناس بعد ذلك ينصرفون كل الى منزله ، وهم في حديث ما جرى في هذا النهار من الامور العظيمة . . وما هي الا ساعة حتى كنست تلك الساحة فلم يبق فيها احد

الفصل الثاني والاربعون

« الحكم على باسمانوف »

كان الامير اثناسي فيزيمسكي يقاسي في سجنه آلاماً مبرّحة وهو يرجو أن تنقضي ايام المحنة ويحلّ اليوم المضروب لعقابه لينجو من هذه الدنيا غير آسف عليها . . وكان ماليوتا يتردّد عليه بامر الملك فيستنطقه ،

وهو يودُّ ان يرغمه بسائر انواع العذاب على الاعتراف بالمروق من طاعة الملك والتصميم على اغتياله ، او ليحمله على الافشاء بغير هذه الاسرار . .

بيد ان الامير لزم الصمت التام ، وقد احتمل كل ضروب العذاب والامتحان صابراً وفي قلبه نار آكلة ، حتى انه لم يذكر ثيودور باسمانوف ولا اشار الى تردده على الطحان

وكان الطحان قد قبض عليه بامر الملك وأودع السجن سرًّا وأمر ماليوتا باستنطاقه واستجلاء غوامض اسراره واسرار غير الامير اثناسي من رجال الملك الذين كانت لهم معرفة به

واما ما كان من امر ثيودور باسمانوف فانه طار فرحاً وانشرح صدره لمصيبة الامير اثناسي وشعر بانه قد امتلك ناصية الكون وأدرك أوج السعادة لانه تخلص من احد أنداده ونظرائه ، ونسب ذلك الى قوة الاعشاب التي كان يحملها في عنقه ويحرص عليها حرصه على حياته . وقد أمل انه بقوتها الخارقة سيفوز على جميع اعدائه ويسقيهم كؤوس الرّدى . . وكان الملك يلاطفه ويظهر له المودّة والانعطاف ، وهو في الحقيقة يكرهه وقد مال عنه منذ زمان . .

وفي ذات يوم خرج الملك بندمائه وأخصائه رجال من ترية ألكسندروفا وقصد الى دير في ضواحيها للزيارة والتبرك . وكان في جملة بطانته ثيودور باسمانوف وابوه الكسي وغيرهما من زعماء رجال الحرس الا ماليوتا فانه لم يكن معهم .. فلما علم رئيس الدير بقدوم الملك خرج فاستقبله بغاية التجلة ورحب برجاله ودعاهم جميعاً لتناول الطعام

وكان الملك في ذلك النهار طيب النفس منشرح الصدر ، فلاطف

ندماءه واكثر من ممازحتهم ومسايرتهم ، وقد نال ثيودور باسمانوف من ذلك أوفر نصيب .. وبينما هم على مائدة الطعام سمع صوت وقع حوافر جواد في فناء الدير ، فقال الملك لثيودور — أنظر من القادم !

ولم يكد ثيودور يفتح الباب حتى ظهر ماليوتا سكوراتوف مذعوراً وهيئته تدلّ على انه قادم بمهمة خطيرة . فلما رآه باسمانوف في تلك الحالة ذعر وعاد الى مكانه وهو ممتقع الوجه مضطرب الحواسّ

وكان الملك قد بش لماليوتا وهو يظهر ارتياحه لمجيئه وقال — عسى ان يكون قدومك في مثل هذه السرعة لخير . فما وراءك؟

فانحنى ماليوتا امام الملك ثم دنا من رئيس الدير وسأله ان يباركه .. وبعد ذلك نظر الى ثيودور باسمانوف شزراً وقال للملك — كنت الآن في السجن وقد قمت باستنطاق الطحان الساحر فوقفت منه على اسرار اخرى غاية في الاهمية

فقال الملك وقد اتسعت حدقتاه — وبماذا أقر الساحر؟ أخبرني حالاً واياك ان تخفي شيئاً

قال — انه سرد علي حديثاً طويلاً مفاده ان الامير اتناسي فياز يمسكي وشخصاً آخر من رجال البلاط كانا يختلفان اليه ويطلبان منه الاعشاب السحرية تنفيذاً لمآربهما الشريرة ومقاصدهما السيئة

فلما سمع ثيودور باسمانوف ذلك ارتجف وظهرت عليه لوائح الرعب والاضطراب . . اما الملك فعبس وقدحت عيناه شراراً . ثم سكن جأشه وقال — ومن هو هذا الشخص الآخر الذي كانت له هذه العلاقة بالساحر؟

قال — هو ثيودور باسمانوف نفسه

واذ سمع ثيودور ذلك نهض وقال وهو يجتهد في اخفاء ما حل به من الرعب – لا تصدّق ياسيدي الملك ذلك وما الطحان الا كاذب في دعواه .. فهو اذ علم باني كنت السبب في القاء القبض عليه وايداعه السجن عزم على ان ينتقم مني بمثل هذا الافتراء

فلم يجبه الملك بشيء ، بل نظر الى ماليوتا وأشار اليه ان يمضي في حديثه فقال – وقد أخبرني الطحان ايضاً بان ثيودور باسمانوف كان أشدّ الحاحاً عليه من الامير اثناسي في طلب الاعشاب السحرية بقصد اتلاف جلالتك .. وهو يحملها في عنقه

فهزّ الملك رأسه وتنفس طويلاً ..

اما ثيودور فاستطير لبهُ جزعاً وخاطب الملك قائلاً – رحماك يامولاي! فكل ذلك ترّهات وأوهام يقصد بها نكايتي واذلالي .. وانا لو كان لي أدنى تدخل مع الطحان لما سعيتُ به اليك

فقال الملك – لكل شيء بينة . فأرنا ماذا تحمل في عنقك !

اجاب – ولكن يا سيدي ليس في ذلك ما يهمك ان تراه .. فهناك صليب وبعض ايقونات صغيرة

قال – لا بدّ من رؤية كل ذلك

ففكّ باسمانوف الازرار العالية من ثيابه ، ويداه ترتجفان وقلبهُ يخفق خفقاناً شديداً . ثم أظهر للملك الصليب والايقونات غير ان الملك لحظ ايضاً شيئاً آخر كان ثيودور يجتهد في اخفائه بين اثوابه . فقام ومدّ يده الى صدره وأخرج كيساً صغيراً كان معلقاً في عنقه . فتناوله وقلبه بين يديه وهو يقول – فما هذا اذاً ؟

فقال باسمانوف وقد طار رشده — هذا بركة والدتي . .

فنظر الملك اليه شزراً ثم ناول الكيس لماليوتا قائلاً — فكهُ لنرى ما فيه

فأخذه ماليوتا وفكهُ ثم أخرج منه اعشاباً وجذوراً صغيرة وعظام ضفدعة . . ووضع ذلك كله على المائدة

واذ رأى الحضور ذلك دهشوا ووقفوا حيارى . وقد ارتعد رئس الدير وأكبر هذا الامر وابتعد عن ثيودور باسمانوف وهو يصلب ويجمجم. اما الملك فما رأى محتويات الكيس حتى انقلبت سحنتهُ فجحظت عيناه وتطاير الشرر من مقلتيه . ثم تمالك روعه وقال لباسمانوف — أبهذا بركتك والدتك ؟

فوقع ثيودور على الارض من شدة الهلع وقال بصوت مرتجف — اصفح عني باسيدي ولا تظن بي سوءاً. فما انا الا عبدك المخلص وخادمك الامين !. اما هذه الاعشاب فلم أطلبها الا لاصلاح شأني واستمداد ارتياحك الي ، لانك في هذه المدة قد تغيرت على عبدك ولم تعامله بما عودته من المحبة والعطف

فقال الملك — واي شأن لعظام الضفدعة بين الاعشاب ، وماذا قصدت بها سوى اغتيالي ؟

قال — حنانيك ياسيدي الملك . . فاني لم أدر بوجودها في الكيس . . واني أقسم على ذلك بأعظم الاقسام

فالتفت الملك الى ماليوتا وقال — انت تقول ان الساحر قد أفضى أليك بان ثيودور كان يتردد عليه بقصد الايقاع بي

فأجاب ماليوتا وهو يخفي في صدره فرحاً لا مزيد عليه — نعم ياسيدي هو ما تقول

فقال الملك لباسمانوف — بقي ان نجمعك بالساحر ونحملكما على الاقرار الصادق لئلا يقال ان الملك يعاقب الناس أجمعين ما عدا رجاله الاخصاء فانه لا يمسهم ولو فعلوا جميع انواع المعايب والآثام . . وعليه فلا بد من امتحانك وحملك على الاعتراف الصحيح بهذه الغوامض والافصاح عن جميع هذه الاسرار

فترامى باسمانوف على قدمي الملك وقال — رحماك يامولاي . . اسمح لي ان أطلب رحمتك هذه مرة فقط ، ولا تدع عبدك الامين يساق الى موضع العذاب . . بل اصفح لي واذكر اني خدمتك ولم أخالف لك ارادة

فأعرض الملك عنه ولم يجبه بشيء

فدنا تيودور [illegible] على ابيه يبكي وقال — اشفق علي يا والدي واسأل الملك ان لا يرذلني [illegible] ويشمت بي اعدائي

فقال له ابوه — أغرب عني ايها العقوق . . فلست ابني ولا اعرفك ما دام غضب الملك حالاً عليك

فترك تيودور اباه ووقع على قدمي رئيس الدير وهو في شدة حالات اليأس والقنوط وقال — ايها الاب الصالح !. . اني ارجو اليك ان تستمد لي العفو من جلالة الملك

وكان الرئيس واقفاً لا يتحرك قد أطرق طرفه الى الارض وهو لا يدري ما يقول

فقال الملك لثيودور – دع الرئيس وشأنه .. اما اذا كان لا بد من سؤاله فاننا نسأله ان يحتفل بجنازتك والدعاء بغفران خطاياك ...

فلما رأى باسمانوف ان الملك لا يذعن ولا يلين أيقن انه هالك لا محالة ، لانه لا يستطيع ان يحتمل ضروب العذاب والامتحان ولا سيما من يد ماليوتا سكوراتوف وهو عدوه الازرق .. فنهض من ساعته وقد تغيرت فجأة ملامح وجهه فأصلح جدائل شعره الذهبي وقال – هاءنذا منطلق الى موضع العذاب والنكال .. فألف شكر لك ايها الملك على عطفك وحبك ... اني لم أضمر لك سوءاً ولم يخطر في ذهني قط ان أخالفك في شيء ... واما الذنوب التي تعرفها والتي لم يطلع على شيء منها احد من الخلق فانت سببها وسيحاسبك الله عليها ، وسوف أتلوها انا على الشعب يوم أقاد الى النطع .

ثم التفت الى رئيس الدير وقال – والان تفضل ايها الاب القديس فاسمع اعترافي ...

وما فاه بهذا حتى انقض عليه رجال الحرس ولم يدعوه يتم كلامه بل أخرجوه قسراً من الردهة ثم أوثقوه وأركبوه جواداً ، وساقه بعد ذلك ماليوتا وبعض منهم الى قرية ألكسندروفا وهناك زجوه في السجن

وتنفس الملك الصعداء بعد خروج ثيودور ، ثم التفت الى رئيس الدير وقال – أرأيت أيها الاب كيف ان الاعداء يحدقون بي من كل جانب ؟. أرأيت كيف ان لي من خواص رجالي اعداء قاموا خفية لمناهضتي بقصد تنغيص عيشي واهلاكي ؟ .. فصل لاجلي .. صل لله ليمنحني الغلبة على جميع اعدائي المنظورين وغير المنظورين ويرد عني كيدهم ويساعدني لأستأصل من البلاد جرثومة الفساد والخيانة ..

قال هذا ونهض فودّع رئيس الدير وخرج مع حاشيته ، فركبوا خيولهم وساروا يقصدون قرية الكسندروفا . فشيعهم الرئيس والرهبان وهم يدعون للملك بدوام التأييد

الفصل الثالث والاربعون

طيلسان المجاهد

اما ما كان من امر النبيل دروجينا موروزوف فهو انه بقي في قرية الكسندروفا ينتظر امر الملك ، ولم يكن همه الا ان يعرف مقر زوجته . فكان يقضي الساعات الطوال وهو يفكر في امرها ، الى ان جزم اخيراً انها مختبئة في بعض الاماكن تتوقع لقياه .. وكان كلما تذكرها يخطر في باله الامير نكيتا ، فيذكر ما اجراه لاجله في تلك الليلة المشؤومة حينما هجم عليه الامير اثاناسي فيازيمسكي برجاله فلقاهم الامير نكيتا بشدة بأسه ودافع عن النبيل دفاع الابطال المجربين والقي بسبب ذلك في السجن .. وكان النبيل قد سمع بفرار نكيتا فود ان يهتدي اليه ويجتمع به لانه لم يعد من ذلك الحين يسمع عنه شيئاً

ولما عاد الملك من زيارة الدير ارسل اثنين من حجابه يدعوان النبيل موروزوف لتناول الطعام على مائدته . فسرّ النبيل بهذه الدعوة وايقن بانتهاء المكاره وامل ان يعود بعد يوم او يومين الى موسكو فيبحث عن زوجته ويجدد بناء قصره ويأوي اليه مع حاشيته وذويه آمناً مطمئناً

وما عتم ان ارتدى افخر أثوابه و بادر الى قصر الملك وهو خلي البال طيب القلب لايعلم ماخبأه له القدر

ودخل ردهة الطعام فوجدها غاصة برجال الحرس . وكانت الموائد قد أعدت و بسطت عليها ادوات الطعام . ولم ير النبيل في الردهة غـيره من الشرفاء والنبلاء ، فزعم ان الملك انما اختصه بهذه الدعوة تكفيراً عما سبق له معه من المساوىء فجلس في بعض جوانب الردهة وعلى وجهه امائر الدعة والسرور

ولم يمض عليه في تلك الحالة الا القليل حتى سمع قرع الاجراس ونفخ الابواق ، فعلم ان الملك قد خرج من مخدعه ليسير الى ردهة الطعام فتحفز لملاقاته . ولم يلبث ان رآه مقبلاً وقد بدت على وجهه لوائح البهجة والسرور يحف به رجاله وفي جملتهم الاب ليفكي وفاسيلي غريازنوي وألكسي باسمانوف و بوريس غودونوف وماليوتا سكوراتوف

ولما دخل حيى رأسه الحضور ثم جلس في كرسيه وجلس رجاله كل في [illegible] الكراسي الا واحداً بازاء كرسي بوريس غودونوف وبعده في المرتبة . فنظر الملك الى النبيل موروزوف وبش له ثم أشار الى الكرسي الفارغ وقال — اجلس هنا ايها النبيل !

فصعد الدم الى وجه موروزوف وقال — يشق علي ايها الملك ان اغير من عاداتي القديمة . وها اني قد طعنت في السن ولم ارض قط بالمذلة . فيعز علي ان اتعرض مرة اخرى لسخطك وطردك اياي من امام وجهك من ان اجلس بعد بوريس

ن في منازلنا

و

جالي وأهرب

عن ممازحته في اوقات فراغي من الصلاة والعمل ، لان الانسان يميل بالطبع الى تفكيه خاطره ببعض الملاهي والمضحكات . والحق يقال انه من يوم وفاة نديمي (نوغتيف) المجان (المهرّج) لم أسمع من احد منكم شيئاً يسرّي الهموم ويجلو صدأ القلب . ولعلّ النبيل موروزوف ماهر بهذه المهنة وهو يسعى اليها منذ زمان . ولقد وعدتهُ بالنعم السنية . . فلا أرى أفضل من تعيينه في بلاطي اول الندماء والمضحكين ، وها اني أخلع عليه ايضاً طيلسان نوغتيف الشهير فلعله يرجع اليه الافكار الثاقبة

ولما قال هذا التفت الى فاسيلي غريازنوي قائلاً — اذهب أحضر لنا الطيلسان لنتسلى ونتفكه ، لاني أراني في أشدّ حاجة الى التسلية . .

سمع النبيل موروزوف كلام الملك فجرى الرعب في اعضائه مجرى دمه في عروقه ، فألقى على الملك نظراً حاداً ليتحقق صحة عزمه ، فقرأ في وجهه تصميماً على ذلك فكاد يجنّ من شدة التهيج والغضب

اما الحضور فكانوا جالسين ساكنين وقد هالهم الامر ولبثوا ينتظرون ما سيكون ، وهم يتوقعون ان يروا مشهداً فظيعاً ، وقد أيقنوا ان الملك سيتخذ هذه الفرصة لصبّ جام انتقامه على رأس هذا الشيخ

وكان فاسيلي غريازنوي قد خرج في هذه الاثناء من ردهة الطعام ، وما لبث ان عاد يحمل بين يديه ثوباً كله قطع صغيرة من الجوخ والقطيفة متصلة بعضها ببعض ومختلفة الالوان ما بين احمر وابيض واسود وازرق واصفر وغير ذلك ، وقد علق بأطرافه كلها دفوف وعدد لا يحصى من الاجراس الصغيرة . . .

بهذا اثناء تقدم فاسيلي غريازنوي الى موروزوف قائلاً — تفضل

ايها النبيل وارتد هذا الطيلسان الجميل . . فقد تعطف جلالة الملك عليك بهذه النعمة لتكون خلفاً للمجان نوغتيف !

فلما سمع موروزوف ذلك صعد الدم الى رأسه وصاح بماسيلي — اخرس ايها الوغد فاني آنفُ ان أجملك مع كلاب غنمي ! . . اغرب من وجهي ايها النذل ولا تجرؤ ان تمسّ النبيل موروزوف الذي لم يكن اجدادك وآباؤك الا خدماً وحشماً عند اجداده وآبائه . .

ثم التفت الى الملك وقال بصوت يتلجلج من شدة الانفعال — ارجع عن كلامك ايها الملك ومر باعدامي لانك حر في ذلك ، واما الشرف فلا تمسهُ لانك لست حراً فيه !

فنظر الملك الى رجال الحرس وقال — قلت لكم ان النبيل موروزوف يحب الممازحة والمجون . . فهو يقول اني لست حراً ان أنعم عليه بهذا الطيلسان

فقال موروزوف والجلال يرافق كلماته — ايها الملك ! اني باسم الاله العظيم أسألك ان ترجع عن عزمك ، فانك لم تكن قد ولدت حينما كان والدك ينعم عليَّ لاجل الاعمال العظيمة التي بها خدمته وخدمت البلاد . فانا الذي قهرت اعداء الوطن في حروب ومواقع لا تحصى . وقد طهرت جهاتُ نهر أوكا من عيث التتر ودحرتهم عن العاصمة . ثم أنقذت مدينة تولا ومزقت الاعداء حولها شرَّ ممزَّق ، وفعلت غير ذلك مما لا يمكنك ان تنساه ولا للامة ان تجحده . . ولقد جرحت كثيراً وسال من دمائي كثير في سبيل الخدم الباهرة الكثيرة التي أديتها للبلاد . ولم أكن لأحفل بحياتي ، بل كنت أتعرَّض لجميع انواع الخطر غير هياب ولا وجل . . وكم دافعت عن

والدتك حين كنت طفلاً ، ثم عنك يوم كانت الاحزاب تتقاذفك وتعبث بك . ولم يكن همي حتى الان الا خدمة البلاد والمحافظة على شرفي وكرامتي.. فكيف تريد انت الان وهذه حالي ان تحتقر شيبتي وتشين شرفي وتلحق بي هذه الوصمة ؟ . . وعليه فمر الان ايها الملك بمعاقبتي . مر فأسير الى النطع بالفرح والفخر كما كنت في السابق أسير الى ميادين الوغى . .

وكان الجميع يسمعون كلام موروزوف متعجبين وقد أدهشتهم قوة حجته وشدة لهجته . غير ان الملك لم يتأثر لكلامه بل ثار غضبه عليه وقال

- كفاك اعتداداً بنفسك ايها الشيخ المهذار . فان هذيانك يدل صريحاً على انك فكه ماهر ومزاح بارع . فالبس هذا الثوب وأرنا براعتك وحذقك

ثم التفت الى رجال الحرس قائلاً — وما انتم متعجبون في ذلك . لانه تعوّد ان يخدم . .

ولو ان موروزوف أظهر بعض الخضوع لامر الملك او وقع على قدميه مستعطفاً لعفا عنه لامحالة . . غير ان هذا النبيل كان بعيداً عن كل تزلف وتذلل ، وكان كل ما في هيئته وحركاته يدل على عزة النفس وعظمة الذات . ولم يكن الملك يوحنا يطيق شخصاً هذه صفاته . بل كان يريد ان يتصاغر له جميع الناس ، ويكونوا امامه اذلاء خاضعين يعنون لاقل اشاراته ويذعنون لاقل اوامره

الفصل الرابع والاربعون

« الحديث ذو شجون »

- - - -

وفي اقل من لحظة خلع رجال الحرس عن موروزوف ثيابه ثم ألبسوه

طيلسان المجان وهو واقف بينهم في تمام الخضوع والطاعة لايقاوم ولايعارض.
وكانت افكاره سابحة في عالم الخيال ، فلم يشعر الا وقد ابتعد عنه الحراس
وهم ينظرون اليه ويضحكون . ثم تقدم اليه فاسيلي غريازوي وبيده قبعة
طويلة بألوان لاتحصى ، فوضعها على رأسه وانحنى له قائلاً — ايها النبيل
دروجينا موروزوف ! اننا نهنئك بهذا المنصب الجديد ، ونرجو ان تطرفنا
بنوادرك ونكاتك كما كان يسلينا سلفك المرحوم نوغتيف

فرفع موروزوف رأسه وأدار نظره في الحشد ، ثم زفر زفرة حارة وقال
برباطة جأش — اني اشكر للملك هذه النعمة الجديدة وأرجو ان أحسن
القيام بتثير دوري . فتنحوا ايها الناس ودعوا المجان الجديد يدنو من الملك..
فقد عزمت على ان أفكه خاطره بما لم يسمعه قط من غيري من النكات
المدهشة والنوادر المضحكة . .

وكأنه سحر الحضور بهيئته وكلامه فتراجعوا عنه الى الجانبين ، وسار
هو بمنتهى العظمة والجلال كأنه مرتد حلة ملكية ، لا ثوب مجان بالاجراس
والدفوف . . ولما اقترب من الملك جلس تجاهه ثم أتكى يديه على المائدة
وشخص ببصره اليه وقال : — « كيف تريد ان افكهك ايها الملك ، وأي
شيء يطربك ؟ . . لان الذي جرى في البلاد ، منذ تبوئك سرير المملكة
من الفكاهات ودواعي الطرب ، لايقع تحت حصر . . ففي اول عهدك ،
وانت غلام ، كنت تلهو بتعذيب الحيوانات وقذفها من نوافذ القصر وشرفاته.
ثم انتقلت منها الى الناس فكنت تطلق عليهم الدببة . . واذا خرجت راكباً
للنزهة ومعك أترابك من ابناء النبلاء كنتم تدوسون بجيادكم الجماهير من
الشيوخ والنساء والاطفال في الشوارع ومعاطف الطرق ولاتبالون . . »

« غير ان ذلك لم يكن الا لهواً صبيانياً لم يلبث ان أضجرك فعمدت الى غيره ثم الى غيره من هذه الملاهي الكثيرة ، وانت تنتقل من رذيلة الى أرذل ومن منكر الى أنكر ، على ما تسوقك اليه حالتك وأهواؤك . . . »

فلما سمع رجال الحرس ذلك الكلام تحفزوا للوثوب على النبيل موروزوف وتقطيعه ، غير ان الملك منعهم باشارة منه ، فلبثوا في اماكنهم وقد ملكهم العجب والاستغراب

ومضى موروزوف في حديثه فقال — « مات والدك وانت في سن الثالثة من العمر ، فكفلتك والدتك وتولى امرك النبلاء الى ان آل الامر الى آل شويسكي . ولم يحسن هؤلاء الأوصياء تربيتك ، بل تركوا الك الحبل على الغارب والتهوا بما كان نشب بينهم وبين غيرهم من الاحزاب الاخرى من المنافسات والمناظرات ، فنموت على القسوة والفظاظة والشرّ ، وزاد ذلك فيك بعد موت والدتك وانت في سن الثماني سنوات »

« وبلغت السنة الثالثة عشرة من العمر وانت لا تعرف من شؤون الملك الا الصيد والقنص والمآدب والقصف والخلاعة على انواعها ، فشبيت غبياً جاهلاً كما شبيت ظالماً غشوماً »

« وآل امر الوصاية عليك الى أخوالك امراء آل غلينسكي ، وكانوا قد انتصروا على خصومهم ومزاحميهم ولكنهم ساروا بك في طريق الضلال كما سار غيرهم وتركوك وشأنك اذ لم يكن يهمهم الا ظلم الرعية وابتزاز اموالها . وقد أوغروا صدرك على الامير اندراوس شويسكي وكان من القيمين عليك قبلهم ، فأمرت به فربط وطرح للكلاب فمزّقت بدنه والناس يبصرون ولا يجسر احد ان يتقدم للدفاع عنه . . . »

« وساءت احوال البلاد في عهد آل غلينسكي وكثرت الدسائس والفتن والمظالم حتى زهقت الارواح وعمت البلوى. وكنت انت لا تزال منصرفاً الى ملاهيك تطرب للشرّ ولا تشبع.. وقد رغبت في تلك الاثناء الى جمهور من مشاهير الرجال في الانخراط في سلك الرهبنة، ولما فعلوا مددت يدك الى نسائهم وبناتهم وفعلت ما تخجل الانسانية من ذكره.. وكنت تكثر من الرحل في البلاد، لا للوقوف على احوال الرعية بل لترهقها بالانفاق على الاحتفاء بك وبحاشيتك الكبيرة وتقديم الاموال والهدايا لك ولرجالك »

« ولما بلغت السابعة عشرة أعلنت عزمك على خلع الوصاية والتفرُّد بالحكم. ثم أمرت بمجيء اليك بأجمل فتيات البلاد، فاخترت واحدة منهنّ لتكون زوجة لك، وهي الملكة انسطاسيا، وكانت مهذبة دمثة الاخلاق، فأمل الناس ان تؤثر فيك بلطفها ووداعتها وتحملك على الاقلاع عن قبائحك ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئاً. نعم انك أظهرت في اول الامر ليناً وتديُّناً، وذهبت مع عروسك الى دير القديس سرجيوس ماشيين على الاقدام، ولبثتما هناك اسبوعاً وانتما عاكفان على الصلاة والصوم والعبادة، غير ان ذلك لم يكن الا مظهراً من مظاهر الرياء الكثيرة التي عُرفت بها »

« انك لم تعرف من واجبات الملوك الا ان تظهر بمظهر الأبهة والجبروت وتكثر من العقوبات. وكنت كالوحش الضاري لا تزيدك الدماء الا توحشاً وشراسة. وقد تفننت في طرق القتل، لم تترك فيها نوعاً من انواع التوحش الا أتيته، حتى أُربيت في ذلك على جميع البرابرة والسفاحين »

« جاءك مرة نبلاء مدينة بسكوف يتظلمون من عاملك عليهم، فكان

جوابك لهم أنك صببت عليهم نبيذاً حاراً ، فأحرقت لحاهم وشعر رؤوسهم، ثم أمرت فجردوا من ثيابهم وطرحوا على الارض ليجلدوا بالسياط . . ولكن قبل ان ينفذ فيهم القضاء ورد اليك خبر سقوط الجرس العظيم في موسكو، وكنت انت في تطوافك بالاقاليم ، فأسرعت الى العاصمة ، ونجا نبلاء بسكوف مما كان ينتظرهم من ضروب الهلاك »

« ولما كانت سنة ١٥٤٧ احترقت العاصمة وظلت النار تضطرم في دورها وقصورها وشوارعها وحدائقها وكنائسها بضعة ايام . وقد احترق من السكان يومئذ نحو الالفين ، وعدّ الناس هذه النكبة عقاباً لك من الله لتضييعك عن شؤون المملكة . وكنت في ذلك الحين قد مللت عشرة آل غلينسكي ، ووجد من دسّ عليهم . فقيل لك ان أخوالك هؤلاء هم الذين أحرقوا العاصمة بقوة السحر ، وان امهم الاميرة حنة كانت تنبش القبور وتخرج من الموتى قلوبهم فتغمسها في الماء ثم تنضح بذلك الماء الشوارع ، ولهذا احترقت المدينة . . . وصدّقت انت هذه الاكاذيب الفاضحة وامرت في الحال فهجم الناس على هؤلاء الامراء ودمروا منازلهم وقتلوا من ظفروا به منهم ، وكان في جملة من قتل أمهم الاميرة حنة وهي جدّتك ام امك »

« وجاءك بعد حريق موسكو الكاهن سلفستر الرجل الصالح الكبير وأخذ يعدّد معايبك وينذرك بغضب الله ويهديك سبيل الرشاد ويقرأ لك الفصول التهذيبية من الكتب المقدسة . وقد سمعت انت في بدء الامر كلامه وبكيت وتبت . . وكان في جملة مستشاريك وقتئذ النبيل أداشف ، فاتفق والكاهن سلفستر على اصلاح سيرتك وتقويمك ، فعزمت على العدل في الرعية وتبت توبة علنية امام جمهور عظيم من الشعب . . وقام التتر في هذه

المدة لمحاربة روسيا ، وهب أشعب معك للذود عن الوطن ، فانتصرت على الاعداء واستوليت على مملكة قازان ومملكة أستراخان »

« ولكن نفسك الامارة بالسوء لم ترض بهذه الحالة الصالحة . .



(الكاهن سلستر يؤنب الملك يوحنا الرابع ويتهدده)

واخذت الدسائس تحوم حول سلفستر وأداشف . وتوفيت المليكة انستاسيا في هذه الاثناء ، فقيل لك انها ماتت مسمومة على يد مستخدمي سلفستر وأداشف . . وعدت انت الى اطوارك السيئة . فأصغيت لهذه الترهات وجزمت بخيانة هذين المستشارين الفاضلين . فنفيتهما (سنة ١٥٦٠) واتخذت بدلاً منهما عواذل ومستشارين كالكسي باسمانوف والامير اناسي فيازمسكي ومسيبي غريازنوي وماليوتا سكوراتوف وامثالهم ،

وهم الذين يحبطون بك الان ولا عمل لهم الا السعاية والدسيسة . فاختلت ادارة البلاد وانتشرت الفوضى من جديد ، وقمت تحارب النبلاء بدعوى اتصالهم بسلفستر وأداشف واتفاقهم معهما على خيانتك والكيد لك . وصار لكل كلمة من سعاية اعوانك هؤلاء قيمتها . وكانت كل كلمة منهم وكل اشارة تكفي لسقوط رأس كل نبيل ومحو اسرته . . وكان هذا الدم دم النبلاء المسفوك ظلماً وبغياً ، قد أسكرك ، فازددت قسوة وعتواً وفعلت ما لا يمكن ان يصدق او يسطر مثله في تاريخ »

« وكنت قد أنشأت فرقة رجال الحرس ، فكانت البلاء الاشد على البلاد والعباد ، لانها فرقة أبالسة لا بشر ، وقد فاق رجالها أبالسة الجحيم بمكرانهم وفظائعهم . . وقد اخترت رجال حرسك هؤلاء من زعنف الناس وشذاذهم وأوباشهم ليجاروك في اعمالك البذيئة ، فجاروك فعلاً في كل بذاءة وكل فجور . ثم انتقلت بهؤلاء الحراس من العاصمة الى قرية ألكسندروف هذه ، ولم تلبث ان اصطفيت بضع مئات منهم ألبستهم الملابس الرهبانية وأقمت نفسك رئيساً عليهم . وصرت مع هؤلاء الرهبان القديسين تنحرون الناس نهاراً وتتعبدون ليلاً . وقد قمت انت بهذا المنصب الاخير احسن قيام ، لانك وانت ملطخ بدماء الابرياء كنت تصلي وتنشد الاناشيد الدينية وتقرع الاجراس ، وكنت تقوم بالخدمة الالهية بنفسك . وهذا النوع من التسلية قد أطربك جداً فآثرته على ما سواه . . اما المآدب وحفلات التهتك والخلاعة التي كنت تقيمها مع رجالك وندمائك هؤلاء في ساعات فراغك من الصلاة والعبادة فما لم يسبقك اليه احد . وها ان قصرك

الان ، وهو الذي تدعوه ديراً ، يعج عجيجاً بالندماء والمجانين والمشموذين واهل اللهو والخلاعة والدعارة من كل نوع »

« وقد سلطت رجال حرسك على البقية الباقية من النبلاء تريد ان تستأصلهم جميعاً ليصفو لك الجو ولا يبقى من يقاومك او يكبح جماح أهوائك.. ولم يكن رجالك في حاجة الى من يوعز اليهم بمثل ذلك ، لان لهم من طبيعتهم الفاسدة ما كان كافياً ليضمن لهم نجاح هذه المهمة ، فانتشروا في البلاد يعيثون فيها فساداً ويتعقبون النبلاء في كل مكان ينغصون عيشهم ويرقبون حركاتهم وسكناتهم ويوقعون بهم ، حتى ضاق النبلاء ذرعاً بالامر ، فهرب من هرب منهم والتجأوا الى الممالك المجاورة ، وبقي من بقي وكانوا لايزالون جمهوراً كبيراً وكلهم من أصفياء رعاياك وأشد المخلصين لك. ولكنك شئت وشاء أعوانك ان يكون هذا الجمهور من النبلاء عرضة لنقمتك وغدرك ، وقد صبروا على الضيم وهم لايخالفون لك امراً ولا يشكون ولا يتذمرون ، وظلوا مخلصين لك وللوطن واخصاؤك على الرغم من كل هذا يفترون عليهم ويكذبون ويشون »

« كان على رأس جيوشك الامير كوربسكي وهو اعظم قوادك واشهر أبطالك ، فأردت ان تقتله لانه كان صديقاً لأداشف ، فهرب من البلاد وليس معه من أسرته وذويه الا « شيبنوف » حاجبه المخلص . وقد كتب اليك من المنفى رسالة كلها حكمة وموعظة ، وجاء حاجبه بهذه الرسالة فقبلك وانت في ساحة القصر ، فامتلأت غضباً على الامير ولم تر الا ان تنتقم من حاجبه البريء . وكان في يدك عكازك المشهور المحدد الطرف ، فتناولت الرسالة من الحاجب ووقفت تسمع تلاوتها ، وهو امامك في تمام الوقار ،

وانت متوكئ على المكاز وقد غرزته في رجل الحاجب فنفذ منها الى الارض ، وهو واقف امامك لم يتغير ولم يتحرَّك والدم يتدفق من قدمه وهو صابر . ثم أمرت فأخذ هذا المسكين ومُثل به تمثيلاً لم يُسمع بمثله الى ان مات شهيد الوفاء لسيده وقد سُلخ جلده وهو حي »

« وكان لرسالة الامير كوربسكي اسوأ تأثير في نفسك فأخذت تبحث عن اهله وأصدقائه ومريديه وتزجهم في السجن وتفتك بهم ، وأعوانك يرشدونك كل يوم الى كل من يريدون الايقاع به من اعدائهم النبلاء ، وانت تُنزل بهؤلاء الابرياء امرَّ البلايا ، وقد صلبت منهم بعضاً واحرقت بعضاً آخر وسلخت جلود آخرين »

« وبلغك على اثر ذلك ان اهالي مدينة نوفغورود العظمى يضمرون الانفصال عن روسيا والانضمام الى مملكة لتوانيا ، فزحفت على المدينة حالاً لتفتك هذه الوشاية الكاذبة ودمرتها وقبضت على بضعة آلاف من سكانها وقتلت نحو الف وخمسمئة منهم ، مع ان المدينة كلها قد خرجت لاستقبالك باستقبالات ، فما سبب هذه المعاملة ولا ذنب لاحد من اهاليها في هذا النزع ولا أثم »

« ويحدث ان خان القريم هجم على موسكو بجيشه فزعمت ان ذلك لم يكن الا بالاتفاق مع النبلاء ، فألقيت القبض على الثلاث منهم وصادرت اموالهم ومقتنياتهم وفتكت بهم . . ورأى البولونيون والاسوجيون ما رآه خان التتر من اختلال الحالة في روسيا فقدموا هم ايضاً يشنون الغارات على اطراف البلاد . وانت كلما أصبت بنكبة تعزو ذلك الى خيانة النبلاء ورغبتهم في الانتقاض عليك »

« ولما هبَّ المطران فيليب القديس في وجهك وانبرى يظهر لك معايبك وينذرك بالعقاب الالهي ان لم تقلع عن هـذه الفظائع وتلغ فرقة رجال الحرس خلعتهُ من منصبه وأرسلت رجالك فجردوه ، وهو في الكنيسة يخدم الله ، من ثيابه الحبرية ، ثم أخرجوه من الكنيسة عنوة وهم يضربونه بالمكانس ويقذفونه بكل بذاءة ، والشعب يتبعه باكياً منتحباً . . وقد نفيت هذا الرجل البارّ ، الذي لم تر روسيا مثله حتى الآن من رجال الدين والفضيلة ، الى احد الاديار ، وقبضت في الحال على جمهور كبير من اهله ومريديه ومثلت بهم بفظاعة تقشعر لهولها الابدان ، وقد قطعت رأس فتى من اقربآء المطران كان يحبه كثيراً ، وأرسلت هذا الرأس اليه الى السجن « هدية جميلة » . . ثم أرسلت بعد سنة مستشارك الخبيث ماليوتا سكوراتوف ، فدخل عليه وهو جاث في غرفته يصلي وخنقه بيديه (سنة ١٥٦٩) . . . . »

« هذا بعض من عدّ من اعمالك الجهنمية ايها الملك ، ذكرته وقلبي مشتعل بنار الاحزان لسقوط مجد روسيا وهبوطها . . فهي في عهدك قد اصبحت مرتعاً للدسائس والفتن وسائر ضروب القلاقل والاحن . وكل عاقل من رعيتك ينظر الى قبائحك بقلب متصدّع ويخشى ان تحلّ بسببك نقمة الله على البلاد فتتجزأ وتخرب او تعود فتتسلط عليها امم اخرى كالتتر او الالمان او البولونيين ، وتضطرّ حينئذ جلالتك ان تسجد للخان وتقبل ركابه . . . . »

ثم صمت الشاب موروزوف وفي صدره براكين مشتعلة

الفصل الخامس والاربعون

« واذا لم يكن من الموت بدٌّ   فمن العجز ان تكون جبانا »

كان النبيل موروزوف يتكلم بصوته الجهوري والجميع مصغون اليه كأنَّ على رؤوسهم الطير ، وقد اصفرَّت وجوههم وارتعبت قلوبهم ، حتى ان ماليوتا نفسه شعر بخفقان شديد وخوف عظيم . اما الملك وكان جالساً مطأطئ الرأس ممتقع الوجه تقدح عيناه شراراً ، ولكنه لم يتحرَّك لئلا تفوته كلمة من خطاب النبيل.

فلما فرغ النبيل من حديثه نهض فاسيلي غريازنوي وقد شهر في يده خنجراً ، فدنا من الملك وقال — هل تأمر ان أغمد هذا الخنجر في حنجرته لنتخلص من هذيانه ؟

فقال الملك وهو يتلذع غضباً — اياك ان تمسه ، لاني اريد ان أسمع حديثه الى نهايته

فنظر اليه موروزوف نظر الظافر المنتصر وقال — عادت اذا لم تكتف بما أطربتك به حتى الان من الملح والنكات بل تريد اكثر من ذلك ، فاسمع وتفكه . .

« لم يبق من خدمك الامناء من ذوي الاعراق الشريفة الا واحد وقد قضى ايامه منقطعاً عن بلاطك الدموي ولم يتدخل قط في شؤونك . ولكنك لم تتركه في سكينته ناعم البال ، بل عزمت على تنغيص عيشه اولاً

ثم على معاقبته ثانياً ليلحق باخوانه من شهدآء الفضيلة ، وأخذت تبحث عن وسيلة تنيلك مبتغاك وتظفرك بأمنيتك . فلم تلبث ان استدعيته ثم صرفته بعد ان شهرت عليه غضبك . . . فعاد الى منزله وهو يودّ ان يقي حياته كلها مقصياً عنك منسياً منك . بيد انك لا تنسى احداً . . فقد أرسلت اليه احد اخصائك الامير اثانسي فيازيمسكي فاحرق منزله وسبي امرأته . ولما جاءك متظلماً يسألك ان تنصفه لم تعبأ بدعواه العادلة بل أمرته بمبارزة الامير لتيقنك ان الامير سيفوز عليه لا محالة بالنظر الى ما بينهما من التفاوت في الاعمار . غير ان الله أبى الا اظهار الحق ، ولم تكن انت تنتظر مثل هذه النتيجة ، فاغتظت واخذت تسعى لاغتيال هـذا النبيل الشيخ بحيلة اخرى »

ثم انتصب موروزوف امام الملك كتمثال الانتقام وضرب المائدة بيده ورفس الارض برجله ، وقد هاج الدم في رأسه فاتقدت عيناه وارتسم الغضب على وجهه وقال بصوت مرتفع — « فاستدعيت حينئذ خادمك النبيل دروجينا موروزوف ، الذي انقذ مدينتي تولا وموسكو من شرّ الاهوال والمصائب ، والذي لأجلك خاض غمار الحروب وصافح الموت مراراً بلا وجل ، والذي يودّ من صميم قلبه ان يسفك آخر قطرة من دمه في خدمتك وخدمة البلاد ، استدعيته وأمرته ان يرتدي طيلسان المجاز ليضحكك ويسلي ندماءك . . . هذه هي انعاماتك على هذا الشيخ الجليل ايها الملك . وبهذا انت تكافىء اشراف مملكتك وقوّاد جيوشك وأبطالك ! . . . . »

كان موروزوف يتكلم وجوارحه تنتفض وأوتار صدره تكاد تتقطع .

وكان منظره وهو في تلك الحالة مخيفاً رهيباً . وكان الملك وجميع رجال الحرس صامتين مبهوتين ، لم يلتفت احد منهم الى الطيلسان.ولم ينتبهوا الى اجراسه التي كانت ترنّ لدى كل حركة يبديها النبيل . . . ومن رأى هذا المشهد وقابل في تلك الساعة بين هيئة النبيل وهيئة الملك رأى الملك حقيراً جدًّا بالنسبة الى النبيل . .

وتنفس موروزوف طويلاً ثم عاد الى حديثه فقال — « وها، نذا ايها الملك قد قمت بتمثيل دوري على قدر طاقتي ولم يبق الا ان أخاطبك بكلمة اخرى هي نهاية الحديث . . فاعلم انك وانت حيّ تظلُّ افواه الامة الروسية صامتة عن أظهار معايبك وشرورك تفادياً من نقمتك . غير ان ملكك الوحشيّ هذا سيزول ، فتندفع حينئذ جميع الالسنة من جميع طبقات الشعب تذيع مآثمك ومخازيك وتنشر أنباء سيئاتك وفضائحك ، ويكون اسمك مثال الظلم والتوحش ملعوناً بكل شفة ولسان الى يوم الدينونة الرهيب ، يوم ينهض المئات والالوف من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال الذين استبحت دماءهم ، فيقفون امام الديان العادل ويطلبونك للمحاكمة . . . واذ ذاك أظهر انا ايضاً بهذا الطيلسان افاخر وأذكر ظلامتي. فماذا تكون حالك حينئذ ؟ . . انك ستكون منفرداً ، ولا يستطيع رجالك هؤلاء الانذال ان يدافعوا عنك او يسدُّوا افواه الصارخين والطالبين الانتقام منك . . فالويل لك ثم الويل لك في ذلك اليوم . لان الديان العادل سيطرحك في النار الابدية لابليس وزبانيته . . »

وأمسك موروزوف عن الكلام وهو ينظر بازدراء الى الملك وندمائه.

ثم أعرض عنهم بأنفة وسار بين الموائد بقدم الغالب المنتصر ، والعظمة بادية في حركاته ، والجميع مذعورون مبهوتون كأنهم يرون رؤيا

وما كاد يصل الى باب الردهة حتى تنبه ماليوتا سكوراتوف من غفلته وقال للملك — ماذا تأمر الان يا سيدي ؟ أنقتله ام نوثقه ؟

فهب الملك كمن حلم وقال بصوت مرتجف — ألقوه في السجن ولا يمسسه احد ، بل أطعموه واسقوه واعتنوا به اشد عناية الى اليوم الذي أريد .. واياك ان تسيء معاملته

فنهض ماليوتا لساعته وتقدم الى النبيل ومعه نفر من رجال الحرس ، فقيدوه بأيد مرتجفة ثم اقتادوه الى السجن وهم لايجسرون ان ينظروا الى وجهه

وخرج الملك من ردهة المائدة وسار الى مخدعه وهو أصفر الوجه مشرد الافكار

الفصل السادس والاربعون

« الاعدام »

ولما كان المساء أقبل ماليوتا سكوراتوف على عادته ، فخلا بالملك وقص عليه اخبار السجون والسجناء . فأخبره ان السجن في قرية ألكسندروفا قد غص بالمجرمين الكبار وان عددهم قد أربى على الثلاثمئة ما عدا موروزوف والامير اثناسي فيازيمسكي وخدمه ثيودور باسمانوف والطحان الساحر واللص كرشون . ثم أضاف الى ذلك فقال — اما ثيودور باسمانوف

فقد اعترف امام الشهود والكتبة بان لايه ألكسي اليد الطولى في جميع مآثمه وانهما مشتركان معاً في المؤامرة على جلالتك

فقال الملك — ألق اذاً القبض على ألكسي باسمانوف وأودعه السجن، وبعد يومين ينفذ الحكم في جميع هؤلاء المجرمين في مدينة موسكو بحضور جميع السكان، لاني اريد هذه المرة ان يكون العقاب علانية . . وقد حكمت على الطحان الساحر بالاحراق، وعلى الامير اثناسي وثيودور باسمانوف بالكلاليب، وعلى اللص كرشون وموروزوف بأشد العذاب . . فاذهب وجهز المعدات اللازمة ولا تغفل شيئاً

قال — سمعاً وطاعة

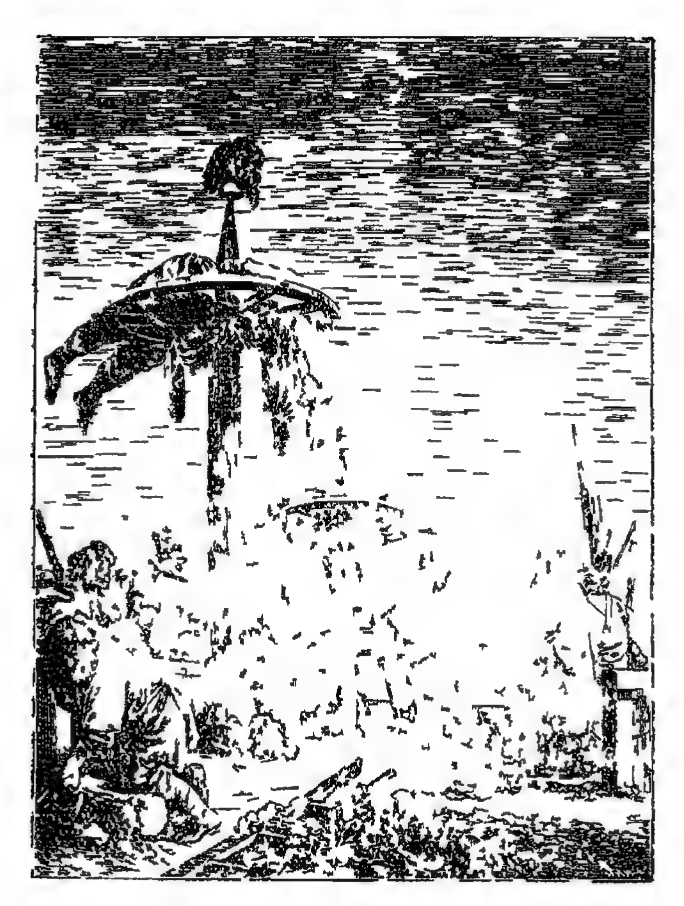
قال ماليوتا ذلك ثم نهض فودع الملك وخرج وهو كأنه ذاهب الى وليمة او عرس . . .

وما أشرقت شمس اليوم التالي حتى كان في صهوة جواده ينهب الارض الى موسكو ومعه جمهور من رجال الحرس، وقد حملوا آلات التعذيب ومعدات الاعدام عملاً بامر الملك . ولما وصلوا الى العاصمة قصدوا الى الساحة الكبرى فيها حيث اعتاد الاهلون ان يحتشدوا في المواسم والاعياد الوطنية

في هذه الساحة نصب ماليوتا ورجاله المشانق وأقاموا الاعمدة ووضعوا الخلاقين الكبيرة، وقد هيأوا الدواليب والجنازير والحبال والسياط والكلاليب والقؤوس والنبال والاوتاد والسيوف وآلات اخرى كثيرة مختلفة لكل نوع من انواع القتل . .

وكان سكان العاصمة يرون هذا التأهب ولا يدرون شيئاً، وقد ذعروا

ووقفت حركة عملهم فأخلوا الشوارع والاسواق وأخلدوا الى منازلهم وهم يحسبون لذلك الف حساب .. ثم سادت السكينة في جميع اطراف العاصمة فلم يعد يُرى في الشوارع احد او يسمع صوت احد



منظر من مناظر الاعدام : القتل بالدولاب

وفي يوم ثاني حضر الملك من قرية التمسبون في موكب حافل برجال الحرس وكلهم شاكو السلاح . فلم يخرج احد من الاهالي لاستقباله لان الرعب كان قد استولى عليهم فآثروا البقاء في منازلهم يتخوفون مما سيكون .. وفي هذا اليوم ... حدث تجمع جمهور الذين كانوا يتخذون منيتهم في

غيابات السجن وكانوا نحو ثلاثمئة وخمسين رجلاً ، فأخذوا كلهم الى سجن العاصمة

وما ازف صباح اليوم التالي حتى خرج البوقون من قصر الملك وساروا الهوينا نحو الساحة الكبرى وهم يبوقون . ثم أقبل جماعة من الحراس وقد ركبوا خيولهم وساروا صفوفاً منظمة ليعدوا طريق الملك ويحفظوا السكينة بين الناس . غير أنه لم يكن احد قد حضر ، فكانت السكينة والحالة هذه مخيمة على تلك البقعة بأسرها . .

وكان بعد هذا ان أقبل الملك يوحنا الرابع ممتطياً جواده ومرتدياً حلته الملكية ، وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر ومزين بصور القديسين ، وقد علق في عنق الجواد رأس كلب من الذهب والى جانبيه كنانة النبال وقوس من الذهب ايضاً . وكان سائراً الى جانب الملك ولي عهده ، يتبعهما رجال البلاط والزعماء وكلهم على الجياد المطهمة

وجيء بالمجرمين بعد ذلك وهم مصفدون بالحديد ، يخفرهم رجال الحرس من كل جانب . وكان موكب المجرمين هذا يتبع موكب الملك على الاثر

ولما وصل الملك الى الساحة ولم ير احداً من الاهلين دهش واستاء جداً وأمر فانتشر رجال الحرس في الحال في سائر انحاء المدينة يسوقون الناس سوقاً الى مكان الاجتماع ويطمئنونهم على نفوسهم . ولم يكن الا القليل حتى اخذ الاهلون يتقاطرون زرافات ووحداناً الى ان غصت تلك البقعة بهم

وكانت النار قد اضرمت تحت الخلاقين وتحفز الجلادون للعمل . فصمتت الجماهير وسكن ضوضاؤها

وكان الملك جالساً على عرش نصب له على منصة مرتفعة ومن حوله رجال الحرس واقفون بالعدة الكاملة

ولما أعد كل شيء ولم يبق الا الشروع في العمل امر الملك فنودي على بعض المحكوم عليهم وكانت جرائمهم خفيفة ، فخاطبهم الملك بصوت جهوري سمعه كل من كان حاضراً في تلك الساحة قال — انكم قد عصيتم اوامر الحكومة واستسلمتم للخونة الاشرار ، فاستوجبتم لذلك عقاباً كعقابهم . غير اني قد رأيت أن أعفو عنكم وأهبكم الحياة على شرط أن تكفروا عما مضى بتوبة صادقة وتقدروا هذه النعمة قدرها . . فاذهبوا بسلام ولا تنسوا أن القضاء يترصدكم اينما كنتم . .

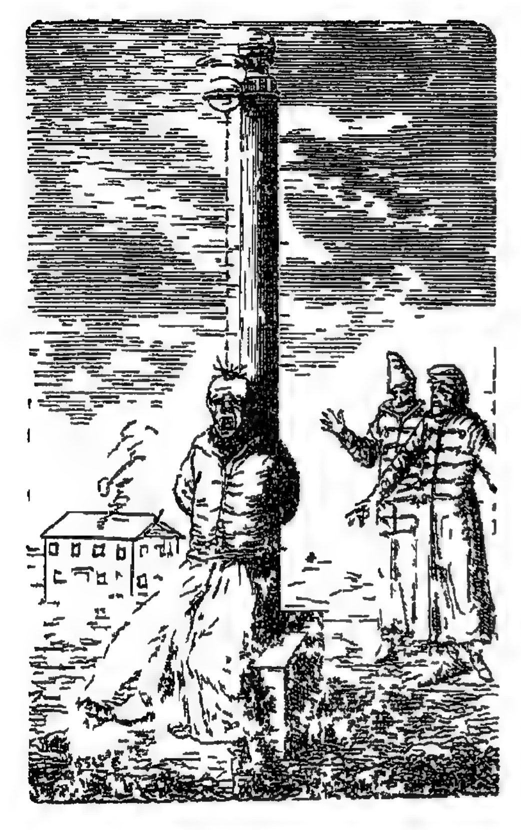
ثم التفت الى جماهير الناس فقال — والان فانكم مشاهدون ضروباً مختلفة من التعذيب والقتل ، وانا انما جمعتكم لذلك لتروا عاقبة الخيانة والعصيان . . ان هؤلاء المجرمين الذين سينفذ فيهم القضاء اليوم قد انصرفوا الى الشر منذ زمان وقاموا يناصبون ملكهم وامتهم حرباً عواناً ، وفي نياتهم الشريرة أن يسلموا المملكة للاعداء . . فأي شر أعظم من شرهم ، وأية جريمة اعظم من جريمتهم؟ . . ولما كنت قد أقمت من قبل الله لأسوس هذه المملكة وأرعاها وأصونها من كل حيف ، فقد حكمت عليهم بالاعدام ، اذ لا واسطة غير ذلك تقي الامة من دسائسهم . . واني في احكامي لا أحابي احداً ولا انحرف عن الحق بل أحكم على القريب والبعيد على السواء ، ولذلك فقد حكمت

أيضاً على البعض من رجالي الاخصاء وأقرب الناس الي لانهم أخذوا بهذه الجريرة ونكثوا عهدهم ، فدمهم اذاً على رؤوسهم ، وانا بريء من كل ذلك ..

ولما فرغ من الكلام أمر فقدم النبيل موروزوف ، وكان الملك قد أعد له عقاباً اليماً جداً ، غير ان حب اهالي موسكو للنبيل قد حمل الملك على التبصر فأمر بتخفيف العقاب ، ووقف احد كتبة الديوان الملكي على دكة مرتفعة وقرأ صورة الحكم على ما يأتي . « ايها النبيل ! انك تهددت الملك بأن تزرع الفتنة في البلاد ، وقد تواطأت مع خان التتر وملك لتفا على تجزئتها .. وبلغت منك الجرأة ان شتمت الملك نفسه وعيرته بما لا صحة له البتة ، ثم تحاملت على رجاله الامناء وخواص مملكته وقذفتهم بكل فرية وبذاءة . فاستوجبت بذلك كله عقاباً أشد من الموت . غير ان الملك بالنظر الى شيخوختك ومآثرك السابقة قد غير نوع اعدامك وحكم عليك بالموت السريع بقطع رأسك فقط .. واما مقتنياتك وثروتك فلا تستولي عليها الحكومة ، وانت حر ان تهبها الان من تشاء .. »

فرقي موروزوف النطع وقال برباطة جأش : « يعلم الله اني بريء من كل تهمة ، ولم يخطر ببالي قطاً ان اسيء الى الملك أو البلاد .. ولكن هكذا شاء الملك وبهذا حكم ، فانا أتجرع كأس المنية صابراً وأموت شهيد الحق والفضيلة .. اما املاكي وأموالي التي تفضل الملك بابقائها تحت تصرفي المطلق فتنقسم ثلاثة أقسام ، احدها للكنائس والاديار للصلاة عن نفسي والترحم علي . والثاني للفقراء والمحاويج ، والثالث لحاشيتي وذوي .. وبي أعتق عبيدي وامائي وأمنحهم الحرية التامة فلينصرفوا الى حيث شاءوا .. وقد سامحت زوجتي أيضاً ، فهي في حل من عهودها ولتقترن بمن أحبت ... »

ولما فرغ النبيل من كلامه ادار نظره الى الجمهور ثم حنى رأسه ، فتقدم اليه الجلاد وضرب عنقه ، فتدفق دمه الزكي وقضى كغيره على مذبح التوحش والاستبداد . . .



منظر آخر من مصير الاعداء : اقتل تسليط الماء على قمة رأس مجرم

وبعد مصرع النبيل موروزوف اقتاد رجال الحرس الامير اثناسي فيازمسكي وثيودور باسمانوف واباه الكسي باسمانوف . فقال الملك للجمهور « هؤلاء الثلاثة كانوا من اخص رجالي وأعواني ، وقد اقسموا لي على الامانة والاخلاص والرفق بالرعية . ولكنهم حنثوا في ايمانهم وظلموا الناس وخانوا ملكهم وولي نعمتهم ، لانهم أضمروا الفتك بي وتسليم البلاد للاعداء . وقد توسلوا لبلوغ مآربهم الخبيثة بالسحر وكل دنيء دنس . فليحصدوا ما زرعوا ولينالوا الآن جزاء ما قدمت ايديهم . . .

ثم وقف الكاتب وقرأ صورة الحكم

ولما استلم الجلادون ثيودور باسمانوف ووقفوه على النطع امام الجماهير وقال بصوت مرتفع : « أصيخوا اليّ يا سكان موسكو واسمعوا

اقراري الاخير ، لاني أريد ان أعترف لكم في هذا الموقف بجميع المآثم والموبقات التي صدرت مني برضى الملك وايعازه . . »

ولكنه ما كاد ينطق بهذا حتى وثب اليه ماليوتا سكوراتوف وبيده سيف مسلول ، فبادره بطعنة دخل السيف بها في عنقه فسقط الى الارض والدم يتدفق من وريده ، وبذلك نجا من اهوال العذاب التي كانت تنتظره

اما ابوه ألكسي والامير اثناسي فيازيمسكي فسيقا الى النطع وشرع الجلادون في تعذيبهما . وكان ألكسي أشدّ احتمالاً للعذاب من الامير ، فان هذا لم يعد في امكانه الوقوف على قدميه وكاد يموت ألماً وكاد جسمه كله يصبح علقة من الدم . . غير ان الجلادين القساة لم يكن من همهم الا تنفيذ الاوامر بكل دقة . . وحانت من الامير اثناسي في اثناء ذلك نظرة فرأى الطحان موثقاً الى سارية على مسافة قصيرة منه ، والى جانبه خلقين كبير طافح بالماء الحارّ ، فتذكر استسلامه له واغتراره بقوته وشعوذته فصرّ باسنانه وقال — « لعنك الله ايها الساحر المحتال ! . . »

ولم يكن بعد ذلك الا القليل حتى قضي اولاً على الامير اثناسي ثم على ألكسي باسمانوف وهما في أشدّ حالات العذاب

ثم جيء باللص كرشون والطحان ، وبعد ان ذاقا اصناف العذاب طرح الطحان في الخلقين ، وألقي كرشون على دولاب في أعلى بعض السواري ، ودار الدولاب دورته فنزل المسكين قطعاً متناثرة على الارض ..

ونودي على بقية المجرمين بعد ذلك وكانوا جمهوراً كبيراً ، فوقف الكاتب وقرأ الحكم عليهم بدعوى أنهم نقضوا عهد الملك ونبذوا رسومه وتأففت نفوسهم احكامه وتآمروا عليه وقد نووا ان يسلموا بعض الاقاليم

الروسية لملك لتفا وان لهم علائق اخرى بسلطان تركيا ، الى غير ذلك مما كان يمليه ماليوتا سكوراتوف على الشهود والكتبة بعد قبضه على كل جماعة من هؤلاء المجرمين

ولما فرغ الكاتب من تلاوة الحكم اقتيد بعض المحكوم عليهم الى المشانق . والبعض الآخر الى خلاقين الماء الحارّ . وغيرهم الى الدواليب . وطمر غيرهم في التراب الى ان ماتوا اختناقاً . ومزّق آخرون بالكلاليب . وجلد غيرهم بالسياط حتى تناثرت لحومهم وزهقت ارواحهم . ورفع بعضهم على حزم الشوك وأحرقوا . وسلخت جلود البعض الآخر وهم احياء . وشدّ آخرون الى سوار عالية وقد علق كل منهم من اضلاع جانب من جانبيه . وشدّ غيرهم الى سوار وأطلق عليهم الماء من ميزاب في أعلى كل سارية فظل الماء ينزل بقوة على قمة رأس كلّ منهم الى ان مات . وشوي آخرون وهم معلقون فوق براميل من حديد مملوءة جمراً مشتعلاً . ورنم البعض على الخوازيق . واخذ انباقون فضربت اعناقهم . . .

***

وبينما كان ذلك يجري والناس شاخصون بأبصارهم وقد ذابت قلوبهم هلماً وكمداً شوهد رجل بسن الاربعين ، أصفر الوجه حافي القدمين مرتد أطماراً بالية ، جاء يشقّ الجماهير وقد بدت على وجهه ابتسامة اليأس . فلما رآه القوم تحوّلوا بابصارهم اليه وهم يقولون – افتحوا الطريق ، فان الناسك باسيل قد أقبل . . فماذا ترى يريد ان يفعل ؟ . .

وكان الجميع يحبون هذا الرجل ويحترمونه ويرهبون غضبه ، لانه كان

وديعاً باراً يمقت الشر وفاعليه ويدافع عن الابرياء جهده . . وقد أقبل الان يشق الجماهير حتى دنا من الملك ، فانتصب امامه وقال — لقد نسيتني يا يوحنا . فانا ايضاً أستحق العقاب ! . .



منظر ثالث من مناظر الاعدام القتل بشد المجرم من اضلاعه الى السارية . وطمر المجرم في التراب (وفي الرسم جرمة تطمر)

وكان الملك حالما وقع بصره على الناسك قد ذعر فأشاح عنه وقام فامتطى جواده يريد ان يتحوّل عن ذلك المكان . فتشبث الناسك بزمام الجواد وقال — ما بالك تعرض عني ؟ ولماذا لا تريد معاقبتي كما عاقبت موزوف وسائر الجمهور ؟

. فأخرج الملك مقداراً من الدنانير ألقاها الى الناسك وقال — خذها وصل لاجلي

ففتح الناسك كفيه وهو يظهر انه يريد ان يأخذ الدنانير ، ولكنه رمى بها في الحال الى الارض وقال — ان دنانيرك ايها الملك لنار محرقة . . فهل أحميها في جهنم ؟

فعبس الملك وقال — دعنا فليس هنا محلك

قال — لا . . بل هنا محلي مع جمهور الشهداء . . وانا ألح عليك ان تعطيني اكليل الشهادة كما أعطيته لهؤلاء وتجعل نصيبي كنصيبهم ، فلست بمعزل عنهم

فصاح به الملك مغضباً — دعني وامض في سبيلك

قال — ولكني لست تاركك ما لم تنلني بغيتي

ثم ضحك ضحكاً عالياً والتفت الى الجماهير المحتشدة ، و يشير الى الملك ويقول — انظروا نظروا الى الملك ! . . فان هيئته قد انقلبت . . . وها قد نبت في جبهته قرنا جدي ، وصار رأسه كرأس كلب . . .

فاستشاط الملك غضباً واتقدت عيناه انتقاماً وصاح به — أغرب من هنا ايها المعتوه قبل ان أطرحك الى الكلاب فتمزقك تمزيقاً . .

ثم تناول من احد رجال الحرس حربة وهجم على الناسك يريد ان يطعنه بها ، فصاح الجمهور وقد عظم عليهم الامر — اياك ان تمسه بمكروه ! انك حر في رؤوسنا . . واما هذا الرجل القديس فلا تمسه

اما الناسك فابتسم وصاح — أقتلني ايها الملك الغاشم ! اطعني هنا في صدري يا شاول الظالم ! أقتلني ايها السفاح الطاغي وألحقني بهؤلاء الابرياء !

لانك اشد فتكاً وأعظم شراً وبغياً من شاول وهيرودس وسائر الظلمة الفجار . . ولكن الله سينتصف منك ايها الشيطان المتجسد جزاء ما جنيته على الابرياء !..

وكان الملك يريد ان يبطش بالناسك ، الا انه خشي هذه المرة هياج الشعب فصمت وعيناه تقدحان شرراً . ولم يلبث ان لوى عنان جواده وسار من ذلك المكان مخفوراً برجاله وأعوانه ، وسحنته مقلوبة تخيف اسد الغاب

وفي اليوم التالي كانت تلك البقعة التي شبعت من دماء الابرياء هادئة مطمئنة لم يظهر فيها احد من الخلق . وقد أقام الروسيون فيها على عهد خلفاء يوحنا الرابع (الرهيب) عدة كنائس « على عظام ودماء » اولئك الشهداء ولم يبرح من ذاكرة احد خلفاً عن سلف ذكر تلك الحوادث الدموية الهائلة

ألفصل السابع والاربعون

« رجوع الامير نكيتا »

وكان بعد تلك الاهوال ان الملك اراد أن يعامل الشعب بالحسنى . فأمر ان تفتح سجون العاصمة ويفرج عن جمهور من السجناء وان توزع على الفقراء الصدقات والحسنات . وفي اليوم التالي خرج من موسكو فانطلق الى دير الثالوث الاقدس ، وهو من الاديار التي يحترمها الروسيون قاطبة ، فاقام فيه مع نفر من حاشيته بضعة أيام قضاها في الصلاة والعبادة . وكان قد أرسل الى قرية الكسندروفا بوريس غودونوف ليعد له فيها استقبالاً

حافلاً . فقام بوريس بهذه المهمة احسن قيام ولبث في القرية ينتظر قدوم الملك

ولما كان في احد الايام جالساً في منزله يتأمل في ما صارت اليه حالة الملك دخل عليه احد حجابه وقال — ان الامير نكيتا قد جاءك زائراً يا سيدي ويطلب مواجهتك

فذعر بوريس لدى سماعه ذلك ووقف كالمأخوذ وهو لا يدري ماذا يفعل لعلمه ان الامير نكيتا بفراره من السجن قد استوجب غضب الملك وان كل صلة به لهذا السبب قد تفضي الى التهلكة . . غير ان بوريس كان يحب الامير ويحترمه ولعلمه ان الملك الان في حالة الرضى صمم على قبول الامير ، وهو يهيء في نفسه الاعذار التي ينبغي له ان يذكرها للملك دفعاً لما قد يترتب على ذلك من اللوم وسوء الظن . ولكنه عزم ان يتحفظ ما امكن ، فأمر الحاجب بادخال الامير ثم قدم فاستقبله في ردهة المنزل دون ان يخرج للقائه كما كانت عادته فيما مضى . ولما خلا بهما المكان عانقهُ بلهفة وهو يرحب به ويسأله عن صحته واحواله ثم قال — أخبرني اولاً ايها الامير هل رآك احد حين دخولك ؟

فاجابه الامير ببساطة — لا أعلم ، وربما رآني كثيرون ، لاني لم آتِ الى قرية ألكسندروفا متنكراً ولم أحضر اليك خائفاً . و نما الذي دفعني الى مقابلتك حال وصولي هو لانك صديقي وتكره رجال الحرس مثلي . وقد جاء معي ايضاً بضع مئات من اللصوص

فدهش بوريس وقال — وما شأنهم ؟ ولماذا أتيت بهم الى هنا ؟

قال — هم رفقـائي في المعركة التي نشبت بيننا وبين التتر في ولاية ريازان ، وقد جاهدوا جميعهم فيها الجهاد الحسن ، وجاءوا الآن للمثول امام الملك اظهاراً لخضوعهم واخلاصهم لسدّته الملكية ، فله الخيار في عقابنا او العفو عنا

قال — اجل قد سمعنا ببسالتك وحسن بلائك في تلك المعركة ولم يخف شيء من ذلك على الملك . فانت برجالك هؤلاء قـد كسرت التتر ومزّقتهم كل ممزّق ، فواهاً لك ايها الامير ! . . ولكن هل علمت بما جرى عندنا في مدة غيابك ؟

فاندفع من صـدر الامير تنهد عميق وقال — نعم علمت كل شيء ، وليس لنا الا ان نسأل الله ان يلين قلب الملك ويرشده الى سبيل الصلاح والعدل . . اما انت يا بوريس فغير معذور بكل هـذا التغاضي . انك ترى الشرّ بعينيك وكأنك لا ترى شيئاً ، فلا تقاوم الشرّ ولا تدافع عن الحق . .

قال — يظهر ايهـا الامير انك لم تغير شيئاً من طباعك . . فهل انت موقن ان الملك يسمع احداً او يقبل نصيحة ؟

قال — وهبه كما تقول ، غير ان الواجب يدعوك الى نصرة الحق مهما كان الامر . . واذا لم يسمع الملك منك الحقيقة فمن يليق به ان يسمعها ؟

قال — وهل تعتقد انت انه لا يعرف الحقيقة ؟ وانه عاقب جميـع اولئك الناس لمجرّد الظنون والتهم الباطلة التي قذفوا بها ؟ كلا . . بل انـه يعاقب لانه يجد لذة في ذلك ، ويعاقب كل من وقع عليه سخطهُ . فليس لاحد ان يعترضه في شيء او يتصدّى لتحويله عن عزمه . . فهذا النبيل موروزوف قام يسرد له سيرته كلها بفصاحة نادرة وكلام مؤثر ، فماذا كانت النتيجة ؟ . . . انه سمع حديثه الى النهاية ثم أحصاه في زمرة المجرمين . .

ولا شك انك عرفت شيئاً من تفاصيل الحكم الرهيب الذي نفذ في موسكو منذ بضعة ايام

قال — نعم عرفت . . واني آسف على الاخص لمقتل النبيل موروزوف لأنه كان من اشراف الأمة وأعاظم نبلائها وأقطابها

قال — فكيف عزمت اذاً على الرجوع الى قرية الكسندروفا بعد ان وقفت على ذلك كله ؟

قال — رجعت لان الواجب يدفعني الى المثول امام الملك بوًّا بقسمي ليس الاّ

قال — انت ايها الامير تسير على غير هدى ، فلا تتحرّز ولا تتحفظ ولكن الله يحفظك ويحرسك أنى سرت . فكم من مرة تعرضت للمخاطر وانتشلك الله منها ! . . وهذه المرة أيضاً لو عدت الى هنا قبل يوم الاعدام لوقعت في الفخ وكان نصيبك كنصيب غيرك ممن تضي عليهم . . اما الان فقد صار لك أمل بعفو الملك ، ولكن اياك ان تقابله قبل ان أراه انا وأفاتحه في شأنك

قال — أشكرك ايها الصديق وأسألك ان تثنى على الخصوص بأمر العفو عن رفقائي لانهم يستحقون ذلك لاجل ما أبدوه من البسالة والاقدام حتى كفروا عن مآثمهم السابقة احسن تكفير . . اما انا فلا تهتم كثيراً بي لان الموت والحياة سيان عندي الآن

قال — وهل ذلك لما دهمك من الاحزان أم لسبب آخر ؟

قال — لا شيء يكرهني بالحياة الا تقدم الشر في البلاد . . وطالما

خطر ببالي ان أحذو حذوَ الامير كوربسكي فاهجر الوطن والآل وأرحل الى بلاد بعيدة لا أسمع فيها ولا أرى ما يجري هنا من القبائح والفظائع

قال — أجل ان الحياة عندنا أمست في معظم الشدّة والاضطراب ولم يبق لنا الا واحد من أمرين ، فاما الرحيل الى بلاد أخرى كما فعل الامير كوربسكي وامثاله ، او البقاء في رضى الملك وموالاته . اما انت فلا تتوسل بأحد هذين الامرين فلا تهجر الملك ولا تتفق معه ، وهذا عين الخطأ وآفة العناء . فاذا اردت البقاء في روسيا لانها وطنك المحبوب فعليك بمداراة الملك واحترام اوامره ورغائبه ، فيحبك ويجعلك من أخص مستشاريه وأعوانه . واذا تم ذلك واصبحنا كلانا أخص رجال البلاط فاننا نشرع في العمل يداً واحدة ونسعى جهدنا في ارشاد الملك وتقويم سبله وتسديده الى الصلاح والخير ، وقد نعيد عهد سلفستر وأداشف ، وبغير ذلك لا تتم لنا امنية

قال — أصبت . . ولكني لا أطيق ان يجمعني ورجال الحرس جوٌّ واحد ولو يوماً واحداً . ولذلك اراني بعيداً جداً عن مرمى افكارك . واني أفضل الموت وكل عذاب على الاختلاط بهؤلاء القوم ومعاشرتهم

قال — دع عنك امر رجال الحرس فانهم ينهشون بعضهم بعضاً وسوف ينقرضون من انفسهم . وها ان ثلاثة من زعمائهم المقدَّمين وهم ألكسي باسمانوف وابنه ثيودور والأمير اثناسي فيازيمسكي قد هلكوا وسيلحقهم غيرهم من هذه العصابة الشريرة . . فلا بد من الصبر والانتظار ومصادقة الملك

قال — صدقت بيد اني لا أقوى على الصبر والانتظار ، فلست بباق في هذه الارجاء ما دام فيها واحد من رجال الحرس ، وقد لا يعفو الملك عني فأتخلص تماماً من عناء هذه الدنيا

قال — رويدك .. فأمامك آمال أخرى تستطيع ان تحيا بها وتكون في الوقت نفسه صديقاً للملك .. فها ان التريعيثون في البلاد من جميع الجهات ، وانت من مهرة القوّاد ، فيمكنك ان تحاربهم وتخضد شوكتهم ، وبذلك تخدم الوطن والملك اشرف خدمة

قال — حبذا ما تقول ، فلا اشهى اليَّ من ذلك . . .

ثم بسطت مائدة الطعام فقام بوريس وضيفه فأكلا ما طاب لهما ثم عادا الى مجالسهما فتحادثا في شؤون مختلفة الى أن أقبل المساء ، فنهض الامير مودعاً وهو يقول — أشكر لك ايها الصديق ولاءك واستودعك الله الآن الى الملتقى القريب

فنهض بوريس مستغرباً وقال — والى أين تقصد الآن ايها الامير ؟ ابق عندي الليلة وغداً يأتي الملك فتقابله

قال — ولكنَّ رجالي ينتظرونني في الغابة بظاهر القرية ؛ فلا بد من الذهاب اليهم .. ولو كان الملك اليوم في القرية لانطلقنا لمقابلته بحال وصولنا

قال — لا بأس . عد الى ذويك وليكن الله حارسك. أما انا فسأواجه الملك غداً ثم ارسل من يدعوك

ثم تعانق الصديقان . فخرج الامير لشأنه ولبث بوريس في منزله وهو يحمد الله لان الامير رفض دعوته ولم يبت عنده

***

وفي اليوم التالي عاد الملك يوحنا من زيارته بموكب حافل ودخل قرية الكسندروفا بالابهة والجلال كأنه رجع منتصراً من معمعة شديدة . ولما دخل القصر وكان الوقت مساء استقبلته حاضنته نوفرفنا بالشتم والسباب

قائلة — تباً لك أيها السفاك والوحش المفترس ! . . انك لا تزال تظمأ الى ارتشاف الدماء ولا تكاد تروي نفسك الخبيثة . . فكيف اجترأت على زيارة الدير المقدس بعد الذي صدر منك من الفظائع الاخيرة في موسكو ؟ . . أفلا تخاف ان يصعقك غضب الله وتنزل بك وبجيشك هذا الشيطاني الويلات والضربات ؟ . .

فألقى الملك على حاضنته نظراً حاداً ثم ولج مخدعه دون أن يجيبها بكلمة . أما هي فأردفت قائلة — ولكن مهلاً فان الله سيناقشك الحساب على جميع هذه الجرائم والموبقات . . انه سيسحقك بغضبه ثم ينزل على قصرك رعداً فيدكه وعلى هذه القرية الدنسة ناراً فيحرقها . .

ولما قالت هذا نظرت الى رجال الحرس شزراً ثم تحولت بوجهها عنهم وانصرفت الى مخدعها وهي تتمتم . .

وما كاد الملك يدخل الى مخدعه ويتفرّق رجال الحرس كل الى قراره حتى جاء بوريس غودونوف ، فدخل عليه وهو يظهر انه يريد الاختلاء به لأمر ذي بال . وكان لبوريس الحق في الدخول على الملك في أي وقت أراد نظراً لميل الملك اليه وثقته به . وكان بوريس لا يوافي الملك عادة ليخلو به ولا سيما اذا كان الوقت مساء الا لمهام ضرورية . .

وقد سبقت الاشارة الى أن الملك كان له في مخدعه سريران ، أحدهما من الاخشاب العادية كان ينام عليه عادة في أوقات انفعالاته وتبكيت ضميره وهو انما يقصد بذلك تعذيب جسده ومعاقبة نفسه ، والآخر كان حسن الوطاء مفروشاً بالصوف الناعم والوبر النادر والحرير والديباج وكان الملك يرقد عليه متى كان منشرح الصدر لا شيء يقلق أفكاره أو يزعج نفسه

وكان بوريس قد درس منذ زمان طويل اخلاق الملك يوحنا الرابع، فكان يعرف من امائر وجهه كل ما كان يضمره او يرغب فيه . . ولذلك فلما دخل المخدع لم يشأ ان يبدأ حالاً بحديثه في الامر الذي جاء لاجله ، بل انتظر ريثما خلع الملك بعض اثوابه واستلق على سريره الملكي (لا على الاخشاب) فسرَّ بوريس في داخله واستبشر خيراً وقال — هل علمت يا مولاي ان السجين الذي فرَّ من السجن قد ظهر الان ؟

فاجاب الملك وهو يتثاءب — واي سجين تعني ؟

قال — أعني الامير نكيتا الذي هجم على الامير اثناسي فيازيمسكي الخائن وزُجَّ بسبب ذلك في السجن

فاستوى الملك في سريره وقال — ومن ألقى عليه القبض ؟

قال — لا احد يا سيدي وانما هو قد جاء بنفسه وأحضر معه ايضاً جمهوراً من اللصوص الذين حاربوا تحت لوائه في ولاية ريازان وطهروها من عيث التتر . . وجميعهم الان ينتظرون اوامرك العلية

قال — وهل رأيت انت الامير نكيتا ؟

قال — نعم رأيتهُ يا سيدي . فقد جاء اليَّ بالامس وسألني ان أستأذن له في مقابلتك . . اما انا فحالما رأيته اردتُ ان اقبض عليه ثم عدلتُ لانه جاء مختاراً لا مرغماً فلن يحاول الفرار . .

كان بوريس يتكلم ولا يظهر عليه ان له ضلعاً مع الامير نكيتا او انه يميل اليه . . وهو لما شيعه بالامس ولم يخرج لوداعه لم يقصد بذلك ان يخفي هذا الامر عن الملك ، بل خشي ان يراه احد من رجال البلاط فيحمل الخبر قبله الى الملك ويغتنم هذه الفرصة فيشي عليه بما يشاء .

وأمسك بوريس عن الكلام وهو يتفرّس في وجه الملك ليرى تأثير كلامه فيه فلم يرَ ما يدل على غيظ . . وطال الانتظار والملك لاهٍ بافكاره وعلائم الرضى ظاهرة عليه ، فقال بوريس — فماذا تأمر اذاً يا مولاي ؟ . . أأدعو اليك ماليوتا ؟

فانتبه الملك وقال — لعلك تزعم يا بوريس كغيرك من الناس انه لا يهنأ لي عيش بدون سفك الدماء . . نعم اني قاس في احكامي ولكنني مع هذا عادل ورحيم ، فأرحم من يستحق الرحمة وأعاقب من يستوجب العقاب. فنكيتا مجرم امامي من عدة وجوه لانه لم يراع اوامري وقد استخفَّ برجال حرسي وجافاهم وقتل منهم في حوادث شتى الى غير ذلك مما لا أستطيع احتماله . ثم انه فرَّ من السجن . . ولكنني مع هذا كله أرى في نفسي عاطفة ميل نحو هذا الرجل لانه صادق في قوله مخلص في خدمته لي محب لوطنه الى درجة العبادة . فهو نادرة زمانه من هــذه الجهة . . ولستُ أعلم الآن كيف تكون نتيجة مقابلتي اياه . . فابعث من يدعوه غداً برجاله الى هنا ، فأقابلهم وأرى رأيي فيهم

الفصل الثامن والاربعون

« العفو »

وفي اليوم التالي أوفد بوريس غودونوف رسولاً الى الامير نكيتا يخبره بأمر الملك . فقام نكيتا من ساعته وسار برجاله حتى اذا وصلوا الى القصر وقفوا في فنائه ينتظرون

وليست هذه بالمرة الاولى التي عرف فيها اللصوص قرية ألكسندروفا. فقد جاءوا اليها قبل ذلك مرات عديدة في أزياء وهيئات مختلفة . فنهم من جاء بزيّ مشعوذ ، او بزي فقير ومتسوّل ، او بزي مغن ، او ضارب على آلات الطرب ، او غير ذلك

وقد كان منهم جمهور فيها يوم جاء برستن وكرشون لانقاذ الامير نكيتا من السجن . وهم الذين أضرموا فيها النار ليهتم الاهلون والجنود بالحريق ويخلو الجوّ لبرستن فينجو بالامير من غير ان يشعر به كما سبق ذلك في حينه

ولم يكن الان بين هؤلاء اللصوص جمهور غفير من مجموعهم . فقد سقط بعضهم بحدّ الحسام في سهول ولاية ريازان في حرب التتر. والبعض الآخر أبوا ان يتوبوا ويرجعوا الى الملك بل آثروا البقاء في الغابات بزعامة خلوبكو . وكوشون قضي عليه يوم قضي على غيره من « المجرمين » . وبرستن برح قرية ألكسندروفا حالاً بعد المبارزة بين الامير اثناسي فيازيمسكي والنبيل موروزوف وانطلق الى جهات نهر فولغا ومعه توما الشجاع . . . .

***

ولبث اللصوص ينتظرون في فناء القصر اكثر من ساعتين وهم لا يدرون ان الملك يرقب حركاتهم بعينه النقادة من كوّة صغيرة في غرفة من قصره تطل عليهم . .

وكان الامير نكيتا منفرداً عنهم في جهة اخرى وقد أمعن في الخيال فلم

يعبأ بالخلق الكثير الذين وقفوا في الابواب يتفرجون على رجاله . ومن جملة الواقفين هناك كانت أنوفرفنا حاضنة الملك . فانها خرجت من مخدعها ووقفت في ناحية تتأمل هؤلآء الرجال . . وربما كان في عزمها ان تدافع عنهم اذا بدرت من الملك حدّةٌ اوقسوة جديدة ، لانها كانت تميل الى الامير نكيتا ولا تفضل عليه احداً من رجال القصر

وظلّ الملك يراقب اللصوص من الكوة المذكورة وهو مسرور جداً لوقوفهم على تلك الحالة بين الموت والحياة . . ثم خرج اليهم ومن حوله بعض رجال بطانته . فحالما أبصره اللصوص خرّوا له ساجدين . فوقف يتأملهم وهو صامت . ثم امر فوقفوا ، والتفت الى الامير نكيتاوقال — ما الذي جاء بك الى هنا ؟ . . فهل ألفت السجن ؟

فقال الامير — اعلم ياحضرة الملك اني لم أخرج من السجن الا مرغماً . . وقد جئت الان مع هؤلآء الرجال لاني رافقتهم الى ميدان الحرب حيث أبلوا البلاء الحسن فقهروا التتر وانقذوا ولاية ريازان كلها من الخراب . . وها اننا نحمل اليك رؤوسنا ، وانت مخير بين ان تعاقبنا او تعفو عنا

فقال الملك للصوص — فانتم اذاً الذين أنقذتم الامير من السجن ! . . فمن اين تعرفونه ؟

قالوا — انه أنقذ زعيمنا من الموت في قرية الدب ، فأنقذه زعيمنا بدوره من السجن وكافأه بمثل عمله

فقال الملك للامير وهو يتبسم — في قرية الدب ؟ . . نعم اني اذكر ذلك . فانك هجمت وقتئذ على متى خومياك ورجاله وجلدتموهم وفتكتم ببعضهم . . ولقد صفحتُ لك ذلك الاثم ، غير انك مالبثت ان هجمت على

رجالي مرة اخرى في منزل النبيل موروزوف وألقيت بسبب ذلك في السجن

وأراد الامير نكيتا ان يتكلم غير ان أنوفرفنا قاطعته بقولها تخاطب الملك — انت لا تذكر الا السيئات والمآثم ، واما الحسنات والمآثر فتغضي عنها . . فالامير نكيتا لم يفعل في حياته ما يستوجب العقاب بل كان ولم يزل أشرف جميع رجالك واكثرهم شهامةً واوفرهم اخلاصاً ، وهو الرجل الفذّ الذي لا يجود الزمان بمثله . . والآن لانهُ كافح عن البلاد والدين وقهر التتر وكسرهم شر كسرة تريد ان تنتقم منه بدلاً من مكافأته ورفع رتبته ! . .

فنظر الملك شزراً الى حاضنته وقال — اخرسي . . فليس من شأنك ان ترشدبني وتشيري عليّ . .

ثم التفت الى اللصوص وقال — اين زعيمكم ايها الشجعان ؟ . . فليبرز من بينكم لأراه

فأجاب الامير نكيتا — ان زعيمهم يا سيدي قد تركهم حالاً بعد واقعة ريازان وانصرف الى حيث لا يعلمون

فقال الملك — يخيل اليّ ان زعيمهم هو رفيق اللص الشيخ وقد تدما الى هنا كأنهما أعميان . . فالشيخ أمسك وأعدم واما الزعيم ففاز بالنجاة . . ولكنني آمركم ايها الناس ان تبحثوا عنه وترفعوه على الخازوق

فقالت الحاضنة — انت أولى منه بذلك . . وسوف يرفعك الابالسة على خازوق عال في العالم الآخير لتكون عبرة لمن اعتبر

فأظهر الملك انه لم يسمع كلامها وقال للصوص — اما انتم فبما انكم اتيتم الي بأختياركم فاني أرحمكم وأعفو عنكم . .

ثم امر الخدام ان يقدموا لهم عشرة براميل من الشراب ، والتفت الى حاضنته فقال — فكيف رأيت عدلي ايتها العجوز الخرفة ؟

فنظرت اليه ولم تجب

اما اللصوص فصاحوا بصوت واحد — ليحي الملك ابد الدهر !

فقال الملك للخدام — وقدموا ايضاً الى كل واحد منهم بذلة عسكرية ، فاني اريد ان أضمهم الى رجال الحرس

ثم التفت الى اللصوص وقال — فهل تريدون ان تكونوا في فرقة رجال الحرس ؟

فارتبك اللصوص في امرهم وقال بعضهم — أطال الله عمر مولانا الملك ! . . اننا نريد ان نخدمك كيفما اردت

فقال الملك للامير نكيتا — ماذا تظن ؟ هل يصلح هؤلاء الرجال للجندية ؟

قال — نعم يا سيدي . انهم يصلحون لذلك ، ولكن لا تجعلهم في سلك الحراس

فظن الملك لدى سماعه ذلك ان الامير يحسب اللصوص غير اهل لهذه النعمة فقال — ولكني اذا عفوتُ عن احد وأردت مكافأته فلست أكافئه الا اتم مكافأة

فقال الامير — واي مكافأة هنا يا سيدي ؟

فبهت الملك ونظر الى نكيتا بمنتهى الدهشة وقال — وما معنى هذا الكلام ؟

قال — انهم يا حضرة الملك قد قاموا بعمل مجيد ، ولولا قوة سواعدهم لاستولى التتر على ولاية ريازان بأسرها

قال – حسن . وماذا يمنع ان يكونوا في سلك رجال الحرس ؟

فأجاب الامير برباطة جأش – انهم يا مولاي ولئن كانوا لصوصاً ولكنهم مع هذا يفوقون رجال الحرس بكثير من الصفات الطيبة والمزايا المحمودة . . وفي انضمامهم الى فرقة الحرّاس قضاء على كل مزية من مزاياهم هذه . .

ولم يكن الملك ينتظر مثل هذا الجواب من الامير ولم يدر كيف يعامله على ذلك . . وقد تذكر ان الامير لا يستطيع ان يخفي شيئاً مما يجول في افكاره ، وانه يؤثر الصدق على المراوغة والحيلة . فانه في اول مقابلته له بعد عودته من بلاد لتفا قد حكم عليه بالاعدام لمجرّد اعترافه الصادق . ثم اُتي بعد ذلك في السجن ومع انه أُفلت منه فقد عاد الان وهو يعلم انه من المحكوم عليهم بالموت . . .

وبينما كان الملك في مثل هـذا التأمل استوقف نظره مشهد آخر . وذلك انه رأى رجلاً غريباً في نحو الستين من عمره قد اخترق جماعة اللصوص وأقبل يسعى خلسة نحو الامير نكيتا ، حتى اذا اقترب منه مدّ يده ليمسك طرف ثوبه وهو يحاذر ان يراه الملك ورجاله

فلما أبصره الملك قال – مَن تُرى من هذا الرجل الغريب الذي اندسّ بين اللصوص ؟

اما الرجل المذكور فما سمع كلام الملك حتى اسرع واختفى بين الجمهور . فقال الملك للصوص – تنحوا عنه الى الجانبين لاني اودّ ان اعرف من هو

وما كاد اللصوص يتنحون حتى بادر بعض رجال الحرس الى الجهة التي أشار اليها الملك وسحبوا الرجل

فحدّق اليه الملك وقال - من انت يا هذا ؟ . .

وكان الامير نكيتا حالما رأى الرجل قد عرف انه خادمه ميخيش فقال للملك - هو خادمي يا مولاي وقد مضت عليه مدة ولم يرني

وللحال انحلت عقدة لسان ميخيش فقال - نعم ايها الملك فهو سيدي الحبيب . واني لم أره مذ قُبض عليه في منزل النبيل موروزوف ، فكنت أتنسم اخباره مع كل ريح الى ان بلغني اليوم اتفاقاً انه في القرية ، فأسرعتُ لأراه وانا أحمد الله على نجاته وسلامته

فقال الملك وهو مرتاب في صحة ما سمع - فماذا أردت ان تقول له الان ، ولماذا اختبأت وراء اللصوص ؟

قال - لاني خفت رجالك ايها الملك ، فهم قوم . . .

ولم يُتمّ كلامه

فقال الملك - امض في حديثك ايها الشيخ . . فهم اي قوم ؟

فنظر ميخيش الى وجه الملك فرأى امائر الدعة والحلم فتشجع وقال - انهم قوم اشرار لم نر مثلهم قط ، ولم يسمع اجدادنا بمثل هذه الآثام والموبقات التي يجرونها في طول البلاد وعرضها

فدهش الملك لما رأى ان الخادم مثال سيده في المبادىء والصراحة في القول ، ووقف يتأمله

فقالت له حاضنته - مالك ترمقه بهذا النظر المخيف ؟ . . اولم يتكلم بالصدق ؟ . . فهل رأى الروسيون منذ اقدم الازمنة حتى الان عصابة شريرةً كحرّاسك ؟ . .

واذ سمع ميخيش كلامها ازداد جرأة وقال - لا فضّ فوكِ يا سيدتي

فان الشرّ لم يظهر في روسيا الا بظهور هؤلآء الناس . . فهذا سيدي الاميرلم ير بسببهم هناء ولا ساعة واحدة من حين رجوعه من ميدان الحرب في بلاد لتفا حتى الان ! . . فكم اوغروا صدر جلالة الملك عليه ووشوا اليه به ، وهو أنقى من الثلج وأصفى من البلور ! . .

فلما سمع الملك كلام حاضنته وخادم الامير نظر الى كل منهما وهو يكاد يتميز غيظاً . غير انه ما عتم ان عاد الى سروره وقد أضمر ان ينتقم من حاضنته فقال لميخيش – اذاً فانت لا تحب رجال الحرس ! . .

قال – نعم يا سيدي لا أحبهم ولا أظن ان احداً غيري يحبهم . . . ولولاهم لكان سيدي الان أقرب المقربين اليك وأشهر رجال بلاطك

فقال الملك للامير وهو يتعجب – ان خادمك نادر المثال ، وليس لديّ من رجالي من يخلص لي المحبة كما يخلصها هو لك . فهل له في خدمتك زمن طويل ؟

فأجاب ميخيش عن مولاه وهو يزدهي تيهاً وعجاباً بنفسه – اني خدمته يا مولاي منذ اول حداثته ، وهكذا خدمت اباه من قبله ، وأبي خدم جدّه ، ولو أنّ لي اولاداً لخدموه وخدموا اولاده من بعده

فقال الملك – أفلم يكن لك أولاد ؟

فقال وهو يتنهد – بلى . فقد كان لي ابنان ، ولكن الله قد شاء فتقبضهما اليه ، فانهما قتلا في الحرب وهما تحت لوآء سيدي الامير ، احدهما سقط بحدّ الحسام ، والآخر اخترق صدره سهم من سهام العدو

كان الملك يسمع ويهز رأسه كأنه مشارك لميخيش في حزنه على ولديه . ثم قال له – ولكن الله رحيم . فسيرزقك غيرهما

قال - لا يمكن ذلك .فقد فقدت امرأتي ايضاً ، فهل أرزق اولاداً من كمي ؟

فضحك الملك وقال - لا تيأس . . فالله يرى لك غيرها

قال - وهذا مستحيل ايضاً لاني مسن ضعيف ، فلن ترضى بمثلي واحدة من النساء . .

فدنا الملك من حاضنته وأمسكها بيدها ثم نظر الى ميخيش وقال له - انظر . اني أهبك هذه الحسناء لتكون زوجة لك . فخذها وعش واياها على تمام الوفاق والمحبة وهي تلد لك اولاداً صالحين . .

فلما سمع رجال الحرس هذا الكلام أدركوا مراد الملك فضحكوا ضحكاً عالياً

اما أنوفرفنا فانتفخت أوداجها وصاحت بالملك - أصمت يا رفيق الابالسة ونديم الاشرار . . وهل بلغت منك القحة حتى تهزأ بي بمثل هذا الكلام البذيء ؟

فقال لها الملك - حسبك غنجاً ودلالاً . فان هذا الشيخ سيكون لك نعم القرين وسيحبك ويرشدك الى الصراط القويم . . وسنحتفل بالعرس اليوم مساء

ثم التفت الى ميخيش وقال -- كيف ترى هذه العروس ؟

فاجاب ميخيش وهو في اشد حالات الاضطراب والذعر - رحماك يا سيدي !

قال - ما بالك ؟ ألعلها لم ترضك ؟ . فاعلم ان بائتها ستكون كبيرة تستر عيوبها

فجثا ميخيش على الارض وقال – بالله يا مولاي لا تفعل . . أحكم عليَّ بالموت . . أرسلني حالاً الى المشنقة ، ولا تعطني هذه العجوز ، لاني لن أقبل هذا العار ! . .

فقهقه الملك حتى كاد يستلقي على قفاه ثم قال لميخيش – لقد أردتُ بزفاف هذه الحسناء اليك سعادتك وهناءك ، ولكنك أبيتَ ، فابقَ اذاً لدى سيدك ، اخدمه واعتنِ به

ثم التفت الى حاضنته وقال – واما انت فلا تقنطي . . فاننا سنجد لك عريساً آخر . .

ثم تركها فانصرفت الى مخدعها وهي تشتم وتلعن . .

* * *

كان الأمير نكيتا يسمع حديث الملك ومزحه وهو في اشد حالات الذهول والكمد ، يندب في نفسه حالة روسيا وسوء مصيرها على عهد هذا الملك الغاشم الجاهل الذي لا يهمه من شؤون البلاد واحوال الرعية شيء سوى الملاهي والمجون وضروب الخلاعة والبذاءة والظلم . . فتنهد طويلاً وكادت دموعه تتفجر من مقلتيه ، لولا ان الملك ناداه اليه وقال – والآن فانا أعفو عنك ايها الأمير لانك كفرتَ عن جريمتك بحسن دفاعك وجهادك . . اما هؤلاء الرجال (يريد اللصوص) فلا أعينهم في فرقة الحرس لئلا اضرم نار الغيرة في صدور رجالي ، فلينضموا الى جيش الحدود

ثم ألقى يده على كتف الامير وقال له بصوت كله لطف ودعة – وام

انت فابق هنا لأني اريد ان أصالحك مع الحرّاس وأجعلك واحداً من الزعماء الكبار . . نعم انك كسرت التتر وانتصرت على جيوش لتفا وقهرت غيرهؤلاء الاعداء ، غير ان لي من رعيتي نفسها اعداء آخرين يتآمرون عليّ ، فأريد ان اعتمد عليك وأفوّض اليك البحث عن هذه الافاعي لسحقها

فلما سمع الامير هذا الكلام تقبض وأراد ان يتكلم ، فقاطعه الملك بقوله — أنا اعلم انك صادق الطوية شريف النية لا تعرف المراوغة والرياء . . واني لفي امسّ الحاجة الى امثالك . فاكتتب في سلك رجال الحرس وتقلد منصب الامير اثناسي فيازيمسكي . واعلم اني واثق بك فأنت لن تخونني ولن تغدر بي . .

وكان رجال الحرس الواقفون بالقرب من الملك قد امتلأوا حسداً من الامير وبغضاً له لعلمهم بما كان متصفاً به من الصدق والصراحة ، فخافوا اذا أصبح زعيمهم أن يضرب على ايديهم الاثيمة ويكبح جماح اهوائهم ومفاسدهم . . ولكنهم كانوا بهذه الافكار في واد والامير في واد آخر ، لانه رأى ان الملك بهذه الدعوة انما يقضي عليه القضاء المبرم . . كان الامير أعرف الناس بنفسه ، فهو لا يستطيع ان يُظهر ما ليس في قلبه وليس في طاقته ان يلبس لكل حالة لبوسها ، ولذلك فانه لم يبطىء في تأمله بل أجاب الملك بثبات جأش قائلاً — اني اشكر نعمتك يا حضرة الملك وأتمنى بكل جوارحي ان أخدمك كيفما شئت ، فما عليك سوى الأمر وما عليّ سوى الطاعة ولو بسفك دمي . . غير اني لم أعتد معيشة البلاط بين رجال الحرس ، فأبتهل اليك ان تعفيني منها وتأذن لي أيضاً في الانضمام الى جيش الحدود ، فقد يتاح لي هناك ان أقوم بخدمة انفع لجلالتك وللبلاد

ولم يكن الملك يتوقع ان يسمع مثل هذا الـكلام ويقابل بهذا الرفض ، فرفع يده عن كتف الامير حالاً وقال له بازدراء — الظاهر انك تؤثر البقاء مع اللصوص على المعيشة في البلاط . . فأنت حر مطلق ، وانا لا اريد ان أرغمك على ذلك ، لانك قد ألفتَ تلك الحالة في البراري والغابات فلم يعد يروق لك غيرها . . وقد عفوتُ عنك فلستُ براجع في كلامي ، فاذهب الى الحدود واختر لنفسك الحالة التي تريدها . .

ولما قال ذلك أرسل الى الامير نظراً حاداً ثم حوَّل ظهره ودخل القصر

وكان بوريس غودونوف واقفاً يسمع ما يدور بين الملك والامير من الـكلام ويتعجب . فلما انتهى الحديث وانصرف الملك تقدم الى الامير ودعاه ليبيت عنده تلك الليلة . وقد فعل ذلك هذه المرة عن حب أكيد له . وقد احترمه هذه المرة ايضاً كما احترمه يوم غياض الجاهلية ورآه الآن كما رآه يومئذ كبيراً عظيماً يفوق كل الناس . .

وخرج الامير نكيتا برجاله من القصر الى حيث اعدَّ لهم ليبيتوا ، ثم تركهم وتوجه الى منزل ماليوتا سكوراتوف فزار والدة اخيه مكسيم قياماً بوعده له وهو في انفاسه الاخيرة . . ولم يكن ماليوتا اذ ذاك في منزله ، فأقام بعض الوقت مع الوالدة المسكينة يعيدان ذكرى ابنها واخيه . . وكانت أمُّ مكسيم قد علمت بموت ابنها قبل قدوم الامير اليها ، ولكنها لما علمت الآن بمؤاخاته لابنها قامت فقبلته وباركته وهي تبكي . . وقد اعطاها الامير صليب مكسيم ثم قام فودَّعها وانصرف وهي تدعو له وتباركه

الفصل التاسع والاربعون

« في منزل بوريس »

وفي المسآء ذهب الامير نكيتا ومعه خادمه ميخيش الى منزل بوريس غودونوف . فاستقبله بوريس بغاية الترحاب والبشاشة . وبعد تناول طعام العشآء قام الامير فدخل الغرفة المعدَّة لمبيته وانصرف بوريس لبعض شؤونه

وجاء ميخيش فدخل على سيده وأخبره بالتفصيل عما جرى له بعد خراب قصر النبيل موروزوف وما كان من اجتماعه بالطحان وبرستن الى ان قال — فلما وعدني برستن بالمساعدة عُدتُ الى الطحان فوجدت عنده السيدة هيلانة زوجة النبيل موروزوف ، وقد عرفتني فأنست بي كثيراً وسألتني ان أصحبها الى قرية الدب ، وكان زوجها قد حمل اليها بعد دمار منزله . ولم يكن أشهى اليَّ من خدمتها ، فقمت من ساعتي فركبت جوادي وركبت هي جواداً آخر وسرنا في الطريق المؤدية الى القرية . وكانت تسألني ونحن في الطريق عن زوجها ثم عنك . فسردت لها تفاصيل دفاعك المجيد عنها وعن زوجها ، وانك انما بسببها قد كبلت بالحديد وأُودعتَ السجن . فلما وعت كلامي امتقعت واستخرطت في البكآء . فطيبت خاطرها وذكرت لها ما عولتُ على اتخاذه من التدابير لانقاذك . . . وبعد ان سرنا مسافة طويلة وقد أشرفنا على قرية الدبّ توقفت فجأة وقالت : « اني يا عماه لا أستطيع ان أدخل القرية وأجتمع بزوجي » . فسألتها وقد تحققت انها لا تحبه بل

تحبك انت وتحيا بك : « فماذا اذاً تريدين ؟ » . اجابت : « هل ترى تلك الصلبان الذهبية الظاهرة في طرف الغابة ؟ » . قلت : « نعم ، فان هناك ديراً للبنات » . قالت : « خذني الى هناك ، فذلك خير لي وأبقى » . قلت: « وكيف ذلك ؟ فهل عزمت على الترهب ؟ » . قالت : «كلا . . وانما صحت عزيمتي ان أمكث في الدير اسبوعاً أقضيه في الصلاة والعبادة ثم أعود الى زوجي او يرسل هو فيطلبني » . فأجبتها الى سؤالها وواصلنا سيرنا حتى انتهينا الى الدير ، فسلمتها الى الرئيسة وعدت ادراجي . .

وكان الامير يسمع بمنتهى الاصغاء . فلما فرغ خادمه تنهد وبدت عليه امائر الانقباض والخوف ثم قال — وكم يوماً الى دير البنات ؟

فأجاب ميخيش — نحو ثلاثة ايام من هنا ، ومع هذا فهو في طريقنا اذا كنت لا تزال عازماً على السفر الى الحدود

قال — ولكني مضطر الى البقاء هنا صباح الغد ايضاً ، لانه ينبغي لرجالي ان يحلفوا يمين الطاعة للملك . ولذلك فاني أطلب منك يا عزيزي ميخيش ان تقوم هذه الليلة من هنا فتسافر بما امكنك من السرعة الى الدير ، ومتى بلغته واجه هيلانة وقل لها أن لا تفعل شيئاً قبل ان أجتمع بها لاني موافيها الى هناك

قال — السمع والطاعة يا مولاي ، فسأفعل ذلك بكل سرعة ، ولكن كن على ثقة بان هيلانة تنتظرك فلا تترهب قبل ان تراك . . نعم انها ستقضي في الدير بعض الوقت ايضاً قياماً بواجب الحداد على زوجها، ولكنها لا تلبث ان تخرج وليس لها من الدنيا سواك

قال هذا وخرج من المنزل وهو يتأهب للمسير . ولم يكن الا القليل

حتى امتطى صهوة جواده وأعمل في خاصرتيه المهماز وراح ينهب الارض ووجهته دير البنات

ولبث الامير بعد سفر خادمه تتقاذفه الافكار المزعجة وهو تارة يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً وطوراً يجلس متأملاً في حالته وغموض مستقبله .. وقضى غابر تلك الليلة الى صباحها وهو لم ينم لشدة ما اخذه من الهواجس والخواطر: . ولما أصبح خرج من الغرفة يريد مواجهة صديقه بوريس ، فاخبره الخدم انه قد انطلق على عادته الى القصر ليسمع صلاة السحر مع الملك ورجال الحرس

***

وعاد بوريس بعد ذلك بقليل فحيا الامير وهو يظهر تعجبه لنهوضه في مثل هذا الوقت من الصباح ، مع ان من عادة الاشراف والامراء ان يستيقظوا بعد شروق الشمس بكثير ، ولكنه تبسم كأنه يقول له « قد عرفت سبب أرقك » ..

ثم جلس الاثنان يتحادثان ويتذاكران الى ان ساقهما الحديث الى ما كان من امر النبيل موروزوف وزوجته . فتيقن نكيتا من خلال كلام صديقه انه مطلع على اسرار قلبه ، فكشف له في الحال المخاوف التي طرأت عليه تلك الليلة

فقال له بوريس وهو يريد ان يسرّي ما به — اما حبك لهيلانة فلم يخف علي من مدة طويلة ، وقد عرفت ذلك حين قدومك من بلاد لتفا يوم دعاك الملك الى مائدته ، فانك كنت في اثناء الوليمة تنظر الى الامير اثناسي

فياز بمسكي نظر الغضب الشديد ، فلم يخف عليّ سر الامر . . فانت ايها الامير لا تستطيع ان تكتم شيئاً ، واذا خالجك فكر فانه يرتسم حالا على وجهك . وقد سمعتك بالامس تخاطب الملك فلم تخف شيئاً من مكنونات قلبك فامتلأت رعباً عليك ، لانك خاطبته كأنه واحد من امثالك او ممن هم دونك رتبة ومقاماً ، فلم تخف احداً ولم تحسب لشيء حساباً

فقال الامير — وكيف تريد ان أخاطبه ؟

قال — كان الاجدر بك ان تشكره على انعامه وترضى باختياره اياك زعيما لرجال الحرس

قال — لا يمكن ان يكون هذا . . . ولماذا لم تدخل انت في سلك هذه العصابة ؟ ولماذا لم يدعك الملك الى الزعامة فيها وهو يميل اليك ويحترمك ؟

فضحك بوريس وقال — لاني نهجتُ غير الاساليب التي نهجتها انت . . فانا لا أعترض الملك في شيء ، ولم أتعدّ قط شيئاً من رسومه واحكامه ، فهو راض بي وعني بهذا فقط . اما انت فتقاومه بحديثك مقاومة وتظهر له آراءك في خشونة وازدراء . . ولو انك رضيت بالمنصب الذي عرضه عليك وعملنا للمصلحة العامة معاً لأتينا بالعجائب ولاشينا بعد مدة وجيزة فرقة رجال الحرس تماماً عن وجه الارض

قال — هو كما تقول ايها الصديق ، ولكني لا استطيع ذلك ولا أريده بهذه الصورة

قال — لا جرم انك خلقتَ للاصلاح ولكنك تجهل السبل المؤدية اليه ولا تعرف منها الا سبيلا واحداً . . انت ترى الشرّ وتريد ان تقاومه

وجهاً لوجه وتضربه الضربة القاضية . . غير اني ذلك لا يفيد ، وانما يزيد الشر تفاقماً وانتشاراً

قال — اذاً فانا لا أصلح للحالة التي تنتدبني اليها لاني لا استطيع أن أظهر بغير مظهري الحقيقي . . ولا اكتمك اني كنت الومك في نفسي لتظاهرك بغير ما تضمر . أما الآن فقد رأيت ذلك منك أسلوباً وقد يكون مفيداً بعض الاحيان . فعساك ان تبلغ يوماً الغاية التي ترمي اليها من الاصلاح . . وأما من جهتي فقد قضي الامر لاني استأذنت الملك ان يرسلني الى جيش الحدود واجاب طلبي

قال — هذا لا يضر اذا أحببت ان تتخذ خطتي وتسير واياي يداً واحدة . فبعد ان تقيم على رأس جيش الحدود بعض الوقت وتخوض غمار بعض المعارك هناك ببسالتك المعروفة يعود الملك فيدعوك ويعرض عليك مرة أخرى منصب الزعامة في فرقة الحراس ، فعليك حينئذ ان لا ترفض طلبه . . وأما هيلانة فتكون الى ذلك الوقت قد أتمت المدة القانونية للترمل فتخرج من الدير وتصير اليك . فلا تخش ان تترهب وانا اعرف بقلوب النساء منك ، فهي لم تقترن بالنبيل موروزوف الا لانها كانت تخشى الوقوع في الاشراك الكثيرة التي نصبت لها في مدة غيابك عن الوطن . فهي اذاً قد وقفت لك قلبها وليس فيه الا صورتك ، فدعها الآن في الدير الى ان يبرد الدم وتجف الدمعة

فقال الامير وقد أبرق في عينيه نور الامل بحصوله على هيلانة — أشكر مودتك ايها الصديق وأسأل الله ان يتولى مكافأتك . . اما الى فرقة رجال الحرس فلا تدعني وفي بلاط الملك لا تأمل ان أكون لاني لا

أريد ان أتفرّغ من ذمتي وضميري وليس في طاقتي ان أتعلم أساليبك ، اذ لكل في هذه الدنيا طبيعتهُ وموهبته ، فللصقر نوع من الطيران وللاوزّ نوع آخر . .

قال — فانت اذاً لا تنكر عليّ بعد هـذا اعمالي وأساليبي حباً الى المنفعة العامة

قال — حاشا ان أنكر عليك شيئاً او ألومك في شيء لانك قد اصطنعت لي ولرجالي من المعروف ما يفوق الحصر ، فهم سيذكرونك بهذه اليد البيضاء اينما كانوا . وثق ايها الصديق بان الامة بأسرها تميل الان اليك وترجو على يدك خيراً ، فكن انت عند رجائها واملها . .

فأبرقت أسرّة بوريس وتورّد وجهه ، لان اقتناع رجل كالامير نكيتا بحسن اعماله وأصالة رأيه كان عنده كثير الاهمية[1] فقال — وأنا أشكرك ايضاً ايها الامير لحسن ظنك بي . . والذي أرجوه منك هو انك اذ سمعت احداً من الناس يعزو اليّ ما انا براء منه ان تتصدّى لتسفيه رأيه وتفنيد زعمه ، وتقفه على ما تعرفه عني وما خبرته بنفسك

قال — لست بغافل عن ذلك ، فلن أدع احـداً يظن بك سوءً او يقول فيك كلمة مجحفة

قال — وأسألك ايضاً ان تدعوني لحضور حفلة زفاف هيلانة اليك ولا تنسني . . .

---

(١) وهذا بوريس غودونوف قد أصبح بعد وفاة الملك يوحنا الرابع وابنه تيودور ملكاً في روسيا . وستأتي الاشارة الى ذلك في آخر الرواية

ثم نهض الصديقان فتعانقا وخرج الامير من منزل بوريس وكله آمال بقرب اجتماعه بالحبيبة

الفصل الخمسون

« الخروج من قرية ألكسندروفا »

وأسرع الامير نكيتا فجمع رجاله وانطلق بهم الى القصر ليقسموا للملك يمين الطاعة والاخلاص . فأعطاهم الملك من بيت الذخيرة الاسلحة اللازمة وأمر فرقة من الخيالة ان ترافق الامير وتكون تحت امرته ، ثم صرفهم وهو يظهر للامير عطفه الخاص . وقد شعر بان الامير هو الرجل الوحيد الذي قهره في المملكة كلها لانه لم يستطع ان يستميله اليه او يبطش به ، ولكنه أضمر في نفسه ان ينتقم منه في فرصة اخرى شر الانتقام

وسار الامير يتبعه الفرسان ووراءهم اللصوص باثوابهم الجديدة وأسلحتهم الكاملة . . وقبل ان يخرجوا من القرية رأوا مشهداً كان يعدُّ في ذلك الزمان شؤماً . وذلك انهم بينما كانوا بالقرب من احدى الكنائس اعترضهم في الطريق جمهور من الفقراء كانوا يتزاحمون على باب الكنيسة انتظاراً لصدقات المحسنين . فاضطرَّ الامير وجيشه ان يسيروا بكل بطء ليتمكنوا من المرور ، فسمعوا اصوات نشيد محزن في الكنيسة ، فسأل الامير عن ذلك فقيل له ان ماليوتا سكوراتوف يقيم حفلة دينية لذكرى ابنه مكسيم الذي قتله التتر في جهات ريازان . فوقف الامير وقد تقبض صدره ، فسمع صياحاً شديداً ثم رأى بعض الناس يحملون من الكنيسة

امرأة عجوزاً فاقدة الرشد ، فتأملها واذا هي أم اخيه مكسيم ، فتأثر لمرآها على تلك الحالة . . وفيما هو كذلك وقف بباب الكنيسة ماليوتا نفسه وقد قابلت عيناه عيني الامير ، غير انه كان هذه المرة حزيناً منكسراً ولم تظهر على وجهه شراسته الطبيعية ، وقد حنى رأسه للامير ثم عاد ادراجه . .

وكان الامير ورجاله قد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وساروا في طريقهم بتمام الخشوع . وظل الامير متأثراً بما رأى مسافة طويلة الى ان عادت الى مخيلته ذكرى هيلانة . وكان قد بلغ آخر مكان يشرف على قرية ألكسندروفا فوقف وأرسل نظراً اخيراً اليها ثم حوّل ظهره ودخل الغابة وقد شعر براحة تامة كأنه كان يحمل على ظهره في تلك الجهات جبالاً من الحديد ، والان وقد غادرها شعر ان تلك الجبال قد سقطت عن ظهره . .

ولما أقبل الصباح كان الامير نكيتا سائراً في طريق موسكو راكباً جواداً مطهماً بعدّته الكاملة ، وفي اثره فرسانه ورجاله بنظامهم العسكري ، وامامه بو يان كلب اخيه مكسيم يطفر فرحاً وينقف في بعض الاحيان فيرهف اذنيه ثم يعود الى مسيره . .

وبعد يومين وصل الامير الى مكان تتفرّع منه طريقان ، احداهما طريقه الى حيث قسم له ، والاخرى تؤدّي الى دير البنات . وكانت الشمس قد غابت وأقبل الظلام ، فأمر رجاله ان يبيتوا هناك ، وسار هو بسرعة البرق في ذلك الليل الدامس ليقابل خادمه ميخيش . وكان نظره موجهاً الى كل جهة يخترق الظلام وافكاره تائهة في مهامه الخوف . حتى اذا أقبل الفجر أبصر خادمه جالساً على قارعة الطريق وجواده الي جانبه يلهث تعباً

فلما رأي ميخيش سيده مقبلاً وثب على رجليه ووقف في طريقه

وهو يقول — قف يا مولاي وعد من حيث أتيت ، فلم تبق لك حاجة الى الدير

فصاح الامير وقد جمد الدم في عروقه — ماذا تقول ؟ . .

قال — قد تمّ كل شيء . . وليس لنا حظ بالسعادة

فلما سمع الامير ذلك شعر كأن روحه قد اختطفت من بين تراقيه وسقط على الارض خائر القوى . ولما ثاب اليه روعه قال لميخيش — أخبرني ماذا جرى لهيلانة ؟

فهزّ ميخيش رأسه وسكت وكانت دموعه تهطل على خدّيه

فازداد الامير ارتماداً وقال — بالله لا تعذّبني يا ميخيش بل قل ماذا جرى ؟

قال — ان هيلانة ياسيدي قد تركت الدنيا ودخلت في سلك الرهبنة وأصبح اسمها الان « الاخت افدوكيا »

وكان الامير كمن يسمع الحكم عليه بالاعدام . غير انه تجلد وقال — أخبرني بالتفصيل متى ترهبت هيلانة ؟

قال — يوم بلغها خبر مقتل زوجها . وكان الملك قد أرسل الى الدير بأسماء المقتولين لاجل اقامة الصلوات عن انفسهم

قال — وهل رأيتها ؟

قال — نعم

وأراد الامير الكلام فأرتج عليه

فقال ميخيش — رأيتها لحظة فقط لانها لا تريد ان تقابل احداً وكادت ترفض مقابلتي ايضاً

قال — ماذا أمرتك ان تقول لي ؟

قال — أن تصلي لاجلها ولا تحاول مشاهدتها

— ثم ماذا ؟

— لا شيء يا سيدي

— قدني الى الدير يا ميخيش فاني اريد أن أراها وأودعها

— لا يمكن أن يكون ذلك يا سيدي ، فلا تزعجها في خلوتها لانها قديسة الآن ، والافضل ان نعود الى الجيش ونتابع مسيرنا

— بل لا بدّ من مقابلتها . . .

فلما رأى ميخيش ان الممانعة لا تجدي نفعاً قال — ليكن ما تريد يا مولاي

ثم ركب كل منهما جواده وسارا في طريق الدير صامتين هاجسين ، الى ان بزغ الفجر وقد مرا بجانب نهر صغير وأبصرا بقربه رحى طاحون وأنقاض بناء فقال ميخيش — هل تعرف يا سيدي هذا المكان ؟

فرفع الامير رأسه وقال — نعم أعرفه . . فقد كانت هنا الطاحون التي بتنا فيها ليلة ونحن قادمان الى موسكو من ساحة الحرب

قال — أصبت . وقد هدم رجال الحرس الطاحون بعد ان قتلوا الطحان المسكين زاعمين ان تحتها كنزاً مطموراً ولكنهم لم يجدوا شيئاً

فلم يجبه الامير بشيء لان افكاره كانت منصرفة الى ما هو أهم من ذلك

ولما تناصف النهار قال ميخيش — قد كدنا نصل يا سيدي وها هي قباب الدير قد ظهرت من وراء الغابة ولم يبق لنا الا مسافة قصيرة

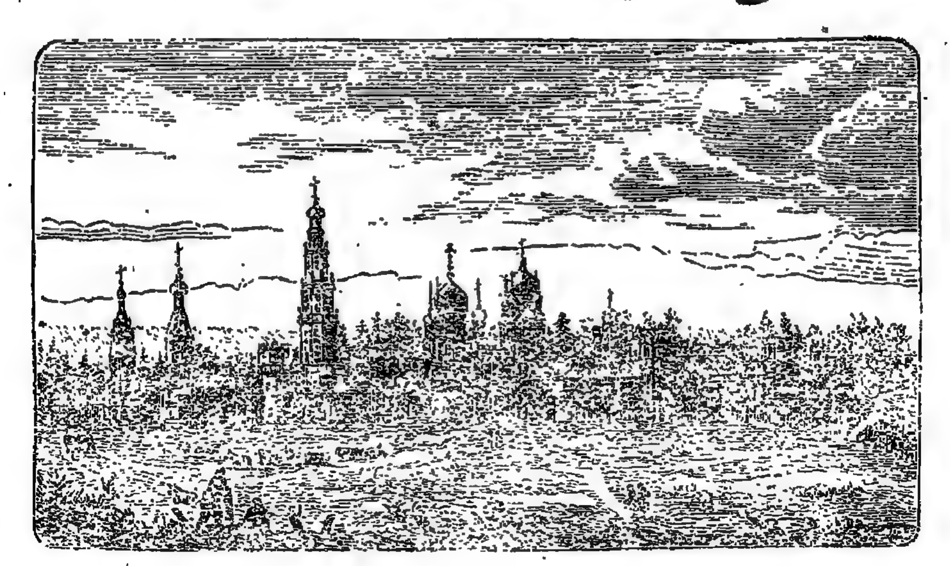
وما قرعت هذه الكلمات أذني الامير حتى شعر بقوة كهربائية أصابه

مجراها فاهتزّ لها جسمه وشعر ان عينيه تودّان الخروج من وجهه لتطيرا الى الجهة التي اشار اليها ميخيش ولا يستطيع تحويل نظره عنها

الفصل الحادي والخمسون

« الدير »

وظلّ الامير نكيتا وخادمه يحثان الجوادين بكل قوتهما حتى تصبب العرق منهما وكادا يسقطان تحتهما عياء . ولم يكن الا القليل بعد ذلك حتى وصلا الى الرتاج الخارجي للدير . فترجلا عن جواديهما وقرعا الباب قرعاً



دير البنات

عنيفاً ووقفا ينتظران وهما على مثل الجمر . فسمعا من وراء الباب خطواً ثم فتح وظهرت فيه راهبة تحيتهما وقالت — من تريدان يا سيديَّ ؟

فقال ميخيش — نريد الاخت افدوكيا ، وانت تعرفينني ايتها الاخت الصالحة ، فقد كنت هنا اول امس

قالت — كلا ، لا أعرفك ولم أرك ، لأني لم اكن هنا الا اليوم وقد كانت قبلي الاخت أغنس

فقال ميخيش — نرجو منك اذاً ان تخبري حضرة الرئيسة بان الامير نكيتا سير بريانى يروم مواجهتها

فأقفلت الراهبة الباب ودخلت ، وبقي الفارسان خارجاً ينتظران وقد سمعاها تقول : « اللهم ارحمنا ، ولا تدع للاشرار سبيلاً الينا ! . . »

فتعجب ميخيش ونظر الى سيده فرأى وجهه مخيفاً رهيباً وقد ارتسمت عليه دلائل الاضطراب الشديد ، فأدرك سبب خوف الراهبة

وانه لكذلك اذ عادت الراهبة البوّابة وقالت من وراء الباب بصوت الخائف المذعور — عفواً يا سيدي فان حضرة الرئيسة لا تستطيع قبولكما. وهي تسألكما باسم الرب ان تبتعدا من هنا . . وان شئتما فتعاليا غداً

فصاح الامير — ليس في طاقتي ان أنتظر الى الغد . .

ثم دفع الباب فكسره ودخل وقد ازدادت هيئته هولاً . . وما كاد يدخل حتى أبصر امامه الرئيسة ووجهها أصفر كأنها احد الاموات . فقالت له وهي ترتجف من الخوف — أستحلفك بالله ان تقف مكانك ! . . اني أعلم سبب مجيئك الى هنا . . غير ان الله عادل وهو ينتقم للابرار . فعد من حيث اتيت ولا تسخط الله ! . .

فلم يدرك الامير سبب خوفها وقال لها — ايتها الام الشريفة ! اسمحي لي ان أقابل الاخت افدوكيا وقتاً قصيراً جداً ، لأني أريد ان أودعها فقط ثم أنصرف لشأني

قالت — وهل تريد حقيقة ان تودعها . . وليس لك عزم آخر ؟

قال — نعم . اني اريد ان أراها وأودعها . . ولك مني في مقابلة ذلك كل ثروتي وما أملك

فقالت له وهي غير مصدقة كلامه — انك كسرت باب الدير ودخلت الى هنا على الرغم من توسلاتنا . . ولا شك ان رجال الحرس امثالك يطوفون الان في الاديار المقدسة بقصد الحصول على نسآء النبلآء وبناتهم، اولئك النبلآء الذين حكم عليهم بالاعدام في موسكو . . والاخت افدوكيا هي زوجة احد هؤلاء المنكودي الحظ

قال — ولكني لست حارساً يا سيدتي ، بل أنا عدو هذه العصابة الشيطانية ، ولو استطعت لفديت بروحي النبيل موروزوف زوج هذه المخلوقة . . فاسمحي لي اذاً بمقابلتها ولا تطيلي تعذيبي

فنظرت الرئيسة الى الامير فرأت أمارات الشرف والمروءة بادية على وجهه وقرأت في عينيه دلائل الصدق والاخلاص فقالت — لقد صدقت كلامك ولم أعد أخشى شراً من جهتك ، فاتبعني

ثم سارت بين صفين من أشجار حديقة الدير ، والامير يتبعها مطرقاً ، وهو صامت وحزين

وكانت هيلانة (الأخت افدوكيا) جالسة ساعتئذ على مقعد من خشب في أقصى مكان في الحديقة ، وقد ارتدت ثوباً اسود وسترت وجهها بلثام ، ولم تكن تعلم شيئاً مما جرى

ولم تكد تشعر بخطوات القادم تقترب اليها حتى رفعت رأسها فأبصرت الرئيسة وقامت لمقابلتها . ولكنها ما كادت تفعل ذلك حتى رأت الامير فلما التقت عيناها عينيه ، صرخت وسقطت الى الارض

فبادرت اليها الرئيسة فأنهضتها وأجلستها على مقعدها وهي تقول — لا تضطربي يا ولدي .. فهذا الامير أحد أصدقاء زوجك وقد جاء ليودعك، فتشجعي وقابليه

فلم تجب هيلانة بكلمة، بل كانت ترتجف والدموع تهطل من عينيها بغزارة

وكان الامير حين أبصرها بثوبها الاسود الرهباني قد ارتعش ارتعاشاً شديداً وانقلبت صورة الدنيا في عينيه . بيد أنه تجلد ودنا منها وقلبه يتصدع ألماً ثم قال — أهكذا قضي علي ان اقابلك يا هيلانة ؟

فأجابته وهي تتنهد وتشرق بدموعها — نعم .. وليس لنا أن نتقابل على غير هذه الصورة

فشعر نكيتا ان ناراً تحرق أحشاءه فقال — ولماذا لم تنتظري عودتي أيتها القاسية ؟ لماذا لم تنتظري أياماً قلائل فقط ؟

قالت — لانني لو انتظرت لما أمكنني المجيء الى هنا .. وحسبي ما سقطت فيه من الآثام السابقة ..

قال — اذاً فقد تم كل شيء ، ولم يبق الا أن أودعك الوداع الابدي .. فاسمحي لي أن اشاهدك المرة الاخيرة .. أميطي هذا اللثام عن وجهك لأرى عينيك الوديعتين وأتزود منك آخر النظرات

فأزاحت هيلانة اللثام عن وجهها ، ورأى كيف عينيها احمرتين من شدة البكاء وقد ذبل ورد وجنتيها

وكانت الرئيسة قد أدركت بعض الشيء من أمرهما فصرفت لشأنها.

ولما خلا المكان قال الامير وفؤاده يتفتت ومهجته تتقطع — الوداع

يا هيلانة!.. الوداع يا من كانت قبلة اماني ووجهة آمالي!. الوداع يا من وقفت لها كل دقيقة من وجودي!.. نعم الوداع!. وهي مشيئة الله، وقد كتب لنا هذا الشقاء...

فأجابت هيلانة والدموع تكاد تخنقها - ليس لنا أن نكون على حال أفضل مما نحن فيه.. لان دم الذين موروزوف قد حال بيننا و بين السعادة التي كنا نرجوها!.. فهو بسببي قد نكب وعذب وقتل وأنا علة ذلك كله.. فكيف يمكننا بعد هذا ان نكون سعيدين؟.. ومن السعيد لان في روسيا كلها من أتعسها الى أتعسها؟..

وكان الامير يفضل الموت على سماع هذا الكلام فقال - صدقت.. فليس أحد سعيداً في هذه الاحوال المظلمة وفي هذا العهد الدموي.. ولكني لم اكن أتوقع أن أفارقك في هذه السرعة فراقاً دائماً أبدياً...

قالت - ولكن فراقنا ليس أبدياً كما تزعم.. بل هو وقتي في هذه الحياة المملوءة مكاره ونوائب ولا سيما في بلادنا التعسة

قال - ياليتني مت قبل الآن.. فقد تعرضت لكثير من المخاطر والاهوال وانا لو فعلت لكنت خففت عن نفسي وطأة حزن لا يقاس به أشد الاحزان وأقوى البلايا.. فماذا أرجو الآن من دنياي وقد تلاشت آمالي وقضي علي بان اموت غماً؟..

قالت - اصبر على حكم القضاء ولا تحد عما تعودته من زمان من الاعمال المجيدة في خدمة الوطن العزيز ففي ذلك خير وسيلة للسلو وأعظم مساعد على احتمال هذا الرزء الاليم.. أما انا فلن أنقطع عن الصلاة لاجلك.. وهذا أمر يسليني بعض التسلية ويخفف عني بعض الغصص

فزفر الامير زفرة حارّة ثم قال وهو يضطرب وينتفض — واي وطن تعنين ؟ .. واين هو هذا الوطن الذي يجب ان ندافع عنه ؟ .. ومن هم اعداء الوطن الذين ينبغي ان نقاومهم ونردّ عن الوطن كيدهم ؟ .. فاعلمي يا هيلانة ان اعداء الوطن هم الملك نفسه ورجال الملك المحيطون به ، وليس التتر او غيرهم كما تزعمين ويزعم الجميع .. فالملك وحده هو عدوّ الوطن الاشدّ ، وهو علة بلاياه وشقائه .. ان افكاري يا هيلانة قد أظلمت واضطربت . وكل شيء قد أظلم في عينيّ ، فلا ادري اين الكذب واين الصدق ، اين الضلال واين الحق .. وقد ذوى كل شيء صالح الان واختنق ، واما الشرّ فاشتدّ وساد .. وطالما سوّلت لي نفسي ان أهجر هذه البلاد وأرحل الى غيرها كما فعل الامير كوربسكي وغيره ممن لم تحتمل نفوسهم الابية مثل هذا الهوان ، ولكني نبذت هذه الافكار من رأسي لاني كنت أحيا لاجل غاية وكانت فيّ قوّة ، وهي اني كنت ارى الدنيا كلها فيك ولا أرى من الدنيا سواك .. اما الان .. وقد كسر قلبي ومزّقت كبدي ، فلم يبق لي مطمع في العيش ، وقد زالت هذه الغاية التي كنت أحيا بها وفنيت مني القوّة واضطرب عقلي وأظلم ..

فخافت عليه هيلانة وجعلت تخفف من هيجان افكاره وتجتهد في تسكين خواطره ثم قالت — عفواً يا نكيتا ! اصفح لي وسامحني فقد نغصت حياتك وكنت علة شقائك .. والذي أرجوه منك ان تنساني وتمحو ذكري من قلبك وتحسب اني قطعت من ارض الاحياء . واعلم ان في قلبي من نار الوجد ما يحرق جسدي وفي عيوني من دموع الحزن ما يقرّح جفاني ، وهذا حسبي .. فارحمني ورثِ لضعفي وعلمني تعقلاتك وقوة جنانك مقارعة

الخطوب وكن عوني على البلاء بابتعادك عني ونسيانك اياي . . واياك ان تسوّل لك النفس معاداة الملك . نعم انه علة جميع هذه الخطوب والارزآء، غير انه من الله ، وسيكافئنا الله في العالم الآتي احسن مكافأة ونرى بعضنا بعضاً . . على هذا الامل عش الان يا نكيتا ودعني أبكي حظي واكفر عن كل ما جرى بدموعي مترحمة على الميت مترجية له ولنا العفو والغفران . . وقم الان ايها الحبيب واذهب الى حيث أرسلك الملك ولا تنس الواجب الوطني . . انت رفضت الانخراط في سلك رجال الحرس وحسناً فعلت ، وانما عليك ان تنطلق الان لمحاربة اعدآء الوطن والدين ، وانا أسأل الله ان يقوّيك ويشدّدك ويجبر كسرك . .

فأنّ الامير أنيناً محرقاً وقال — سأنصرف الان عنك يا هيلانة ، يحمل قلبي صورتك وتمثلك ذاكرتي امامي في كل دقيقة من دقائق حياتي ، فأراك بقربي على الرغم مما بيننا من بعد المسافة . . ولوكان حبك لي كحبي لك لقاومت الخلائق كافة والمصائب والحياة وكل قوّة وبقيت لي . . .

ولما قال هـذا اخذ يديها المبللتين بالدموع وقبلهما وهو يكاد يحرقهما بأنفاسه . . ولم تعد هيلانة تقوى على ضبط عواطفها ، فانحنت عليه فقبلته وتبلها ثم تمتمت كلمة الوداع وابتعدت عنه وهي تشرق بدموعها وتتعثر بأذيالها.

اما الامير فحالما فصلت عنه هيلانة اعترته رعشة عصبية وقـد أظلمت الدنيا في عينيه وشعر ان دمه جمد في عروقه وان قلبـه تحوّل الى حجر . ولبث بضع دقائق شاخص النظر جاحظ العينين أصفر اللون كأن انتشرت على محياه ضبابة الموت . . فتقدمت اليه الرئيسة وأمسكت بيده وهي ترثي لحاله ، ثم قادته الى باب الدير فتبعها مصاغناً وهو لا يفوه بكلمة . ولما مدت

يدها لتودّعه أفاق من ذهوله فتجلد وشكرها ، ثم جمع قواه المتضعضعة وامتطى جواده وقفل راجعاً وهو يكاد يسقط عن الجواد لفرط حزنه وشدة ارتماشه

وكان ميخيش يتبعه صامتاً متدلهاً من الجزع والقلق على سيده لعلمه بأن هذه الضربة هي أعظم ما يقوى على احتماله وأنها قد أذهبت رشده وكسرت قلبه كسراً يصعب جبره ، فكيف له أن يسليه الآن ليدرأ عن قلبه الكسير ما لقيه من آلام الخيبة ومرارة الحرمان ..

وكانت مظاهر الطبيعة على جانبي الطريق مما يسر النواظر ويشرح الخواطر ، ولكن نكيتا لم ينتبه الى شيء من ذلك بل أمعن في الخيال وفي صدره ما يمزقه وفي قلبه ما يسيل دماءه .. وقد تمثلت له مرارة الحياة بانفصاله عمن كانت سبب حياته ، فتأوّه وتقطع قلبه . وما زال يسير وهذه حاله حتى التقى جماعة اللصوص والفرسان ، فسار في طليعتهم وتبعوه الى الجهة التي قسمت له ولهم ..

ولم ينسَ الأمير وعده لرئيسة الدير . فلما كان بعد أيام من ذلك التاريخ ارسل باسمها ما بقي لديه من ثروته وكانت أموالاً لا تحصى ، فقبلتها الرئيسة وأضمتها الى مال الدير وكلها ألسنة ناطقة بشكر هذا المحسن الكريم والدعاء له

الفصل الثاني والخمسون

(يوحنا الرابع في أواخر عهده)

وتتابعت السنون بعد ذلك والملك يوحنا الرابع الرهيب على حاله من

الظلم والاستبداد والتنكيل بأشراف رعيته ومشاهير رجاله . وقد تمادى في ضلاله وطغيانه حتى زهقت الارواح وعمت الشكوى ، واشتد تيار المهاجرة وأخذ الروسيون ينزحون مئات والوفاً الى بلاد لفا و بولونيا هرباً من ذلك البلاء الجارف

ولم ينج من غضب الملك من اخصائه الا ماليوتا سكوراتوف وبوريس غودونوف . وكان بوريس قد احتفظ بمنصبه ومكانته في البلاط ، فلم يسقط رأسهُ كما سقطت مئات كثيرة من رؤوس غيره من الاخصاء والنبلاء ورجال الدولة الا لأنه كان بصيراً متروياً داهيةً ، وقد عرف ماليوتا وأدرك قوتهُ من أول الأمر فصادقه وصافاه واقترن بابنته ، فاتقى بذلك شرَّه وأمن جانبه

وكان ماليوتا لم يزل رجل الأهوال والفظائع وصديق الملك وشريكه في الشرور والمفاسد ، الى أن صرع أخيراً وقتل شر قتلة في احدى الحروب التي ثارت بين الروس من جهة والالمان والاسوجيين من جهة اخرى ، ولما نمي هذا الخبر الى الملك يوحنا قامت قيامتهُ وأمر بقتل جميع الاسرى من الأعداء فاحرقوا . .

وخلا الجو لبوريس بعد مصرع ماليوتا فبلغ قمة المعالي وأصبح المستشار الوحيد للملك ومعتمده الخاص . وقد تزوج ثيودور ابن الملك اخته (ايرينا) وكان ثيودور هذا الابن الثاني ليوحنا الرابع ، ثم اصبح وليَّ عهده بعد موت أخيه (كما سيجيء)

ورأى بوريس أخيراً ما آلت اليه أحوال البلاد من الخراب والدمار فنهض لتلافي الأمر ودفع الشر ، وقد توسل لذلك بكل ذريعة الى أن حمل

الملك أخيراً على ملاشاة فرقة رجال الحرس التي كانت الضربة العظمى على البلاد وعلة كل هذا الدمار. وقد انقاد الملك له أيضاً فهجر قرية ألكسندروفا وعاد الى موسكو عاصمة البلاد

غير أن النكبات ظلت متوالية فلم ينقطع سيلها. وقد اشتدت المجاعات وانتشرت الاوبئة فأهلكت الخلق الكثير وأمست البلاد محفوفة من كل جانب بالخطر والاعداء يتهددونها كل يوم بالخراب. وقد اجتاح التتر من الجهة الواحدة الاقاليم الجنوبية وأجلوا السكان من منازلهم وأوطانهم بعد ان نهبوا خيراتهم وساقوا نساءهم سبايا. ودوخ الاسوجيون من الجهة الاخرى الاقليم الشمالية. بينما كان الالتفاويون يشنون الغارات على الاقاليم الغربية ويكتسحونها. وكادت البلاد بذلك كله تصبح قاعاً صفصفاً

وكان يوحنا ولي عهد الملك يوحنا الرابع يشارك أباه في شروره ومظالمه.. وقد رأى انحطاط المملكة وتدهورها فطلب من أبيه أن يرسله بجيش ليحارب الاعداء بنفسه. فأوجس الملك شراً في افكاره وقد رابه طلب ابنه وغلب عليه سوء الظن به، فرأى أنه يدبر مكيدة جديدة ينوي أن يكيدها له ليخلعه عن كرسي الملك ويتولى هو عوضاً عنه.. ولما كان في أحد الأيام وقد تجسم هذا الظن في نفسه ثار غضبه على ابنه وولي عهده فتناول عكازه المشهور وطعنه به في صدره وراح المسكين شهيد جنون أبيه

ويتسن أن بوريس غودونوف كان حاضراً في أثناء مقتل ولي العهد وقد وثب يخلصه فأصيب بجرح خطير كاد يفقده حياته، ولم يتسن له اتمام [illegible] وفي [illegible] كما تسنى ذلك للامير نكيتا في غياض الجاهلية .

وندم الملك على ما فعل ندماً شديداً ولبث ما [illegible] الكنز المطهر

أفكاره وتزعجه الأحلام المخيفة والرؤى الهائلة ، حتى بات عرضة للوساوس فلم يقرّ له قرار ، وقد شعر انه أصبح ملعوناً من السماء والأرض ، فأحبّ أن يتخلى عن شؤون المملكة وأعان عزمه على الانقطاع الى أحد الاديار ، وطلب من أعضاء المجلس الأعلى للمملكة (مجلس الدوما) أن يختاروا ملكاً جديداً . غير أن الأشراف ورجال الدين التمسوا منه أن لا يفعل ،



ينهض لتلافي الامر و... وقد نقلت هذه الصورة عن تمثال أقيم له في موسكو

وما زالوا يلحون عليه حتى رضي ببقائه في كرسي الملك وهو يظهر التوبة والندم . . ولكنه عاد بعد أيام معدودة الى سابق عسفه . . ومن ذلك أنه قضى بالاعدام على الفين وثلاثمئة رجل لأنهم سلموا العدو معقلاً كانوا متحصنين فيه ، مع أن العدو نفسه شهد لهم بحسن الدفاع والبسالة النادرة وأنهم لم يسلموا الا بعد ان نفدت منهم جميع وسائل الدفاع

وخلاصة القول أن البلاد الروسية لم تر دماراً أشد من الدمار الذي انتابها في عهد هذا الملك الظالم العاتي ، وقد انسلخ منها عدة أقاليم استولى عليها الاعداء ، والملك لاهٍ باختراع أصناف العذاب واعداد آلات العقاب والتنكيل برعاياه ، غير عالم كيف يدفع عن البلاد شر الأعداء . وقد أثرت هذه الحوادث فيه تأثيراً شديداً فحنت ظهره وأفقدته كل رشد

وبينما كانت هذه الزوابع تعصف وردت من جهات نهر فولغا بشرى أفعمت القلوب مسرة وهناء وأنست الناس بعض مصائبهم

الفصل الثالث والخمسون

(برماي و برستن)

أن برستن زعيم اللصوص بعد ان شهد المبارزة الشهيرة بين نفيد موروزوف والأمير ثناسي فيازيمسكي اقام في قرية نكسة وفي يوماً آخر ثم غادرها وانطلق الى جهات نهر فولغا ، ولم يكن معه من رفقاه في هذه المرة الا قوماً اشجع

ولم ينس برستن حادث تمه كثيرون له بخصوص الكنز المطمور

بالقرب من قرية (البشارة) . فانه بمجال وصوله الى جهات النهر العظيم قصد الى القرية المذكورة وبحث عنه في حقل « الدائرة » كما أشار كرشون فوجده واذا به أموال كثيرة ، فحملها مع توما وسارا بها الى حيث كان يرماق كبير زعماء القوزاق في تلك الجهات . فاستقبل يرماق صديقه كولتستو (هكذا كان اسم برستن في جهات نهر فولغا) بغاية الترحيب ودعاه ليقيم معه ويشاركه في اعماله

وكان ذلك أشهى ماتمناه برستن . وقد رافق يرماق في جميع غزواته ، وتوما معه لا يفارقه لحظة من الزمن . حتى اذا كان في بعض الايام علم يرماق أن جمهوراً من تتر بلاد سيبيريا قد شنوا الغارة على بعض الاقاليم الروسية المتاخمة لجبال أورال وعاثوا فيها وأفسدوا . فجمع في الحال رجاله وكانوا نحو ثمانمئة وخمسين قوزاقياً . وقد استعان على تجهيزهم بالاسلحة والذخيرة بجمهور من كبار التجار الذين قطنوا تلك الجهات في اوائل عهد الملك يوحنا وكانوا معرضين لكل غزو وويل من جهة التتر ، فقدموا له بسخاء ما كان في حاجة اليه ، وزحف يرماق برجاله بعد ذلك الى بلاد العدو وقد اخترق جبال أورال وهو موطن النسر على الانتقام من التتر وغزوهم

ولما وصل الى الحدود السيبيرية التقى جيشاً من التتر عدته الحراب والسهام ، لان اولئك الاقوام لم يكونوا قد عرفوا الى ذلك العهد الاسلحة النارية ، بخلاف الروسيين فقد كان لديهم كثير من البنادق والمدافع الصغيرة . فلما التحم القتال واخذ رجال يرماق يطلقون بنادقهم ومدافعهم دهش التتر واعتبروا ان القوزاق جاءوا بحروبهم برعود السماء ، فانذلت

قلوبهم وركنوا الى الفرار ، واستولى القوزاق على كل ما كان لديهم من الزاد والذخيرة وجدوا في أثرهم

وكان للتتر في سيبيريا في ذلك العهد ملك يقال له كوتشوم . فلما بلغه خبر ظهور الروسيين في بلاده وانهم كسروا عسكر الحدود خاف خوفاً عظيماً . ولم يبطىء ان استدعى احد قواده وكان من امراء الاسرة المالكة واسمه (مامتكول) وأمره ان يجمع جيشاً جراراً ويسير به لمحاربة الغزاة ، وقام هو فتحصن ومعه جيش آخر في بعض الجبال القريبة من مدينة « سيبير » عاصمة المملكة

وزحف مامتكول بجيشه لمقاتلة الروس . ولما التقاهم دارت بين الجيشين معركة هائلة كان النصر فيها لرجال يرماق ، فانهم قهروا التتر وكسروهم شر كسرة ، وقد قتلوا منهم خلقاً كثيراً وبددوا شملهم ونجا مامتكول ومعه نفر من رجاله . ولم يبق من الروسيين بعد تلك المعركة الا خمسمئة فسار بهم يرماق نحو الجبل الذي كان متحصناً فيه الملك كوتشوم ، وكان مامتكول قد سبقه اليه

وفي اواخر شهر تشرين الاول سنة ١٥٨٢ اشتبك بين الفريقين قتال هائل أجلى عن انتصار يرماق ، ولكنه خسر فيه عدداً كبيراً من رجاله . ولم يخف ذلك على كوتشوم ، فأمر مامتكول فخرج من الحصن وضيق على القوزاق من جميع الجهات . واقتتل الفريقان في قاع من الارض بظاهر العاصمة وكانت العاقبة للروسيين ايضاً فأثخنوا في الاعداء ومزقوهم كل ممزق . وكان توما الشجاع في هذه المعركة قد هجم على مامتكول بهراوته ولم يكن الا [illegible] حتى ضربه [illegible] فصرعه ثم [illegible] رفقته [illegible] يرمق ذليلاً

واذ رأى كوتشوم ما حلّ بجيشه من الهوان أخلى حصونه بأعظم سرعة وأشد خوف وهرب بمن بقي لديه من الرجال ، فتتبعهم رجال يرماق الى مسافة بعيدة ثم عادوا فافتتحوا العاصمة واستولوا على ما كان فيها من الخيرات والحجارة الكريمة والفراء الثمينة

وطار صيت يرماق في سيبيريا كلها وهابه الناس وأقبل عليه امراء التتر وعظماؤهم فهنأوه بانتصاره على كوتشوم وحلفوا له يمين الطاعة وقدموا اليه الهدايا الكثيرة توددا اليه وتزلفاً من رضاه وسألوه ان يحمي ذمارهم

ولم يبق لدى يرماق في ذلك الوقت من القوزاق الا نحو ثلاثمئة رجل فرأى ان يرسل من قبله وفداً الى موسكو لينبئ الملك يوحنا بما تمّ ويهنئه بهذه المملكة الجديدة الواسعة الاطراف ويطلب منه نجدة ، واختار صديقه كولنسو (برستن) ليكون على رأس هذا الوفد . ولم يبطئ برستن ان اختار من بين القوزاق بعض الاشداء وفيهم توما ، وسار بهم يخترق السهول والجبال ، حتى اذا اصبح بالقرب من موسكو أنفذ واحداً من رجاله ليخبر الملك بقدومه ورسالته . فابتهج الملك وقابله بالاحتفال والابهة وتلطف معه في الكلام

وكان برستن قد حمل معه هدية للملك شيئاً كثيراً من الحجارة الكريمة والفراء الجميلة التي اشتهر بعملها اهل سيبيريا من جلود السمور والثعالب . فقبلها الملك بسرور ومد يده الى برستن علامة الرضى فقبلها برستن وقبله الملك في رأسه وأمره ان يروي له اخبار يرماق ورجاله وانتصارهم على تتر سيبيريا ففعل واخذ في حديثه بحماسة واعجاب

وفيما كان برستن يسرد اخباره والملك ورجال الحاشية مقبلون عليه

بأتمّ الاصغاء انتبه الملك كن غفلة فحدّق ببصره الى برستن وقال — يخيل اليّ اني رأيتك يا هذا قبل هذه المرة وسمعت صوتك فمن انت ؟

فجثا كولتسو امام الملك وقال — نعم يا سيدي . فانا برستن زعيم اللصوص ، وقد دخلت مخدعك مع العم كرشون لأسرق مفاتيح السجن وأخلص الامير نكيتا . . وها قد حضرت اليك الان ، فاما ان تصفح لي زلتي او تأمر بضرب عنقي

فقال الملك — حاشا لي ان أعاقبك بعد الذي ظهر منك من هــذه البسالة وهذا الاخلاص ، فانا أعفو عنك وأعدّك من ابطال رجالي

فنهض برستن وعاد فقبل يد الملك ثانية ووقف في مكانه . . وبعد ان فرغ من أخباره أثنى الملك عليهِ وعلى صديقه يرماق وجميع القوزاق الذين اشتركوا في الحملة . وأمر ان يكتب الى يرماق بان الملك قد عينه اميراً لبلاد سيبيريا وفوّض اليــه امرها وافتتاح باقي اقطارها . . ثم أوعز الى بوريس غودونوف ان يقدّم لكل واحد من رجال الوفد حلة جميلة وعدّة كاملة ويرسل الذخائر اللازمة الى يرماق وجيشاً يكون تحت لوائه . وامر لكل من يرماق وبرستن بجائزة سنية وخوذة ملكية وبذلة فاخرة وسيف مرصع ، فتسلمها برستن وودع الملك وخرج شاكراً وهو لا يشعر بالارض تحت قدميه تيهاً واعجاباً

وفي ذلك النهار دعي برستن ورجاله الى مأدبة في منزل بوريس غودونوف ، وفي اثنائها قام بوريس وبرستن فشربا نخب الملك وولي العهد والامير يرماق ، ثم شرب كل منهم نخب الآخر ، وجلسا يأكلان ويتذاكران . فسأل برستن عن صديقه الامير نكيتا ، فاخبره بوريس بان

قد قتل منذ بضعة اعوام في احدى المعارك بعد ان انتصر على العدوّ انتصاراً باهراً زينت له البلاد بأسرها

فنهض برستن وشرب نخب ذكرى صديقه الامير وقال — حقاً ان خسارة الامير نكيتا لهي فادحة جسيمة على الوطن والامة ، اذ بمثله تسعد الاوطان، وبمثله ترتقي الامم الى أعلى مراتب الشهرة وعزّة الشان ، فقد كان عظيماً بنفسه عظيماً بأفعاله

الفصل الرابع والخمسون

« العرش المزعزع »

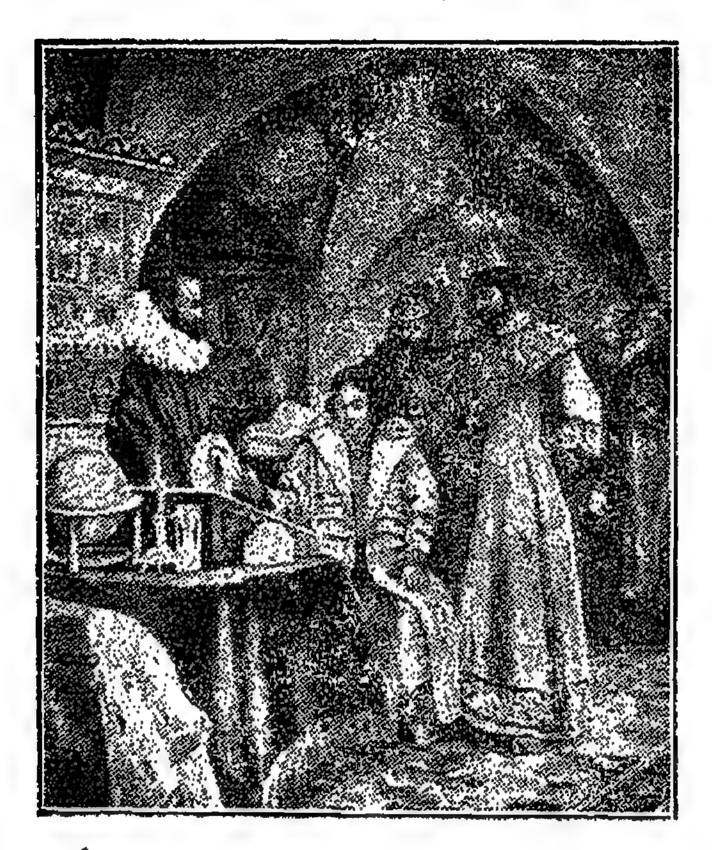
(وفيه تتمة الحديث)

أساء الملك يوحنا الرابع الى رعيته وبلاده منذ مولده الى وفاته والى ما بعد وفاته . وكانت مدته مـدة شقاء وعواصف هوجاء لم تنقض بانقضاء حياته ، وظلت البلاد تعانيها والامة تكتوي بنارها الى ان انقرضت الاسرة المالـكة كلها وظهرت في المملـكة أسرة جديدة ونشأ عهد جديد

وقد توفي يوحنا الرابع سنة ١٥٨٤ وكان قد تزوج خمس مرات ورزق اولاداً ، كان منهم في قيـد الحياة يوم وفاته ابنان وهما ثيودور من زوجته الاولى (الملكة انسطاسيا) وديمتري من الخامسة (الملكة ماريا)

وجلس على سرير الملك بعده ابنه ثيودور وكان ضعيف البنية فاتر الهمة ومن ارباب الورع والصلاح ، فوكل الى اعضاء مجلس الدوما ، وفي

مقدمتهم ختنه (اخو زوجته) بوريس غودونوف ، امر السياسة والاحكام وأطلق ايديهم في العقد والحلّ وانصرف هو الى العبادات والصلوات



تعليم تيودور ابن الملك يوحنا الرابع وقد دخل ابوه عليه يوماً وأحد اساتذة الالماذ واقف الى جانبه يعلمه

ولم يمض على ذلك الا يسير زمن حتى استأثر بوريس بالسلطة وقام وحده بتدبير شؤون البلاد. وقد أظهر حذقاً وبراعة وهمة ، فضرب على ايدي العصابات الكثيرة التي كانت تعيث في اطراف البلاد من كل جهة ، وحارب التتر والاسوجيين وكانت العاقبة في الحربين لروسيا ، ووطد العلائق السياسية بين روسيا وانكلترا والنمسا وبولونيا ، وجعل روسيا بطريركية ارثوذكسية مستقلة بشؤونها الدينية عن بطريركية القسطنطينية وعين لها

صديقه المطران ايوب مطران موسكو بطريركاً ، ووضع نظام استعباد الفلاحين اي تقييدهم بالارض التي يعملون فيها فيباعون ويشترون معها وأطلق للنبلاء الحرية التامة في امرهم فكان للنبيل ان يستبد بمن عنده من الفلاحين استبداداً مطلقاً حتى في امر حياتهم وموتهم

وبلغ بوريس أعلى مقام في المملكة واصبح امره نافذاً في جميع الشؤون ولم يكن لاحد ان يعترضه في شيء . . ولكنه على الرغم من كل هذا لم تطمئن نفسه وكان كثير القلق وعرضة للوساوس

وذلك لان الملك ثيودور كان عقيماً لا اولاد له ، فلم يبق لولاية العهد الا اخوه ديمتري الصغير ، وكان بوريس يكره والدته واهلها اجمعين ، وقد سوّلت له نفسه ان يكون هو الملك بعد ثيودور ، ولا يمكن ان يتم هذا وديمتري حي يرزق . . فعزم على ان يزيل هذه العقبة من طريقه ، وشرع في ذلك على اثر وفاة الملك يوحنا الرابع ، فأوعز الى قوم من اتباعه ان يشيعوا في العاصمة خبر تأهب اهل الملكة ماريا لاغتصاب العرش للطفل ديمتري وأنهم متواطئون على ابعاد ثيودور الاخ الاكبر وصاحب الحق في الملك . . . وصدّق اعضاء مجلس الدوما هذه الاشاعة الكاذبة ، فقضوا في الحال بنفي الامير الصغير ووالدته وكل من كان يمت اليهما بنسب او قرابة الى مكان بعيد عن العاصمة ، فأبعدوا الى مدينة أوغليش ، وحظر بوريس على رجال الدين ذكر اسم وليّ العهد في الكنائس بحجة انه من الزوجة الخامسة ليوحنا الرابع فهو اذاً غير شرعي

وظن بوريس انه قضى بذلك على آمال حزب ديمتري . . ولكن الامر لم يكن كما توقع ، لان الامة بأسرها كانت تعترف بديمتري انه ولي العهد

حقاً وأنه ابن شرعي للملك المتوفى ، وكانت تعلق عليه آمالها بعد ان ينقضي عهد ثيودور الضعيف .. فرأى ان يعمل لمصلحة نفسه بحزم اشد ومن طريق أخصر وأسد

وقد رأى ان ديمتري اذا ترك واصبح ملكاً بعد اخيه فانه لا يلبث ان يقضي على مطامعه وقد ينفيه او يأمر باعدامه، ورأى ان الفرصة سانحة الان ما دام ثيودور حياً وديمتري لا يزال طفلاً ، فصمم واخذ يدس على قتله ،



مقتل دمترى وى ا د

ثم أنفذ نفراً من رجاله فانطلقوا الى مدينة اوغليش ، وتربّصوا لوليّ العهد مدة الى ان ظفروا به ذات يوم وهو يتنزه منفرداً في حديقة منزله ، فهجموا عليه وذبحوه (وكان في التاسعة من عمره) ولاذوا بالفرار ، غير ان اهل المدينة قبضوا عليهم وقتلوهم أشنع قتلة ، وكانوا قد اعترفوا قبل موتهم انهم انما فعلوا ما فعلوه بايعاز بوريس غودونوف نفسه . .

غير ان بوريس أشاع الخبر في العاصمة على غير وجهه ، وقال ان وليّ العهد انما انتحر بيده تخلصاً من داء عياء كان ينتابه حيناً بعد آخر وتشتدّ وطأته عليه فيضل ولا يعي . . وأوفد في الحال بعض النبلاء ورجال الدين من اعوانه الى مدينة اوغليش للفحص عن هذا الامر ، فعادوا بعد ايام وهم يؤيدون ما ذهب اليه بوريس ، ورُفع التقرير بذلك الى الملك . .

ولم يكتف بوريس بما تم بل نهض للانتقام من « القتلة » وهو يريد بذلك أن ينفي التهمة عن نفسه ويظهر للامة براءته من دم ولي العهد الطفل وشدة غضبه لمقتله . . وقد أنزل أشد البلاء بالملكة ماريا وذويها وبسكان مدينة أوغليش جميعاً لانهم أغفلوا الامر وتهاونوا في العناية بولي عهد ملكهم والمحافظة على حياته العزيزة . فقضى على الملكة بالترهب فأبعدت الى أقصى الاديار ، وعلى أهلها وذويها بالتعذيب والتغريب ، وعلى نحو مئتين من أعيان المدينة بالاعدام ، وعلى غيرهم بالسجن والاشغال الشاقة ، وعلى السكان وكانوا بضعة آلاف بالنفي الى سيبيريا . . . واقفرت المدينة على أثر ذلك فلم يبق فيها ديار ولا نافخ نار . . .

غير ان الامة لم تنخدع بهذه المظاهر وقد تأكد لها ان العمل هو عمل بوريس لا سواه ، فنفرت منه وكرهته وأخذت تعزو اليه كل كارثة

الصفحة مفقودة
Missing Page

الصفحة مفقودة
Missing Page

ولما برئ غريغوري من مرضه اخذ الامير واهل بيته ونبلاء لتفا يظهرون له الاكرام اللائق بأبناء الملوك . وعلم بذلك سيجزموند ملك بولونيا ولتفا ، فاستدعى في الحال ولي العهد المزعوم ورحب به وعين له مرتباً كبيراً ونفراً من الحاشية . وكان رجال الدين في بولونيا يلحون على الملك بالانتصار لهذا « البرنس » الفتى واعادته الى عرشه المغتصب

ورأى سيجزموند ان في الانتصار له خدمة لنفسه ونشراً لنفوذ دولته في الارجاء الروسية ، فعهد بالامر الى « منيشك » احد قواده ، وكان « ديمتري الكاذب » قد أحب ابنته « مارينا » وعاهدها على الاقتران بها لتكون مليكة البلاد

وحشد منيشك جيشاً اكثره من المتطوعين من بولونيا ولتفا ، وقد انضم اليه جمهور كبير من الروسيين والقوزاق ، وسار هذا الجيش وفي طليعته ديمتري الكاذب سنة ١٦٠٤ حتى دخل تخوم المملكة الروسية ، واخذت المدن تخضع له واحدة بعد

ديمتري الكاذب

اخرى وينضم اليه المتطوعون افواجاً لاعتقادهم ان ديمتري هذا هو صاحب الحق في العرش . وكان الملك بوريس قد أرسل جيشاً لمحاربة الاعداء ، فظهر عليه ديمتري الكاذب وبدد شمله وسار ظافراً جهة موسكو

في اواخر شهر نيسان سنة ١٦٠٥ توفي الملك بوريس غودونوف فجأة وخلفه في العرش ابنه تيودور فارسل قائداً مشهوراً بإخلاصه له ولوالده

وكان من أسرة باسمانوف ليتولى قيادة الجيش الروسي ويطرد الدعي من البلاد . فلما وصل باسمانوف الى الجيش ورأى تخاذله أعلن صدق دعوى ديمتري ودخل في خدمته وأصبح من اشد المتصرين له . . وقبل ان يصل ديمتري الى موسكو أوفد رسلاً من قبله الى الملكة ماريا والدة ديمتري الحقيقي (وارملة الملك يوحنا الرابع) لتأتي وتعترف به ففعلت . .

وفي تضاعيف ذلك كان الاشراف المعادون للملك فيدور قد أثاروا الشعب ضده وأسقطوا البطريرك ايوب ، ثم قتلوا الملك ووالدته ، وبذلك مهدوا السبيل لديمتري الكاذب فدخل موسكو في اوائل آب سنة ١٦٠٥ باحتفال باهر وجلس على العرش الروسي ودان له الجميع

وأخذ ديمتري يتزلف الى زعماء الشعب ورجال الدين ، وقد أعاد من كان منفياً منهم في عهد بوريس غودونوف . غير انه لم يلبث ان ظهر في عاداته واعماله ما كان منافياً لعادات ملوك الروس وتقاليدهم ، وخصوصاً ما كان متعلقاً منها بالدين الارثوذكسي وطقوسه . وظهر في هذا الوقت في احدى المدن الروسية أعداء لهذا الكاذب كانوا يصرحون بكذبه ونفاقه ، فاضطرب الشعب وعقدت المؤامرات ضده ، وكان اكثر الجميع انتقاداً عليه النبيل فاسيلي شويسكي وهو من الاشراف الذين كان الشعب يحترمهم ويأتمر بأمرهم

وبعد سنة من جلوس ديمتري الكاذب على العرش الروسي جاءت عروسه مارينا منيشك ومعها ابوها وجيش من البولونيين يبلغ الالفين من الجنود . وقد أقام هؤلاء في موسكو واخذوا يعبثون فساداً فيها ويضطهدون الشعب . فاغتنم النبيل فاسيلي شويسكي كل ذلك وقام يهيج

الرأي العام ضدّ الكاذب . وقد انحاز اليه جميع النبلاء والزعماء . وفي اواخر شهر ايار سنة ١٦٠٦ هجم الاهلون على البولونيين وعلى القصر ، فقتلوا الدعيّ أفظع قتلة ونكلوا بجنوده ، ونادوا بالنبيل فاسيلي شويسكي ملكاً عليهم

***

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحدّ . فقد ظهر في اول عهد الملك فاسيلي المذكور دعيٌّ آخر ادّعى بانه الملك ديمتري نفسه وانه لم يقتل في موسكو كما اشاعوا بل قتل رجل آخر شبيه به ، واما هو فهرب الى بلاد لتفا وعاد الان يطالب بحقه الشرعي . وقد التفّ عليه اقوام من البولونيين والقوزاق والروسيين من طبقات شتى ، وزحف بهذا الجيش الى موسكو وخيم في قرية « توشينو » على مسافة نحو اثني عشر كيلو متراً من العاصمة . وجيء اليه الى هنا بمارينا منيشك زوجة ديمتري الاول الكاذب فاعترفت به واصبحت زوجته .

وأقام ديمتري الثاني الكاذب في قرية توشينو مدة ونادت به البلاد المجاورة ملكاً عليها . فأصبح في روسيا ملكان احدهما فاسيلي شويسكي في موسكو ، والآخر ديمتري الكاذب في توشينو . وقد عنت له الاقاليم الروسية تماماً ونفذت كلمته في اكثر الجهات . وكانت تلك المدة اشد هولاً واكثر اضطراباً من كل زمان في التاريخ الروسي

ولما رأى الملك فاسيلي استفحال الامر وعجزه عن تحرير البلاد وجه الى كارلوس التاسع ملك اسوج يستغيث به ويسأله النصرة على الاعداء .

فأمدّه كارلوس بجيش انضم الى الجيش الروسي ، وضرب الجيشان جموع ديمتري الثاني الكاذب وبددا شملها (سنة ١٦١٠) وهام ديمتري على وجهه غير ان سيجزموند ملك بولونيا انتصر له وزحف بجيشه الى التخوم الروسية

وتضاربت الآراء في موسكو وتفرقت كلمة النبلاء واستطال امر المنازعات والمشاحنات بين الزعماء زمناً طويلاً . وقد اتفق الجميع على خلع الملك فاسيلي لانه لا يصلح للحكم فخلعوه واضطروه الى الترهب . وطلب معظم النبلاء على اثر ذلك تولية فلاديسلاف ابن ملك بولونيا . وطلب غيرهم تمليك الفتى ميخائيل ابن المطران فيلاريت رومانوف . واختار حزب الشعب النبيل فاسيلي غوليتسين وأجمع القوزاق على اعادة ديمتري الثاني الكاذب الى العرش ، ولما توفي هذا (وكان قد قتله احد التتر في اواخر شهر كانون الاول سنة ١٦١٠) قاموا يعضدون ابنه ايفان . .

وانتهز النبلاء اشتغال الاحزاب بعضها ببعض فاستدعوا الى موسكو جيشاً بولونياً وسألوا الملك سيجزموند ان يرسل ابنه فلاديسلاف ليجلس على سرير الملك . فاجابهم سيجزموند بان ابنه لا يزال صغير السن ، وانه هو الاب لا يتأخر عن الحضور بنفسه لتسلم زمام الاحكام

واخذ البولونيون من ذلك الحين يحتشدون في موسكو وينتشر نفوذهم فيها وفي ما جاورها من الاقاليم حتى اصبحوا اصحاب الامر والنهي وقد استطالوا على الناس البغي والجور وذاقت البلاد في عهدهم من البلاء أمرّه ومن الفتك اشده

ورأى رجال الدين وزعماء الشعب في الاقاليم ما صارت اليه الحالة فحشدوا جيشاً وطنياً لانقاذ العاصمة من الاعداء وقد انضم اليه القوزاق .

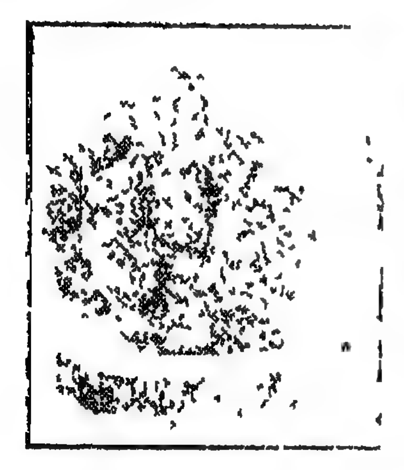
وفي اواسط شهر شباط سنة ١٦١١ كان هذا الجيش مخيماً حول موسكو . ورأى البولونيون الخطر محدقاً بهم فأضرموا النار في المدينة واعتصموا بحصونها ، فاحترقت المدينة وكان حريقها بشهادة بعض المؤرخين اشد من حريقها سنة ١٨١٢ يوم كان الفرنسويون فيها . . ونشبت بين البولونيين والروسيين معارك كثيرة جرت الدماء فيها انهاراً

غير ان الجيش الوطني لم يلبث ان وقع النفور بين زعمائه ، فقام القوزاق وقتلوا قائد الجيش وكثيرين من انصاره وعادوا الى المناداة بابن ديمتري الثاني الكاذب وانبثوا في كل وجه يقتلون وينهبون حتى لم يبقوا ولم يذروا . وكانت الفوضى تنتشر انتشاراً هائلاً في جميع البلاد . وظهر دعي آخر في مدينة بسكوف دعا نفسه البرنس ديمتري . واختارت بعض الاقاليم الشمالية اخا ملك اسوج ملكاً عليها . وانتشرت عصابات اللصوص والتتر والقوزاق في طول البلاد وعرضها . وتبدد الجيش الوطني في كل جهة . ودخلت اقاليم كثيرة في حوزة الاسوجيين والبولونيين . . ولو لم يفق الشعب مرة أخرى وينهض نهضة الرجل الواحد للجهاد والدفاع لاضمحلت الدولة الروسية والتهمها الاعداء برمتها

وكان الفضل الاعظم لهذه النهضة الوطنية الجديدة لدير القديس سرجيوس المشهور بدير الثالوث الاقدس وهو على بعد نحو ستين كيلو متراً من موسكو . وكان محصناً بالاسوار العالية والابراج المنيعة . . ومن هذا الدير خرجت الدعوة للجهاد الديني وللدفاع عن الوطن الى كل جهة من جهات البلاد ، وكان لها تأثير عظيم في الشعب ، فاحتشدت الجماهير من كل حدب ، وقادها رجلان احدهما من عامة الشعب يقال له مينين والآخر من

المضطلعين بقيادة الجيوش يدعى الامير بوجارسكي وكانا على اعظم جانب من الحماسة الوطنية . فنظما الجموع وجمعا الاموال ثم زحفا الى العاصمة . وكان القوزاق قد عادوا فانضموا الى الجيش الزاحف

والتحم القتال بين الروسيين والبولونيين خارج المدينة وكانت الغلبة للروسيين فقهروا الاعداء وكسروهم ثم ضربوا الحصار على المدينـة شهرين كاملين الى ان افتتحوها عنوة في اوائل شهر تشرين الثاني سنـة ١٦١٢ واستولوا عليها . . وكان الملك سيجزموند البولوني زاحفاً وقتئذ ليرفع الحصار عن موسكو ، فالتقى شراذم البولونيين الهاربين وعاد على اعقابه الى بولونيا



تاج قياصرة الروس في اوائل عهدهم

ولما هدأت الاحوال عقدت في موسكو الجمعيـة العمومية وفيها نحو سبعمئة نائب من جميع المدن والاقاليم وفيهم الامرآء والنبـلاء ورجال الدين وزعماء الشعب ، واختاروا الفتى ميخائيل رومانوف قيصراً للبلاد ، وكان سليل أسرة من النبلاء العظام وبه ابتدأت دولة رومانوف ، وقد نودي به في اوائل شهر آذار سنة ١٦١٣

وتداول العرش الروسي من آل رومانوف عشرون من القياصرة وكانت مدتهم ثلاثمئة سنة ونيفاً وأشهرهم :

بطرس الاكبر (١٦٨٢ — ١٧٢٥) المصلح العظيم

وكاترينا الثانيـة (١٧٦٢ — ١٧٩٦) وهي أشهر ملكات العالم على الاطلاق

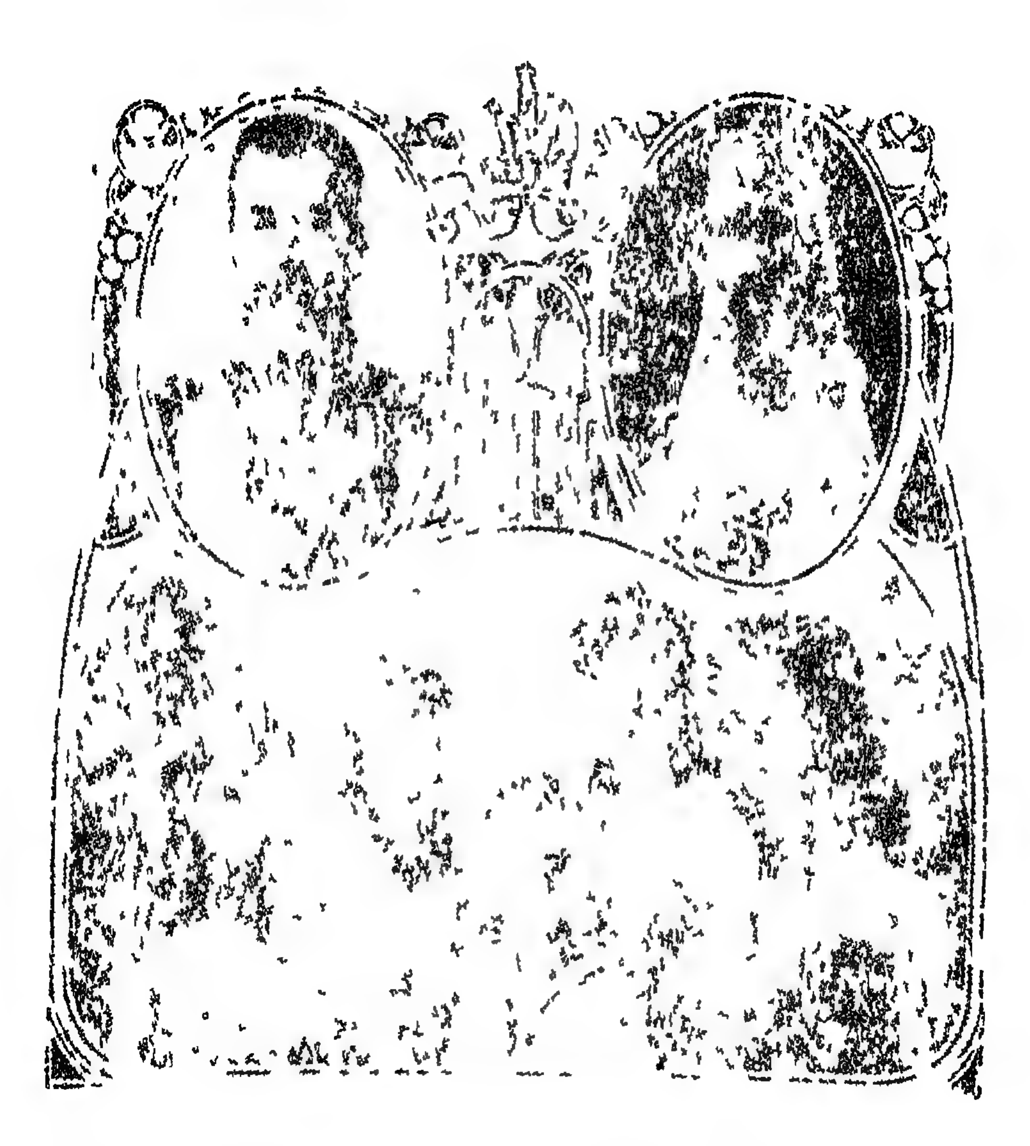
واسكندر الاول (١٨٠١ – ١٨٢٥) قاهر نابوليون بونابرت ومحرر روسيا واوربا من ربقته

ونقولا الاول (١٨٢٥ – ١٨٥٥) اعظم أبطال الحروب والفتوح من القياصرة

واسكندر الثاني (١٨٥٥ – ١٨٨١) مُحرّر الفلاحين في روسيا

واسكندر الثالث (١٨٨١ – ١٨٩٤) حافظ السلام في روسيا والعالم أجمع

ونقولا الثاني (١٨٩٤ – ١٩١٨) آخر قيصرة الروس من اسرة رومانوف . وفي عهده احتفلت روسيا بيوبيل الثلاثمئة سنة لهذه الاسرة ، وكان عيداً عظيماً لم ترَ البلاد أفخم منه . . وقد قتل نقولا الثاني هذا في ١٧ تموز سنة ١٩١٨ في اواخر الحرب الكونية ، قتله البلاشفة على اثر الثورة العظيمة التي انفجرت في روسيا سنة ١٩١٧ وكان من نتيجتها ان البلاشفة خلعوا الامبراطور ثم اعتقلوه مع اعضاء اسرته (زوجته واولاده الخمسة) ثم قتلوهم جميعاً أفظع قتلة . وبذلك قضوا على الاسرة المالكة وعلى الحكم القيصري وحولوا [illegible] شيوعية



قيصر ق_لا الثاني وزوجته القيصرة الــ سندرا واولادهم الخمسة وقد قتل اللائمة هذه
لاسرة وقضوا معاً على الحكم القيصري في روسيا

فهرس

صفحة